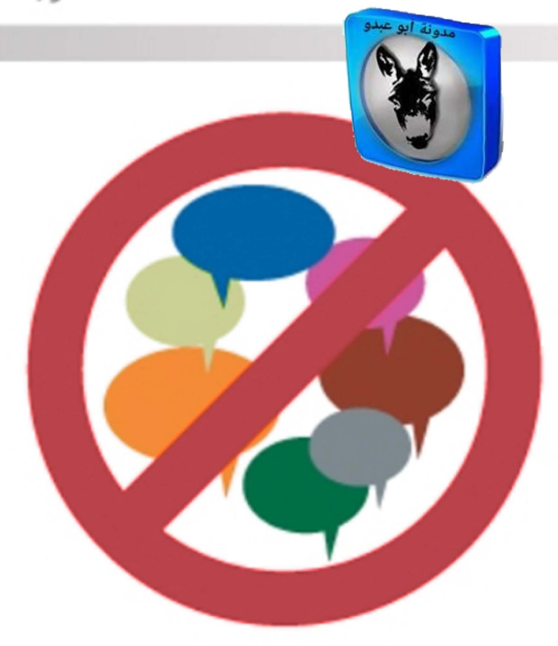
ترجمان

أبراهام ملتسر

صنع معاداة السامية

أو تحريم نقد إسرائيل

ترجمة: سميّة خضر



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

صنع معاداة السامية

أو تحريم نقد إسرائيل

هذه السلسلة

في سياق الرسالة الفكرية التي يضطلع بها "المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات"، وفي إطار نشاطه العلمي والبحثي، تُعنى "سلسلة ترجمان" بتعريف قادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية العربية إلى الإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، من طريق الترجمة الأمينة الموثوقة المأذونة، للأعمال والمؤلفات الأجنبية الجديدة أو ذات القيمة المتجددة في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية عامة، وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والثقافية بصورة خاصة.

وتستأنس "سلسلة ترجمان" وتسترشد بآراء نخبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمال الجديرة بالترجمة، ومناقشة الإشكالات التي يواجهها الدارسون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب كالافتقار إلى النتاج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، وشيوع الترجمات المشوَّهة أو المتدنية المستوى.

وتسعى هذه السلسلة، من خلال الترجمة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى المساهمة في تعزيز برامج "المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات" الرامية إلى إذكاء روح البحث والاستقصاء والنقد، وتطوير الأدوات والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة.

صنع معاداة السامية

أو تحريم نقد إسرائيل

أبراهام ملتسر

ترجمة
سميَة خضر

مراجعة
رشيد بوطيب

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies



الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

ملتسر، أبراهام

صنع معاداة السامية، أو، تحريم نقد إسرائيل/ أبراهام ملتسر؛ ترجمة سمية خضر؛ مراجعة رشيد بوطيب.

359 ص.: 24 سم. - (سلسلة ترجمان)

يشتمل على ببليوغرافية (ص. 341-343) وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-460-2

1. معاداة السامية. 2. الصهيونية. 3. العنصرية. 4. اليهود - أحوال اجتماعية - ألمانيا. 5. اليمين واليسار (سياسة) - ألمانيا. 6. إسرائيل - السياسة والحكومة 1993-. أ. خضر، سمية. ب. بوطيب، رشيد. ج. العنوان. د. السلسلة.

305.8924043

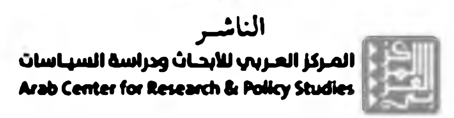
هذه ترجمة مأذون بها حصريًا من الناشر لكتاب

Die Antisemitenmacher:
Wie die neue Rechte Kritik an der Politik Israels verhindert

by Abraham Melzer

عن دار النشر
Westend Verlag GmbH

الناشر



شارع الطرفة - منطقة 70
وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، قطر
هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 1991839 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

الطبعة الأولى
بيروت، نيسان/ أبريل 2022

المحتويات

تصدير المؤلف للطبعة العربية

أودّ أن أعبّر بدايةً عن عميق سروري بنقل كتابي إلى اللغة العربية وانتشاره في العالم العربي. لقد كتبت هذا الكتاب لأنني شعرت بالاستياء والإحباط مما يقوم به اللوبي الإسرائيلي من استغلال لمسألة الهولوكوست والاتهامات بمعاداة السامية في الصراع السياسي بين إسرائيل وجيرانها.

إن معاداةَ السامية عنصريةٌ خالصة، حتى عندما يريد من يطلَق عليهم صفة "الخبراء"، الموالين لإسرائيل، إقناعنا كلنا بأنها "نوع خاص" من العنصرية، وتحديدًا عندما يتعلق الأمر باليهود. لكن لنعلم أن كراهية اليهود ليست أسوأ أو أفضل من كراهية الآخرين الملونين أو الغجر أو المثليين أو العرب. والحال أن ما يربط بين هذه الأشكال هو حقيقة أنه لا يمكن أيًا من هؤلاء الناس الخروج من جلده. وكما أن الأفريقي لا يمكنه الانسلاخ عن جلده أو تغييره، فقل الأمر نفسه أيضًا عن اليهودي أو المثليّ أو "الغجري".

لقد توجهت في هذا الكتاب إلى الجمهور الألماني وبرهنتُ له أن الانشغال الدائم بمسائل معاداة السامية، والادعاء السخيف والزائف أن نقد السياسة الإسرائيلية هو عداءٌ للسامية، قضايا تجسّد هستيريا خالصة، بيد أنها تُستخدم تحديدًا من جانب اللوبي الإسرائيلي في الخطاب في سياق الصراع في الشرق الأوسط. وبالفعل، فإن الـ "هاسبارا" (Hasbara) الإسرائيلية (الاسم الذي يُطلق على وزارة الدعاية هناك) تستخدم هذا السلاح منذ أن أجاب سفيرٌ إسرائيليٌّ في واشنطن عن سؤال أحد الصحافيين الإسرائيليين عن أعظم ما

أنجزه لإسرائيل فأجاب: "يتمثل أعظم إنجاز في أنني تمكنتُ من إقناع الإدارة الأميركية بأن معاداة الصهيونية هي نفسها معاداة السامية".

منذ ذلك الحين، لا يمضي يومٌ في ألمانيا إلا ويُتطرَّق إلى معاداة السامية ويكتب عنها كثير ممن يُفترض أنهم خبراء، بيد أنهم في الحقيقة لا يحيطون بالفهم الكافي بشأن هذه الموضوعة. بل أبعد من ذلك، وهنا نذكر مثالًا، قد تفرد لنا أكبر الصحف اليومية الألمانية، بيلد، صفحة كاملةً لقضية كراهية اليهود، فتتحفنا بـ 115 مثالًا عن معاداة السامية اليومية، كل يوم من 1 كانون الثاني/يناير 2019 إلى 28 آذار/مارس 2019، وتقدِّم أمثلة من قبيل ما حدث في منطقة فلزنبرغ (Felsenberg) في 7 شباط/فبراير بشأن رسم صليب معقوف [الرمز النازي] على أبواب الحمامات، أو ما حدث في الثامن من الشهر نفسه في مدينة فولدابروك (Fuldabrück) حينما وُجد أيضًا صليب معقوف على أكشاك بيع الماء. لقد احتلت بالفعل أنماط كهذه من الكتابة على الجدران - والتي قام بها بالتأكيد شبان هائجون - صفحة كاملة من الصحيفة، والأهم أنها تقدِّم دليلًا على كراهية اليهود في ألمانيا.

لقد غدت اتهامات كهذه في كراهية اليهود في السنوات الأخيرة تُلصق بالمسلمين من الذين لجأوا من الشرق الأوسط - كسورية مثلًا - إلى ألمانيا، كما لو أن هذا البلد بحاجة إلى استيراد معاداة السامية. وهذه الحقيقة تثير الاستياء بالنسبة إليّ، لأنني أعرف كيف تسامَح العالم العربي، وعلى مدى العصور - من شمال أفريقيا حتى البلقان وفي الشرق الأوسط ومصر - مع اليهود وكيف كانوا يحترمونهم، هذا فضلًا عن استقباله في القرن الخامس عشر اليهود الذين فروا من إسبانيا. لذلك، فإنني أعتبر الأمر يجسِّد الزيف والجحود بعينه في إلصاق تهمة معاداة السامية "الحديثة" بالعالم العربي.

أرجو أن يتسع صدر القارئ العربي لقراءة كتابي، وكلي أمل أن يستخلص الدروس الصحيحة منه.

أبراهام ملتسر

1

كيف أصبحت يهوديًا في ألمانيا

كان والداي من الناجين في حقبة حكم الرايخ الثالث في ألمانيا. لكن، لم تكن نجاتهما من النازيين لأنهما أقاما في أحد معسكرات الاعتقال النازية، بل على عكس كثيرين من أبناء جيلهما الذين كانوا يعامَلون كعبيد للنازيين هناك، عاشا في الاتحاد السوفياتي حرَّين، بصرف النظر عن المدى الذي يمكن الحديث به عن الحرية هناك. وصحيح أن حياتهما في هذا البلد اتسمت بالفقر والتعاسة، حيث لم يكن يُرسل إليهما شيء مما يمكن أن يقتاتا به، بيد أنه في المقابل لم يوجد من يرغب في حرقهما أو تسميمهما بالغاز. لقد عملا وتسوَّلا وتدبرا أمر معيشتهما، حتى بطرائق غير جيدة أحيانًا. فذات مرة، مثلًا، قصد والدي أحد المشافي في سمرقند بسبب إصابته بحرارة عالية نتيجة الملاريا؛ وتمكَّن إذاك من إقناع طبيبٍ يهودي هناك بمعالجته، ولم تكن موافقة الطبيب على ذلك إلا بسبب قناعته أن والدي سيموت بلا شك في الأيام اللاحقة. أخبره والدي ردًّا على هذه القناعة: "إنك على حق يا دكتور، ولكن أفضِّلُ الموت على أحد أسرّة المشفى".

ولم يمت والدي. كما رفض طلبَ الطبيب اليهودي إخلاء السرير حين تحسنت حالته، مبررًا ذلك بأن حالته تتحسن في المستشفى ولا يفكر في مغادرتها؛ وهو ما استلزم مساومةً ما مع الطبيب: أن يتلقى والدي كل يوم نصف قطعة خبز على مدى شهر، وذلك للبقاء في قيد الحياة. وفي أيِّ حال، التزم الطبيب هذا الاتفاق، رغم أن سلوك والدي لم يكن سوى ابتزاز.

أما أنا فقد ولدت في سمرقند، تلك المدينة المعروفة من حكايا ألف ليلة وليلة، والتي تقع على طريق الحرير في آسيا الوسطى، والمعروفة اليوم باسم جمهورية أوزبكستان. حينذاك كان "اتحاد الجمهوريات الاشتراكية

السوفياتية" الكبير لا يزال قائمًا، وكان الرفيق القائد العام جوزف ستالين، الملقب بـ"شمس الشعب"، مسيطرًا وحاكمًا على نحو مطلق. يمكن أن يسهب المرء في الحديث عن ستالين: فهو بلا شك دكتاتور ومرتكب مجازر وكاره للبشرية، إلا أن الحق يقال، إنه أنقذ حياة كثيرين من اليهود؛ فهو لم يسمح بالقتل الممنهج كما الحال عند هتلر، حتى لو سمح بموت مئات الآلاف في معسكرات الغولاغ[1].

في الحديث عن مكونات الشعب في سمرقند، فإن الأوزبكيين هم في أغلبيتهم من المسلمين السنة ويتكلمون اللغة الأوزبكية، بيد أن اللغة العربية كانت أيضًا شائعة ومألوفة لديهم. وقد أطلق عليَّ والداي اسم أبراهام، تيمنًا بالجد الأكبر الذي رحل منذ زمن بعيد. إلا أن جيراننا الأوزبكيين كانوا ينادونني بإبراهيم، وهو الأمر الذي شكَّل لديَّ أول معرفة لاواعية بالعالم الإسلامي. وبحسب ما كان والداي يخبرانني، لم يكن الناس أعداء لنا، ولا معادين للسامية، بل كانوا بسطاء وفقراء ويتملكهم الخوف من النظام الحاكم هناك، ونظروا إلينا على أننا لاجئون بسطاء كذلك ومساكين، ولهذا كانوا يمنحون أمي، من وقت إلى آخر، الأرز والحليب والخبز لابنها الصغير إبراهيم.

أذكر، في إحدى الوقائع عن أجواء الفقر هذه، أن أبي قد تعقَّب كلبًا يحمل في فمه قطعة خبزٍ كبيرة وتمكَّن من انتزاعها منه، ثم أحضرها إلى البيت مفتخرًا بنفسه، وحضّرت والدتي الحساء منها، كل ذلك لأجلي. ولهذا كبرت دون أن أعي البؤس الذي يحيط بي، أما والداي فكانا سعيدين بأنني في قيد الحياة وبصحة جيدة.

حينما بلغتُ بالكاد السنتين في عام 1947 قررت "الوكالة اليهودية"، التي كانت بمنزلة الحكومة المؤقتة في فلسطين قبل التأسيس الرسمي لدولة إسرائيل، إحضار اليهود إلى الغرب ثم أخيرًا إلى إسرائيل؛ وهؤلاء اليهود كانوا قد هربوا من الحكم النازي إلى الاتحاد السوفياتي حيث أقاموا خلف

---

(1) غولاغ (Gulag): اسم أطلق على معسكرات الاعتقال السوفياتية. (المترجمة)

الستار الحديد[2]. كان هذا العمل بإحضار اليهود يتم بسرية ويسمى بالعبرية "Habricha" (أي اللجوء) وقد نظَّمه آشر بن ناتان (1921-2014) الذي سيصبح لاحقًا أول سفير لإسرائيل لدى جمهورية ألمانيا الاتحادية. وفي الطريق إلى أوروبا مررنا بكثير من المدن المدمرة، من بينها مدينة فروتسواف، تلك المدينة التي ولدت فيها زوجتي وكانت قد دُمرت تدميرًا كاملًا تقريبًا في الحرب. وفي الواقع، حينما أفكر في صور هذه المدينة المدمرة، التي حالفني الحظ أن أراها مرةً أخرى لاحقًا، تنتابني فكرة أن فروتسواف لم تكن تُمثّل بقعة جغرافية ثابتة بل مكانًا ممتدًا في كل الأصقاع: مكانًا يجري فيه قصف البشر وقتلهم، ويجبَر الناس على مغادرة قراهم وبيوتهم. فكرة كهذه تقودني إلى التفكير في أن فروتسواف يمكن أن تكون غزة وكل القرى التي أُجبِر ساكنوها على الرحيل، هذا فضلًا عن تفكيري كذلك في إسرائيل، دولتي، التي تزعم إلى اليوم أن الفلسطينيين رحلوا عن مدنهم "طوعًا". بالتأكيد يحوي التاريخ البشري كثيرًا من قصص الشعوب التي هُجِّرت من بلادها، إلا أن تاريخنا المأساوي لا يمنحنا الحق ولا لدولة إسرائيل بمصادرة الأراضي وتدمير المنازل واقتلاع أشجار الزيتون التي زرعتها أجيال عديدة ورعتها، وذلك من أجل إيجاد موطنٍ ليهود العالم فحسب. ومن يفعل ذلك فإنه يستهزئ بالمحرقة، ذلك أن العكس هو الصحيح. أقولُ هذا الكلام باعتباري ابن عائلة لاجئة، فأنا في نهاية الأمر كنت لاجئًا أيضًا.

في ولاية شتايرمارك في النمسا كان علينا الانتظار وتحمُّل عناء البقاء في مخيمات "للنازحين"، إلى حين غدت فلسطين في أيدٍ يهودية وإلى أن تُقرر الوكالة اليهودية أمور الهجرة. أقمنا مدة سنة تقريبًا في مخيم في أدمونت، وهو مكان ليس بعيدًا من مدينة غراتس، وفي هذا المكان ولد أخي تسيفي سيمون. وقد عمل أبي في إدارة المخيم وكان مسؤولًا عن الجريدة الأسبوعية التي كانت

---

(2) تعبير "الستار الحديد" هنا يشير إلى سياسة العزلة التي انتهجها الاتحاد السوفياتي السابق بعد الحرب العالمية الثانية، إذ أقام حواجز صارمة عزلت البلاد ودول أوروبا الشرقية عن بقية العالم. (المترجمة)

تصدر باللغة اليديشية اليهودية[3]: *Admonter Hajnt*[4]. بالطبع لا يمكنني في هذه الأثناء تذكُّر كل أمر، إلا أن ذاكرتي بدأت مع مغادرتنا المخيم باتجاه فلسطين، على أمل أن تتغير البلاد إلى حين وصولنا إلى إسرائيل. أبحرنا على ظهر سفينة متهالكة عبر مدينة تريستي إلى الشواطئ الفلسطينية، حيث مدخل ميناء حيفا. كان ذلك في 10 و11 أيار/مايو 1948. وقد وجب علينا الانتظار لمدة ثلاثة أو أربعة أيام خارج الميناء لحين مرور الأسطول الإنكليزي المزدحم بالجنود البريطانيين التابعين للملك جورج السادس الذين غادروا "منطقة الانتداب" بعد حكم دام 28 عامًا.

الوصول إلى إسرائيل

لقد تأسست الدولة اليهودية، وكنتُ في تلك الأثناء مع عائلتي على متن السفينة الأولى التي سُمح لها بالدخول إلى ميناء حيفا الذي غدا الآن "يهوديًا". بالطبع، لم أكن أعلم حينذاك أن هذا الميناء كان ميناءً عربيًا فلسطينيًا. وقد خصصت لنا الحكومة منزلًا لنقيم فيه وكان، بالطبع أيضًا، عربيًا وفي منطقة كانت في السابق عربيةً بالكامل. حينما دخلنا المنزل، بعد تهجير أهله العرب على يد القوات الإسرائيلية، وجدنا هناك الطاولة التي تركتها العائلة المالكة على عجل بسبب فرارها، وعليها الطعام الذي لم يؤكل موضوعًا. وقد استفدنا من كل ما احتواه منزلهم من أدوات، حيث إننا لم نكن نملك أيَّ شيء، ففي نهاية الأمر نحن لاجئون، وقد فقدنا كلّ شيء. كان والداي يعبّران عن ضيقهما عندما يفكران في مصير هؤلاء اللاجئين العرب.

لم أُعر هذا الأمر اهتمامًا حينذاك بسبب صغر سني. دخلت المدرسة الابتدائية التي كانت في السابق أيضًا مدرسة عربية، بيد أن ما من أحد أخبرنا

(3) لغة يهود أوروبا، ويعود عمرها إلى ألف سنة، وتختلط فيها لغات مختلفة منها الأرامية والألمانية والإيطالية والفرنسية والعبرية ولغات أوروبا الشرقية. يتحدثها ما يقارب ثلاثة ملايين شخص في العالم، أغلبهم من اليهود الأشكناز. (المترجمة)

(4) تختص الجريدة تحديدًا بموضوع الناجين من الهولوكوست، واسمها الكامل:
Admonter Heute - Zweiwochenzeitschrift herausgegeben vom UNRRA-Lager Admond.

بهذا، لأن الحديث به كان من المحرمات التي يُمنع التكلم بها، وكأن العرب لم يكونوا هنا البتة. وقد بقي في حيفا وجودٌ لعرب فلسطينيين يقيمون فيها، لم يرحلوا عنها لأسباب أجهلها. فربما لم يتمكنوا من الوصول إلى سفينة تقلهم إلى لبنان أو غزة، أو لعلهم لم يرغبوا في الرحيل عن وطنهم. أو ربما بقوا هناك بسبب رفض أحد الضباط المساعدين، لاعتبارات أخلاقية، أوامر الجيش الإسرائيلي المتشكل حديثًا والتابع لبن غوريون، بالتطهير العرقي؟ في أيّ حال، كانت تصدر أوامر كهذه.

في بعض الأحيان كنا نهزأ بالأطفال العرب حين نراهم، ويجب أن أعترف بأننا للأسف كنا نحمل لهم الاحتقار والكراهية. كنا نغني أغنية بالعبرية "Arawi saken, masriach we misken" (عربي قديم، نتنٌ، يرثى له). ونلاحظ أن هذه الجملة في بنائها اللغوي الأصلي مُقفّاة، وفي أيّ حال، لم أكن أعي معناها. لقد تعلّمنا في المدارس أن هؤلاء الناس أعداؤنا، لذا يجب علينا احتقارهم وكرههم، على الرغم من أنهم لم يقوموا بأيّ عمل يسيء إلينا. من هنا كان يتملكنا الخوف من ارتياد المناطق التي يقطنها العرب. إلا أنه يمكن أن يخطئ أحدٌ من العرب طريقه فيقصد المنطقة "اليهودية" ويدخلها بهدف شراء الفواكه والخضر، أو ربما كانت تتملكه الرغبة في أن يلقي نظرة فحسب على منزله الذي كان يسكنه قبل طرده منه.

في 2 حزيران/يونيو 1948 كتب أول رئيس وزراء لإسرائيل دافيد بن غوريون إلى رئيس بلدية حيفا اليهودي آبا حوشي (Abba Chushi) رسالةً تتعلق بالقنصل البريطاني في حيفا في ذلك الوقت سيريل ماريوت (Cyril Marriott) مفادها: "أسمع أن السيد ماريوت يهتم بإعادة العرب إلى حيفا، لا أعرف كيف يبدو هذا الأمر عند السيد ماريوت، ولكننا لسنا مهتمين بإعادة العدو إلى حين انتهاء الحرب. وعلى المؤسسات كافةً أن تعمل بموجب ذلك". بعد نهاية الحرب أصبحت هذه العودة أمرًا غير مرغوبٍ فيه إلى حدٍّ بعيد، حتى لا يتمكن أحدٌ من المهجّرين من استرداد منزله. والحال أن قيام دولة إسرائيل قد أزال فلسطين ومحا أثرها. وبكل شفافية، كتب بن غوريون في عام 1948 إلى ابنه رسالة يقول فيها: "قريبًا لن نكون قادرين على مواجهة العالم".

انتقلنا بعد سنواتٍ قليلة إلى منطقة أفضل وكانت يهودية بأكملها، وهنا لم يكن بمقدور أيِّ فلسطيني أن يخطئ طريقه ويقترب منها، وفي الحقيقة لم يحصل هذا البتة. لقد كانت المنطقة إحدى ضواحي حيفا التي يسودها اللون "الأبيض" تمامًا، حتى اليهود السفارديون [السفارديم] لم يضلوا طريقهم ويدخلوا هذه المنطقة؛ هؤلاء السفارديون الذين ينحدرون من دول عربية وكانوا بالنسبة إلينا يبدون مثل العرب. إنهم لم يقربوا منطقتنا ليس بسبب أنه لا يوجد من يبحثون عنهم في منطقتنا، سواء أكانوا أقاربَ أم معارفَ يسكنون هنا؛ بل في الحقيقة لأن المنطقة كانت تمثِّل مجتمعًا نخبويًّا، خالص اليهودية، يشبه الغيتو.

لم أعِ أنني يهودي وأنا في إسرائيل؛ فما وعيته هو أنني كنت إسرائيليًّا. وأكثر من ذلك دُهشت بعد سنوات عدة حينما استلمت الهوية الشخصية الإسرائيلية واكتشفتُ تسجيلي على أنني أحمل الجنسية "اليهودية". وفي الحقيقة، اكتشفت لاحقًا بعد استلام جواز السفر أنه يجري في إسرائيل التفريق بين الجنسية (Nationalität) والمواطَنة (Staatsbürgerschaft). أما المواطنة لديَّ فكانت إسرائيلية، في حين أن جنسيتي كانت يهودية. وعلى الرغم من أن أبي لم يكن متدينًا، بل اشتراكيًّا، فإننا تعرفنا إلى الأعياد اليهودية، أما زيارة الكنيس اليهودي وطقوسه فقد بقيت غريبةً عنا. وكان عيد الفصح هو المحبب لديَّ، خصوصًا اليوم الأول عند الاحتفال بـ "السدر" (Seder)[5]. وكان ما تقوم به والدتي من التحضيرات اللازمة له كل سنة من أعذب الأشياء بالنسبة إليَّ، وإلى يومنا هذا أشعر بروعة طعم طبق كنايدلاخ (Kneidlach)، وهو عبارة عن كرات من العجين توضع ضمن نوع من الحساء مع مكونات أخرى. وعمومًا، فقد نشأت وترعرعت شخصًا حرًّا ليست لديه عقدة نقص وكنت فخورًا بأنني إسرائيلي وفخور بكل الأشياء المرتبطة بإسرائيل.

(5) كثير من العائلات اليهودية تحتفل في مساء عيد الفصح بأمسية سدر، فتقرأ معًا قصة خروج شعب إسرائيل من مصر، ويكون هذا مصحوبًا بالغناء والصلاة والأكل.

في المدرسة الصهيونية

كانت صفوفنا المدرسية مختلطة، نتعلم فيها سويةً ذكورًا وإناثًا، ويُسمح لنا بالتنفيس عن طاقاتنا ضمن منظمات شبابية شبه عسكرية كان تعدادها كبيرًا؛ حيث إن كل حزب من الأحزاب الكثيرة في إسرائيل امتلك تنظيمه الشبابي الخاص الذي يؤثر سياسيًا في مسيرة هذه الأحزاب. كنت عضوًا في إحدى الحركات الشبابية الاشتراكية الصهيونية التي تسمى بالعبرية "Hamachanot Haolim" [معسكرات المهاجرين] والتي كانت تسعى لبناء مجتمع عادل ومتساوٍ في الحقوق وترغب في العيش بسلام مع جيرانها. أسست هذه الحركة في عام 1926[6]. وفي الواقع، كانت المدرسة صارمة من جهة، ومن جهة أخرى تقدّم لنا حياةً مليئة بالمغامرات كما في مغامرات توم سوير، ولم ينقصنا إلا مشاهد نهر الميسيسيبي. وهذا يذكّرني بلقائي أحدَ الجنود الأميركيين الإنجيليين السود، الذي قدم إلى إسرائيل في بداية عام 1950 مفعمًا برغبة الذهاب إلى نهر الأردن، ولم يكن يعرف أنه نهر صغير جدًا حتى إن عرضه لا يزيد عن 5 – 10 أمتار ولا يجري فيه سوى القليل من الماء. أُصيب الرجل بخيبة أمل وكانت الدهشة تعلو وجهه حينما وقف على الشاطئ، ذلك أنه نشأ وترعرع على ضفاف الميسيسيبي واعتقد باعتباره مسيحيًا أن نهر الأردن يجب أن يكون أعظم وأقوى بكثير من نهر الميسيسيبي[7]؛ لقد انتابنا الضحك بسبب هذا.

التحقتُ بالمدرسة الابتدائية في ضاحية من ضواحي حيفا، وحظيت بمنحة لمتابعة الدراسة في مدرسة ثانوية بعد أن اجتزت الامتحانات النهائية. إلا أنني لم أتمكن من الحصول على هذا الاستحقاق بسبب قرار والدي العودةَ إلى ألمانيا، التي عاش فيها إلى عام 1933. القرار هذا كان صادمًا لأمي: فقد فقدت عائلتها كلها في معسكر أوشفيتز النازي، الأخوات الخمس والأخ، مع والديها

---

(6) تُعدّ هذه الحركة أول تجمُّع شبابي تأسَّس في إسرائيل، وصُقل بالفلسفة الصهيونية والاجتماعية. (المترجمة)

(7) طبعًا هذا بسبب ما لنهر الأردن من أهمية دينية في الكتاب المقدس، خاصة بشأن معمودية يسوع التي ذُكرت في الإنجيل عندما قام يوحنا المعمدان بتعميد المسيح في نهر الأردن. (المترجمة)

وجديها، فضلًا عن العمات والأعمام وأبنائهم، لا بل تقريبًا كل أقربائها. ومن هنا رغبت في البقاء في إسرائيل، بيد أن قرار والدي كان حاسمًا ولا يمكن العدول عنه، فهو يود العودة إلى الأدب الألماني والكتب الألمانية واللغة الألمانية، على الرغم من أن لغته العبرية كانت أفضل بكثير من لغة والدتي. ويمكنني إلى الآن تذكُر تلك الأحاديث المسائية التي كانت تجري بينهما بسبب هذا. والحال أن كل تلك النقاشات لم تساعد في العدول عن القرار. لقد حزمنا أمتعتنا كلها في صندوق كبير وشُحنت إلى ألمانيا، [أي] إلى كولونيا.

في الحقيقة، ما اكتشفته لاحقًا، أن والدي ما كان يشعر بالراحة قط في إسرائيل، وهذا ما استنتجته من قراءتي مذكراته التي كتبها بواسطة الآلة الكاتبة إيريكا (Erika-Schreibmaschine). فكل ما في إسرائيل ذكَّره بالفترة قبيل سيطرة النازيين على الحكم: من مظاهر حدة صعود القومية، إلى الرايات الكثيرة المنتشرة، إلى الطاعة العمياء وانتشار بروباغندا أن العالم كله يكره اليهود. من هنا، استنكر أبي مشاركتي في تلك الحركة الشبابية شبه العسكرية، حيث كان يهمس أحيانًا: "شبيبة هتلر أيضًا لا يختلفون عنها". لهذا كان من الطبيعي مغادرة إسرائيل مباشرة حينما سنحت له الفرصة.

من إسرائيلي إلى يهودي في ألمانيا

كنت أبلغ الثالثة عشرة من العمر حينذاك واعتبرت هذه الرحلة إلى ألمانيا أشبه بمغامرة: من عبور البحر المتوسط والوصول إلى جنوة، ثم ركوب القطار عبر جبال الألب، ثم الاستراحة القصيرة في سويسرا وإقامتنا لدى أقاربنا في بازل وأخيرًا الوصول إلى كولونيا. منذ وصولي إلى كولونيا الألمانية والتحاقي بالمدرسة هناك، أصبحت فجأة يهوديًا وما عدت إسرائيليًا، من دون أن تتملكني الرغبة في أن أعي ذلك. فجأة بدأت أعيش حياة أخرى، وقُدِّمت في الصف الجديد في المدرسة على أنني أبراهام القادم من إسرائيل، إلا أنني في الحقيقة كنت أشعر بأنني أبراهام اليهودي.

هنا أذكر في هذه البداية ما حدث معي. ما إن دخلت الصف وجلست

وكانت حينئذ حصة التاريخ، حتى سألني الأستاذ: "نحن نتحدث عن حرب الثلاثين عامًا يا أبراهام، هل يمكنك إخباري كم استمرت"؟

كان جوابي: "من عام 1618 إلى عام 1648". صُدم الأستاذ شرودر - هذا كان اسمه - من إجابتي، ولم أفهم بعدها ما تلعثم فيه. ومنذ تلك الحادثة وهو يتعامل معي بحذر شديد على عكس الطلاب الآخرين، كما أنه لم يجرؤ على صفعي البتة. بالنسبة إليَّ كانت عقوبة الصفع غريبة ورهيبة لأنني لم أعرف عقوبة كهذه في إسرائيل. لقد ضبط هذا الأستاذ مرةً أحد الطلاب وقد ارتكب خطأ ما وسأله بطريقة فظة: "هل أصبت من قبل بالتهاب الأذن الوسطى؟"، فأجاب الطالب: "لا". لكن قبل أن يغلق الطالب فمه تلقّى صفعة قوية. سُمعَ صوت الصفعة بقوة، وغدا لون خد الطالب أحمر مثل راية الاتحاد السوفياتي، وترقرقت الدموع في عينيه، لكن لم يكن أحد يجرؤ على البكاء في هذه الأجواء.

شعرت منذ البداية بأنني جسمٌ غريب في هذا الصف؛ فأنا اليهودي الوحيد في ذلك الصف الذي كان منقسمًا دينيًّا بين الكاثوليك والبروتستانت. وكان كلما زاد وعيي بأنني اليهودي الوحيد غدوت يهوديًّا أكثر. لقد كنت أشارك في الحصص الدراسية الدينية، مرة مع الطلاب الكاثوليك ومرة أخرى مع الطلاب البروتستانت. وقد حدث مرة أنني كنت أشارك في حصة مع الطلاب الكاثوليك عندما أتاني أحد زملائي من صف البروتستانت فجأة وسألني أن آتي إلى ذاك الصف بناءً على طلب الأستاذ. واتضح لي أنهم لم يتمكنوا من الإجابة عن مسألة في الكتاب المقدس، حتى الأستاذ نفسه؛ وكان هذا الطلب جراء السمعة التي لصقت بي بأنني ملم جيد بالعهد القديم.

كنت أمضي أوقات بعد الظهر في تجمُّع خاص باليهود في شارع رون شتراسه أم راتناوبلاتس (Roonstraße am Rathenauplatz). وقد كنت من الأوائل الذين شهدوا حادثة الكتابات المسيئة على الجدران الخارجية لمعبد يهودي هناك، رُمِّم ودُشّن مؤخرًا في عام 1959. وأظن أنها كانت أول مرة أرى فيها الصليب المعقوف [شعار النازية]. وكان هذا التجمع اليهودي، المكوّن بأغلبيته

من اليهود العائدين مرة أخرى من إسرائيل، يولي الاهتمام لرعاية الشبان الذين وجدوا أنفسهم فجأة وقد غدوا غير إسرائيليين، ولكنهم أيضًا ليسوا ألمانيين، بل أشخاص يهود فحسب في ألمانيا. أُطلِق علينا في إسرائيل نحن الذين نهاجر منها اسم الخارجين (Jordim)، أما من وفدوا من جديد إلى إسرائيل فأطلِق عليهم اسم الداخلين (Olim). وفي إطار العناية والاهتمام بنا، وظّف المجمع اليهودي أحد الطلاب الإسرائيليين وكان من المحاربين القدماء في الجيش، لمساعدتنا في كل ما نحتاج إليه، كما كان يلقننا دروسًا في الصهيونية.

لقد سافرنا مرة إلى معسكر اعتقال برغن-بلزن (Bergen-Belsen) وذلك لإحياء احتفالية تذكارية، وقد عنت لي عاطفيًا الشيء الكثير. وأمضينا أوقات عطلة الفصح والصيف والميلاد في إحدى المنشآت اليهودية في منطقة باد زوبرنهايم بالقرب من فمباخ في مناطق الغابة السوداء، أو فيها نفسها، وهناك تعرفنا إلى شبان [وشابات] يهود آخرين قادمين من مناطق أخرى من ألمانيا، كما التقيت كذلك فتاةً يهودية قادمة من فرانكفورت ووقعتِ في حبها. كانت فمباخ مقصدنا للسفر دائمًا في الشتاء وهناك حاولت عبثًا تعلُّم التزلج. وسافرنا ذات مرة مع الشباب الصهيونيين إلى سويسرا وأمضينا وقتًا في إحدى القرى القريبة من مدينة زوريخ. كانت أحاديثنا تدور دومًا حول إسرائيل وحق اليهود في العيش هناك، وحول العرب المتعطشين إلى سفك الدماء والذين يحاولون من دون مبرر حرمان اليهود من حقهم هذا. حينذاك كان العالم بسيطًا ومنقسمًا بين الخير والشر، وجرى تلقيننا أننا نحن الأخيار.

من خلال هذه المحادثات كان يمكن المرء تلمُّس ومعرفة من أيِّ العائلات ينحدر هؤلاء الشبان: أمِنَ العائلات التي نجت من معسكرات الموت في أوشفيتز أو في برغن-بلزن، أم من العائلات التي نجت في المنفى من الهولوكست؟ كان هناك بعض الشبان [والشابات] بيننا ممن نجا أهلهم من تلك المعسكرات إلا أنهم أمضوا كل فترة صباهم في ظل الهولوكوست، ولم يتجرأوا على الحديث عن معاناتهم الخاصة لأن من السخف مقارنة معاناتهم بما لاقاه أهلهم من الأسى. وكيف يمكن مقارنة حزنهم بالحزن على كثير من

الذين قضوا نحبهم من معارف وأقارب، خاصة مع أفراد عائلات صعدوا إلى السماء مع دخان المحارق؟

بالنسبة إليَّ لم أترعرع وأنشأ في ظل الهولوكوست لذلك كنت مختلفًا. وبالنسبة إلى أهلي فهم لم يشهدوا المحارق أو يَخبَروها إلا أنهم عرفوها على الأغلب من قصص الناجين الذي كانوا يفضّلون الصمت على أن يتكلموا على تلك القصص. وإلى اليوم تسكن المحرقة قلوب كثير من هؤلاء الذين في عمر الشباب. وعندما أفكر في صديقي هنريك برودر (Henryk M. Broder) فإنني أشعر بالأسف حياله، ذلك أن ذكرى المحرقة لم تفارقه قط. أما أنا فكنت أحمل ذاكرة عن طفولة سعيدة عندما كنت في إسرائيل وربما يقال عني أيضًا أنني كنت طفلًا مشاكسًا.

وعلى عكس الآخرين، فإن ثقل المحرقة بالنسبة إلى برودر وأمثاله كان شاخصًا دائمًا أمام أعينهم. ففي كل فرصة ملائمة أو غير ملائمة كان يتذكرون أن ملايين الأطفال اليهود فقدوا القدرة على اللعب والمرح.

كان أقصى ما أتمناه هو إتقان اللغة الألمانية، وقد عانيت في سبيل تحقيق هذا الهدف المنشود، وأشعر اليوم بالامتنان لوالدي الذي ساعدني على تحسينها بشكل دائم. فبعد سنوات عدة كنت قادرًا على التكلم والكتابة بالألمانية على نحو جيد إلى حدٍّ ما. لقد صاحبني بهدوء في محاولاتي الغضة للكتابة، وكان يتساءل عندما يقرأ نصًا جيدًا: "من كتب هذا النص؟"، وما كان ذلك إلا إشارةً إلى أن نَصّي كان جيدًا. وهنا أتذكر أمرًا مما حصل معي، حينما أودعت بطاقة بريدية في صندوق البريد وكانت موجهةً من والدي إلى أحد معارفه في هامبورغ يعلِمه فيها بزيارته له، وقرأت ما جاء فيها وأنا في الطريق. فكنت فخورًا بأنني استطعت فهم الرسالة رغم أنه لم يمضِ علينا وقتٌ طويل في ألمانيا، وأخبرتُ بعض المعارف بذلك، لكنني لم أكن أدري أن والدي لم يرغب في أن يعلم هؤلاء الأشخاص بالذات عن رحلته تلك. وكانت النتيجة غضب والدي الشديدِ الذي أوقعني في حيرة لأنني توقّعت أن يكون فخورًا بي لأنني تمكنت من تعلُّم اللغة بسرعة.

ما استرعى انتباهي بسرعة في أثناء نقاشاتي مع [فئة] الشباب اليهود الآخرين هو مدى تأثُّر حياتهم بالهولوكوست ومعسكرات الاعتقال والإعدام النازية، أكثر بكثير مني. ربما يعود هذا السبب إلى أن والديَّ لم يعرفا ذلك العالم ولم يكونا مجبرين على كتمان أمرٍ ما عني. لقد أخبرني والدي بالتفصيل عن حادثة ترحيله إلى روسيا، أما والدتي فلم يكن لديها ما لا ترغب في الحديث عنه. لقد قُتل إخوتها في معتقل أوشفيتز، إلا أنها ذاتها لا تستطيع الحديث عن هذا المعتقل، لأنها ببساطة لم تكن هناك. وعمومًا لم تكن والدتي تحب ألمانيا ولا الألمان. لكن هذا لم يكن في البيت موضوعًا ذا أهمية. لقد كنا نتطلع إلى الأمام بكثير من الأمل والفضول وليس إلى الوراء والعيش في الحزن والسخط.

فترة التدريب المهني في دار للنشر والخدمة العسكرية في إسرائيل

أنهيت دراستي الثانوية في مدينة كولونيا وبدأت بعدها تدريبًا مهنيًا لدى دار نشر مختصة بالأدب، هي دار فرنر (Werner) في مدينة دوسلدورف. ولم يكن هناك ما يستهويني أكثر من الكتب وما تحويه، وهو الأمر الذي أعمل به الآن. وبين الحين والآخر كانت تتاح لي فرصة المشاركة في تصميم أغلفة بعض الكتب التخصصية. وكنت أفاخر أحيانًا بقبول بعض هذه الأغلفة وطباعتها لاحقًا. وفي فترة التدريب نفسها أسست بالتعاون مع كريستيان فون تسيتفيتس، الذي كان هو الآخر متدربًا هناك، مجلة بوخ ماركت (*Buchmarkt*) [سوق الكتاب]، التي موّلها المدير التنفيذي لدار نشر فرنر، ومنذ ذلك الوقت بقي كريستيان هناك وصار يمتلك المجلة حاليًا.

بعد أن أنهيت فترة التدريب في دوسلدورف، انتقلت إلى فرانكفورت وعملت هناك سنةً كاملةً تقريبًا في مكتبة جامعية تدعى بلاتسك وبرغمان (Blazek & Bergmann) في شارع غوته. إلى جانب هذا، كنت قد أصدرت بالتعاون مع هنريك برودر في كولونيا ولاحقًا في دوسلدورف مجلةً يهوديةً عنوانها كونتاكته (*Kontakte*).

في صيف عام 1967 اندلعت حرب الأيام الستة بين إسرائيل وجيرانها العرب، وانتهت بهزيمة ساحقة للدول العربية، وحينذاك كنت أبلغ الثانية والعشرين من العمر. منذ ذلك الحين شكَّل الاحتلال الإسرائيلي للقدس الشرقية والضفة الغربية ومرتفعات الجولان وقطاع غزة أساسًا للصراع الشرق الأوسطي الذي لا يزال بلا حل إلى يومنا هذا.

بعد ذلك انتقلت إلى العمل من مكتبة لبيع الكتب إلى دار نشر كانت تُصدِرُ وقتذاك مجلةً أدبيةً ساخرةً اسمها باردون (*Pardon*). وأنسب معرفتي الحالية بإنتاج الكتب الجميلة إلى ما تعلمته سابقًا في مطبعة شتروكن (Strroucken). وقد مُنحتُ بفضل ذلك جائزة "أجمل كتاب ألماني" عن اثنين من الكتب التي قمتُ بتصميمها. وعلى الرغم من مضي عشر سنوات على عيشي في ألمانيا، فإن الجيش الإسرائيلي لم ينسَني، لا بل لم تكن لديه الرغبة في ذلك. فمنذ بلوغي الثامنة عشرة وأنا أتلقى بانتظام رسائل من إسرائيل تطالبني بالتسجيل لدى الجيش للتجنيد. وذات مرة وصلتني رسالة تهديد بأنه سوف يجري تصنيفي هاربًا من الجندية إن لم تكن لدي نية العودة على الفور، وهذا يعني بأنه قد لا يُسمح لي بالسفر إلى إسرائيل مرة أخرى.

كنت أرغب في تجنب هذا الموقف لأنني كنت أحب إسرائيل حينذاك وكنت بحاجة إلى تعزيز ثقتي بنفسي من خلالها، وذلك لأتمكن من إعداد حياتي للعيش في "الشتات" (Diaspora) هنا في ألمانيا. لم يكن لدي شعور في ألمانيا بعدم الراحة، إلا أنني كنت أفتقد الحرية التي تحسستها وأنا في إسرائيل، وكنت أظن أن بإمكاني فيها فحسب العيش لمدة سنة كاملة أشحذ بها نفسي. وهكذا كنت أسافر مرة في السنة باستخدام جواز سفر ألماني إلى إسرائيل لأتنشق هواء "الحرية" ثم أعود لأمضي سنة أخرى في ألمانيا. أما اليوم، فإن كثيرًا من الإسرائيليين يفعلون عكس هذا.

سافرت إلى إسرائيل وسجَّلت اسمي لدى الجيش، وكان من واجبي المثول أمام محكمة عسكرية فيها ملازم شاب لا يكبرني سنًا. إنني أضحك اليوم عندما أستذكر هذا الأمر، فقد كان عبارة عن مهزلة. أخبرني هذا الشاب

بدايةً بأن هناك متخلفين آخرين مثلي إلا أنهم لم يأتوا إلى هذه اللحظة، وما دمت قد حضرت إلى هنا فإنه سوف يوجّه الحديث إليّ. طرح أسئلة شخصية بلغت حد سؤالي إذا ما كنت متزوجًا أم لديَّ صديقة. أجبته أن لديَّ صديقة في ألمانيا، ثم سأل: "هل هي يهودية؟"، فكان جوابي: "لا"، فكانت ردة فعله المباشرة "ليس هذا بالأمر الجيد". ثم أردف: "لا يهمّ، فبالتأكيد ستلتقي فتاةً جديدة يهودية هنا في الجيش. إن جيشنا مشهور بأنه أكبر سوق للزواج في هذه البلاد". وكان عليَّ لمدة ساعتين أن أحدثه عن كل شؤون حياتي في المهجر؛ وكل الحديث لم تكن له صلة بالمحكمة العسكرية. ثم سأل: "ماذا أفعل بك الآن؟ عليّ أن أحاكمك. هل أنت موافق على الخدمة في الجيش لمدة نصف عام ثم نتركه على نحو مشرف؟" سألته: "وماذا إن لم أوافق؟" أجاب: "لا شيء، إلا أنني يجب أن أطلق حكمًا عليك". وبالنتيجة خدمت لمدة نصف عام في هذا الجيش الذي يُفترض أنه من أكثر الجيوش أخلاقية في العالم، وكنت أراقب الفوضى [الأخلاقية] أو كنت حتى أشارك فيها.

منذ اللحظة الأولى لدخولي الجيش بدأت العد العكسي توقًا إلى اليوم الذي أعيد فيه ما تسلَّمته من زي رسمي وأسلحة. وبالفعل سافرت عائدًا إلى ألمانيا مباشرة بعد يوم واحد فقط من نهاية خدمتي. كنت قد تدربت خلال هذه الخدمة، ولمدة نصف عام، على الإسعافات الميدانية. ولحسن الحظ كنت أحمل وثيقة التدريب معي حينما سافرت، حيث استرعى انتباه المسؤولين في مطار فرانكفورت العدد الكبير من الوخزات الواضحة في كلا ساعديَّ. ففي تدريبات كهذه كنا نُقسَّم إلى مجموعتين، على كل مجموعة أن تتدرب على أجساد المجموعة الأخرى. وتشمل هذه التدريبات عددًا لانهائيًا من الإبر، وحتى عمليات نقل الدم التي من عادة الطبيب فحسب القيام بها، كنا نقوم بها أيضًا. وحدث مرةً أن أخفق أحد الضباط في شك الإبرة، فاندفع الدم إلى وجهه كالنافورة، فقال بهدوء وروية: "ليس هناك من مشكلة، هذه الأمور تحدث في البداية ويحتاج المرء إلى مرتين حتى يتعلم". ومع نهاية الدورة التدريبية وفي أثناء كلمة التخرج كنا قد تحدثنا إلى رئيس طاقم الإسعاف حين جاء إلينا، نخبره بأننا غير متأكدين من قدرتنا بعد هذه الأسابيع الأربعة على الإسعاف في

حالة الطوارئ الحرجة، إلا أنه أجاب: "ليس هناك من مشكلة، فربما يموت أول شخص بين أيديكم وربما يموت الثاني، ولكن مع الشخص الثالث ستتعلمون كيفية التعامل مع هذه الأمور". لقد كانت تلك آخر مرة أسمع فيها جملة: "ليس هناك من مشكلة". قفلتُ راجعًا إلى منزلي، بيد أن بعضًا من زملائي كان عليهم الالتحاق بالحرب. وبالفعل صدَقت تلك الكلمات لرئيس طاقم الإسعاف؛ فقد مات في الحقيقة كثير من الجنود الجرحى بين أيديهم.

في خضم مشاكل عام 1968

عند عودتي إلى فرانكفورت، كان ثمة حالة تمرد في دار النشر ملتسر (Melzer Verlag) التي تعود إلى والدي، حيث ترك مدير الدار يورغ شرودر وأيضًا المحرر ذو التوجه اليساري فولف العمل في الدار. حتى المتدرب والسكرتيرة وأيضًا الناشر لم يكلفوا أنفسهم عناء الاستقالة على نحو نظامي والتزام مهلة انتهاء مدة العقد النظامية. والحال تلك، فقد سادت في تلك الأوقات "الحركة المناهضة للسلطوية". كانت دار النشر إذّاك في بناء مستوٍ منخفض الارتفاع مع مستودع واسع، في جناحٍ جانبيٍ لبناء معهد هاوسمان للطباعة الحجرية (Litho-Anstalt Haußmann). كانَ شرودر مع بقية زملائه يعملون في هذا المستودع، الذي كان استأجره كمستأجر ثانٍ [أي من مستأجر أصلي]، تحديدًا من المستشار الضريبي لدار النشر الذي اعتقد بأنه يسدي خدمة لوالدي الذي لم يكن موجودًا حينذاك لبضعة أيام، إذا ما خفّض التكاليف الثابتة. وبالطبع هكذا يفكر المحاسبون.

كانت دار النشر تصفر بالأشباح عندما وصلت إليها في آذار/ مارس 1969، حيث انتقل جميع الموظفين إلى المستودع وكانت الغرف في الطابق العلوي خاليةً تمامًا. واكتشفت عند نزولي إلى المستودع أن كل ما هو موجود - من طاولات وكراسي ومواد كتابة ومصنفات المشاريع - كانت تعود إلى دار ملتسر. وردًا على سؤالي لشرودر إذا كان حصوله على هذا المستودع نظاميًا ولمن يعود، دفع فولف قلم رصاص بازدراء في اتجاهي وأجاب بأنه يعود إلى والدي، فصُدمتُ إذاك ودُهشت، من دون أن أنطق بكلمة، ومن دون أن تتملكني الخبرة إزاء ذلك. لم أكن أدري ماذا عليَّ فعله. ثم أرسل والدي

لاحقًا إلى المستشار الضريبي الساذج والعديم الخبرة لتوضيح الموقف. إلا أن الأمر برمته انتهى بدفع شرودر مبلغ خمسين ألف مارك ألماني، وأسس هو في هذه الأثناء دار نشر خاصة به أطلق عليها اسم مارتس (MÄRZ). بَيدَ أنني عرفت لاحقًا بأن الضرر الحقيقي يقدَّر بمئات الآلاف من الماركات الألمانية.

لقد عمل شرودر لدى دار ملتسر منذ عام 1965، وقام في ذلك الوقت بتطوير وتوسيع برنامج للكتّاب الألمان الشبان أمثال ديتر هولسمانس (Dieter Hülsmanns)، وباتسون بروك (Bazon Brock)، وبيتر خوتييفيتس (Peter Chotjewitz)، وأيضًا لكتّاب أميركيين أمثال جاك كرواك (Jack Kerouac) (صاحب رواية **على الطريق** (*On the Road*)). كما نشر كتابًا لفيكتور كلمبرر (Victor Klemperer) بعنوان **لغة الرايخ الثالث** (*Lingua Terteii Imperii*) الذي تناول فيه لغة الرايخ الثالث [اللغة الاشتراكية حينذاك] ونشر أيضًا نصوصًا سياسية لفيدل كاسترو وتشي غيفارا. لم يكن والدي يقف إلى جانب هذا النمط من المنشورات، لأن نصوصًا كهذه وكتّابًا جددًا كهؤلاء لم يكونوا من قائمة اهتماماته. انفرد شرودر بدار النشر وحده، وكان أعظم نجاح حققه من خلال ترجمة رواية **تاريخ أو.** (*Die Geschichte der O.*) التي بيع منها أكثر من 100.000 نسخة [للفرنسية آن ديكلو]. إلا أنه خلَّف الكثير من الفوضى والدمار عندما ترك دار النشر على نحو مفاجئ.

كانت الأيام الأولى بعد عودتي إلى دار النشر مثيرة وهائجة. ولأسباب ما زلت أجهلها رفض بنك الاقتصاد التشاركي (BfG) إلغاء قرضنا المالي وبالتالي تركنا لمدة سنة كاملة ونحن في تخبُّط. بالطبع كان هذا أمرًا طبيعيًا، ولا بد من أن يحصل، فقد كانت دار النشر في نهايتها ولا سيَّما أن شرودر كان قد استولى على حقوق نشر عناوين دار نشر أولمبيا برس (Olympia Press)، وهي دار أميركية مختصة بالأدب الإباحي. وللمناسبة، كان هذا النمط من الأدب يتلاءم مع تلك المرحلة. وقد حصل شرودر إذاك على حقوق النشر الألمانية لدار نشر ملتسر، ثم قام على نحو غير قانوني بنقل العقد إلى نفسه حينما فُصلت الداران عن بعضهما. وكان ترخيص دار أولمبيا برس قد حقق وقتذاك مبيعات تقدَّر بالملايين، فضلًا عن المبيعات التي وصلت إلى أعداد هائلة بفضل أفضل مبيع

لرواية قصة أو. لكن للأسف، أنفق هذا المال بالسرعة نفسها التي كسبها به، لا بل خلَّف وراءه عند مغادرته دار نشر ملتسر تقريبًا ديونًا تقدَّر بنصف مليون مارك ألماني.

وحينما سمح لنا بنك الاقتصاد التشاركي، حاولت إنقاذ دار النشر هذه. إلا أنني قلبت برنامج الدار رأسًا على عقب؛ فقد نشرت كتبًا تصويرية وكتبًا عن المخدرات مثل كتاب **طبخ الحشيش** (*Haschisch-Kochbuch*) الذي كتبه هانز غيورغ بير (Hans Georg Behr)، والذي ما زال يُنشر منه إلى اليوم كثير من النسخ المسروقة. وعلى الصفحة الأخيرة للكتاب نشرت قائمة بالأسماء الأولى، من دون ذكر الكنيات، لأصدقاء وزملاء لي من المفترض أنهم شاركوا في تقييم نتائج العمل. وكانت دهشتي، بعد بضعة أيام من نشر الكتاب، أن جاءني رجلا شرطة من قسم المخدرات في شرطة فرانكفورت؛ كانا يودان معرفة الأسماء الكاملة لهؤلاء الأصدقاء وعناوينهم. بالطبع رفضتُ ذلك، وأحلتهما إلى دليل الهاتف العام وذهبا، بالتالي، كما أتيا.

فتحت لي معرفتي بهانز غيورغ بير عالمًا جديدًا وغريبًا عني، عالمًا يحتوي مغامرات المخدرات التي تقود إلى النيرفانا، ولقاءات مع كبار المسرحيين السابقين في ذلك الوقت كأبطال الكومونة الأولى أمثال راينر لانغهانز و[العارضة] أوشي أوبرماير أو مع موسيقيي فرقة كراوت روك أمون دول (Krautrockband Amon Düül) الذين كانوا يعيشون حينذاك في كومونة في شارع ليوبولد في ميونيخ. والتقيت كذلك كبار عالم القصص التصويرية أمثال هال فوستر، المعدّ في سلسلة برنتس آيزنهرتز (Prinz Eisenherz) [الأمير الشجاع] وأيضًا الرسام اليهودي الكاريكاتوري الشهير فيل أيسنر، الذي حصد شهرة كبيرة من خلال سلسلته **ذي سبيريت** (*The Spirit*).

قمت بنشر كتب سياسية أيضًا مثل كتاب **محادثات مع جنودٍ إسرائيليين** (*Gespräche mit israelischen Soldaten*) الذي حرره عاموس عوز، والذي لم تكن له قيمة أدبية كبيرة حينذاك؛ أو كتاب **تقرير المدرسة** (*Schulreport*) لعضو البرلمان اللاحق ذي التوجه اليساري ديتر ديم (Diether Dehm) الذي انتقد فيه

انتقادًا لاذعًا سياسة التعليم. كما نشرت كتاب إضراب فعال: وثائقي عن سياسة جامعة فرانكفورت أم ماين لمدة عام *(Aktiver Streik: eine Dokumentation zu einem Jahr Hochschulpolitik am Beispiel der Universität Frankfurt/Main)*، وقد ترافق صدوره مع أعمال الشغب الطلابية التي سيطرت على جامعة فرانكفورت في السبعينيات. وفي الحقيقة، ألقت الحركة المناهضة للسلطوية بظلالها على دار النشر، وكنت إذاك قد نشرت على الصفحة الأخيرة من هذا الكتاب، إضراب فعال، الحسابات الداخلية لدار النشر عن هذا العنوان، والتي أظهرت أننا خسرنا ما يقارب 10.000 مارك ألماني من بيع أول طبعة (3000 نسخة)، إلا أننا كنا فخورين بهذا.

شاركت في تظاهرات السبعينيات، ورافقنا حينذاك يوشكا فيشر ودانييل كون بنديت، وأذكر أن فيشر كان بعد التظاهرة يأكل النقانق وهو يشدد على قضايا البروليتاريا، في حين كان كون بنديت يذهب ليأكل طعامًا صينيًّا. إنني أذكر الآن ذلك النقاش الذي كان يستعر حول ما إذا كان من المسموح ليساريٍّ أن يأكل طعامًا صينيًّا. بالطبع، لا يمكن تخيُّل هذا من وجهة نظر اليوم. وكنت أحتفل بطريقة مجنونة مع تناول أنواع مختلفة وعديدة من المخدرات ابتداءً من حمض الليسرجيك (LSD) حتى الكوكايين، لكن بجرعات متواضعة، وكان هذا يحدث في فيلا، استأجرتها دار نشر في شارع فرانكفورتر أوستر، مقابل الأوست بارك [الحديقة الشرقية] حيث أسكن في الطابق الثاني. حتى إنني أذكر كذلك أن الكاتب غرهارد تسويرنتس (Gerhard Zwerenz) قد دُهش للغاية عند قدومه إليّ وأنا في حالة سُكر، حيث لم يتخيل أنني تناولت جرعات مخدرة.

أما الحادثة الثانية الجديرة بالذكر فهي أحد الاحتفالات التي وصفتها الكاتبة إيفا دمسكي بإسهاب في إحدى رواياتها السابقة. فقد أتاني صديقي هاري روفولت، الذي تعرفت إليه منذ فترة تدريبي المهني، وأخذ مني صديقتي. وقد كان عليّ في الواقع أخذها في اليوم التالي من شقته. يا لها من مغامرات!

كانت حياتنا فعلًا في تلك الأيام مليئة بالمتع والمغامرات، فقد استمتعنا بالثورة الجنسية وحركة الهيبيز [بشعارها] Flower-Power-Bewegung، وتظاهرنا ضد دار نشر أكسل شبرنغر (Axel-Springer-Verlag) وضد الحرب على فيتنام،

وطالبنا بمقاطعة نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا (لم تكن إسرائيل وقتذاك بعدُ موضوعًا للنقاش) وكنا على يقين بأننا نمثِّل الأخيار. وقد كان هنريك برودر ينتمي حينذاك إلى صفوفنا، حتى إن دار ملتسر نشرت أول كتاب له من يخاف من البورنوغرافيا؟ (*Wer hat Angst vor Pornografie?*) وحلَّ ضيفًا دائمًا على منزلنا. كان والدي يحبه ويقدِّره ويقول دائمًا: "ستكون له مكانةٌ ما". لكن، للأسف، لم يعرف والدي ما سيؤول إليه هذا الرجل لاحقًا.

الحياة الأسرية والانتفاضة

مع ولادة طفلي بنيامين في عام 1980 كانت فترة الشباب الماجن قد انتهت. وأصبحت أميل إلى الهدوء أكثر وبدأت في فيلا على طراز فني (Jugendstilvilla)، في شارع بوخشلاغ (Buchschlag) قرب فرانكفورت، بنشر الكتب لدار النشر الصغيرة التي أملكها، إضافةً إلى عملاء كبار أمثال برتلسمان وفلتبيلد أو دار النشر [الفرنسية] فورييه (Fourier). لقد كانت أموري تسير على ما يرام، إلا أن الظلم المستمر في فلسطين دفعني إلى الانشغال بقوة بالصراع في الشرق الأوسط. وفي عام 1984 سافرت مع بعض الأصدقاء إلى إسرائيل لأريهم بفخر "بلدنا". كما كنت أجادل سابقًا من وجهة نظر صهيونية خالصة وألقي باللوم بهذا النزاع على الفلسطينيين. في زيارتنا تلك مررنا بقرى عربية وشاهدنا الفيلات الفاخرة، وتأكدتُ أن أحوال الفلسطينيين جيدة. إلا أن هذا الهدوء المخادع كان هدوء ما قبل العاصفة الذي سينفجر. وبالفعل، فقد اندلعت الانتفاضة الأولى للفلسطينيين ضد الاحتلال في عام 1987، ومنذ ذلك الحين وأنا منشغلٌ بهذه القضية. ويلومني بعضهم على موقفي بأنه مفرط في الوقوف مع الفلسطينيين، الأمر الذي يُعدُّ بمنزلة خيانة لإسرائيل ولليهودية. أسست مجلة سيميت (*SEMIT*) بالتعاون مع الصحافي العبقري الفريد أوزوالد ليوينتر (Oswald LeWinter) الذي يُعتبر أحد الجهابذة النادرين وقد كتب كتابًا عن شكسبير وانتقل إلى العمل مع الاستخبارات الأميركية.

لقد أصدرتُ بالتعاون مع ليوينتر هذه المجلة التي جلبت لنا الغضب

والأعباء الكثيرة، فضلًا عن كثير من الأعداء والقليل من الأصدقاء. وسرعان ما وجدت المجلة طريقها بين ألفي مشترك ومشترٍ ووُزعت في المحطات، ولكن للأسف لم تنشر سوى القليل من الإعلانات. وكما أخبرني أحد معارفي، وكان حينذاك موظفًا بارزًا في بنك دريسدن، أن مصرفه الذي كنت أرغب منه في الحصول على موافقة للإعلان عنه قد حوَّل الطلب إلى المجلس المركزي لليهود، وسأل ما إذا كان مسموحًا له الإعلان في مجلة سيميت، فكان الجواب فورًا "لا".

سجّلت المجلة كهيئة صحافية رسمية، وكنت قد تلقيت دعوة إلى حضور مؤتمر صحافي للمجلس المركزي اليهودي في ألمانيا في خريف 1991 بمناسبة السنة اليهودية الجديدة، وباعتباري كنت عازمًا على عدم الذهاب إلى هناك رميت الدعوة في سلة المهملات. إلا أن دهشتي الأكبر كانت عندما تلقيت اتصالًا من أمانة المجلس اليهودي قبل ثلاثة أيام من موعد المؤتمر وأخبروني بلسان السيد هاينتس غالينسكي أن هذه الدعوة كانت خطأ، وأنه غير مرحب بي هناك وقد لا يُسمح لي بالدخول.

بيد أن هذا الاتصال كان له تأثير عكسي تمامًا: فقمت بتجهيز إعلانين سميكين من الورق المقوى، ولففتهما على شكل سندويتش، بحيث يمكنني حملهما على كتفي. وكتبت عليهما بأحرف واضحة وكبيرة "أنا صحافي يهودي، وناقد للمجلس المركزي، ولم يسمح لي بالمشاركة في هذا المؤتمر الصحافي". سافرت إلى برلين مع هذه اللافتة ووقفت على الرصيف المقابل لمدخل المبنى الذي يقام فيه المؤتمر في قاعة مجمع هناك، في شارع أورانيان برغر. وهذا ما استرعى طبعًا انتباه جميع الصحافيين الذين قدموا إلى المؤتمر، وحالما توجهوا نحوي وقرأوا كلماتي وسمعوا قصتي قاموا بأخذ الصور التي نُشرت في اليوم التالي في الصحف في برلين بل حتى في نيويورك وإسرائيل، وبالطبع متضمنةً تعليقاتٍ ناقدة. وعمومًا، وصلت هذه الأخبار إلى قاعة المؤتمر في الداخل، وبالفعل لم يمضِ وقت طويل حتى خرج سكرتير المجلس طالبًا مني الدخول وحضور المؤتمر إلا أنني رفضت طلبه بكل أدب.

بعد مدة وجيزة من سقوط جدار برلين، احتدم جدل في هذه المدينة بين المجمع اليهودي القديم في غرب برلين بقيادة هاينتس غالينسكي، ومجمع الكنيس اليهودي المؤسس حديثًا هناك، و[المسمى] أداس يسرويل، الذي أُسس في عام 1869 كحركة مضادة للتوجه الإصلاحي للمجمع اليهودي. وكانت الاستخبارات السرية النازية (الغستابو) قد أمرت بتفكيك أداس يسرويل وإدماجه في ما يسمى "رابطة يهود الرايخ في ألمانيا" التي أسسها النازيون. وفي عام 1986 أعاد أحفاد أعضاء المجمع اليهودي السابق في شرق برلين الحياة إليه مرة أخرى وأقرّت حكومة جمهورية ألمانيا الديمقراطية (DDR) في كانون الأول/ ديسمبر 1989 بإعادة الحقوق السابقة إلى المجمع. كما استعيدت ملكية قطعة أرض في شارع توخولسكي، وجدِّدت كذلك المقبرة المتهالكة فيه. وفي عام 1997، بعد توحيد ألمانيا، جرى الاعتراف بالمجمع اليهودي بموجب بيان صادر عن محكمة الدولة الإدارية على أنه هيئة عامة.

بعد أن أصبحت على دراية بهذا الصراع، وجدت نفسي منخرطًا في هذه المواجهة. وأثار لدي موقف هاينتس غالينسكي، رئيس المجمع اليهودي في برلين، سخطًا كبيرًا. فقد رأى أن ملكية أداس يسرويل، التي اعترف بها رسميًا مجلس شيوخ برلين، تعود إلى المجمع اليهودي، مستندًا في ذلك إلى ما ينتمي إلى الاستخبارات الألمانية حيث كل شيء هو ملك "رابطة الرايخ"، و[هكذا] فإنها إرث له كما يشعر غالينسكي. والحال أن استناد يهودي إلى إجراءات النازيين ليس أمرًا غير منطقي فحسب، وإنما سخيف أيضًا. ولقد انتهى هذا الصراع أمام المحكمة مع ذلك الرئيس المستبد للمجلس المركزي لليهود في ألمانيا والذي كان في الوقت نفسه رئيس المجمع اليهودي في برلين، باعتبار المجمع ملكًا خاصًا له. وللأسف لم يُضَف إلى هذه القضية شيء، بسبب وفاة غالينسكي في 19 حزيران/ يونيو 1992 عن عمر ناهز الثمانين عامًا.

كان انخراطي في النشر يشغلني كثيرًا على حساب أحاسيس الاعتراف والعواطف والروابط الأسرية. فمثلًا انهارت علاقتي بأختي التي تعيش في إسرائيل على نحو تام، لا بل حتى اتصالاتنا في أعياد الميلاد غدت نادرة. فهي

تعتبرني خائنًا أو حتى أسوأ من ذلك. أما العلاقة بأخي الذي يعيش في ميونيخ فلم تنقطع كليًا لكنها أصبحت باردة. وعلى عكسي أنا، فهو يتجنب النقاشات السياسية. ساعدني هذا الأمر على فهم ما كنا نتعلمه في المدرسة في إسرائيل، كيف أن قضية دريفوس[8] الفرنسية قد قسمت الفرنسيين، حتى بين أفراد الأسرة الواحدة. لم يكن بمقدوري تخيُّل أن أمورًا كهذه تحدث بالفعل حينما كنت طفلًا أو حتى شابًا، إلا أن الأمر ذاته يحصل الآن في قضية الصراع في الشرق الأوسط: حيث قسّم هذا الصراع العائلات اليهودية كما هو الأمر أيضًا في العائلات غير اليهودية.

منذ أكثر من 35 عامًا وأنا أقاتل على هذه الجبهة بكل جوارحي وبكل قوة، ولن أسمح للصهاينة الحاقدين بتشويه وجهي الإنساني. وسوف أستمر في الكفاح في سبيل مقصدٍ أتى إليه الكتاب المقدس في إحدى جمله التي يعتبرها أوري أفنيري أكثر العبارات إنسانية: "خلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه" (سفر التكوين، الأصحاح 1: 27). ولذلك يقال دائمًا، وهو ما يُذكَّر به من خلال تكراره، أن كل البشر ومن دون استثناء خُلقوا على صورة الرب أو مماثلين له، من دون فرق سواء كانوا يهودًا أو عربًا، أو كانوا من أصول أخرى أو أيّ دين آخر.

تعرُّفي الأول بمصطلح معاداة السامية

لم تتشكل لديَّ وأنا في إسرائيل أيُّ فكرة عن معاداة السامية باستثناء أننا تعلَّمنا في المدرسة أن كل شعوب العالم كارهون دائمًا لليهود. لقد كنت إسرائيليًّا وأتكلم العبرية وعضوًا في إحدى المنظمات الشبابية الصهيونية؛ بلا شك لم تكن لديَّ دوافع أيديولوجية لذلك، ولم يرغب والداي في إجباري على

(8) قضية دريفوس، صراع اجتماعي وسياسي حدث في فرنسا، في نهاية القرن التاسع عشر، تخلله اتهام بالخيانة لشخص يدعى ألفرد دريفوس، فرنسي الجنسية يهودي الديانة. أثارت هذه القضية المجتمع الفرنسي بين عامي 1894 و1906 وقسمته فريقين: مؤيدو دريفوس المقتنعون ببراءته، ومعارضوه المعتقدون أنه مذنب. (المترجمة)

ذلك، فكل ما في الأمر أن زملائي الإسرائيليين كانوا كلهم موجودين في هذه المنظمات.

لم أعِ بذاتي أنني يهودي إلا بعد أن غادرت إسرائيل في آب/ أغسطس 1958 وأتيت إلى ألمانيا. وهنا خبرتُ أول مرة ماذا تعني كلمة معاداة السامية، حينما نعتني أحد الطلاب في المدرسة الثانوية في كولونيا بـ "اليهودي القذر"، ولا أدري إن وعى هذا الطالب ما يقوله، فربما أخذ هذا الكلام من منزل والديه. ربما لم يكن يعرف مطلقًا من أو ماذا يعني الشخص اليهودي. إلا أن علاقتنا بعد هذه الحادثة لم تتغير وبقيت كما كانت في السابق. وإلى يومنا هذا أدعى بشكل منتظم إلى حضور لقاء زملاء المدرسة ولم أشعر البتة بأن أحدهم يرى فيَّ شخصًا مختلفًا عن باقي الزملاء. باستثناء هذه الواقعة المؤسفة، فإنه لم يحدث قط أنني هُمّشت أو عوملت معاملة سيئة. ربما كان للطلاب اليهود في أماكن أخرى من ألمانيا هنا وهناك تجارب مزعجة أو محرجة أحيانًا. لكن، مع ذلك، فإنني مقتنع تمامًا بأن هذه الحوادث هي حالات فردية ولا تعكس الوضع في ألمانيا على الإطلاق.

المرة الثانية التي اصطدمت فيها بما يُعرف بمعاداة السامية، والتي تركت آثارها في داخلي، كانت في ليلة عيد الميلاد ويوم العيد من عام 1959، عندما رُسم الصليب المعقوف في ليلة 24 وصباح 25 كانون الأول/ ديسمبر على الكنيس اليهودي المرمم حديثًا في مدينة كولونيا. وقد اكتشفت ذلك صباح اليوم التالي كوني أعيش قربه. وفي اليوم الذي تلى ألقي القبض على عضوين من حزب الرايخ الألماني اليميني المتطرف، فاعتُقلا وأدِينا. ورغم القبض على هذين الرجلين، تسلل القلق إلى الجالية اليهودية الصغيرة، وسيطرت حالة من البلبلة وعدم الهدوء، وإنه لأمر مفهوم. فاجتمعوا أمام الكنيس وأخذوا يحدقون في الصليب المعقوف بذهول وغير مصدقين.

شكّل هذا الحدث لي ولأصدقائي الإسرائيليين صدمة. وكان هناك صبي عمره ثلاثة عشر عامًا، ليس إسرائيليّ الأصل لكن بدا عليه الاضطراب على نحو خاص، ويدعى هنريك برودر. ربما تركت هذه الحادثة أثرًا أعمق عنده

أكثر مما تركته في أعماقنا نحن "الإسرائيليين". لقد كنا نحن نتحدث العبرية، ولم يكن يفهم ما نقول، لذلك كان يجلس منعزلًا وحده. المكان الذي كنت أمضي فيه معظم وقتي في سنواتي الأولى في ألمانيا، أكثر من أيِّ مكان آخر، هو في مركز للشباب تابع للمجمع اليهودي. وتواصلي كان ضعيفًا مع البيئات غير اليهودية باستثناء المدرسة. وكنا نتحدث بالعبرية في ما بيننا في أثناء وجودنا في مركز التجمع اليهودي. وكان لدينا مدير أو مدرب (Madrich) إسرائيلي، وهو محاربٌ قديمٌ في الجيش درس في كولونيا، وكان هذا التجمع اليهودي يتدبر كل ما هو في حاجة إليه، حتى في شؤون الرحلات المشتركة لكل الشباب إلى برغن-بلزن.

لقد انقطعت العلاقة بالمجمع اليهودي حينما خططت مع برودر لإصدار مجلة في عام 1965، وبالفعل صدرت المجلة ولم تنل رضى مجلس إدارة هذا المجمع. أطلقنا على المجلة اسم كونتاكته (*Kontakte*)، وهذا بسبب رغبتنا في الانفتاح على البيئات غير اليهودية. استطعنا تمويلها من الإعلانات والتبرعات، ووُزعت كذلك في المجامع اليهودية الأخرى. بالطبع كنت أنا وهنريك شخصين متمردين وكنا ننتقد كل ما يسمح به النقد، وليس لدينا خوف حتى من مهاجمة السلطات اليهودية. ومرةً وقعنا في حرج عندما كتب هنريك مقالة مثيرة للجدل ضد ناشر اسمه كارل ماركس[٩]، وهو ناشر صحيفة يوديشه ألغماينه (*Jüdische Allgemeine*)، وكان هذا الرجل قد توفي قبل يوم واحد من نشرنا لعدد مجلتنا.

رغم ذلك، كان قرارنا إكمالَ نشر عدد المجلة، ذلك أن نقدنا لم يكن موجهًا إليه على نحو شخصي أو يتعلق بأمور شخصية، وإنما يرتبط بقضايا أساسية تتعلق بموقف اليهود تجاه ألمانيا والموقف من الحقبة النازية السابقة. وأرفقنا بالمجلة نصًا توضيحيًا: "عندما تلقّينا خبر وفاة كارل ماركس، كان عدد المجلة كونتاكته قد طُبع بالفعل؛ وليست المسألة الجدالية المنشورة في هذا

---

(٩) هاجر هذا الصحافي، كارل ماركس (1897-1966)، خلال حكم الاشتراكية القومية (النازية) وكان أحد مؤسسي الصحافة اليهودية في ألمانيا بعد عام 1945.

العدد من المجلة موجهة ضد شخص بعينه، بل ضد جهاز الصحافة الممأسَس من خلال هذا الشخص، هذا الجهاز الذي امتد من وجهة نظرنا بأداء وظائفه لتجاوز اختصاصه. نؤمن بأن بعض الظواهر الاجتماعية المحددة لا ينتهي بالموت البيولوجي للأشخاص؛ ولهذا السبب ما زلنا نعتبر حاليًا كما في السابق أن هذا النص المنشور هو نصٌّ راهن". مع هذا كله تعرضنا للفضيحة؛ إذ انتقد هنريك برودر ماركس بسبب دعمه كورت كيزنغر في الانتخابات، وتبريره ذلك بأن كيزنغر "ديمقراطي بلا عيوب"، لأنه شخصٌ غير معادٍ للسامية.

مرّ وقت طويل منذ ذلك الحين. لكن لم ينقضِ يوم في السنوات الأولى من دون أن أتذكر أنني يهودي وأعيش في "بلد الجُناة". لقد كانت حياتي منذ بدأ انشغالي بالسياسات المتعلقة بإسرائيل طبيعية وعادية. ومع مرور السنين أخذ ابتعادي يكبر أكثر فأكثر عن الفهم القومي والعنصري لليهودية، حتى غدا وراء ظهري. كنت أهتم كناشر بنشر كتب الرسوم المتحركة، مثلًا كتب ديزني و"الأمير الشجاع" و"نيمو الصغير"، والرسوم المتحركة الكلاسيكية، ولكن من جهة أخرى اهتممت بنشر كتب سياسية اختصاصية يسارية مثل تلك التي تتناول مسائل اللاسلطوية أو الفاشية في اليونان، إضافةً إلى عدد كبير من الكتب المتخصصة في اليهودية والرموز والطقوس اليهودية فضلًا عن معجم خاص بالتلمود، وأيضًا كتب نقدية لسياسة إسرائيل القومية والشوفينية، وصولًا إلى نشر تقرير بعثة الأمم المتحدة لتقصي الحقائق حول المجزرة الإسرائيلية بحق السكان في قطاع غزة عام 2008/ 2009 والذي أطلق عليه اسم "تقرير غولدستون" وأحدث ضجة كبيرة حينذاك. انشغلت كثيرًا في السنوات الأخيرة بالصراع في الشرق الأوسط. ومن دون تخطيط رأيت نفسي مجبرًا أن أكون خصمًا لهنريك برودر الذي كان صديقي في فترة الشباب ورافقني لوقت قصير في مساري النقدي الذي لا يزال قائمًا.

2

ماذا تعني معاداة السامية؟

بعد الإبادة الجماعية التي طاولت اليهود في ظل حكم هتلر، غدت معاداة السامية من القضايا المستنكَرة التي يعاقب عليها القانون. وما يدعو إلى الغرابة اليوم أن أناسًا، سواء أكانوا محاضرين أم قائمين على مؤتمرات ترتبط بموضوعة معاداة السامية، يتساءلون عن مصدر هذا الاصطلاح: معاداة السامية. وبالفعل، إن لمن المدهش تجاهُلَ غسيل الأدمغة الذي قامت به المسيحية على مدى آلاف السنين. وهنا نشير إلى أنه رغم معاداة المسيحية للسامية وما نجم عنها من معاداة عنصرية تكاد تكون غير موجودة اليوم، فإن الأحكام المسبقة والشكل الذي عاشت به معاداة اليهودية في الثقافة الغربية على مدى آلاف السنين قد تركت آثارها العميقة فيها. ولا ننسى أن أحداثًا كبرى وصغرى، مثل الحروب الصليبية وحروب الفلاحين والطاعون وما جرى إبان الحكم النازي في ألمانيا، قد دفنت مجتمعات يهودية بأكملها، ما أدى أخيرًا إلى الهولوكوست، أو كما يسميها اليهود المحرقة (Shoah)، حيث قضي على ما يقرب من ثلث يهود أوروبا.

بالطبع، إن معاداة السامية ليست فضاءً ثابتًا غير متغير لا يخضع للتغيير أو إنها بقيت ثابتة على مدى قرون طويلة. والحال أنها قد تبدلت كثيرًا مع الوقت، ولاءمت نفسها كثيرًا مع الاتجاهات السائدة وروح العصر والقوى السياسية الحاكمة.

يُعدُّ مصطلح "معاداة السامية" جديدًا نسبيًّا، وقد ظهر أول مرة في منتصف القرن التاسع عشر وانتشر بسرعة بين أوساط المثقفين والأساتذة الجامعيين. حينذاك كان كثيرون من كارهي اليهود يقرّون بكل فخر بقناعاتهم، حتى أطلقوا على أنفسهم لقب معادي السامية (Antisemiten). وفي الواقع لم تكن معاداة

السامية هذه سوى كراهية قديمة لليهود، حيث أُفرِغ هذا المصطلح من مكوِّنه الديني وأُلبِس طابعًا "إثنيًّا"، فضلًا عن دعمه لاحقًا بنظرية عنصرية مبهمة وسيئة. وفي الواقع، فإن هذا التعبير "معاداة السامية" ورد أول مرة في عام 1865 في **معجم الدولة روتيك فلْكيشن** (*Rotteck-Welckeschen Staatslexikon*). وليس من الصحيح نسب هذا التعبير لاحقًا إلى الصحافي الألماني فيلهلم مار (Wilhelm Marr) (1819-1904). وكان مار قد عرّف اليهودَ، في كتابه الشعبوي **انتصار اليهودية على الألمانية** (*Der Sieg des Judenthums über das Germanenthum*) في عام 1879، بأنهم "غرباء شرقيون" ينتسبون إلى "عرق سامي"، وقارنهم بـ"الطفيليات". ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد دعا هذا المحرّض مار في العام نفسه إلى تأسيس رابطة أطلق عليها اسم رابطة معادي السامية (Antisemiten-Liga)، وحرر أيضًا كتيبات بعنوان **أوراق معادية للسامية** (*Antisemitische Hefte*). وبادر الرجل هذا نفسه، إضافة إلى ذلك، في عام 1880 إلى تشكيل "حركة برلين" و"عريضة معادي السامية" التي طالب فيها مستشار الرايخ آنذاك أوتو فون بسمارك بسحب قانون المساواة القانونية المتعلق بالمواطنين اليهود في الرايخ الألماني. ومنذ ذلك الحين غدا تعبير "معاداة السامية" عمومًا يشير إلى موقف الموقعين على العريضة وأتباع مار.

لم يكن هذا المصطلح قد اكتسب شعبية بعد، حين ظهر بالفعل أول الجدالات في معاداة السامية بين عامي 1879 و1881، وفيه تواجه أبطال كبار مثل المؤرخ هاينرش فون ترايتشكه (Heinrich von Treitschke) المعروف بمعاداته للسامية وتيودور مومزن (Theodor Mommsen). وكان قد انتشر حتى بداية الحرب العالمية الأولى عدد لا يستهان به من الكتب التي أخذت تطرح ما عُرف بـ"المسألة اليهودية" والتي تخلّلتها بشكل واضح نزعة إلى معاداة السامية. كما تفاقم الوضع بعد الحرب العالمية الأولى بعد أن ظهر في ألمانيا ما عُرف بأسطورة "الطعن في الظهر" ("Dolchstoß"-Legende)، التي ألقي فيها باللائمة على الهزيمة في الحرب على اليهود "الخائنين". أما ذروة الأدب المعادي للسامية فقد جسّده أدولف هتلر في كتابه **كفاحي** (*Mein Kampf*)، الذي تنبأ فيه بالفعل بكل ما سيحدث لاحقًا. وهكذا، تميزت فترة ما بين الحربين

العالميتين بمعاداة السامية التي أدت في نهاية المطاف إلى الهولوكوست وإبادة اليهودية في أوروبا.

وبهمجية وبربرية النظام النازي غير المحدودتين انفضحت معاداة السامية إلى الأبد، لا بل حتى أيضًا "عداء السامية المحترم" في الطبقات الشعبية والذي كان مقبولًا اجتماعيًا إلى حدٍّ بعيد، أو حتى السلوك اليومي لمعاداة السامية في بيئة العمل، والتي وصفها أوغست بيبل ذات مرة بـ "اشتراكية الشباب الأغبياء".

والحقيقة أن كراهية اليهود بهذا الشكل لهي كراهية قديمة جدًا، أساسها كره الكنيسة لهم؛ إذ تشكِّل اليهودية خصمًا لها، في حين أن المسيحية خرجت من اليهودية. وأدت خيبة أمل الكنيسة في تحوُّل جميع اليهود إليها، وفي أن يتخلوا عن دينهم اليهودي، إلى كراهية أبدية. كانت هذه الكراهية موجهة ضد الدين اليهودي الذي كانت المسيحية تعدّه أكبر خطر على فكرة الخلاص لديها. وهنا نشير إلى أن اليهودي كان يمكن أن يتخلص من وصمة العار التي كانت تلاحقه بأن يغيِّر دينه ويعتنق المسيحية. وهذا ما وصفه هاينرش هاينه (Heinrich Heine) بأنه "تذكرة دخول إلى الثقافة الأوروبية"، بمعنى من يعتنق من اليهود المسيحية، فإنه يضمن الدخول إلى هذه الثقافة.

لقد كان من الممكن التخلص من هذه المعاداة لليهودي بقبول العماد ليصبح مسيحيًا، واستمر هذا حتى منتصف القرن التاسع عشر. الأمر نفسه يمكن قوله في ما يخص العالم الإسلامي الذي فيه أيضًا اضطهد اليهود، وباعتناقهم الإسلام كانوا بالمِثل يتخلصون من ذلك الاضطهاد. ومع ظهور "النظرية العرقية" في منتصف القرن التاسع عشر، بدأ الناس بإدانة اليهود لأسباب تتعلق بأصولهم.

نذكر هنا نكتة يهودية انتشرت تقول بأن يهوديًا اسمه "موشيه، اعتنق المسيحية وأصبح كاثوليكيًا. وبعد بضعة أسابيع تحوَّل مرة أخرى وأصبح بروتستانتيًا، فكان يجيب أصدقاءه الذين يسألونه لماذا اعتنقت البروتستانتية بعد أن اعتنقت الكاثوليكية: حين يسألني شخص ماذا كنت سابقًا قبل أن تتحول إلى البروتستانتية أجيب بأنني كنت كاثوليكيًا".

بلا شك، إن معاداة اليهودية هي جزء لا يتجزأ من الثقافة الغربية وتعود إلى قرون عدة، حيث شكَّل اليهود لوقت طويل - ولبعض الناس حتى وقتنا الحالي - كبش فداء مثاليًا. طبعًا نقول هذا على الرغم من تحوّل هذه الكراهية والازدراء المتزايدين مؤخرًا ضد المسلمين.

كان أوري أفنيري، وهو أحد أشهر الكتاب والصحافيين الإسرائيليين وناشط من أجل السلام، قد نشر مرة توضيحًا لمعاداة السامية: "يسمع الأطفال المسيحيون في كل مكان في أوروبا وأميركا في فترة مبكرة من شبابهم قصصًا من العهد الجديد، ويتعلمون أن جموع اليهود في القدس، في عهد الإمبراطورية الرومانية، كانت متعطشة إلى دم يسوع، في وقت حاول فيه الحاكم الروماني بيلاطس البنطي جاهدًا إنقاذ حياة [ذلك] الواعظ الروحاني. وبهذا يتم تصوير الحاكم الروماني على أنه إنساني ومتسامح، في حين يوصف اليهود بأنهم رعاع خبثاء وشنيعون وخسيسون".

قد يكون هذا التفسير صحيحًا. فقد درجت العادة عند الحكام الرومان أن يقوموا بصلب المتمردين الذين يشكِّلون خطرًا محتملًا. وربما لم يتفق سلوك القيادة اليهودية إذاك مع الشريعة اليهودية. غير أن العهد الجديد كُتب بعد مدة طويلة من هذه الأحداث، وكُتب بالتأكيد وعن وعي للرومان، الذين كان يتمنى المسيحيون اعتناقهم المسيحية، الأمر الذي أضر لاحقًا باليهود.

إضافةً إلى كل هذا، فقد شكَّل المسيحيون في القدس اليهودية طائفةً مضطهَدة وذليلة، وبقيت كراهيتهم لمضطهدِيهم اليهود إلى حدٍّ ما حاضرة إلى اليوم. لقد حُفرت صورة اليهود الأشرار، الذين كانوا يتوقون إلى صلب المسيح، عميقًا في لاوعي المسيحيين، ولا نستغرب كره اليهود الذي تربّى في الأجيال اللاحقة. ماذا كانت النتيجة؟ مجازر كبرى، وتهجير جماعي، ومحاكم تفتيش، واضطهاد من كل الأشكال ومذابح ضدهم، لينتهي بهم المطاف بالهولوكوست.

لقد أخذت كراهية اليهود العنصرية منذ منتصف القرن التاسع عشر بالانتشار، وبات حتى اعتناق اليهود للمسيحية لا يشكِّل أيَّ ضمان للتخلص

من هذه الكراهية. والحال أنه كان بإمكانهم الهروب من هذه الكراهية بتغيير دينهم، بيد أنهم لم يستطيعوا الانسلاخ عن جلدهم. وهكذا تحولت كراهية اليهود الدينية إلى أشكال جديدة من معاداة السامية العنصرية، وأخذت في التزايد على مدار مئة عام حتى وصلت إلى ما شهدناه في ألمانيا في ثلاثينيات القرن الماضي. لقد أدت النظرية العرقية في النهاية إلى جريمة شنعاء في ظل الحضارة الحديثة، وبسببها قُتل ستة ملايين يهودي، ولماذا؟ لأنهم كانوا يهودًا فحسب.

فضلًا عن ذلك، انتشرت نظرياتٍ وأفكار فيها الكثير من الشطط بشأن ما يسمى الجنسَ اليهودي. هل يمكن حقًّا أن يكون من سخرية التاريخ أن تنشأ نظريات مثل "العرق النقي" أو فكرة "العرق الآري النقي" في وسط أوروبا، الذي شهد كثيرًا من ظواهر اختلاط شعوب عديدة على مدار مئات وآلاف السنين؟ في الحقيقة، أدت هذه العقيدة المجنونة إلى القتل الجماعي لملايين البشر من يهود وغجر وروس وأوكرانيين وغيرهم باعتبارهم شعوبًا ذات "قيمة وضيعة".

معادو السامية من اليهود

لم تقتصر معاداة السامية على الأوساط المسيحية فحسب، بل كان هناك بعض من اليهود أنفسهم معادون للسامية. وبالفعل هذا ما شهدته العصور الوسطى من انتشار أمثال أولئك اليهود الذين قطعوا صلتهم على نحو جذري بديانتهم وأصولهم وتبرّأوا منها. فمن هؤلاء اليهودي الألماني الدومينيكاني يوهانس بفيفركورن (1469-1521) الذي اعتنق المسيحية وكان من المؤيدين لحرق التلمود، وكانت شهرته قد بلغت أوجها خصوصًا بعد جدالاته في شأن درس التوراة مع عالم الإنسانيات يوهانس رويشلن الذي كان من المسيحيين المختصين بالعبرية. ومع مطلع القرن العشرين برزت مصطلحات مثل "كراهية اليهود لأنفسهم" و"اليهود المعادين للسامية". وهنا نذكر في هذا السياق نشر الكاتب والفيلسوف اليهودي الألماني تيودور لسينغ (1872-1933) من دار نشر يهودية في عام 1930 كتابًا بعنوان **كراهية اليهود الذاتية** (*Der jüdische*

(*Selbsthass*. ففي هذا الكتاب، كرس لسينغ الحديث لمعاصريه من المغالين في اندماجهم في الثقافة غير اليهودية والقوميين الألمان أمثال الفيلسوف النمساوي أوتو فايننغر (1880-1903) الذي صعد إلى مرتبة كاتب مبجل بعد انتحاره عن عمر يناهز الثالثة والعشرين عامًا، وأيضًا أمثال الطبيب وفيلسوف الأخلاق بول ريه (1849-1901)، فضلًا عن تناوُله الكاتب وابن الصناعي آرثر تريبيتش (1880-1927)، الذي دعم وموّل ماليًّا الحزب النازي في بداياته.

في تلك الأثناء كان الانتحار قد انتشر بين اليهود، أمثال الفيلسوف النمساوي أوتو فايننغر، وذلك بسبب كراهيتهم لأنفسهم كونهم يهودًا غير قادرين على تغيير جلدهم والتخلص منه. وبالفعل هذا ما كان يتمناه فايننغر، أن يكون "شخصًا من العرق الآري أشقر الشعر وبعينين زرقاوين"، وهذا ما لم يكن يستطيع تحقيقه رغم تعميده. إننا نقرأ بالفعل عن أوتو فايننغر في **المعجم الجديد لليهودية** (*Neuen Lexikon des Judentums*)، ذلك الرجل الذي دعا إلى "صراع الآريين ضد اليهودية".

ولم يكن فايننغر الوحيد في كل هذا، فالأحاسيس ذاتها سيطرت على الشاعر هاينرش هاينه (1797-1856)، الذي عانى مساوئ الكراهية العنصرية والعرقية بحق اليهود ولم يستطع الإفلات منها رغم تعميده وتحوُّله إلى المسيحية. كما أتيحت له فرصة لقاء أحد معادي السامية، وهو ريتشارد فاغنر، المؤمن بإبعاد اليهود عن الحياة الثقافية والحياة الاجتماعية لأنهم يهود فحسب. لقد أتى فاغنر في تلك السلوكيات في التعامل بالصور النمطية والمواقف من معاداة اليهودية والسامية التي سيطرت على وسطه الفكري والأدبي. وللعلم، اكتسى اصطلاح معاداة السامية "وقعًا جميلًا" في تلك الأثناء على مسامع الآخرين، ولا سيَّما على شخص مثل زوجة فاغنر، كوزيما، التي اتخذت موقفًا متطرفًا في معاداة السامية. والحال أن فاغنر لم يعكس فحسب الصور النمطية لمعادة السامية في عصره، بل طوّرها كذلك وعمَّقها إلى حد بعيد في كتاباته مثل كتاب **اليهودية في الموسيقى** (*Das Judenthum in der Musik*). وكان أيضًا لفاغنر تأثير كبير في الكاتب الإنكليزي هوستن ستيوارت تشامبرلين (Houston

(*Grundlagen* الذي ألّف كتابًا بعنوان أسس القرن التاسع عشر S. Chamberlain) (*des neunzehnten Jahrhunderts*، وهو عمل ينتشر فيه تبجيل الألمان القوي لأفكارٍ معادية للسامية. ليس هذا فحسب، فقد تزوج تشامبرلين في عام 1908 أيضًا ابنةَ فاغنر الثانية وتدعى إيفا، ويُعتبر بالفعل أحد الأصوات الأيديولوجية التي مهدت لصعود القومية الاشتراكية (النازية) المعادية للسامية. وبهذه الأفكار التي يحملها حاول تشامبرلين إعادة تفسير أعمال فاغنر بما يتوافق وفكر هذه القومية الاشتراكية. وعلى رغم الحفاوة الموسيقية التي يلقاها فاغنر إلى اليوم، فإنه يدان كذلك بسبب مواقفه وكراهيته لليهود. إلا أن ذلك لا يمنعنا من القول إن موسيقى فاغنر تُشعر المرء بالدفء والحماسة، حتى إن قائد أوركسترا برلين، اليهودي الأصل أيضًا دانييل بارنبويم، يدعم إمكانية عزف موسيقى فاغنر في إسرائيل أيضًا. فهو يرى أن إحدى فضائل الديمقراطية أن نفرّق بين العمل الإبداعي في حد ذاته والشخص المبدع الذي أنتجه. فعلى الرغم من أن هذا الموسيقي فاغنر، ابن القرن التاسع عشر - والرأي لبارنبويم - قد حرّض ضد اليهود، إلا أن موسيقاه في حد ذاتها ليست معادية للسامية.

بالطبع لا يخفى على أحد وجود بقايا هذه القناعات المعادية للسامية في كل المجتمعات الأوروبية، إلا أنها غالبًا ما انحسرت جدًّا هناك، وما عاد الأمر كما في السابق. والحال أن أحزاب اليمين واليمين المتطرف السابقة، في فرنسا والنمسا وهولندا، مقتنعة بإلباس برامجها التي تحمل عداء للسامية زيًّا آخر في سبيل تحقيق نجاحها. أما في ألمانيا فكان لا بد لحزب البديل لأجل ألمانيا (AfD) من النأي بنفسه عن الأعضاء الذين يحملون فكرًا معاديًا للسامية، حتى لو جرى ذلك على مضض.

عمومًا، ما عاد هناك في ألمانيا، كما هو الحال في كثير من الدول الأوروبية، من مكان للفكر والخطابات أو التعاملات التي تنم عن معاداة السامية. ويرى الحاخام جويل برغر من شتوتغارت على نحو لا لبس فيه أنه لا يمكن الحديث عن معاداة السامية إلا حينما يحدث اضطهاد لليهود من الدولة. لكن، رغم هذا، فإننا نجده يستخدم هذا المصطلح كبديل أو مرادف لمعاداة

الصهيونية وانتقاد إسرائيل. وفي الحقيقة، فإن معاداة السامية، منذ الحرب العالمية الثانية، ما عادت تشكِّل خطرًا كبيرًا، وهذا رغم وجود بعض الأشخاص المتشددين ممن يتشبثون بها على نحو يائس: خذ مثلًا الانتقاميين وناكري الهولوكوست أو ما يدعى بأخوية بيوس الكاثوليكية.

عدم اكتراثي بمعادي السامية

القول إن معاداة السامية ما عاد لها مكان في ألمانيا، قولٌ يمكن التعبير عنه بحسب ما جاء في الفقرة الأولى من الدستور الألماني: "إن كرامة الإنسان مصانة ولا يمكن المساس بها"؛ والمقصود بالإنسان هنا جميع البشر، وبالتالي أيضًا اليهود. إن ديمقراطيتنا تضمن لنا حرية التعبير عن الرأي والحق في التظاهر، كما يضمن هذا الدستور عدم السماح لأحد بتهميشنا واستبعادنا أو إهانتنا أو التشهير بنا.

وبلا شك، فإنه عندما يُعتدى على أحد رجال الدين اليهود في برلين من شاب فلسطيني ما، فإن ذلك يجسِّد فعلًا جنائيًا يُعاقَب عليه. بيد أن الشباب الفلسطينيين، أو العرب من الدول الأخرى الذين يتشاركون المعاناة والنضال مع الفلسطينيين، لا يمكن اعتبارهم نماذج عن معاداة السامية الأوروبية أو الألمانية التقليدية المعروفة. فمعاداة السامية هذه خرجت من الفضاء الأوروبي وصُنعت فيه وصُدِّرت إلى الشرق مع بداية القرن التاسع عشر. ذلك أننا نجد في أفعالهم مزيجًا من الدوافع السياسية مع الأحكام المسبقة تجاه اليهود ورفضهم لهم ككل.

في ظل هذا الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي يصعُب وضع خطوط حمر للتمييز بين ما يعبِّر عن الكراهية الفعلية لليهود أو ما يؤول إليه هذا الصراع. فما يحدث في إسرائيل لهو أمر فظيع، لا بل إنه يحدث في ظل الحكومة هناك وباسم اليهودية. وعلينا، كما هو حالي، مقاومة ذلك: فعندما نقرأ خبرًا في الصحافة أو نسمع في الإذاعة عن مصادرة أراضي الفلسطينيين باستخدام العنف أو اقتلاع المستوطنين المتعصبين أشجار الزيتون، وبقوة القوانين

الإسرائيلية التي تخدم ظلم الفلسطينيين وتذلهم، فإن علينا الاحتجاج ضد هذه الأعمال ورفضها.

لماذا لا أكترث بمعادي السامية؟ وما هو إمكان قضائهم عليَّ؟ بما أنني أعيش في دولة قانون، وقوانين الدولة ملزمةٌ حمايتي وحماية جميع اليهود وغير اليهود فيها بغضّ النظر عن الحزب الذي يصوتون له، وأيٍّ نوع موسيقى يحبونه، وأيٍّ شكل للعلاقة الجنسية يفضلونه، لهذا يصبح الخوف من معاداة السامية سيّانًا بالنسبة إليَّ، ووجود معادي السامية من عدمه سواء. ويؤكد ذلك كثير من فقرات الدستور الألماني. يكفيني أن أعرف بوجود هذه القوانين ووجود أجهزة للشرطة لتطبيق هذه القوانين في سبيل حمايتي وحماية الآخرين. ينبغي علينا، والحال هذه، ألّا نشغل بالنا بما يريده معادو السامية أو بما يفكرون فيه؛ فالتعبير عن الرأي في هذه البلاد هو حرية شخصية وكل شخص له الحق في أن يفكر كما يريد. وفي أي حال، لا يمكن أحدًا السيطرة على هذا ببساطة لأن من غير الممكن الولوج إلى أذهان البشر ومعرفة أيٍّ أفكار تحملها حتى لو كان من المقربين إليك. فكثيرون من معادي السامية يقومون بأفعال سيئة ليكشفوا بذلك عن هوياتهم. ولكن أيضًا ليس كل من يصرخ: "سأقتلك" سينفِّذ ذلك. بعضهم يقول هذا في موقف معيَّن وانطلاقًا من غضب عفوي. ولا تتملكني الرغبة في مجالسة أيٍّ من معادي السامية أو تكوين صداقة معه أو تلقّي المديح منه، كما يتساهل بذلك كثير من اليهود الرجعيين حينما يتعلق الأمر بخدمة الشأن الإسرائيلي. كما أنني مرتاح في مساراتي، لأن الناس الذين أعرفهم وأتعامل معهم هم أشخاص موثوقون وبريئون من أيٍّ شكوك.

لقد عبَّر، في 17 تموز/يوليو 2017، هانز كريغر، الموظف السابق في إذاعة مقاطعة بايرن، لكونه مواطنًا مهتمًّا بهذا البلد ويقلقه ما يحدث، بشأن طلب كلٍّ من حزب الاتحاد الاجتماعي المسيحي (CSU) والحزب الاشتراكي الديمقراطي [أو الاجتماعي الديمقراطي] (SPD) في ميونيخ عدم إتاحة الفرصة للمنظمات المنتقدة لإسرائيل، فقال: "بلا شك علينا مكافحة معاداة السامية، إلا أن علينا حماية أنفسنا ضد تلك التطفلات في مسائل معاداة السامية والتي تتم

من خلالها حماية سياسة الاحتلال الإسرائيلي المخالفة للقانون الدولي من الانتقاد المشروع. فمن يطلق على التهجير القسري الذي طاول 750.000 فلسطيني في عام 1948 صفة 'تطهير عرقي'، فإنه شخص غير معادٍ للسامية، بل يصف حدثًا تاريخيًا شديدًا، أقرّه حتى المؤرخون الإسرائيليون. وليس كل من يدعم حملات مقاطعة إسرائيل (BDS) أو يبررها (وهذا ما يفعله كثير من الإسرائيليين) هو معادٍ للسامية أو أنه يشكك في حق الوجود لإسرائيل. مثل هؤلاء لا يرغبون ببساطة بسوى استخدام وسائل ما - يمكن أن يُجادَل في مقاصدها وشرعيتها - لإنهاء سياسة الاحتلال الإسرائيلي المعوقة لعملية السلام، وبالتالي الذاتية التدمير (وهذه الإجراءات نجحت في جنوب أفريقيا). كما أن حملات المقاطعة غير موجهة ضد اليهود بصفتهم يهودًا بل موجهة ضد ظلم الدولة الإسرائيلية؛ هذا الظلم المتجسد في الاستحواذ على الأراضي وضمها إليها تحت ستار الدفاع عن النفس.

أخيرًا: ليس مجلس المدينة أو المسؤول الثقافي أو حتى عمدة المدينة مسؤولًا عن برامج كتلك التي تقام في أمكنة في ألمانيا مثل المكتبات، و[المراكز الثقافية مثل] غاستايغ أو آينه فلت هاوس، وصالات المسارح الصغيرة. كما أن الرقابة المسبقة من جانب مُلّاك العقارات غير منصوص عليها في القانون الألماني. ولو كان جدعون ليفي ألمانيًا واشتكى في الصحف الألمانية بعزم وشجاعة من الظلم الألماني، كما ينتقد هو الظلم الإسرائيلي في إسرائيل، لكان مُنح من ميونيخ جائزة الأخوين شول (Geschwister-Scholl-Preis). ألا يحق لإنسان شجاع وجدير بالثقة كهذا الظهور في مجتمع حضاري يعتبر نفسه ليبراليًا ومنفتحًا على العالم؟ حقًا... أين نعيش إذًا؟".

3

ألفا عام على معاداة السامية

نسمع على نحو متكرر مزاعم مضمونها أن معاداة السامية تعود إلى أكثر من ألفي عام. لكن هل هذا صحيح؟ يمكن أن نستدل إلى هذه الأقاويل بما كتبه أحد هواة كتابة التاريخ من أصول بولندية أرنو لوستيغر (Arno Lustiger) في جريدة فرانكفورتر ألغماينه تسايتونغ (*Frankfurter Allgemeinen Zeitung*) [صحيفة فرانكفورت العامة] أنه كان هناك في "القرن الأول الميلادي سيل من الكتابات المعادية لليهود للكاتب الإسكندراني أبيون"، الأمر الذي دعاه إلى أن يطلق على أبيون اسم "يوليوس شترايخر القديم"[1]. أبيون هذا كان مؤرخًا عاش في القرن الأول الميلادي وعرفته الأجيال اللاحقة بسبب كتاباته السجالية التي رد عليها فلافيوس يوسيفوس [أيضًا في القرن الأول الميلادي] في مخطوطة له عنوانها ضد أبيون (*Contra Apionem*).

إن هذه المقارنة بين أبيون والنازي يوليوس شترايخر ناشر دير شتورمر (*Der Stürmer*) [المهاجم] تمثّل غباء مفرطًا، لا بل إنها وقبل كل شيء غير تاريخية. إنها مقارنة نموذجية في محاولة لتأكيد استمرارية متخيلة ومفترضة مع العالم القديم في مسائل معاداة السامية، إلا أنها في الواقع غير موجودة وغير صحيحة. ذلك أن معاداة اليهود في عصر أبيون القديم لا يمكن مقارنتها بمعاداة السامية في العصر الحديث، وبالتأكيد ليس أيضًا بالحقبة النازية التي استندت إلى نظرية عرقية لم يكن لها وجود في ذلك العصر مطلقًا. علاوة على ذلك، استند أبيون بعدائه ذاك إلى "الطقوس النخبوية" المزعومة لليهودية والغطرسة والاستعلاء في دينهم بكونه صاحب الحقيقة الوحيدة، كما أن نقده كان موجهًا أساسًا ضد

---

(1) يوليوس شترايخر (Julius Streicher): (1885-1946)، كان قائدًا نازيًا وناشرًا لصحيفة دير شتورمر المعادية لليهود. من هنا تسمية أبيون الإسكندراني بيوليوس شترايخر، بحجة أنه معاد لليهود. (المترجمة)

فلافيوس يوسيفوس وكتاباته تلك التي تتعلق بوصف التاريخ اليهودي. فضلًا عن ذلك، لم يطالب أبيون على الإطلاق بإهلاك اليهود أو إبادتهم، إلا أنه ببساطة هاجم هذا الدين فحسب. وقد حاول فلافيوس يوسيفوس بدوره في رده ضد أبيون أن يحط من شأن الديانات الأخرى باعتبارها "أديانًا مزيفة" وباعتبار اليهودية التي يتبعها "الرؤية الحقيقية من الرب"، فضلًا عن تصويرها أنها "التقوى الحقيقية". أما الأديان الأخرى، فلم تمثّل بالنسبة إليه سوى "الفوضى".

يستند الخلاف الديني بنحوٍ غير مباشر بين أبيون وفلافيوس يوسيفوس بالفعل إلى العداوات القديمة الثقافية التي كانت قائمة بين اليهود والمصريين. ولأسباب تتعلق بالتراث الديني اليهودي، كانت تصورات الشعب المصري للجانب اليهودي سلبية للغاية، وهذا ما ساهم بدوره في انتشار كتابات معادية لليهود من الجانب المصري في أوساط كثير من الكتّاب حينذاك. وهنا تجسدت محاولة فلافيوس يوسيفوس تفنيد هذه الكتابات لمنع انتشارها ووصولها إلى روما.

والحال أن أجواءً من الحرية الدينية سادت في العصر القديم على نطاق واسع، خصوصًا في أكبر الإمبراطوريات الغربية، [أي] الإمبراطورية الرومانية، طبعًا في ظل وجود أديان كثيرة مختلفة، حيث كان يوجد كثير من الآلهة، ولكلّ شأن من شؤون الحياة إلهه الخاص؛ وكان بإمكان كل شخص أن يتعبد لإلهه سواء كان مصنوعًا من الخشب أو المعدن أو الرخام، طالما أنه لا يمنع عن الآخرين عبادة آلهتهم. أما اليهودية في عصر الإمبراطورية الرومانية فلم تكن سوى واحدة من الديانات العديدة المنتشرة في أرجاء الإمبراطورية.

ولم يكن المرء في روما يهتم بأمر اليهود إلا عندما يمتنع هؤلاء عن طاعة القيصر أو ممثليه أو عن أن يمنحوا قيصرًا "ما هو له"، أو عندما يقومون بتدمير معابد للآلهة الرومانية أو اليونانية؛ باختصار عندما يقومون بتمرد. وهذا ما حدث في أثناء تمرد المكابيين[2] في القرن الثاني قبل الميلاد ولاحقًا في حرب

(2) المكابيون: مجموعة عسكرية يهودية قامت بثورة على حكام سورية السلوقيين وتمكنت في تكوين السلاسة الحشمونية التي حكمت فلسطين (164-63 ق.م.). (المترجمة)

اليهود ضد الرومان التي بدأت في عام 66 بعد الميلاد وبعد أربع سنوات لاحقة انتهت بغزو القدس وتدمير المعبد اليهودي فيها.

لقد وصف فلافيوس يوسيفوس تاريخ هذه الحرب اليهودية (Bellum Judaicum). وقد كان الأمر هنا يتعلق بمحاولة اليهود التحرر من السلطة الرومانية. وفي القرن الثاني الميلادي تمرد اليهود من جديد تمردًا جامحًا ضد الإمبراطورية الرومانية انتهى بتدمير الرومان لكامل فلسطين. وهنا نجد عاملَي المال والسلطة الدنيوية اللذين أدّيا دورًا في ذلك: فلم يكن طموح الإمبراطورية نشر عقائد دينية، بل جمع ضرائبها من دون مشاكل. أما مسائل معاداة اليهود أو حتى معاداة السامية فلم يكن لها أيُّ دور في تلك السياقات التاريخية.

لا بل إننا نجد اليهودية عمومًا، في ذلك الوقت، تحظى بقدرٍ من بالاحترام، حيث اعتنقها كثير من الرومان في روما القديمة، وحتى عائلات رومانية كانت تحظى بوجاهة ما. ولمدة طويلة لم يكن التحول إلى اليهودية جريمة تستوجب العقاب. لقد كان معظم الرومان، بوصفهم وثنيين، مؤمنين بتعدد الآلهة، ومتسامحين تجاه الأديان الأخرى، وبذلك كانت اليهودية أيضًا مسموحًا بها رسميًا. وقد روى لنا الكاتب السياسي الروماني الفيلسوف شيشرون في القرن الأول قبل الميلاد عن العدد الكبير من الناس الذين اعتنقوا اليهودية في روما.

سفر إستير

لا يمكن التمسك، والحال تلك، بالمزاعم التي تقول بوجود عداوة عامة لليهود. ورغم ذلك، فإننا نسمع رواية يتناقلها اليهود في ما بينهم عبر الأجيال تقول كيف أن الوزير الأعلى هامان، وهو أعلى مسؤول في بلاط الملك الفارسي أحشويروش (486-465 ق.م.)، الذي عاش قبل أبيون بزمن طويل، كانت تتملكه الرغبة في إبادة اليهود. يذكر العهد القديم - في سفر إستير - كيف أنقذت الملكة إستير اليهود بمساعدة اليهودي مُردَخاي. وقد كُتب سفر إستير وفقًا للتراث اليهودي قرابة عام 400 ق.م، ويُعد إحدى اللفائف الخمس

المقدسة للكتاب المقدس العبري[3]. ويذكّرنا احتفال البوريم بخلاص الشعب اليهودي من هذا الخطر. إلا أن بعضهم في وقتنا الحالي يدّعي أن أول اضطهاد معادٍ للسامية ضد اليهود قد أورده سفر إستير. إلا أننا من نظرة متفحصة وقراءة متأنية للصفحات الاثنتي عشرة لتلك الرواية، القصيرة نوعًا ما، التي ترد في الكتاب المقدس، نجد أن هذه القصة قد حدثت تمامًا في سياق مغاير لما يُراد منها.

على المرء أن يأخذ في الحسبان أن سفر إستير قد ضُم إلى شريعة الكتاب المقدس في وقت لاحق جدًا، إضافة إلى حقيقة عدم وجود دليل تاريخي يؤكد حدوث هذه القصة الخيالية، كما هو حال ندرة وجود أدلة تاريخية على القصص والأساطير التوراتية. ومن الجدير بالذكر أن كلمة "الرب" لم ترد ولو مرة واحدة في الكتاب. وفي المدارس الإسرائيلية يُقارن هامان بهتلر رغم أنه لم يقتل أيَّ يهودي. وفي نهاية الأمر فقد عُلّق هامان على الشجرة نفسها التي كان يرغب في أن يشنق عليها اليهودي مردخاي. ورغم ذلك أخذت هذه القصة تُفسّر على أنها المثال الأعلى لكل الاضطهادات اللاحقة لليهود، ولا سيَّما منها الاضطهاد الذي أصاب اليهود في الحقبة النازية.

لم يكن هامان غاضبًا من اليهود لذاتهم، بل من مردخاي فحسب المتفاخر بنفسه الذي لم يقدّم له الاحترام اللازم. فقرر معاقبة هذا الشخص المتعالي الذي "لا يجثو ولا يسجُد له". وفي أي حال، فقد كان هامان الوزير الأول للملك حتى استمد الحق بناءً على ذلك في أن يُعامل باحترام وتبجيل. "وازدُري في عينيه أن يمد يده إلى مردخاي وحده لأنهم أخبروه عن شعب مردخاي. فطلب هامان أن يُهلك جميع اليهود الذين في كل مملكة أحشويروش شعبَ مُردَخاي"؛ وهذا بالفعل ما ورد في سفر إستير (الأصحاح 3: 4-6).

في الحقيقة، كما أخبرنا سفر إستير، إن أيّ شيء من ذلك لم يحدث، بل

---

(3) اللفائف الخمس عبارة عن خمسة أسفار من كتب الحكم والأناشيد في العهد القديم. و"مجيلاه" (Megilla)، كلمة عبرية تعني اللفافة التي يكتب عليها. وحين تُذكر الكلمة في صيغة المفرد، فإنها عادة ما تشير إلى سفر إستير. ولكنها، حينما تُذكر في صيغة الجمع، فإنها تشير إلى اللفائف الخمس. (المترجمة)

على العكس قام اليهود الناجون بمذبحة بحق الشعب المتبقي وثأروا بمجزرة بحق الآلاف من الناس الأبرياء. الكتاب المقدس يخبرنا عن 75,000 قتيل، بيد أن لا أحد يعرف مدى صدقية هذه الأرقام، فربما يكونون أقل أو أكثر. وهنا لا أنوي على الإطلاق مقابلة ظلم بظلمٍ آخر. إلا أن التاريخ يسير أحيانًا على نحو يختلف عمّا تخبرنا به الأساطير والأعياد.

ظهور المسيحية المعادية لليهودية

بدأ عهد جديد بدخول المسيحية إلى روما على يد خليفة المسيح بطرس. في الواقع كانت المسيحيةُ يهوديةً مخففة، وقد تميزت بالامتناع عن الختان وكثير من المحرمات والوصايا اليهودية الصارمة. وانتشرت بسرعة كبيرة بين الطبقات الوسطى الرومانية وكذلك بين طبقة النبلاء الرومان وأصبحت بذلك تشكّل خطرًا على الدولة الرومانية، وهو ما عرّض أتباعها للاضطهاد، فأدانهم القيصر نيرون الذي أحرق مدينة روما بالنار. ومع ذلك، نمت المسيحية وأصبح أتباعها أقوى وعددهم أكبر إلى أن أعلِنت بعد ذلك في القرن الرابع دينَ الدولة.

لم يدم الأمر طويلًا حتى ظفرت المسيحية بالسلطة والنفوذ. وابتداء من القرن التاسع الميلادي بدأ المسيحيون بإقصاء اليهود على نحو متزايد عن أغلبية المهن، وتركوا لهم المهن المحتقرة منهم فحسب كتجارة الخردة وبعض الأعمال التجارية الأخرى. وبرروا لاحقًا عداوتهم لليهود: بأن هؤلاء أشخاص مرابون ومتقاعسون عن العمل، وإبان الحروب الصليبية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر وأيضًا خلال تفشي وباء الطاعون في القرن الرابع عشر ارتُكبت المذابح الأولى بحق اليهود، ولاحقًا في أراضٍ أوروبية مختلفة، خصوصًا في ألمانيا. وحينما انتهت حروب الاسترداد الإسبانية قرابة عام 1450 بالاستيلاء على شبه الجزيرة الإيبيرية من أيدي الموريسكيين(٤)، فرضت حينذاك محاكم التفتيش بقيادة توركيمادا ومن خلفوه تعبير "نقاء الدم" (limpieza

(٤) مصطلح شعبي أطلق على كل سكان شمال أفريقيا من المنطقة المغاربية، وقُصد به خصوصًا المسلمون. (المترجمة)

de sangre). وهو تعبير كان يطلق فحسب على المسيحيين الذين يتحدرون ممن لم يعمَّدوا تعميدًا قسريًا من اليهود أو المسلمين، فهؤلاء المسيحيون كانوا هم الأنقياء. وفي عام 1492 قام ملكا إسبانيا الكاثوليكيين فرديناند وإيزابيلا بطرد اليهود الذين كانوا يعيشون هناك.

لم يكن المسيحيون الكاثوليك الوحيدين في عدائهم الموجّه ضد اليهود؛ فحتى الإصلاحي مارتن لوثر قدّم في عام 1543 في مخطوطته عن اليهود وأكاذيبهم (*Von den Juden und ihren Lügen*) النصيحة للأمراء بتدمير المعابد والبيوت اليهودية التي تقع في مناطق نفوذهم. وفي القرن التاسع عشر تطوَّر عداء المسيحية المبرر ضد اليهود إلى عنصرية معادية لليهود، لكن هذه المرة عنصرية مبنية على حجج بيولوجية "علمية" مزعومة. لقد قام بالفعل من جديد معادو السامية ومعادو اليهودية باستحضار أحد طقوس ما يسمى فرية الدم (Ritualmordlegende)[5]. وفي أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كان المسيحيون القوميون من المعادين للسامية، أمثال حزب "المسيحيون الألمان" الكنسي الإنجيلي، في الحقبة النازية.

عاش اليهود في القرون السبعة الأولى حتى الثامن الميلادي كما هو حال باقي الشعوب الأخرى. ولم يكن هناك من اضطهاد أو ملاحقة خاصة ضدهم؛ بل على العكس، حظي اليهود في زمن إمبراطورية شارلمان بحماية خاصة، وفضلًا عن ذلك اعتمد عليهم كوسطاء مع ممالك الشرق وأيضًا في داخل إمبراطوريته. والسبب وراء هذا أن هؤلاء اليهود كانت لهم صلات في كل مكان، لأن المجتمعات اليهودية من أمستردام حتى سالونيك كانت تتواصل بعضها مع بعض بالعبرية، ومن هنا كان بمقدوره أن يرسل رسائل سرية بواسطتهم. فقد كان معروفًا أنه يفضِّل استخدام مبعوثين من اليهود لإدراكه أنه يمكن الاعتماد عليهم بسبب مهاراتهم اللغوية وعلاقاتهم بالمجتمعات اليهودية.

---

(5) يُطلق عليها كذلك "اتهام الدم"، وهي تهمة أُطلقت على اليهود خلال فترات تاريخية متفرقة على أساس قيامهم بالتضحية بأطفال مسيحيين خلال عيد الفصح اليهودي. (المترجمة)

لم تهتم الكنيسة في القرون الأولى لظهورها بمحاربة غير المؤمنين وإنما كانت تسعى لاستغلالهم أو جعلهم يعتنقون المسيحية. كان يجب على غير المسيحيين، خصوصًا اليهود، أن يدفعوا لها ضرائب خاصة. ومع مرور الوقت أُبعِدوا عن وظائف ومهن محددة، وفي نهاية المطاف كان عليهم أن يعيشوا بعضهم مع بعض في عزلة، في غيتوات. إلا أنه لا يمكن مقارنة هذا كله بما حدث لهنود أميركا الشمالية وأميركا الجنوبية، وأيضًا لسكان الإسكيمو في القطب الشمالي والسكان الأصليين في أستراليا عندما توسعت أمم أوروبا المسيحية لتصل إلى تلك القارات. فلقد ادّعوا أن هذه الأراضي مثل سهول أميركا الشمالية والأراضي العشبية وحتى الجبال الجليدية في القطب الجنوبي ملك لهم، الأمر الذي تسبب بقمع السكان الأصليين ونزوحهم عنها، هذا فضلًا عن الإبادة الممنهجة لشعوب الهيريرو[6] في جنوب أفريقيا؛ لكن يجب الإشارة هنا إلى أن ممارسات كهذه لم يكن سببها الدين وإنما أسبابها تتعلق بالسيطرة على أراضي تلك الشعوب. وحتى الألمان أنفسهم كانوا يريدون لهم "مكانًا تحت الشمس" وأن يوسعوا نفوذ إمبراطوريتهم.

هنا نشير كذلك إلى أنه في وقت أبيدت فيه شعوب كاملة واختفت، نجا اليهود في أوروبا على الرغم من كمية الحقد والكراهية ضدهم وكل أنواع الاضطهاد. لقد كانت حقبة الحروب الصليبية الأسوأ بالنسبة إليهم عندما مرت جحافل محمومة في مدن راينلاند الألمانية في الأزقة اليهودية وقامت بنهب المنازل هناك واغتصاب النساء وقتل الأطفال والمسنين وإضرام النار في المعابد اليهودية. مع ذلك، فقد نجت مجتمعات يهودية لألف سنة أخرى. وما حدث في وقت لاحق خلال ثورة الفلاحين ومع دعوة لوثر إلى إبادة اليهود شكَّل خطرًا على المجتمعات اليهودية، خصوصًا في ألمانيا. لقد هرب كثير من هؤلاء اليهود باتجاه بولندا حيث كان الملك كازيمير يحكم هناك، فاستقبلهم بحفاوة وأقنعهم بالبقاء، فتمكنوا بذلك من الاحتفاظ بلغتهم الألمانية، التي تطورت منها لاحقًا اللغة اليديشية لليهود الشرقيين.

(6) مجموعة إثنية تعيش في مناطق من أفريقيا الجنوبية، أغلبية أفرادها يعيشون في ناميبيا. (المترجمة)

نقطة أخرى في سياقنا: فعلى الرغم من تنامي مستوى خطير من معاداة السامية في بولندا وفي ما بعد في روسيا، والذي أججته الكنيسة الأرثوذكسية، وحدوث أعمال شغب بين الحين والآخر، فضلًا عن بعض المذابح التي سقط بسببها كثير من الضحايا اليهود، نقول إنه على الرغم من ذلك، لم تحدث إبادة كاملة لليهود قط؛ على الأقل ليس قبل ما سمي "الحل النهائي" (Endlösung) على يد النازيين. لقد عاش اليهود حتى ذلك الوقت، وعلى مر القرون، بشبه استقلالية في قراهم، لا بل شكلوا أغلبية سكانية في كثير من المستوطنات. ولم تُمح ثقافتهم وديانتهم إلا حتى منتصف القرن العشرين في أثناء حملات الإبادة التي قام بها الألمان ضدهم.

اليهود في ظل حكم المسلمين

كانت أحوال اليهود في ظل الحكم العربي الإسلامي أفضل بكثير على مرّ القرون الماضية. لقد عاشوا في الأندلس مع المسلمين جنبًا إلى جنب بسلام بين القرنين العاشر والخامس عشر، أي لمدة تتجاوز الخمسمئة عام. إنهم اليهود الأندلسيون ويهود شمال أفريقيا الذين قاموا بترجمة كتب الفلاسفة اليونانيين والمؤلفين المسرحيين من العربية إلى اللاتينية للأجيال القادمة. وعلى الرغم من أن الموريسكيين [العرب المسلمين] شكّلوا الطبقة الحاكمة حيث شغل المسلمون الوظائف العليا، فإن اليهود والمسيحيين عاشوا بحرية وسلام. وبصرف النظر عن الأحكام الصارمة التي فُرضت على أديان بعينها، فقد اختلطت الثقافات بعضها ببعض: كان اليهود يقدمون لجيرانهم المسلمين خبز المصة[7] ويدعونهم إلى الموائد التقليدية عشية احتفال السدر، وكان المسلمون يردون الجميل لليهود بتقديم الخبز الطازج لهم في نهاية عيد الفصح اليهودي. وغالبًا ما كان الذكور المسلمون يُختنون بيد ختّان يهودي.

لقد انتهى ذلك العصر من التعايش المثمر على نحو مفاجئ في عام 1492 مع القرار الذي أصدره الملوك القشتاليون في إسبانيا والذي أدى إلى

(7) خبز غير مخمر وهو خاص بعيد الفصح اليهودي. (المترجمة)

هجرة اليهود منها. وقد طُرد معظمهم من إسبانيا مع صدور ما سمي "مرسوم الحمراء"[8] في عام 1492.

نص المرسوم على طرد اليهود من جميع الأقاليم الواقعة تحت حكم القشتاليين وحكم الأراغون إلى حد أقصاه 31 تموز/ يوليو من السنة نفسها، في حال عدم اعتناقهم المسيحية حتى ذلك التاريخ.

أما من بقي من اليهود فكان عليه أن يتعمّد ليغدو مسيحيًّا؛ وكل من يُضبط وهو يمارس عقيدته اليهودية سرًّا كان يُضطهد ويحاكم من جانب محاكم التفتيش. ووفقًا للروايات القديمة للكنيسة الكاثوليكية فإن تسعين في المئة من اليهود المتهمين من محاكم التفتيش الكاثوليكية قد تحولوا إلى المسيحية بين عامي 1478 و1530، وكانوا متمسكين بمعتقداتهم سابقًا. لقد حُكم على النصف في جميع الحالات بالموت - مثلًا 900 شخص في طليطلة وحدها - وأعدمتهم "محكمة الإيمان" (Autodafé).

يطلق اليهودُ على أنفسهم وعلى أحفادهم اسم السفارديين من الذين عاشوا في شبه الجزيرة الإيبيرية [الإسبانية] حتى تهجيرهم منها بين عامي 1492 و1513. وقد استوطن القسم الأكبر منهم بعد هذا التهجير في أراضي الإمبراطورية العثمانية وفي شمال أفريقيا والمغرب. وفي الواقع، تمكَّن قسم كبير من اليهود الإسبان من النجاة، طبعًا على عكس المسيحيين الأرمن الذين هُجِّروا من قراهم ومدنهم في الأناضول، على يد "حركة تركيا الفتاة" في بدايات القرن العشرين، ومات القسم الأكبر منهم من شدة الجوع في الصحراء. هكذا، بدأت اليهودية الإسبانية حياة جديدة في أنحاء كثيرة، وفي غيرها أيضًا، في شمال أفريقيا والبلقان واسطنبول والإسكندرية وسالونيك وأمستردام وهامبورغ. ونجد ما يشهد لهذه الحياة إلى اليوم تلك المعابد السفاردية الرائعة في كلٍّ من أمستردام وهامبورغ واسطنبول وسالونيك والمغرب. فعلى رغم كل

(8) أصدر الملك الكاثوليكي الإسباني فرديناند الثاني والملكة إيزابيلا الأولى "مرسوم الحمراء" في 31 آذار/ مارس 1492 ونص على طرد كل اليهود من مملكة إسبانيا وأقاليمها. (المترجمة)

الاضطهادات التي تعرضت لها اليهودية السفاردية، فإنها عاشت، لا بل إنها تشكّل اليوم قوة لا يستهان بها في إسرائيل.

عمومًا، عاش كثير من اليهود في الدول الإسلامية، مثل الجزائر والمغرب وتونس ومصر وتركيا وإيران والعراق ولبنان وسورية، لقرون عديدة بسلام وحسن جوار مع المسلمين والمسيحيين على حدٍّ سواء. وحتى لو لم يتمتعوا بحقوقهم الكاملة، فإنهم كانوا مُحترمين ومُقدَّرين. ولم يبدأ العداء بين الجماعات إلا مع تنامي الحركات المناهضة للكولونيالية ونشوء الدول القومية الحديثة، التي صعدت في ظلها القوميات التركية والفارسية والعربية. ولم تكن الدول الغربية وإسرائيل الناشئة حديثًا بريئة تمامًا من نشوب هذا العداء. فلقد جرى تنظيم هجرة اليهود من العراق ومصر والمغرب إلى إسرائيل من جانب الموساد الإسرائيلي؛ وهذه السياسة كانت في جزء منها ضد إرادة السلطات المحلية وضد إرادة المجتمعات اليهودية المعنية. ونذكر هنا أن بعضًا من اليهود الذين هاجروا من المغرب والجزائر والعراق ومصر بإلحاح من الصهاينة إلى إسرائيل يودون اليوم العودة مرة أخرى إلى بلادهم، إذا كان ذلك ممكنًا. وصحيح أنهم يتكلمون عن كراهية جيرانهم العرب لهم إلا أنهم يتحدثون أكثر عن الاحترام والتقدير اللذين تمتعوا بهما في العالم الإسلامي.

لقد أوصى النبي محمد المؤمنين أتباعه بالتعامل مع اليهود بعدل وسلام، حيث اعتبرهم أنهم "أهل كتاب". وصحيح أنه دخل في جدال مع قبائل يهودية كان يبغضها، إلا أن القرآن احتوى تعليمات واضحة وصريحة بشأن كيفية تعامل المسلمين مع أهل الكتاب وأتباعهم مثل اليهود والمسيحيين؛ مثلًا إعفاؤهم من الجندية مقابل دفعهم الجزية ووجوب معاملتهم باحترام وأدب. وصحيح كذلك أنه كانت تحدث على مر القرون بين الحين والآخر، في بعض الدول الإسلامية، بعض الهجمات العدوانية ضد اليهود والمسيحيين، إلا أن وضع اليهود في العالم الإسلامي كان أفضل بما لا يقارن من وضعهم في العالم المسيحي، وإلا لما كان من وجودٍ لـ "عصر ذهبي" كان عنوانه التعايش السلمي بين المسلمين واليهود في الأندلس، ولما استقبلت الإمبراطورية العثمانية مئات

الآلاف من اليهود الذين طُردوا من إسبانيا. ولا ننسى هنا أنه حتى الطبيب اليهودي المعروف الذي يُعتبر من أعظم المفكرين في عصره الحاخام موسى بن ميمون - الذي يُعرف في أوروبا المسيحية باسم Maimonides - قد ارتقى وأصبح طبيبًا والمستشار الشخصي لسلطان المسلمين العظيم صلاح الدين الأيوبي. ويُقال إن نصف سكان مدينة القاهرة ساروا خلف جنازته حين وفاته في عام 1204م.

باختصار: من الممكن الإشارة بكل ثقة في عالم الأساطير إلى أن اليهود هم الشعب الأكثر اضطهادًا على أرض الرب. ولم تكن جريمة الهولوكوست في بُعدها الصناعي سوى جريمة فريدة من نوعها تاريخيًّا. والحال أن تاريخ البشرية مليء بالصفحات المظلمة من الجرائم التي ارتُكبت بحق كثيرين؛ أمثال الأرمن على يد الإمبراطورية العثمانية، وما فعله ستالين بالأوكرانيين، وما ارتُكب بحق الهنود الحمر في جنوب أميركا وشمالها على يد الأوروبيين البيض، وما حدث لقبائل التوتسي من جماعات الهوتو الراديكالية في رواندا.

من المؤسف أن يتشكل لدى أجيال كثيرة من اليهود وعي يرون من خلاله أنهم الضحية الوحيدة في التاريخ. فمن جهة، يفتخر المرء اليهودي بأنه ينتمي إلى شعب مختار من الرب "من بين كل شعوب الأرض". لكن من جهة أخرى، تتشكل لديه مشاعر سخط تجاه الرب نفسه الذي سمح لبشرٍ في إرادتهم أن "يضطهدونا ويبيدونا جيلًا بعد جيل". والحق، وأتحدث بكل موضوعية، أنه حدث لشعوب أخرى وفي أوقات محددة أسوأ بكثير مما حدث لليهود. فمثلًا جرت إبادة الهنود الحمر في أميركا الشمالية بشكل كامل تقريبًا، وإلى اليوم يعامَل الغجر معاملة سيئة في أوروبا. وهذا ما حدث للأقليات الدينية والقومية على مر القرون، ولا يزال يحدث إلى اليوم بحق كثيرين، كشعب التيبت والأكراد والفلسطينيين. يجب على الشعوب، سواء برغبتها أو من دونها، النضال من أجل المساواة في الحقوق والحرية والاستقلال. ونأمل أن يأتي ذلك اليوم الذي يكون حاله على غير ما هو عليه اليوم بحيث تتمكن الشعوب من العيش بسلام بعضها إلى جانب بعض.

معاداة السامية العنصرية

لم تترك معاداة السامية الحديثة مجالًا لليهود لينسلخوا عن جلدهم ولبناء هوية جديدة، حتى لو اعتنقوا المسيحية. ويمكن قراءة ذلك من خلال ما حدث في فرنسا بعد تلك الفضيحة التي طاولت الزعيم اليهودي ألفرد دريفوس (Alfred Dreyfus) الذي اتُّهم بالتجسس لمصلحة الجيش الألماني ودين بتهمة الخيانة الوطنية في عام 1894. وعلى الرغم من اتضاح براءته، طُرد من الجيش بطريقة مذلة ومخزية ونُفي إلى جزيرة الشيطان الفرنسية في الكاريبي. وممن حضر الإهانة التي لحقت بهذا الشخص في باحة المدرسة العسكرية في 5 كانون الثاني/يناير 1895، الكاتبُ النمساوي الهنغاري الجنسية واليهودي الأصل تيودور هرتزل (Theodor Herzl). لقد قرر هرتزل أن يدافع سياسيًّا ويعمل من أجل شعبه بعد أن تأثر بمراسم إهانة دريفوس وشعر بأن هذين الذل والإهانة قد مسَّاه شخصيًا هو أيضًا. ومعروف عن هذا الصحافي والناشر أنه كان مؤسس الصهيونية السياسية الحديثة والقائد الرائد الأول وممهد الطريق الفعلي لنشوء دولة يهودية حديثة، أصبحت في ما بعد حقيقة واقعة: دولة إسرائيل الحديثة.

نشر تيودور هرتزل في عام 1896 كتابه **الدولة اليهودية** (*Der Judenstaat*) الذي كتبه في ثلاثة أسابيع في ظل الأثر القوي الذي تركته قضية دريفوس في نفسه. وتقوم فكرة هذا الرجل على أنه لا يمكن إنقاذ اليهود من معاداة السامية سوى بأن تكون لهم دولة خاصة بهم. وبلا شك استغرق الأمر خمسين عامًا حتى أصبحت رؤيته حقيقة واقعة، كان في خلالها قد أبيد نصف يهود أوروبا الغربية وتقريبًا معظم يهود أوروبا الشرقية.

وفي عام 1924 كتب الجندي العريف، "المحارب القديم" في الحرب العالمية الأولى، أدولف هتلر، كتابًا آخرَ هو كفاحي، وذلك حينما كان مسجونًا في منطقة لاندسبرغ أم ليش (Landsberg am Lech). وأنشأ كذلك منظمة قومية هي حزب العمال الألماني القومي الاشتراكي (NSDAP). كانت أيديولوجيا هتلر قائمة على قومية متعصبة لا تتخللها الرحمة وتستند إلى معاداة عنصرية للسامية. كان معاداة السامية هذه بدائية جدًّا، وحمّلت اليهود مسؤولية صعود

الرأسمالية، فضلًا عن الشيوعية. وصف هتلر اليهود بأنهم جشعون ومتعطشون إلى السلطة وبأنهم لصوص الملكية الفكرية للشعوب المضيفة لهم وعلماء من الدرجة الثانية ومحتالون ومستغلون ومنتفعون من الأنظمة التي يكونون في ظلها. لقد تمثّل هدفه في طرد اليهود الأوروبيين، خصوصًا اليهود الألمان، أو إبادتهم. هكذا، لم يتردد الرجل في قتل ستة ملايين يهودي بالغاز وإطلاق النار عليهم وحرقهم قبل أن يضع حدًا لحياته في نيسان/ أبريل 1945، بعد أن خسرت ألمانيا الحرب، واضطرت إلى القبول بالاستسلام غير المشروط.

ما يلفت هنا هو محاولة رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو، في تشرين الأول/ أكتوبر 2015 زعزعة هذه الحقائق التاريخية، عندما ألقى خطابًا أمام الجمهور في المؤتمر الصهيوني السابع والثلاثين في القدس. فادعى بوقاحة وجدية أن هتلر كان يرغب "فحسب" في ترحيل اليهود، إلا أن مفتي القدس محمد أمين الحسيني، الذي كان زعيمًا للفلسطينيين، هو الذي أقنعه في أثناء زيارته لبرلين في تشرين الثاني/ نوفمبر 1941 بـ "حرق" اليهود، على الرغم من أن قائد قوات الرايخ الخاصة آنذاك هاينرش هملر كان قد أمر منذ مدة طويلة بإنشاء معسكرات الاعتقال في أوشفيتز وكان أكثر من 30.000 يهودي قد قتلوا في بابي يار (Babi Jar) في أوكرانيا. غير أن نتنياهو، وبطريقة وقحة وغبية، يحرّف الآن الحقائق التاريخية المعروفة لخدمة أجندته السياسية الحالية، حتى يسيء إلى الفلسطينيين تاريخيًا وأخلاقيًا.

مع موت هتلر ونهاية الحرب العالمية الثانية، انتهى الفصل الحديث لمعاداة السامية العنصرية. بالتأكيد قد يوجد معادون للسامية إلى اليوم، إلا أن كراهية اليهود بالنسبة إلى معظم الناجين والأجيال القادمة تُعتبر من مخلفات الزمن الماضي. بيد أن هذا لم يمنع المحرضين الصهاينة، دائمًا وفي كل عام، من أن يتصيدوا أحد الأشخاص ممن يزعمون أنه معادٍ للسامية أو إظهار ذلك علانية؛ كما حدث في الآونة الأخيرة مع ياكوب أوغشتاين[9] الذي ظهر فجأة

(9) صحافي وناشر مجلة دير شبيغل وأحد مالكيها، وهو ابن مؤسس الصحيفة رودولف أوغشتاين. (المترجمة)

على قائمة المشكوك فيهم، تلك القائمة التي يجددها سنويًا مركز سيمون فيزنتال (Simon Wiesenthal Center) في ولاية كاليفورنيا، وهنا نجد أن هذا الرجل قد عُدّ من بين أخطر عشرة معادين للسامية في العالم، حتى يشعر المرء بأن تهمة معاداة السامية قد أصبحت كرنفالًا سنويًا تقوم بتنظيمه جماعة من البلهاء.

لا يكلّ أمثال هؤلاء من صُناع معاداة السامية من الادعاء أن أشخاصًا، أمثال هايو ماير وألفرد غروسر ونوام تشومسكي وغيرهم من اليهود الذين ينتقدون دولة إسرائيل، هم "يهود كارهون لأنفسهم" أو حتى "يهود معادون للسامية". لا بل حتى الفيلسوفة حنة أرندت (1906-1975) قد اتُّهمت بأنها شخصية مدفوعة ومتأثرة بنزعة كره اليهود لأنفسهم، لماذا؟ لأنها بسبب شجاعتها قدَّمت بعضًا من الطروحات، في كتابها[10] عن محاكمة أيخمان، التي لم تتناسب مع المؤسسة اليهودية. فعلى سبيل المثال تبنت أرندت طرحًا محرجًا بأن معاداة أدولف أيخمان للسامية لم تكن عن قناعة منه، بل كان الرجل عبارة عن موظف مجتهد يسعى بكل جوارحه ليحصل على الرضى الكامل من رؤسائه. وما جعلها تمعن في التفكير هو تفاجؤها باعترافات أيخمان في صالة المحكمة في القدس حينما قال بكل ثقة بأنه لم يكن يكره اليهود وإنما كان يؤدي واجبه فحسب، حتى إنه لم يقتل يهوديًا واحدًا وكان عمله مقتصرًا على نقل اليهود في القطارات إلى معسكر أوشفيتز النازي. من هنا عدم شعوره بالمسؤولية تجاه اليهود حينما جرى اقتيادهم بالقطارات. وأكدت حنة أرندت أن الأوامر لو وجِّهت إلى أيخمان بتعبئة القطارات بأشخاص من الصين أو من الإسكيمو أو من البوذيين لكان نفَّذ الأوامر كذلك. هذا ما تعنيه أرندت بـ**تفاهة الشر** (*Banalität des Bösen*): ذلك القتل الوحشي الهائل والمنظم إداريًا لملايين البشر الذين لا تعرفهم ولم يكن لديك أيُّ شيء ضدهم.

قوبلت حنة أرندت باحتجاج عنيف على الطرح هذا واتُّهمت بأنها تقلل من أهمية جرائم النازية ضد اليهود وتصوِّر الجناةَ على أنهم ضحايا أبرياء وغير

(10) كتاب أرندت المقصود هنا هو: أيخمان في القدس: تقرير حول تفاهة الشر، (*Eichmann in Jerusalem: Ein Bericht von der Banalität des Bösen*) (المترجمة)

مؤذيين. وبالتأكيد لم يكن مقصدها ذلك. فقد كانت أفعال القتل تلك وحشية، حتى لو كان الفاعلون غير وحوش، فهي لم ترغب في التقليل قط من وحشية هذه الأفعال. ما أرادته أرندت من هذا الطرح هو أن نتفكر فحسب في أن لا حاجة كبيرة إلى ارتكاب أفعال كهذه. وفي النهاية، فقد عبّرت عن هذا الرأي بعيدًا مما كان يحدث في إسرائيل وما زال للأسف يحدث إلى اليوم. وقد فُسرت كلمة تفاهة (Banalität)، في عنوان مخطوطتها، على نحوٍ سيئ؛ حتى إن تعبير تفاهة الشر غدا اليوم في ألمانيا شائعًا جدًا.

الفيلوسامية في زمن ما بعد الحرب[11]

بموجب القانون حُظرت كراهية اليهود الواضحة بعد الحرب، الأمر الذي جعل كثيرين ممن كانوا نازيين قدامى أو حتى مقتنعين بمعاداتهم السامية يصمتون أو يبتعدون عن تلك الأحاديث علانية. وشيئًا فشيئًا ما عاد لمثل هؤلاء المتشددين من وجود، وحلّ محلهم في ألمانيا جيلٌ جديدٌ ميال إلى الانفتاح على العالم انفتاحًا كاملًا، وليبراليون وديمقراطيون ومحبون للسلام. ورغم ذلك يظهر أمامنا أحيانًا أن ثمة متشددين لا يزالون موجودين ولا يمكن إزالتهم.

لقد اعتُقد لوقت طويل أن معاداة السامية قد اختفت تمامًا، لنشهد بدلًا من ذلك موجة من الفيلوسامية والانبهار بموسيقى كليتسمر[12] والحماسة الساذجة لإسرائيل، أول دولة يهودية. لكن كثيرين من اليهود يحتقرون بشدة هذه النزعة المفرطة في الفيلوسامية. فمن غير الممكن أن تنشأ علاقة طبيعية ومريحة مع اليهود، خصوصًا في ألمانيا التي كانت ولا تزال تحمل وزر الهولوكوست كغيمة سوداء في تاريخها.

---

(11) يستخدم المؤلف، كما هو دارج في الألمانية وغيرها، اصطلاح Philosemitismus الذي يعني، من بين ما يعنيه، الحب أو التعاطف أو إظهار المودة للسامية. هذا ما تفيده لغويًا البادئة -Philo. ويُستخدم بعض الأحيان كمقابل للعداء للسامية. في ما يلي سنستخدم في الترجمة الصيغة اللغوية الأصلية فيلوسامية. (المترجمة)

(12) نوع من الموسيقى والأغاني اليهودية للأشكناز. مزيج من موسيقى شعوب عدة، وتُنسب إلى شرق أوروبا ووسطها. (المترجمة)

مرةً، في أحد المؤتمرات الألمانية - الإسرائيلية الذي عُقد في برلين في عام 2014، حاول معظم المشاركين الإسرائيليين هناك أن يتقربوا أكثر من هذه النزعة الفيلوسامية الألمانية. في أثناء ذلك عبَّر أحد الأشخاص بقوله إن الألمان لا يرون في اليهود سوى ضحايا لا حول لهم لا يمكن المرء أن يكون سيئًا تجاههم. وهذا هو سبب الادعاءات المتكررة في ألمانيا أن إسرائيل ليست عدوانية وإنما تدافع ببساطة عن نفسها. إن الفيلوسامية، وفقًا لتلك الآراء، هي جزء من الحب الذاتي في ألمانيا. هكذا، فإن الألمان يحبون اليهود ليتمكنوا بذلك من حب ذواتهم أيضًا، كما يعلِّمهم التاريخ.

في الحقيقة، ظهرت الفيلوسامية في القرن التاسع عشر بالتوازي مع ظهور معاداة السامية. فقد كان التنوير الألماني في ذلك الوقت مناصرًا للسامية؛ لماذا؟ لأنه كان في الأساس مناهضًا للمسيحية. خذ مثلًا كتّابًا وفلاسفة أمثال غوتهولد لسينغ (1729-1781) ويوهان هردر (1744-1803)؛ فقد كان أمثال هذين من المعجبين بالعهد القديم والمحبين لليهود. ولنشدد أنه قد وُجد ذلك الحب الرومانسي لليهودية الذي كان مليئًا بالشغف خلف يهودٍ لهم دم حام، ذوي شعر أسود، وحتى نذكر أن بعض هؤلاء اليهود قد أداروا صالونات ثقافية خاصة في برلين عُدّت من أهم أماكن اللقاءات الثقافية في تلك الحقبة الزمنية. أما ما نشهده اليوم في نزعة الفيلوسامية فهو باهت أو ساذج ثقافيًا: إنها تقتات على مشاعر الذنب والتكفير [الألمانية]، لهذا ليس من الغريب أن يقابل المرء كثيرًا من المسيحيين في الدوائر الموالية لإسرائيل وفي تظاهراتها. ولدينا مثال مسيحي على ذلك: حركة "مسيحيون من أجل إسرائيل" (وهي حركة قوية في داخل الكنائس المسيحية). فضلًا عن ذلك، فهناك أيضًا اتجاه حب إسرائيل، ولا سيَّما بين الإنجيليين، التيار المسيحي المحافظ. وربما يكون هذا الطابع المسيحي أحد أسباب وقوف أنجيلا ميركل تقليديًا إلى جانب إسرائيل. ومن الغريب أن يواجهنا قليل من المواقف المعادية للسامية أكثر عند منتقدي السياسة الإسرائيلية منه عند الفيلوساميين، الذين يعتقدون أن واجبَهم الدفاعُ عنا نحن اليهود من معادي السامية وخصوصًا الدفاع عنا من أولئك اليهود الذين لا ينتمون إلى المؤسسة الصهيونية.

يصح أن الفيلوساميين يحبون اليهود إلا أنهم، وفي المقام الأول يحبون أنفسهم، حيث تعزز لهم الفيلوسامية تقديرًا لذواتهم، وهم فخورون بأنفسهم بأنهم أناس طيبون ويشعرون بالتالي بالرضى والإشباع الروحي الذاتي، كما أصبحت عبارات مثل: "إنني لا أكره اليهود، إذًا أنا إنسان طيب" متداولة ودارجة؛ إنها عبارات تطورت كذلك إلى جمل كهذه: "إنني أقرأ كيشون، إذًا أنا غير معادٍ للسامية"[13] أو جمل مثل "أتهمُ الآخرين بمعاداة السامية، إذًا أنا براء منهم". ويمكن ذكر عدد لانهائي من الممثلين هؤلاء من الجمهور الألماني. لكن لا ننسى: سيبقى اليهود بالنسبة إلى مناصري السامية يمثّلون شأنًا خاصًا جدًا.

لقد تَشكَّل لدى كثير من الألمان بعد الحرب العالمية الثانية وعيٌ بأنهم ألمان طيبون طالما لم يقتلوا يهوديًا واحدًا. لكن أيضًا ما داموا بصمتهم على تلك الجرائم قد سمحوا بحدوثها، فإنهم يفضّلون كبت ذلك.

بالتأكيد لا يريحني وجود أشخاص يكرهونني لمجرد أنني يهودي. وبالتأكيد يمكنني الدفاع عن نفسي بشكل جيد عند التعرض لمواقف فيها اعتداءات لفظية. ولكن كيف عليّ الدفاع عن نفسي أمام هؤلاء الفيلوساميين؟ وهناك مثل شعبي عندنا نحن اليهود: "ليحمني الرب من أصدقائي، أما أعدائي فأنا كفيل بهم". وفي الواقع، فإن صداقة الأشخاص الفيلوساميين محرجة ومتعبة وغير محمودة. إنني لا أرغب باعتباري يهوديًا في أن أكون مكروهًا أو محبوبًا لأنني يهودي فحسب. إنني أفضّل معاديًا صادقًا للسامية على مناصرٍ زائف للسامية. وكما هو التعبير الجميل: "إن المناصرين للسامية [الفيلوساميين] هم أعداء للسامية، لكنهم يحبون اليهود".

---

(13) الإشارة هنا إلى الكاتب إفرايم كيشون (Ephraim Kishon) الكاتب الإسرائيلي الساخر، من أصل مجري. يعتبر أحد أنجح هجائي القرن العشرين في البلدان الناطقة بالألمانية. (المترجمة)

4

معاداة السامية في الوقت الحاضر

عندما سيبحث المؤرخون في المستقبل في العلاقات الألمانية - اليهودية على مدى الخمسة والعشرين عامًا الماضية، سيرون في أغلب الظن عدم وجود معاداة للسامية تقريبًا، على الأقل من الجانب الرسمي أو من جانب الدولة. لا بل على العكس؛ حيث تقرّ مثلًا جميع الجهات وتؤكد، خصوصًا المعاهد الإسرائيلية واليهودية، بأن المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل تقف بحزم إلى جانب إسرائيل. إن في جميع الأحزاب السياسية، بما فيها حزب الخضر، من هم مثل فولكر بيك وكلاوديا روت يقفون موقفًا لامباليًا أمام ما تفعله إسرائيل، ويغضون النظر عن جرائم الحرب وانتهاكات القانون الدولي وأيضًا المعاملة الشائنة لإسرائيل تجاه الفلسطينيين، ذلك أنهم يؤمنون أو ربما يأملون بأنهم يقفون إلى الجانب الصحيح من التاريخ. ما يريده ممثلو حزب الخضر [من فئة] الشباب هو التكفير عن خطايا آبائهم الذين يثورون ضدهم والقيام بتصحيح أخطائهم؟ كيف؟ بصمتهم الدائم عن الأخطاء التي تقوم بها إسرائيل. وهذا ما نجده في مسعى الكنيسة الإنجيلية أيضًا للتكفير عن سلوكها، أيام الرايخ الثالث، حينما وقفت بحزم وإخلاص خلف هتلر، وصمت كذلك كثير من المسيحيين الألمان البروتستانت تجاه الجرائم المرتكبة بحق اليهود، بل كانوا شركاء في ما حدث لهم. ولا يبدو الأمر مختلفًا أيضًا مع الكنيسة الكاثوليكية، التي كان لها نصيب في ارتكاب تلك الجرائم. إن سلوكيات كهذه يمكن للأسف أن نجدها عند اليساريين، أمثال بترا باو، الذين ينتهجون هذه السياسة في التكفير عن الذنب إلى حد أنهم يرون أيَّ انتقاد بسيط لإسرائيل دليلًا على معاداة السامية. وهذا بالضبط ما يؤلمني عندما أرى الشكل الذي يمثِّل به هؤلاء السياسيون المصالح الإسرائيلية في ألمانيا.

من يريد بالفعل فهم ما تعنيه معاداة السامية الحقيقية يمكنه النظر في كثير

من الكتب التي تتحدث عن ذلك، حيث لدينا ما يكفي من الكتابات عن ذلك ومن السير الذاتية التي تحدثت في فضائها. لقد كان على الأطفال اليهود أن يختبروا، وعلى نحو مباشر يوميًا قبل الحرب العالمية الثانية، ما تعنيه معاداة السامية. يكفي المرء، مثلًا، قراءة أسطر قليلة كتبها باول سيلان في عام 1933 إلى عمته التي كانت تقيم في فلسطين، يشكو بها تألمه من الكراهية التي لاقاها اليهود في مدرسته والتي كانت بالنسبة إليه تجارب قاسية.

وبما أنني شخصيًا أتيت إلى ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية والتحقت بالمدرسة هناك، فلا يمكنني أن أروي عن أيِّ تجارب سلبية، باستثناء حادث واحد مؤسف. بل على العكس من ذلك، أدعى حتى اليوم إلى لقاء زملاء المدرسة ويُرحَّب بي دائمًا باحترام وتقدير. ولدي قناعةٌ كاملة بأن حالتي هذه ليست فريدة. فما عاد من وجود لكراهية اليهود، كما أن معاداة السامية بمفهومها الكلاسيكي قد انتهت مع سقوط الرايخ الثالث. لهذا فإن من السخف وعدم المسؤولية وضع أبسط انتقاد لإسرائيل على قدم المساواة مع معاداة السامية.

رغم ذلك، يمكن أن يسأل المرء عن وضع معاداة السامية في ألمانيا، ألا يزال تأثير الأساطير "السامة" في ما يخص اليهود بأنهم مصاصو دماء ومراوغون ومرابون موجودًا؟ وإذا كانت الإجابة بنعم، فأي المواقف والأحداث تعكسها هذه الأساطير؟

تعلن وزارة الداخلية على نحو منتظم عن عدد الجرائم التي تندرج تحت مسمى "جرائم معاداة السامية". وتشمل هذه الجرائم أعمالًا غوغائية موجَّهة ضد يهوديات ويهود، وحرقًا متعمدًا للمعابد اليهودية، وتدنيسًا للمقابر اليهودية أو تخريبًا لشواهدها الحجرية، فضلًا عن أعمال عنف نادرة. ومع الأخذ في الحسبان الأرقام التي تقدِّمها وزارة الداخلية على الأمد الطويل، يمكن ملاحظة أن ما من اتجاه تصاعدي في الاعتداءات، وكما نجد فإنها تتأرجح بين سنة وأخرى. وتتعلق معظمها بجرائم الغرض منها البروباغندا وإلحاق الضرر بالممتلكات، وبجرائم تحريض وفتن، وأيضًا مخالفات لقانون التجمعات.

وكما عبَّرت وزارة الداخلية، فإن أعمال عنف مثل حالات الحرق أو التفجير التي تطاول النصب التذكارية أو المعابد اليهودية لا تجري على نحو ممنهج. وتُظهر كذلك إحصاءات الجرائم في ألمانيا أنه ليس هناك سوى جزء صغير من الجرائم ذات الدوافع السياسية تكون موجهة ضد اليهود أو المؤسسات اليهودية. كما سجلت وزارة الداخلية في عام 2012 عدد الجرائم ذات الدوافع السياسية، التي بلغ عددها 2464 جريمة، ولم يكن من بينها سوى 41 حالة صنفت من ضمن جرائم "أعمال عنف معادية للسامية". وبهذا تعبِّر هذه الأرقام عن مدى ضآلة حوادث كهذه. لكن، على الرغم من القلق الذي تسببه هذه الحوادث، والتي يجب رفضها طبعًا، فلا يمكن، والحال هذه، الحديث عن "موجة من معاداة السامية".

كذلك لا تؤرقني نتائج الإحصاء التالي الوارد في دراسة أجرتها مؤسسة فريدريش إيبرت (عنوانها "تحوُّل المركز")، والتي ترصد المواقف اليمينية المتطرفة في المجتمع في عام 2012 كالآتي:

- يعتقد 28 في المئة ممن شملتهم الدراسة أن اليهود قد يكون لهم تأثير كبير في العالم؛
- يجد 36 في المئة منهم أن اليهود استفادوا من الماضي ويجعلون الألمان يدفعون ثمن ذلك؛
- بينما يعبِّر 61 في المئة منهم عن وجوب أن تطوى صفحة الجدال بشأن تعرُّض اليهود للاضطهاد.

ماذا يعنيني في ما تعتقده نسبة 28 في المئة أو ما إذا كان هناك 61 في المئة من الناس يجدون أنه يجب وضع حدٍّ للنقاش في شأن اضطهاد اليهود؟ بالنسبة إليَّ، لا تعنيني هذه النتائج. فما يهم أننا نعيش في دولة حرة بحيث يمكن كل شخص التعبير عن أفكاره ومعتقداته وما يريده، والأهم أنني أضع ثقتي بدولة القانون.

الجرائم المعادية للسامية

يشير أول تقرير نشره البرلمان الألماني [البوندستاغ] في عام 2012 بشأن معاداة السامية إلى أن 90 في المئة من الجرائم المعلن عنها كجرائم معادية للسامية قد ارتكبها جناة مرتبطون سياسيًّا بفضاءات يمينية. ووفقًا للتقرير، تنتشر مواقف معادية للسامية مستترة، وتُعتبر الأنموذجية في ذلك، "إلى حدٍّ بعيد" يصل إلى "مركز المجتمع". ويقدِّر الخبراء والمختصون الذين عملوا في هذا التقرير أن معاداة السامية تنطبق على 20 في المئة من السكان. وما يبدو بالنسبة إليهم أنه الأخطر هو "ما يخص أفكار اليمين المتطرف في قدرة الارتباط بمعاداة السامية التي تتجاوز حدودها إلى مركز المجتمع فضلًا عمّا هو غير منبوذ منها على نحو كافٍ". ويُذكِّر التقرير بالإنترنت باعتباره الوسيلة التي تنتشر من خلالها مواقف معاداة السامية وكذلك [يستخدمها] المتطرفون اليمينيون ومنكرو الهولوكوست والإسلاميون المتطرفون الذين ينشرون دعاياتهم. كما أوصى فريق الخبراء بأنه يجب على لجنة التحري المختصة بالإنترنت والمجتمع الرقمي (Internet und digitale Gesellschaft) أن تناقش ما يسمى القوالب النمطية السلبية المعادية للسامية ومحتوياتها. وبالفعل، فهناك كثير من العبث واللغو الذي ينتشر على الإنترنت؛ كتحريضات هنريك برودر على سبيل المثال من خلال مدونته التي عنوانها "محور الخير" (Achse des Guten) التي تهدف في المقام الأول إلى الوقوف ضد المسلمين والمعارضين السياسيين والمختلفين معه فكريًّا.

بالتأكيد هناك وجود لمعاداة السامية المستترة، إلا أن السؤال الذي يُطرح هنا يتعلق باعتماد المعايير في ضبطها. ما يدعو إلى الشك هنا هو عندما يترك المرء سلطة تفسير (Deutungshoheit) مصطلحات كهذه لأشخاص لهم تصوراتهم الخاصة أيضًا بشأنها. ومؤخرًا نُشرت دراسة للحكومة الاتحادية الألمانية عن التطرف اليميني تبيِّن بوضوح الأرضية الخصبة للفكر اليميني المتطرف. أما أن نسمع من أشخاص مثل برودر، ويوتا ديتفورث عن تلك الخلفيات لليمين المتطرف، فهذا ما لا يمكن أن يتوقعه المرء.

صرَّح هذا الشخص [برودر] مرةً خلال جلسة الاستماع الأولى التي عقدها

البرلمان الألماني بشأن موضوعة معاداة السامية في 17 حزيران/ يونيو 2008:
"إن معاداة السامية ليست لها علاقة بالأحكام المسبقة بل هي مرتبطة بمشاعر الاستياء"، حيث يسري "الحكم المسبق وفقًا لسلوك شخصٍ ما، في حين أن الاستياء يتعلق بوجود هذا الشخص، فلا ينظر معادي السامية إلى اليهودي بنحوٍ سلبي بسبب وضعية هذا اليهودي أو وفقًا لما يفعله، بل يستاء منه بسبب وجوده في حد ذاته". إلا أن برودر نفسه يمارس هذا الاستياء ضد المسلمين ويضعهم بكل سرور على قدم المساواة مع الإسلاميين والإرهابيين ويعلن أنهم يشكّلون خطرًا على حضارتنا الغربية. وهناك أيضًا من يستاء من وجود السود واليهود أو البدو ويشير إليهم بازدراء على أنهم "غجر".

في الواقع إن لمن الصعب الوقوف ضد مشاعر الاستياء هذه. وحتى أنا ألاحظ بأنني شخصيًا لدي مشاعر استياء أحملها بين الحين والآخر. وقد اكتشفت أنني أحمل تحفظات تجاه النساء المنقبات، وأكثر من ذلك تجاه النساء اللواتي يغطيهن الحجاب تمامًا. كما لدي تحفظات أيضًا على اليهود الذين يحملون نجمة داود على صدورهم وكأنها ميدالية عليهم إظهارها للناس. كما أشعر بالريبة وعدم الارتياح مع المسيحيين الذين يعلقون الصليب حول أعناقهم.

لكن عليّ القول هنا إن ما أحمله من مشاعر كهذه ليس موجهًا ضد أشخاص بعينهم، بل ضد ارتداء الرموز الدينية. إنني أحاول تفهّم هذا حينما يتعلق الأمر بإحدى النساء المهاجرات وأقنع نفسي بأن لباسها مرتبط بالتقاليد التي تحملها، لكنني لا أتفهم هذا الأمر مع النساء الألمانيات اللواتي يعتنقن دينًا آخر. أعلم جيدًا أن هذا، وبحكم المنطق، خطأ مني، إلا أنني لا أستطيع إلا الوقوف ضد ذلك. وعمومًا، فإن هذا الشعور بالاستياء الذي يصدر عني تجاه هؤلاء النسوة المنقبات ليس سوى شعور عابر ويختفي مع اختفاء المنقبة من أمام ناظري.

والحال أن اختزال معاداة السامية، التي قادت إلى موت يهود كثُر، في أنها مجرد استياء لهو أمر خاطئ وخطير وسخيف. إن معاداة السامية هي عنصرية خالصة وخطرة يجب مكافحتها.

لدى الجميع مشاعر استياء أو أحكام مسبقة على الآخرين. ومعظمنا لا يلاحظها مباشرة، وقد تقود عند القليل منا إلى اعتداءات. إن الأشخاص الذين لديهم مشاعر استياء أو أحكام مسبقة عادة لا يشكّلون خطرًا، إلا أن الأمر مختلف مع مشاعر الكراهية والاحتقار، ذلك أن الكراهية هي عاطفة شديدة، كما هو أمر عاطفة الغيرة، لهذا السبب تبحث عاطفتا الغيرة والكراهية مع بعضهما عن كل ما تخلقه المعاناة. لكن يمكن الإنسان التخلص من عاطفة الكراهية. الأصعب في الحقيقة هو مشاعر الاحتقار، ذلك أنها تتميز بكونها سمةً شخصية يعود سببها إلى عجز كامنٍ في ميزة التعاطف عند الإنسان، والتعاطف هو مسألة لا يمكن الإنسان تعلُّمها. وأعتقد أن مشاعر الاحتقار والازدراء تؤدي إلى الحط من شأن الآخرين وتؤدي في النهاية إلى التمكن من إرادة إبادة الآخرين، سواء أكانوا يهودًا أم مسلمين أم بدوًا أم من السود... أم غير هؤلاء.

قد يتساءل المرء: هل يحمل الإسرائيليون أحكامًا مسبقة متحيزة أو لديهم مشاعر استياء ضد العرب؟ الجواب: نعم، بالتأكيد لدى الإسرائيليين أحكام متحيزة مسبقة على العرب، بل وأكثر من ذلك: تتملكهم مشاعر احتقار ضدهم. إن الإسرائيليين لا يكرهون العرب فحسب، بل يحتقرونهم، الأمر الذي يسمح لهم، نظرًا إلى مصيرهم والمقولات التي تتناول موتهم، بعدم الشعور بالذنب تجاههم.

من البداهي، والحال هذه، ألّا يحب الفلسطينيون الإسرائيليين، ولا يمكنهم محبتهم، وذلك بسبب كل ما فعله اليهود وما زالوا يفعلونه إلى اليوم بحق الفلسطينيين. وغالبًا ما يسمع المرء بهذا الشأن مزاعم ساذجة، مثلًا: لا يمكن أن يكون العرب معادين للسامية لأنهم هم أنفسهم ساميون. ما يجب على المرء إدراكه هنا هو أن مصطلح معاداة السامية هو مجرد اصطلاح أكاديمي يعبِّر في جعبته عن كراهية اليهود. أما (تاريخيًا) فيدلّ مصطلح الساميين على الشعوب التي كانت تتكلم اللغة السامية مثلًا العرب واليهود والآراميون وغيرهم.

العرب هم جماعة إثنية ناطقة بلغة سامية في شبه الجزيرة العربية وشمال أفريقيا، وأغلبيتهم أصبحوا مقيمين في البلدان العربية. واليهود أيضًا هم جماعة إثنية ناطقة بلغة سامية ومنتمون إلى الشعب اليهودي، ورأيي أنهم يمثّلون جماعة ذات مصير مشترك. ليس كل اليهود إسرائيليين، وليس كل الإسرائيليين يهودًا. كان لدى كثير من الألمان أحكام مسبقة وتحاملٌ على اليهود وقد حرصوا على تنميتها ورعايتها على مدى قرون طويلة. إلا أنه، من خلال الأيديولوجيا النازية والتلاعب بمشاعر الناس من طريق البروباغندا ضد اليهود، والتي كان لها حضور في روضات الأطفال، تطورت مشاعر الاحتقار للتأثير في الألمان بجعلهم يحتقرون اليهود ويشمئزون منهم كما يشمئز المرء من الجرذان؛ كما لو أن اليهود ليسوا بشرًا. من هنا لا نفاجأ من تلك المقارنات في البروباغندا النازية التي كانت تقارن اليهود بالجرذان، الأمر الذي كانت تعكسه مشاعر الاستياء والأحكام المسبقة الجاهزة عن اليهود ضمن مشاعر الاشمئزاز والازدراء. ولهذا السبب يمكن المرء قتلهم جماعيًا من دون تأنيب ضمير، بل يمكنه أيضًا ارتكاب جرائم قتل جماعية حينما تُفتقد أيُّ مشاعر عاطفية. مشاعر الاستياء وحدها لا تكفي لقتل ملايين الناس. فالأمر يتطلب وجود أشخاص، أمثال أدولف أيخمان، ينفّذون الأوامر بهدوء وبلا تفكير، أو أقصى ما يمكن أن يسألوه هو إن كان عملهم يتم على أكمل وجه وإذا كان فعالًا.

أيضًا هناك من الفلاسفة من وقف على اصطلاح مشاعر الاستياء، مثل فريدريك نيتشه الذي يرى أن المرء الذي يحمل هذه المشاعر تجاه شخصٍ أو مجموعة أخرى فإنه يحمل في لاوعيه مشاعر النفور منهم. وهذا النفور هو في الأصل عبارة عن مشاعر ناتجة من الأحكام المسبقة على الآخرين، والحسد، والشعور بالدونية وما شابه ذلك.

تُعتبر البيانات الرسمية في فرنسا عن جرائم معاداة السامية أدقَّ إلى حدٍّ ما. ووفقًا لهذه البيانات نجد أنه قد سُجل في فرنسا، في النصف الأول من عام 2012، قرابة 310 حوادث مرتبطة بمعاداة السامية، من بينها 81 جريمة تُعدُّ جرائم عنف. وتشير إحصاءات السنوات الماضية إلى أن أغلبية جرائم العنف ضد اليهود في هذا البلد تُرتكب من جانب أشخاص ذوي خلفية عربية أو

مسلمة أكثر منها من جانب أشخاص ينتمون إلى اليمين المتطرف. وفضلًا عن ذلك، تشير التقديرات غير الرسمية إلى أن نصف جرائم العنف ضد السامية يقوم بها شبان مسلمون. وهذا أمرٌ خطير نظرًا إلى أن المسلمين يشكلون حوالى 8 في المئة من نسبة السكان. مع ذلك ليس لهذه الجرائم علاقة بمعاداة السامية بمفهومها الكلاسيكي. وعندما يقوم ذوو خلفية عربية في ألمانيا أو فرنسا بالتعبير عن إحباطهم من اليهود، فهذا أمرٌ مرتبطٌ بالصراع الدائر في الشرق الأوسط. أيضًا اليهود الفرنسيون يصطفون جزئيًا بحماسة خلف إسرائيل، ولا يتردد بعضهم في إظهار كرهه للمسلمين ونفوره منهم. بيد أنهم، مع ذلك، لا يرتكبون جرائم أو أعمال عنف ضد العرب، على الأقل في فرنسا.

تشير استطلاعات الرأي في ألمانيا أيضًا إلى تزايد المواقف المعادية للسامية بين فئة الشباب من المسلمين، كما تُرتكب أيضًا هنا اعتداءات على اليهود من شبان يحملون خلفية مسلمة أو عربية. ووفقًا لاستطلاع نُشر في عام 2010، نشره يورغن مانسل وفيكتوريا شبايزر[1]، فإن شبانًا بنسبة 24.9 في المئة من خلفية تركية وشبانًا بنسبة 40.4 في المئة من خلفية عربية يرون، ومن دون أي تحفّظ أن "اليهود لهم تأثير كبير في العالم". بينما كانت النسبة 3 في المئة فقط بين الشبان الذين ليست لديهم خلفية مهاجرة. مع ذلك، فإنني لا أرى أن هذا يؤشر إلى معاداة السامية بل إنه عبارة عن أحكام مسبقة، وهو أمرٌ تقع مكافحته على عاتق الجميع. وإن أحكامًا مسبقة كهذه لا تتحول إلى معاداة للسامية إلا عندما تفوح منها مشاعر الكراهية والاحتقار ضد اليهود كلهم.

فضلًا عن ذلك، فإن معاداة السامية، وفقًا للدراسات التجريبية في جمهورية ألمانية الاتحادية، هي في حالة تراجع منذ ستينيات القرن الماضي. وأظهرت كذلك استطلاعات حديثة مثل دراسة البروفسور فيلهلم كيمبف، وعنوانها "معاداة السامية ونقد إسرائيل"، أن 13 في المئة فقط من الشعب الألماني لديهم أفكار معادية للسامية. وهذه النسبة تُعتبر كبيرة. أحد الأسئلة

---

(1) Jürgen Mansel & Viktoria Spaiser, *Ausgrenzungsdynamiken. In welchen Lebenslagen Jugendliche Fremdgruppen abwerten* (Weinheim & Basel: Beltz Juventa, 2013).

التي طُرحت في هذا الاستطلاع على نحو مكرر: "ما هو شعورك إذا كان جارك يدين باليهودية؟"، وكانت إجابة الأغلبية العظمى بنسبة 85 في المئة من الألمان "لا يهمني". أما من فضّلوا عدم وجود جيران يهود، فوصلت نسبتهم إلى 2 في المئة. لهذا يصعب الحديث، والحال هذه، عن وجود عداء مضمر للسامية يحمله الألمان. أما أغلبية فئة الشباب بين 14 و28 عامًا فليس لديهم دور في هذا الأمر بل لديهم أقل نسبة تحفظات. وماذا يهمني أنا كيهودي بشأن تحفظات أناسٍ يحملونها تجاهي؟ هناك أيضًا تلك التحفظات الواسعة الانتشار تجاه البدو و"الغجر"، والمثليين والسود أو حتى المشردين. ولا ننسى كذلك أن لليهود أحيانًا تحفظاتهم تجاه الألمان والبولنديين والعرب، أو المسلمين.

علينا في هذا السياق أن ندرك أن التحفظات تجاه اليهود تزداد، مثلًا، عندما تقصف إسرائيل قطاع غزة من دون مبالاة وتسمح بموت كثير من المدنيين في وقت يشاهد العالم كله تلك الصور على شاشات التلفزة.

وبالفعل، فإننا نجد ازديادًا في انتشار التحفظات تجاه سياسة إسرائيل في الأراضي المحتلة أكثر منه تجاه اليهود. وقد خلص استطلاع الرأي السابق ذاته إلى أن كثيرًا من الناس في أوروبا يعتقدون أن يهودًا كثرًا يشعرون بالولاء لإسرائيل وليس لوطنهم الخاص. وهنا يعتقد بعض الباحثين المختصين في شؤون معاداة السامية أن هذا يُعدُّ مؤشرًا إلى عداء مضمَر للسامية، وذلك لارتباطه بتحامل قديم معادٍ للسامية.

بيد أننا نجد مع هؤلاء الباحثين تبسيطًا للمسألة هذه؛ ذلك أن مما لا شك فيه أن كثيرًا من اليهود، خصوصًا ممثليهم الرسميين، أمثال المجلس المركزي لليهود في ألمانيا، هم موالون لإسرائيل ويؤكدون في خطبهم العامة أن إسرائيل هي وطنهم وأن قلوبهم هناك عندها. وليس غريبًا أن يرى المرء عند دخوله مجمعًا للجالية اليهودية صورًا لسياسيين إسرائيليين وعلمًا إسرائيليًا. وبالتالي، لماذا يتفاجأ المرء من اعتقاد كثير من الناس في ألمانيا أن اليهود ليسوا ألمانًا وإنما هم إسرائيليون؟ والحكومة الإسرائيلية لا تقصِّر، من جهتها، في ذلك في كل فرصة مناسبة أو غير مناسبة لتحشد إلى صفها كل اليهود في العالم.

من المحتمل أن يكون نقد إسرائيل بالنسبة إلى بعض الناس يمثِّل صمام أمان يجري التنفيس من خلاله عن عواطفه ومواقفه المعادية لليهود. لكن أيضًا بالنسبة إلى معظم منتقدي السياسة الإسرائيلية، لا تؤدي مشاعر العداء لليهود أيَّ دور، خصوصًا عندما يكون هؤلاء المنتقدون يهودًا، مثلًا جوديث بتلر أو نوام تشومسكي أو دانييل بارنبويم أو ناؤمي كلاين. إضافة إلى ذلك، لا يتعلق الأمر عند معظم هؤلاء النقاد بمسألة إنكار حق دولة إسرائيل في الوجود أو "نزع الشرعية" عمومًا عنها، وإنما بإيجاد طريق عادلة ومنصفة لحل النزاع في الشرق الأوسط. والقول إن بعض الانتقادات لإسرائيل يخفي حقًّا خلفه معاداة للسامية، لهو قول لا يبرر الحكم في التشنيع بأن كل منتقدي إسرائيل هم معادون للسامية، ولا سيَّما حينما يكون هؤلاء يهودًا، خصوصًا أكثر أن هذه الدولة - إسرائيل - تقدِّم لنا كل يوم ما يكفي من الأمثلة لانتقاد سياستها ورفضها.

وفقًا لدراسة أخرى أجرتها مؤسسة برتلزمان (Bertelsmann-Stiftung) ونُشرت في عام 2015، هناك كثير من الألمان ينظرون دائمًا إلى إسرائيل نظرة نقدية. حيث إن 48 في المئة من الألمان لديهم تصوُّر سيئ عن إسرائيل، في حين ترتفع هذه النسبة لتصل إلى 54 في المئة ضمن فئة الشباب بين 18-29 عامًا. أكثر من ذلك، ثلثا الشعب الألماني ينظرون على نحوٍ سلبي إلى الحكومة الإسرائيلية. من هنا رؤية الباحثين إلى نسبة ازدياد وتيرة انتقاد السياسة الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين. إلا أن المزعج في هذا الأمر، هو تقييم "خبراء الشأن الإسرائيلي" في هذه المؤسسة، برتلزمان، بأن النقد الموجَّه إلى إسرائيل هو جزء من "معاداة للسامية متعلقة بإسرائيل"، على الرغم من أن هذا الأمر لا يرتبط حقًّا إلا بمعاداة الصهيونية. ولنشدد في نهاية هذا الجزء، على أن دراسات كهذه لا قيمة لها، ما دامت تفتقر إلى التمييز الواضح بين هذه القضايا [أي تمييز معاداة إسرائيل والصهيونية من معاداة السامية]. وهذا بالضبط ما يجب التنبه إليه في هذه التصانيف، خصوصًا حينما ندرك تراجع معاداة السامية بين فئة الشباب، من جهة، ولكن من جهة أخرى، ارتفاع نسبة الانتقادات للسياسة الإسرائيلية عند هذه الفئة العمرية الشابة نفسها.

أوشفيتز والقومية الإسرائيلية

لا نستغربن أن الكارثة الإنسانية التي حدثت في معتقل أوشفيتز بحق اليهود قد صادرتها إسرائيل بالكامل وحصرتها في نفسها. تعتبر إسرائيل أن ما حدث في هذا المعتقل يجسّد قضية يهودية بحتة، وتتجاهل كثيرًا من الشعوب الأخرى التي قُتلت هناك. لقد أعلِنت ذكرى أوشفيتز يومًا وطنيًا في إسرائيل، فضلًا عن إرسال خريجي المدارس سنويًا إلى هذا المعسكر، ليغدوا يهودًا جيدين أكثر، وليكونوا مستعدين للتضحية بحياتهم من أجل إسرائيل.

في الواقع، إن التعامل مع أوشيفتز وذكراه هو في المقام الأول من مهمة ألمانيا للحفاظ على الذاكرة الإنسانية في ذلك الأمر. كتب البروفسور والفيلسوف الإسرائيلي، موشيه تسوكرمان (Moshe Zuckermann)، الذي يدرِّس في جامعة تل أبيب، في كتابه الصادر في عام 2014، **مصير إسرائيل: كيف تنهي الصهيونية وجودها** (*Israels Schicksal: Wie der Zionismus seinen Untergang betreibt*): "بمقدار ما جرى فهم الهولوكوست على أنها ليست كارثة إنسانية عامة، بل على أنها محرقة ضد اليهود، وبمقدار ما تمأسست مصادرة هذه الرواية بنيويًا وذلك من خلال خلق معنى جزئي، أي معنى له طابع قومي، حيث اختفاء هويات الجماعات الفردية للقتلى في إطار كود رمزي لـ 'ستة ملايين' شخص، طبعًا مع غدوّ 'اليهود' فئة فارقة تلغي التناقضات بذلك، وحيث إن الجماعات الناجية التي لم تهاجر إلى إسرائيل لم تستطع في أوطانها الجديدة تشكيل مجموعات اجتماعية واضحة مستقلة وجماعات أخرى هاجرت إلى إسرائيل تم تجاهلها على مدار سنين، نقول إنه بمقدار ذلك فقد استطاعت الصهيونية، والحال تلك، احتلال الفضاء التاريخي الشاغر ومنحه معنًى وفق ما تريده هذه الصهيونية. إن مسألة إضفاء اللامعنى باعتباره تتويجًا لتطوُّر حضاري - أي قتل الزوائد البشرية الذي غدا مقصدًا في حد ذاته، وبالتالي اليقين من الاحتمالية الدائمة للانتكاس إلى البربرية - بمعنى علماني إيجابي تقريبًا، لهي مسألة حولت مصادرة التوحش إلى أيديولوجيا غير متجانسة، ليس نظرًا إلى المصلحة السياسية الخاصة فحسب، ولكن أيضًا من حيث جوهر ما حدث في أوشفيتز، في سياقه الحضاري العالمي الشامل".

يلقي هذا الأمر بظله على العلاقات الألمانية - الإسرائيلية. فليس من المفيد استغلال الهولوكوست لأغراض سياسية. وبالتأكيد ليست لدي الرغبة في التقليل من شأن معاداة السامية في ألمانيا. وعلى المرء كذلك ألّا يتجاهل خوف المواطنين اليهود أو [فئة] الشباب اليهودي، حتى لو افترضنا أن هذه المخاوف تغذّى عن عمد في بعض المجتمعات. لكن ألمانيا بلد عالمي منفتح وفيه استعداد كبير لتقديم المساعدات، مثلًا للاجئين. وقد توصّل مسح استطلاعي قامت به الكنيسة البروتستانتية في صيف 2016 إلى أن أكثر من 80 في المئة من الألمان يعتقدون بوجوب مساعدة المحتاجين. وهذه هي النسبة التي تحتل المساحة الأهم بالنسبة إليَّ.

لا وجود لموجة جديدة من معاداة السامية

هل نعيش بالفعل في ألمانيا موجة جديدة من معاداة السامية؟ لا، هذا هو الجواب الذي تقدمه إحدى الدراسات التي قام بها منتدى برلين للوقاية من العنف. لقد نشر في عام 2015 كلٌّ من ميشائيل كولشتروك (Michael Kohlstruck) وبيتر أولريش (Peter Ullrich) من مركز أبحاث معاداة السامية في الجامعة التقنية في برلين دراسة عن معاداة السامية عنوانها "معاداة السامية مشكلةً ورمزًا - ظواهر وتدخلات في برلين" (Antisemitismus als Problem und Symbol - Phänomene und Interventionen in Berlin). ونُشرت الدراسة بتكليف من لجنة الدولة لمكافحة العنف التابعة لوزارة الشؤون الداخلية والرياضة بمجلس الشيوخ في برلين. وكان هدفها رصد مظاهر معاداة السامية في برلين بين عامي 2010 و2013، واستكشاف أسبابها ووضع الخطوط العريضة لمكافحتها.

ووفقًا للنتيجة الأساسية التي خلصت إليها الدراسة، فإنها لم تتمكن من رصد صعود لمعاداة السامية، طبعًا على عكس الصورة النمطية التي يقدّمها الإعلام على نحو واسع والتي ترسم لنا وجود "موجة جديدة من معاداة السامية" أو "معاداة السامية الجديدة" التي تنتشر خصوصًا بين الشبان ذوي الأصول المهاجرة بحسب هذا الإعلام. إلا أنه وفقًا للتقارير المسجلة لدى الشرطة فإن الجرائم ذات الدوافع المعادية للسامية لا تزال، كما كان حالها

سابقًا، مرتبطة بالمتطرفين اليمينيين. والحال أن كولشتروك وأولريش يعالجان في دراستهما تلك معالجة مختلفة الاصطلاحات المختلفة (طبعًا الإشكالية نسبيًا) وطرائق فهم معاداة السامية. فمثلًا جرى تحليل الأيديولوجيات المعادية لليهود والتصريحات وأنماط من الجدالات، فضلًا عن الجرائم، كل ذلك وفق سياقها السياسي-الاجتماعي والتاريخي الخاص بها.

كما حذرت دراسة لمركز أبحاث معاداة السامية المرموق (ZfA) منذ بداية عام 2015 من "معاداة السامية" المبالغ بها. فالأشخاص الذين يرفضون الدولة اليهودية، ولا يحملون عداوة لليهود في حد ذاتهم، يجب عدم اعتبارهم معادين للسامية. وبالطبع هذا أمر بداهي.

على أثر ذلك وجهت اللجنة الأميركية اليهودية (AJC) في برلين انتقادات حادة إلى هذا الطرح الذي قدّمته تلك الدراسة. ووفق ما جاء في بيان صحافي صرحت به اللجنة، فإن العلماء "لا يأخذون في الحسبان مخاوف اليهود وقلقهم في ألمانيا على محمل الجد ولا يولون هذا الأمر الأهمية الكافية". وقد اقتصرت [الدراسة] في ذلك على تحليل و"شرح" الظاهرة، بدلًا من القيام "بتسمية ومكافحة" معاداة السامية. بل أكثر من ذلك، قامت الدراسة، وفقًا لذلك النقد، بشرعنة معاداة السامية، عندما عزت العداء المنتشر بين الفلسطينيين تجاه اليهود على سبيل المثال إلى أنه يعود مباشرة إلى ما يرتبطون به في الصراع الدائر في الشرق الأوسط.

في المقابل كانت مبادرة سلام - شالوم (Salaam-Shalom-Initiative) في برلين قد رحبت بمنهج الدراسة هذه التي قامت على التمييز بين المظاهر المختلفة لمعاداة السامية، وانتقدت في الوقت نفسه ذلك الانتقاد غير الموضوعي من اللجنة الأميركية اليهودية، الذي تنقصه المؤهلات المطلوبة. وبالفعل، فقد دخل هؤلاء المبادرون في سلام - شالوم من جراء ذلك في وضع لا يُحسدون عليه. وبذلك طُرد مؤسس المبادرة الطالب الحاخام أرمين لانغر في آذار/ مارس 2016 من كلية أبراهام غايغر في منطقة بوتسدام [بالقرب من برلين]، حيث كان يدرس. طرده مديرها فالتر هومولكا شخصيًا، وقد جرى هذا

بالطبع بدفع من المجلس المركزي لليهود. لقد كان هذا قرارًا سياسيًا بحتًا، بزعم أن هذا الشخص قد أهان المجلس المركزي لليهود في أحد التعليقات في الصحيفة اليومية دي تاغستسايتونغ (*Die Tageszeitung - taz*).

أكد مؤلفا الدراسة أن من الضروري تمييز معاداة السامية لمجتمع ذي أغلبية مسيحية من وجهة نظر سياسية وسوسيولوجية وتاريخية بشكل أساسي عن العناصر المعادية للسامية في الانتقادات الموجهة إلى السياسة الإسرائيلية. ولا تهدف هذه الملاحظات إلى إضفاء الشرعية على مواقف معادية للسامية منتشرة بين الفلسطينيين الذين يعيشون هنا والقائمة على تجاربهم الشخصية مع السياسة الإسرائيلية. إنها تميز فحسب بين معاداة السامية الثقافية العنصرية والنقد ذي الدوافع السياسية الموجَّه إلى السياسة الإسرائيلية، والذي يمكن أن يتحول معاداةً للسامية.

ورغم أن هناك إمكانًا لوجود معاداة للسامية في النقد الموجه إلى إسرائيل، وهذا مما لا شك فيه، لكن ينبغي عدم جعله على الإطلاق مناسبةً لنزع الشرعية بالمجمل عن أيِّ انتقاد صادر عن الجانب الفلسطيني؛ أو كما يعبِّر أعضاء مبادرة سلام - شالوم اليهودية: "علينا الأخذ في الحسبان أن المدنيين الفلسطينيين ما زالوا يدفعون ثمنًا كبيرًا للأمن المزعوم للدولة اليهودية. كما أن الاعتراف بالارتباط الشخصي للفلسطينيين في ما يتعلق بالصراع لا يضفي وفقًا لذلك شرعية على معاداة السامية، إلا أن ذلك يشكِّل شرطًا أساسيًا للحوار والتعايش في برلين".

لماذا تحتاج الصهيونية إلى وجود معاداة السامية

تعارض مبادرة سلام - شالوم، في قضايا "إبعاد" شبهة معاداة السامية، ربطَها بالمسلمين عمومًا والفلسطينيين خصوصًا في المجتمع الألماني. واستراتيجيا كهذه لها تأثير إعلامي وسياسي في الساحة هنا تمنع أغلبية الشعب الألماني من مناقشة المسائل والدوافع المعادية للسامية المبطَّنة وتلك المعاد إنتاجها في اللاوعي عند الألمان. ومن جهة أخرى، تخدم الاستراتيجيا كذلك قيام تباين

أساسي بين اليهود والمسلمين في ألمانيا. فعلى الرغم من إمكان تعزيز التعاون بين هذين الجانبين، فإنهما يقدِّمان أحدهما في مقابل الآخر.

والحال أن معاداة السامية ما دامت، في الآونة الأخيرة، تُحصر بشدة في الأقلية المسلمة، فإننا نجد أن أغلبية المجتمع الألماني "تحرِّر" نفسها من رؤية العنصرية المعادية للمسلمين بينها. وبالتالي تُطرح قضية "معاداة السامية" على أنها بذاتها تندرج في سياق الثقافة العنصرية: يجب على المسلمين أنْ يَتَربَّوا "على أيدي" الألمان واليهود. وهنا سيغدو، مع طروحات كهذه، الوقوف في وجه معاداة السامية صعبًا للغاية، سواء في أغلبية المجتمع الألماني أو بين المسلمين. فضلًا عن ذلك، فإن التعايش بين المواطنين اليهود والمسلمين الذين يعيشون في ألمانيا سيكون أيضًا عرضة للخطر مع هذه الأنماط في مكافحة معاداة السامية، كما تفهمها مثلًا منظمات ومؤسسات أمثال اللجنة الأميركية اليهودية، ذلك أنها تخدم السياسة الإسرائيلية، وهذا أمر يسهل اكتشافه.

إنني أعيش في هذا البلد منذ ستين عامًا، ولم ألتقِ خلالها إلا بعدد قليل جدًا من الأشخاص المعادين للسامية والذين يمكن عدّهم على أصابع اليد الواحدة. لهذا السبب لا أهتم بأمر معادي السامية. وبالنسبة إليَّ يضرني ضياع وقتي في الانشغال طوال حياتي بهم، أو بكل شخص ينتقد إسرائيل أو يرى في اليهود نظرة غير جيدة فأنظر إليه على أنه معادٍ للسامية، كما يفعل هنريك برودر. ووفقًا لتقديرات جريدة زودويتشه تسايتونغ (*Süddeutsche Zeitung*) [جريدة جنوب ألمانيا]، هناك أكثر من 20,000 إسرائيلي يقيم حاليًا في برلين، وقد صرحت السفارة الإسرائيلية قبل سنوات عدة بأن آلاف اليهود قد استقروا في برلين وحدها. إضافة إلى ذلك، يوجد أيضًا حاليًا الآلاف الأخرى التي يمكن إضافتها إليهم. لذلك فإن الحديث عن وضع سيئ في ألمانيا بخصوص معاداة السامية لا مكان له.

إن وضع اليهود في أوروبا وأميركا جيد عمومًا. ومما يبعث على السرور أن معظم اليهود في القارتين لا يقعون في فخ نداءات الحكومة الإسرائيلية التي تقوم بترويج الهجرة إلى إسرائيل وتستغل كل حادث، وإن كان غير سيئ،

لدعوة اليهود إلى مغادرة أوطانهم في أوروبا. وفي الواقع، تحتاج إسرائيل إلى زيادة عدد اليهود لتُوَازِن بذلك النمو الديموغرافي للسكان الفلسطينيين. وفي ما لو نجح هذا الأمر، سيتحقق على الأمد الطويل حلم جميع النازيين وجميع المتطرفين اليمينيين في جعل أوروبا "نقية من اليهود" وسيصبح هذا الأمر حقيقة. ومن الواضح أيضًا، أنه بالنسبة إلى كل يهودي مهاجر إلى إسرائيل، يجب أن يكون هناك فلسطيني يخشى على مكانه.

يمكن تشبيه الصهيونية ومعاداة السامية بـ "الين واليانغ"، فكلاهما يكمل الآخر على نحوٍ بديع. تتفق الصهيونية مع معاداة السامية التي تود تهجير جميع اليهود نحو فلسطين، الأمر الذي يشكِّل هدف الصهيونية الذي تسعى لتحقيقه. لهذا، سيغدو من السخف تصوير الصهيونية ومعاداة السامية على أنهما تشكلان أيديولوجيتين متعارضتين مع بعضهما أو متنازعتين. وبالطبع لا يمكن أن يساوي المرء بينهما، إلا أن من الممكن مقارنتهما ببعضهما، إذا ما تعمَّق المرء في فهمهما.

إننا نشهد اليوم، بالفعل، ارتباطًا وثيق الصلة بين معاداة السامية والصهيونية، وهو أمر تدل عليه، مثلًا، الهجمات في باريس وكوبنهاغن في ربيع عام 2015 وما أظهرته ردات الفعل في القدس على ذلك. إلا أن ردَّ الرئيس الفرنسي حينذاك، هولاند، والمستشارة الألمانية على دعوة رئيس الوزراء الإسرائيلي نتنياهو لجميع يهود العالم للهجرة إلى إسرائيل، كان التضامن الكامل مع المواطنين اليهود والمطالبة بعدم الهجرة إلى إسرائيل. وفي سياق ذلك، نشرت إحدى المنظمات اليهودية الناقدة لإسرائيل جي - كول (J-CALL) إعلانًا على صفحة كاملة في جريدة يومية شهيرة تقول فيه: "لا سيد نتنياهو، أنت لا تمثلنا".

5

أسطورة معاداة السامية الجديدة

عادة ما تلجأ وزارة الدعاية الإسرائيلية إلى استجرار أسطورة "عولمة معاداة السامية" من صندوق العفاريت، عندما لا تعرف كيف تواجه الانتقادات المتزايدة ضد السياسة الإسرائيلية، وتتشكى بقصص "نزع شرعية إسرائيل". هكذا يحذِّر المجلس المركزي لليهود في ألمانيا، كإحدى أكثر الجبهات الفعالة للدعاية الخارجية لإسرائيل، من "معاداة السامية الجديدة المنتشرة في العالم".

إلا أن العكس تمامًا هو ما تشير إليه جميع الإحصاءات التي قامت بها في السنوات الأخيرة مؤسسات ومعاهد علمية[1] بشأن الانخفاض الكبير المستمر لمعدلات معاداة السامية في العالم. ويلاحظ المرء الذي يعيش في ألمانيا مثلًا، كما هي خبرتي بهذا البلد، أن معاداة السامية باتت لا أهمية لها في الحياة اليومية مطلقًا، وبالكاد يمكن ملاحظتها. هكذا، فإن من الطبيعي جدًّا أن يرى المرء أن العالم ممتلئ بأشباح معادي السامية عندما يتم خلط كل انتقاد موجَّه إلى إسرائيل بمعاداة السامية أو اعتباره كذلك.

وبحسب مزاعم منتقدي معادي الصهيونية فإن لمن الممكن تسلُّل "معاداة جديدة للسامية" في ظل ستار معاداة الصهيونية وانتقاد إسرائيل. ومثل هؤلاء من المدافعين عن السياسة الإسرائيلية لا يودون الأخذ بعين النقد مسألة اقتصار المسألة على "معاداة الصهيونية". ولهذا السبب فإننا، ومنذ سنوات، نخوض نقاشات عقيمة في موضوع معاداة السامية بدلًا من نقاش جوانب السياسة الإسرائيلية التي تتعارض مع القوانين الدولية، بسبب خشية سياسيينا ومثقفينا وقسم كبير من الصحافة تسميةَ الأمور بمسمياتها. فمسألة عدم وجود أصوات

(1) مركز أبحاث معاداة السامية في جامعة برلين للتكنولوجيا، ومركز الدراسات اليهودية في غراتس، تقرير صادر عن مجموعة الخبراء المستقلين في معاداة السامية التابعين للبوندستاغ [البرلمان الاتحادي] الألماني، ويمكن العثور على مزيد من المساهمين على موقع مركز أبحاث معاداة السامية: https://bit.ly/3GGulaK

ضد تهمة معاداة السامية التي تكون موجهة ضد المواطنين الألمان الشرفاء من مثقفين وفنانين وسياسيين ومتقاعدين، لهي مسألة تُظهر لنا إلى أيِّ مدى في وقتنا الحالي يزدهر الترهيب والتخويف. وهذا ما يُظهره لنا في الوقت نفسه شيوع تلك الوسائل المخادعة السائدة في الصراع السياسي، وإلى أي مدى أصبح مفهوم معاداة السامية في عصرنا الحالي أجوف.

مع ذلك، نجد الكثير من النقاشات في هذه النقاط. ونتذكر مثلًا ذلك النقاش الذي استعر مرة بشأن مسألة معاداة السامية قرابة عام 2000 في ما يخص السياسي يورغن مولمان من الحزب الديمقراطي الحر (FDP) الذي تعرض لاحقًا لحادث مميت. وأعقب ذلك وفي هذا الخط نفسه من النقاشات كثيرًا من القضايا، صغيرة كانت أو كبيرة، مثلًا مؤخرًا ما جرى في أثناء حرب غزة في عام 2014. واليوم هناك الكثير مما يرتبط بما يدعى معاداة السامية، الذي ليس في الحقيقة سوى ردة فعلٍ على صهيونية حقيقية قائمة تمارس سياسة عدوانية توسعية على حساب شعب آخر، وتصطدم من جراء ذلك بانتقادات واحتجاجات في كل مكان.

لقد نُشرت الآلاف الكثيرة من الكتب والمقالات والأطروحات التي تتناول هذا الموضوع في كل الجرائد، من جريدة **تاغستسايتونغ** إلى جريدة **فرانكفورتر ألغماينه**. خذ مثلًا عناوين كهذه في جريدة **فرانكفورتر روندشاو** (*Frankfurter Rundschau*): "الأمر يتعلق بإسرائيل، وليس باليهود". ومدافعة ياكوب أوغشتاين في جريدة **راينيشه بوست** (*Rheinische Post*) الذي يكتب: "أنا لست معاديًا للسامية". كما تنبّه جريدة **يوديشه ألغماينه** إلى الجدل التاريخي بشأن مسألة معاداة السامية في الأمم المتحدة. وفي أحد التساؤلات التي تطرحها جريدة **فرانكفورتر ألغماينه** نقرأ: "إلى أي مدى تخدم تهمة معاداة السامية تقويض أيِّ انتقاد في ألمانيا لسياسة إسرائيل؟". ونجد أيضًا تحذيرًا من جريدة **دي فلت** (*DIE WELT*) [العالم] "من الثرثرات الخطرة حول اليهودية والإسلام". كما كتب عالم الاجتماع أولريش بيك في جريدة **دير فرايتاغ** (*Der Freitag*) [الجمعة] عن "معاداة السامية الجديدة". لا بل أيضًا نجد برهنة من أحد

موظفي جريدة زودويتشه على إقدامه وشجاعته في "اعتمار القلنسوة اليهودية (الكيبه) في ميونيخ". كما عنونت مرةً جريدة زودويتشه "حول معاداة السامية في الحياة اليومية في ألمانيا". وأيضًا يخبرنا الراديو الألماني دويتشلاند فونك (Deutschlandfunk) بأن معاداة السامية هي "جزء من الحقيقة". هذا فضلًا عن ميشيل فريدمان الذي يحذّرنا في فرانكفورتر روندشاو من "هذا السمّ الذي يهددنا جميعًا" [والسمّ المقصود به طبعًا: معاداة السامية]. وفي جريدة دي تسايت (*Die Zeit*) [الوقت] يكتب يوزيف يوفه أن "اليهود" يشعرون "مرة أخرى بالتهديد في ألمانيا". حتى إن جريدة يونغه **فرايهايت** (*Junge Freiheit*) [الحرية الشابة] القومية المحافظة قد دخلت على الخط نفسه في هذا النقاش وادّعت أن معاداة السامية في أوروبا ليست "ظاهرة جانبية، بل تيار متنام"، ولا سيَّما بين المسلمين.

فضلًا عن كل ذلك، لدينا أيضًا عدد ضخم من الكتب التي تتحدث عن "كراهية اليهود القديمة الجديدة". خذ مثلًا من هذا النمط كتاب نُشر في عام 2003، حرره كلٌّ من كلاوس فابر (Klaus Faber) ويوليوس شوبس (Julius Schoeps) وساشا ستافسكي (Sacha Stawski). وقد استطاع هؤلاء جمع كثير من الباحثين (26 باحثًا)، لإثبات وجود معاداة للسامية تكتسي اليوم اصطلاحًا آخرَ: معاداة الصهيونية. وصدر كتابٌ آخر في ربيع 2015 عنوانه **إسرائيل هي المذنبة في كل شيء** (*Israel ist an allem schuld*)، نشرته إستر شابيرا (Esther Schapira) وغيورغ هافنر (Georg Hafner)، العاملان في إذاعة هِسن (Hessen). وقد صنعت شابيرا كصهيونية راديكالية اسمًا لها بالفعل. إنها أيضًا تستنكر في كتابها كل نقد لسياسة إسرائيل وكل معاداة للصهيونية وتصفها بأنها "معاداة جديدة للسامية". وبكل صدق، فإنه لا يمكنني تخيُّل أن كتابًا كهذا قد كتبه هذان الاثنان.

ونظرًا إلى خبرتي في هذه الأمور فإنني أعرف إمكان حدوث قضايا كهذه. مثلًا هناك حادثة بياته كلارسفلد. فعندما نُشر في عام 1969 كتاب وثائقي بعنوان "*Die Geschichte des PG 2633930 Kiesinger*" **[قصة كيزينغر]** صنعت هذه لنفسها لقبًا على أنها مؤلفة، ثم صنعت شهرةً عندما وجّهت صفعة

إلى المستشار الألماني آنذاك كورت غيورغ كيزينغر في البوندستاغ [البرلمان الألماني]. لكن في الواقع كُتب هذا الكتاب في برلين الشرقية في ظل جهاز الاستخبارات الذي ساد هناك، وجُهِّز من أرشيف هذه الاستخبارات[2] [الكتاب عن ماضيه في النازية]. حتى أنا عندما قمت بنشر الكتاب من دار نشر ملتسر في عام 1969، لم أتمكن من معرفة صاحب هذه المخطوطة، ولا سيَّما أن بياته كلارسفلد قد سلَّمتني المخطوطة شخصيًّا. وفي الحقيقة، لم أكتشف ذلك إلا بعد 20 عامًا بعد سقوط الجدار. لذا يمكنني الآن تخيُّل أن ذلك الكتاب الذي نشرته إستر شابيرا وغيورغ هافنر قد كُتب في "القسم الألماني" لوزارة الدعاية العملاقة في القدس. لا بل إن كليهما أثبت كثيرًا أنه، كما أشار سريعًا رافائيل سليغمان (Rafael Seligmann) في جريدة يوديشه ألغماينه: "يقفان خلف إسرائيل من دون أيِّ شروط".

وبالتأكيد لن يكون كتابهما هذا هو الأخير المنشور في هذه المسألة. ويبدو أحيانًا وكأن الخطاب السائد في ألمانيا عن معاداة السامية في السنوات الأخيرة قد انفصل عن موضوعه الفعلي، ألا وهو معاداة اليهود الحقيقية. وقد أدت المحرمات وملاحقة الدولة لمسائل معاداة السامية في ألمانيا إلى تراجع دائم في الحوادث المرتبطة بها[3].

اليوم نشهد في ألمانيا ازدهارًا لوتيرة الجدالات المتعلقة بمعاداة السامية أكثر من أيِّ وقت مضى، وهو ما تغذيه دوائر المثقفين اليهود والجمعيات اليهودية. وهي جدالات ترتبط عمومًا بالطابع المزعوم لمعاداة السامية في مسائل معاداة الصهيونية أو أشكال نقد محددة لسياسة دولة إسرائيل. ما تعنيه مناهضة الصهيونية هو بالضبط رفض القومية اليهودية الإسرائيلية الحالية. وللعلم، فإن هذا النقاش لا يتم على نحو محموم في أيِّ مكان أكثر مما هو الأمر في إسرائيل نفسها. أما خارج إسرائيل فإن السؤال هذا يُطرح بشأن التمييز

---

(2) الكتاب عن ماضيه في النازية. (المترجمة)

(3) Michael Kohlstruck & Peter Ullrich, *Antisemitismus als Problem und Symbol. Phänomene und Interventionen in Berlin*, Berliner Forum Gewaltprävention 52 (unter Mitarbeit von Franziska Paul und Jakob Quentin), 2., korr. Auflage (Berlin: Landeskommission Berlin gegen, 2015).

في كيفية النقد المشروع من غيره في ما يخص إسرائيل. وبالطبع، إن توجيه سؤال كهذا إلى الصهاينة المؤمنين بها والمقتنعين بها، غير وارد إطلاقًا، ذلك أن كل نقد لإسرائيل هو نقد غير شرعي.

لم يخجل الحاخام السابق لولاية بادن فورتمبرغ (Baden-Württemberg)، جويل برغر، على سبيل المثال، من مهاجمة الكنائس في منطقة شتوتغارت الألمانية في عام 2015 بمناسبة الاجتماع في يوم الكنيسة البروتستانتية الألماني. فكتب في جريدة يوديشه ألغماينه عن أولئك "الكارهين المعروفين لإسرائيل"، و"الذين يستخدمون بسرور هذه المنصة بهدف نزع الشرعية عن الدولة اليهودية". وكان المعنيون هنا أشخاصًا يهودًا أمثال البروفسور رولف فرليغر، والبروفسور جف هالبر، ومارك بريفرمان، وجوزيبي زامبون، والمغنية اليهودية إستر بيرانو، وآخرين.

يشتكي برغر: "من الواضح عدم وجود أيّ فعالية في يوم الكنيسة [هذا] تتوجه إلى المسيحيين الذين يجري قتلهم في الشرق الأوسط بسبب معتقداتهم، وأن الأمر الوحيد الذي يمكن أن يثيرنا هو حينما يتعلق الحديث بما هو ضد إسرائيل واليهود". لكن لنركز أنه مع استخدامه تعبير "من الواضح" فإن الرجل ليس متأكدًا إذا كانت اتهاماته تعكس الحقائق أم لا. إن قلقه المصطنع بشأن موضوع المسيحيين في الشرق الأوسط لهو أمر يعبِّر عن كذب وتضليل؛ ذلك أن إسرائيل ومنذ سنوات تضطهد المسيحيين الفلسطينيين، حتى إن نسبتهم انخفضت بسبب سياساتها هذه من 20 إلى 2 في المئة. وإسرائيل ستكون على حق عندما يهاجر العرب المسيحيون إلى الغرب، حيث يرحَّب بهم هناك؛ وهذا هو الأمر الحاسم، أي في انخفاض نسبة السكان العرب.

كما دعا برغر في هذا السياق الكنائس إلى مقاطعة مجموعات نقدية غير مرحَّب بها مثل AG التابعة للكنائس المسيحية في بادن فورتمبرغ أو حركة باكس كريستي (Pax Christi) الكاثوليكية. وكتب أيضًا: "علينا تذكير ممثلي الكنيسة بمسؤوليتهم، بأن هناك منظمات مسيحية تدعو من أجل تفريغ إسرائيل". وبالطبع ليس هناك من وجود لمسألة "تفريغ إسرائيل". والحال أنني

حضرت هذه الفعالية الكنسية، التي كان فيها محاضرون يدافعون عن إسرائيل من دون أيِّ تردد، وكذلك محاضرون من إسرائيل انتقدوا السياسة الإسرائيلية بموضوعية ومهنية، أمثال الباحث في الأنثروبولوجيا والناشط من أجل السلام البروفسور جف هالبر، الذي شارك في عام 1997 في تأسيس لجنة إسرائيلية في القدس ضد تدمير المنازل هناك. ولنشدد على أن ما تحتويه العقوبات الكبيرة، التي فرضها الجيش الإسرائيلي على عائلات الانتحاريين أيضًا هناك، تدمير منازل أقاربهم. وكان من المفترض أن يكون هذا رادعًا إلا أنه ليس سوى عقاب جماعي يحاسَب فيه حتى الأقارب. وبعد أن تم التخلي عن هذه الأساليب بين عامي 2005 و2014 بسبب الاعتقاد بزيادتها لوتيرة العنف، نجد أن السياسة الإسرائيلية عادت مرة أخرى في السنوات الأخيرة.

السؤال الآن، لماذا يدعي هذا الحاخام برغر التفوه بأشياء لا وجود لها؟ هل هو غير ملزم قول الحقيقة؟ من المفترض أن المرء ينتظر منه كحاخام ديني إيلاء الأخلاَق أهمية أكبر، ولكنه مخلِص للدولة اليهودية، لا بل للسياسة الإسرائيلية، وهو أمر يقف فوق التزام الوصايا اليهودية.

يدخل المدافعون عن السياسة الإسرائيلية في مماحكات حرفية هائلة ويحسبون حسابًا كبيرًا لكل كلمة. كل ذلك كي يمنعوا انتقاد السياسة الإسرائيلية. فعندما يتحدث سياسي ألماني مثل نوربرت بلوم عن أن إسرائيل تقود "حرب إبادة بلا هوادة" ضد الفلسطينيين، أو عندما يتحدث شخص مثل ياكوب أوغشتاين عن "معسكرات" [الاعتقال]، تنهال عليهما الاتهامات مباشرة بأن من غير المسموح لأيِّ شخصٍ مقارنة ما يحدث في إسرائيل بمصطلحات أو صور أو أحداث تنتمي إلى الحقبة النازية، لماذا؟ لأن هذا يمثِّل معادة للسامية. إلا أن هذه الاتهامات يطرحها أشخاص لا يتمنعون هم أنفسهم من المقارنات عندما تخدم أهدافهم السياسية وتلائم أيديولوجيتهم. كما يخلط كثير من النقاد بين مصطلح "المقارنة" ومصطلح "المساواة". فعندما أقارن الجيش الإسرائيلي بمنظمة إس إس العسكرية (Waffen-SS) [في الحقبة النازية]، فلا شك لا تغيب عني الفوارق بين هذين التنظيمين، بل أشير إليها. والحال أنني لا أحجب تلك الفوارق، إلا عندما أضعهما على قدم المساواة.

لدينا الآن اصطلاحان اثنان يثيران ردات فعل المجلس المركزي لليهود في ألمانيا والمتعاطفين مع الحكومة الإسرائيلية هما: الـ "غيتو" و"الفصل العنصري"، خصوصًا عندما يستخدمهما المرء مع الأخذ في الحسبان وضع الفلسطينيين الواقعين تحت قبضة الاحتلال الإسرائيلي. والحال أنهم لا يودون معرفة ما يفعله الجيش الإسرائيلي ولا سيَّما المستوطنون الإسرائيليون بالفلسطينيين. وحينما يتعلق الأمر بإسرائيل، نجدهم شديدي الحساسية. بالطبع، نجد من الخطأ إنكار حق إسرائيل في الوجود. لكن السؤال: من يعتقد بهذا؟ حتى عندما نجد من يعتقد بهذا، فإنه اعتقاد لن ينهي حياة أيِّ إسرائيلي؛ إلا أننا بالنسبة إلى الآخرين نتحمل مسؤولية كل ما يحدث هناك.

هكذا نجد أيضًا أوسكار لافونتين (Oskar Lafontaine) يكتب في جريدة بيلد تسايتونغ (*BILD-Zeitung*) مقالة يدّعي فيها أن الذي يحكم في إسرائيل هو العهد القديم، متعرضًا للاتهام بأن ذلك يمثّل معاداة للسامية. ذلك أن نقد إسرائيل، مثلًا وفقًا لباحث معاداة السامية فولفغانغ بنتس وآخرين غيره، [النقد] المحتكم إلى "أفكار وصور نمطية مسبقة" والذي يُربط باليهودية، يتحول، والحال تلك إلى عداء لليهودية. بيد أننا نسمع في الأخبار وباستمرار عن "هجمات انتقامية" إسرائيلية. وهذا "الانتقام" ليس سوى ثأر وعقاب يتطابق مع مبدأ "العين بالعين، والسن بالسن". طبعًا من الممكن رفض هذه المعادلة، إلا أن الدستور يسمح لنا بحرية التعبير، التي لا تعجب فولفغانغ بنتس والحكومة الإسرائيلية.

من هنا نجد ذلك الغضب ضد ياكوب أوغشتاين بسبب مقارنة هذا الأخير الوضع في غزة بـ "معسكرات الاعتقال"، وهو المصطلح الذي يذكِّر بمعسكرات الموت في الحقبة النازية، وبالتالي بالهولوكوست. قد تكون هذه المقارنة غير صائبة؛ لكن، وهنا يسأل عالم الاجتماع راينر شرايبر (Rainer Schreiber) في كتابه المنشور في عام 2014 **الدين والشعب والهوية: اليهودية في مأزق القومية الحديثة** (*Religion, Volk, Identität?: Das Judentum in der Sackgasse des modernen Nationalismus*): "هل فعلًا تعني كلمة 'معسكر' بذاتها 'معسكر إبادة' أم إنه أريد منها فهم ذلك، أو تم صوغها إلى حدٍّ ما لتخدم إمكان الرفض

الشديد للاتهام بتشكيل المعسكر". وأيضًا نجد الغضب نفسه على أوغشتاين عندما يقارن الأصوليين الإسلاميين المتعصبين باليهود الأرثوذكس المتطرفين. ولكن هل هذه المقارنة خاطئة؟ أذكر هنا كذلك مقارنة مشابهة، "حينما قارن أوري أفنيري أعمال القتل التي يرتكبها الجيش الإسرائيلي بأعمال الفلسطينيين الراديكاليين الذين ينتمون إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، سرعان ما اقترح المتطرف اليميني الإسرائيلي باروخ مارتسال 'اغتيالًا متعمدًا' لهذا الناشط من أجل السلام، أفنيري، وأكد بطريقة شنيعة رفضَ المقارنة السخيفة".

يشكك شرايبر في أن كل مقارنة خاطئة وكل جدل معادٍ لإسرائيل وكل استعارة نقدية تتعلق بإسرائيل ومبالغ فيها تمثِّل معاداة للسامية: "يفترض المدافعون بلا حدود عن إسرائيل أن حقيقة الهولوكوست وحدها كافية لمنع كل شكل من أشكال انتقاد إسرائيل والصهيونية والقومية اليهودية وتضع كل هذا جميعًا في دائرة معاداة السامية".

مثل هؤلاء نجد لهم حضورًا أيضًا في المحاكم. ففي مدينة إيسن (Essen) الألمانية اعتبرت مثلًا قاضية في كانون الثاني/يناير 2015 أن كلمة "صهيوني" تمثِّل شيفرة معادية للسامية يدلّ بها قائلها على "اليهودي". وكما ورد وفقًا لما يدعى بتهمة التحريض فقد اتُّهم شاب يبلغ من العمر 24 عامًا في تموز/يوليو 2014 بسبب هتافه بعبارات "الموت والكراهية للصهاينة". ولربما اقتبست القاضية هذا الرأي من صفحة ويكيبيديا أون لاين التي يرد فيها أن كلمة "صهيوني" هي: "كلمة شيفرة رمزية يخص بها معادي السامية الشخصَ اليهودي". ولا ننسى أن الحرب استعرت في قطاع غزة في عام 2014 وكان من الواضح أن هذا الشاب يقصد بهتافه إسرائيل. ثم ألا يفهم الإسرائيليون أنفسهم على أنهم صهاينة؟ فمن هذه الناحية يُعدُّ هتاف الشاب صحيحًا. ولكن على ما يبدو لم يكن لدى القاضية أيُّ فكرة عن هذا الصراع ولم تسمع أن ليس كل اليهود صهاينة. أما أن يُعتبر كل اليهود في هذا الأمر متساوين، فهذا في حد ذاته خرافة قديمة في معاداة السامية.

هناك كذلك البروفسورة المخضرمة في العلوم المعرفية مونيكا شفارتس -

فريزل (Monika Schwarz-Friesel) في جامعة برلين التقنية التي تقيّم الرسائل الموجهة إلى مجلس اليهود المركزي وقد توصلت إلى الاستنتاج أن هذه الرسائل مشبعة بمعاداة السامية. يا له من أمر هائل! من كان يظن ذلك؟ وفي سؤال من أحد الطلبة عن كيفية رؤية معاداة السامية الحديثة على يوتيوب، كانت إجابتها تتمثل بأن معاداة السامية تتقنع خلف ما سمته "أساليب التواصل الملتوية". فعلى سبيل المثال تذكر البروفسورة أحد التعابير التي استُخدمت سابقًا وهو "الاقتصاد اليهودي العالمي" الذي ما عاد بالطبع معادو السامية الجدد يستخدمونه. حيث باتوا يطلقون مصطلح "الاقتصادوية" أو "الاقتصادوية العالمية". اقتصادوية إذًا؟ حقيقة لم أسمع بهذا المصطلح من قبل[4]. على أي معنى ينطوي؟ يرشد متصفح غوغل حين كتابة المصطلح: "هل تعني الإدارة المالية [المسؤولة عن الضرائب]؟". ألا ينبغي أن تكون نصف صفحات غوغل مليئة بهذه السموم اليمينية المتطرفة المعادية للسامية وأن يوجد مصطلح "الاقتصادوية" ثلاثة مليارات مرة؟ كيف يمكن أن تطرح عالمةٌ علينا مصطلحًا كمثال بارز على "أساليب التواصل الملتوية" في قضية مثل معاداة السامية وهو في الوقت نفسه لا يُستخدم أبدًا؟ إننا بالفعل نتعامل هنا مع جماعة سرية جديدة معادية للسامية. قد يكون للسيدة شفارتس-فريزل فضائلها، ولكن مع هذا النوع من التنميطات حوّلت النية الحسنة إلى العكس تمامًا.

لدينا أيضًا مثال عن أنصار إسرائيل المتحمسين لها: المؤلف والممثل غيرد بورمان (Gerd Buurmann) من مدينة كولونيا، الذي يدير مدونة اسمها "شجاع في أيِّ مكان" (Tapfer im Nirgendwo)، ويخوض هو وأمثاله جدالاتٍ ومماحكاتٍ متخشبة متطرفة الهدف منها إلصاق البشر بتهم معاداة سامية متخفية لاواعية. كما وصف مرة المؤلفين في جريدة تسايت بـ"Hamburger Edellumpen" [أي المخادعون الهامبورغيون]، ذلك أنهم كتبوا عن حريق إحدى سيارات المستوطنين في فلسطين المحتلة، وعُنوِن ذلك بعنوان رصين

---

(4) يستخدم المؤلف هنا المصطلح الذي نورده البروفسورة: Finanztum. والمؤلف كما نلاحظ هنا يستغربه لعدم شيوعه في الألمانية. وشئنا هنا نقله "إجرائيًا" كـ "اقتصادوية"، لتمييزه من اصطلاح الاقتصاد. لكن في سياقه الأصلي، فإنه لا يحمل أيَّ معنى سوى ما يراد به في سياق اتهامات معاداة السامية عند هذه البروفسورة ومن ينتمون إلى خطها. (المترجمة)

"حريق متعمد لسيارة أحد المستوطنين". كان بورمان بالطبع ليفضِّل الحديث عن هجوم ضد يهودي ما، ذلك أنه يعتقد أن الهجوم على الأب وابنته قد حدث لأنهما يهوديان فحسب. وإذا كان ذلك اعتقاده، فإنه هو في قراءة صنع معاداة السامية في حد ذاته معادٍ للسامية. ولماذا لم يفترض أن فعلًا كهذا قد يحدث كما في كل مكان من العالم لأسباب تتعلق بالثأر أو ببساطة الحقد أو الغيرة وإلى ما هنالك من دوافع أخرى. لكن من الواضح أن السيد بورمان يرى في اليهود شيئًا مميزًا أو قل شيئًا خاصًا جدًّا. ينبغي على هذا الشخص نفسه، المعادي للسامية أن يخجل من نفسه! ورغم ذلك، فوفقًا للاستخدام اللغوي الشائع والمستخدَم لليهود المقيمين في أراضي فلسطين المحتلة رسميًّا فإنهم يُدعون "مستوطنين" ويطلقون على أنفسهم أيضًا هذه التسمية، حيث يتجاوزون القانون الدولي وحقوق الفلسطينيين. لهذا، فالهجوم متعلق بمحتلين، يجوز أن يكونوا مسيحيين أو هندوسًا أو هنودًا. وعمومًا، فإن هذا الخداع تجاه الفلسطينيين عملٌ غير شريف. بيد أن أصدقاء إسرائيل لا تعنيهم الحقائق، بل البروباغندا.

إن مثل هؤلاء يكافحون بشراسة بشأن امتلاك سلطة تفسير الصراع في الشرق الأوسط. ويمكن أن نلاحظ هنا الجمعية الألمانية الإسرائيلية (DIG) في مدينة بريمن التي تقدِّم برنامجًا دعائيًّا يطلق عليه "برنامج الدعاية حسبرة" للمدارس مع إمكانات تقديم محاضرين خاصين ومختارين ومتمرسين، طبعًا كل ذلك مجانًا. والمرء هنا له أن يختار ما بين "محاضرة كبيرة" (مدتها 45 دقيقة) في موضوع "تاريخ إسرائيل من إبراهيم حتى وقتنا الحاضر" أو "محاضرة صغيرة" (مدتها 30 دقيقة) بشأن "قيام إسرائيل الصهيونية ونشوء الدولة"، أو حتى "جلسة نقاش" في موضوع معاداة السامية، فضلًا كذلك عن تقديم عرضٍ يتلاءم مع الشباب الأصغر خصوصًا لما يدعى "معلومات" عن دولة إسرائيل. طبعًا، في النهاية، من غير الممكن البدء بهذا التأثير في وقت مبكر جدًّا، ولكن من الجدير ذكره هنا أن هذا العرض قد قدِّم لكل وزارات الثقافة في جميع الولايات الألمانية.

لنا أن نتخيل هنا ردة فعل المجلس المركزي لليهود في ألمانيا في ما إذا قام الفلسطينيون بخطوة مماثلة في تقديم برنامج مشابه لهذا لطلاب المدارس. خذوا مثلًا كيفية ردة فعل كلٍ من المجلس المركزي لليهود والجمعية الألمانية الإسرائيلية وأيضًا كثير من الجاليات اليهودية على "معرض النكبة" الذي أقيم في مدن مثل فرانكفورت ودوسلدورف وفرايبرغ وآخن وميونيخ وبريمن وأماكن أخرى. طبعًا لماذا ردات الفعل التي أثيرت حول هذا المعرض الفلسطيني المتنقل: لأنه يقدِّم وجهة النظر الفلسطينية بشأن إسرائيل وقيام دولتها.

بالتأكيد لا مكان لوجهة النظر الفلسطينية في ألمانيا، حيث يقف القسم الأكبر من رجال السياسة والإعلام والمجتمع بإخلاص شديد أو حتى أعمى إلى جانب إسرائيل ويمنعون أي نقدٍ ضدها. لنلاحظ هذا الرأي مثلًا من ماتياس دوبفنر (Mathias Döpfner)، الرئيس في شركة أكسل شبرنغر، في كانون الثاني/ يناير 2015 في أثناء إلقائه كلمة ترحيب أمام الموظفين في شركته، حيث رأى: "أن من يحمي إسرائيل لا يحمي دولة اليهود فحسب، بل يحمي مجتمع القيم الغربي". دوبفنر، وللعلم، ينتمي إلى خط المدافعين عن دولة إسرائيل من دون قيد أو شرط وممن يؤمنون بأنهم بهذا الدفاع يحمون المصالح اليهودية. ما يلفت الانتباه هنا هو عدم التطرق البتة في خطاباته إلى مشكلة تهجير الفلسطينيين والاستيلاء على أراضيهم واحتلالها، ولا حتى إلى التفريق بين اليهود والإسرائيليين وأيضًا المعاملة السيئة التي يتلقاها هناك العرب الإسرائيليون، والإحجام عن هذه الأحاديث أيضًا نجده عند الفيلوساميين وأصدقاء إسرائيل. والسؤال هنا، هل سيلتزم دوبفنر وأصدقاؤه الصمتَ في حال تصرفت الحكومة الألمانية كما تتصرف الحكومة الإسرائيلية؟ جوابي أنا أنني لا أتمنى ذلك. إنني أشعر دائمًا بالغضب من اللامبالاة أمام الجريمة الفظيعة التي حدثت في عام 1948 والتي تمثلت بطرد شعب بأكمله والاستيلاء على أرضه. وما يقلقني ويغضبني أكثر من الجريمة هذه نفسها هو مسألة اللامبالاة عند الجناة التي تُدعم بنوع من الشعور بنرجسية وأحقية الأنا واستقامتها، حيث لا يُظهرون أيَّ تعاطف أو ندم على ما يفعلونه. بالطبع لم يُبدِ جميع الألمان الندمَ على جرائم النازية والتعاطف مع ضحاياها، إلا أن هذا هو الموقف الرسمي للحكومة والبرلمان وجميع الأحزاب والكنائس والنقابات وكثير من منظمات المجتمع المدني.

إن نقد الحروب المخالفة للمواثيق الدولية التي تقوم بها دولة إسرائيل ليس نقدًا ضد اليهود أو إشارة إلى معاداة السامية، بل هو نقد لسياسة الدولة الإسرائيلية. وهناك حاليًا قسم كبير من الشعب اليهودي في كل العالم يقف ضد هذه السياسة. خذ مثلًا منظمة "الصوت اليهودي من أجل السلام" (Jewish Voice for Peace) التي تضم حاليًا أكثر من 200.000 عضو ولها تمثيل في أغلب الدول الأوروبية ومعروفة في ألمانيا باسم "الصوت اليهودي من أجل السلام العادل في الشرق الأوسط" (Jüdische Stimme für gerechten Frieden in Nahost - JS).

ولا ننسى كذلك أن هذه السياسة هي أيضًا أمرٌ جداليٌّ بين المواطنين اليهود أنفسهم في إسرائيل. إن نقدًا مماثلًا ممكنٌ لإسرائيل، طبعًا مع عدم إغفال وجود من يعارضه، كما هو حال شركاء بنيامين نتنياهو في الائتلاف الحاكم أمثال نفتالي بينيت الذين يودون منع أيِّ نقد، لا بل وصم من يمارسه (من اليهود) بأنه خائن؛ كما تمتلئ الصحافة الإسرائيلية بمثل هؤلاء. عمومًا، ومنذ وقتٍ طويل، ما عاد منتقدو سياسة نتنياهو يُعدّون خصومًا ديمقراطيين له، بل خونة وعملاء سلطةِ عدوٍّ مشكوك فيهم.

بالطبع توجد نزعة كراهية اليهود في العالم؛ وهذا أمر لا يمكن إنكاره. بيد أنه يجب القول، ولحسن الحظ، بعدم وجود هذا النوع من كراهية اليهود التي تقود إلى حرب تستند إلى العنصرية أو تؤدي في نهاية المطاف إلى إبادة ستة ملايين يهودي، أي تقريبًا نصف يهود أوروبا، كما أن الوضع في إسرائيل مختلف كليًا. أما أن تقوم منظمة غامضة مثل "أونستلي كونسرند" [معنية بصدق] بمقارنة معاناة الإسرائيليين المزعومة بالمعاناة الفعلية للإيزيديين الذين اضطهدوا على يد القوات البربرية لتنظيم داعش وذُبح الآلاف منهم في شمال العراق في صيف 2015، فإن هذا يمثّل قمة التفاهة.

لنتذكر قيام النظام النازي بتنظيم ارتكابات ومذابح ضد اليهود، كما هو الحال في "ليلة الكريستال" [أو ليلة البلور] الشهيرة والشنيعة في 9 تشرين الثاني/نوفمبر 1938، حينما أشعِلت الحرائق في كل المعابد اليهودية والمحال التجارية اليهودية في ألمانيا كلها. الشعب الألماني تغاضى عن

ذلك، هذا إن لم نقل قد حمل وزرًا في ذلك كما هو معروف. وقد غدت معاداة السامية المقبولة اجتماعيًا في الولايات المتحدة، والتي عبَّرت عن نفسها برفض انضمام اليهود (والسود) إلى أندية التنس والغولف، من الأحداث التي أصبحت اليوم جزءًا من التاريخ الماضي. إننا نعيش اليوم في وضع مختلف كليًا عما كان سابقًا. فاليوم لا يقتصر الأمر على قيام الدولة والأحزاب والنقابات والكنائس وتقريبًا كل منظمات المجتمع المدني بتجريم معاداة السامية، أو قل المجتمع المدني كله يقوم بذلك، بل غدت معاداة السامية فعلًا غير مقبول ومرفوضًا اجتماعيًا. كما أن أغلبية الأجيال التي ولدت بعد الحرب لا تعرف معاداة حقيقية للسامية. فإذا ما واجهتنا هنا وهناك بعض حوادث معادية للسامية بين والحين والآخر، فهذا لا يدل سوى على مدى الغباء البشري الذي لا يمكن استئصاله تمامًا.

وإنه لأمر جيد بالطبع أن تكون المنشآت اليهودية محمية من الشرطة. وليس هناك أسوأ من تسكع مسعورٍ في هذه الأرض. بيد أن ما أراه يثير الغضب هو المبالغة والتضخيم اللذين تنتهجهما وسائل الإعلام والتلفاز والراديو بسبب حادثة صغيرة تحمل طابع معاداة للسامية لتتحول هذه إلى حالة هستيرية. ألم يفكر أحد في كيفية شعور اليهود في هذا البلد حيث يجب عليهم دائمًا وأبدًا سماع أن حياتهم معرضة للخطر؟ ماذا نقول إذًا عن كيفية شعور المسلمين الذين يتعرضون لهجمات معادية ضدهم في مساجدهم التي تفوق عدد الهجمات المعادية ضد اليهود، حتى لو كان هناك تعرُّض للطلاب اليهود في فرنسا وألمانيا للمضايقة على أيدي زملائهم المسلمين؟ إنني أعتقد بخطأ أن نرمي هذه الحوادث في سلة معاداة السامية. ألا يُفترض ربط معظمها بما يجري من اضطرابات في الشرق الأوسط؟ ثم وإلى أيِّ مدى بالفعل تمت دراسة فيما إذا كان الأطفال والمراهقون العرب ما زالوا يتعرضون بلا رحمة للظلم في مقابل أقرانهم من اليهود والمسيحيين، ثقافيًا واقتصاديًا واجتماعيًا ونفسيًا؟

لا نعيش الآن في القرن التاسع عشر. وما عاد مجتمعنا اليوم هو نفسه ذلك

المجتمع الرتيب وغير المتعلم كما كان الأمر عليه في السابق. إننا نعيش في مجتمع متعدد ومختلط ينبغي على المرء فيه ألا يحمل قلقًا من أنواع الكراهية الجماعية، أو على الأقل ينبغي عدم المبالغة في ذلك إلى درجة هستيرية. حتى لو حاولت وسائل التواصل الحديثة إخافتي أحيانًا، فإنني أعتقد بعدم السهولة لجمع البشر في ألمانيا تحت راية واحدة أو خلف فكرة موحدة للجميع. وحتى حركة بيغيدا اليمينية (Pegida) لا تستطيع ذلك. وأيضًا إذا ما قرأنا عن نتائج [صاعدة] تثير القلق تقريبًا لانتخابات الحزب اليميني، حزب البديل لأجل ألمانيا، في إحدى المناطق النائية والبائسة، مثل منطقة فوربومرن (Vorpommern)، فإن رأيي هنا أن [انتصارات يمينية] كهذه تمثل حالات عرضية لحظية وتعبيرًا للسكان عن غضبهم وإحباطهم بشأن وضعهم المزري الحالي.

6

إسرائيل ليست وطني

تمثّل إسرائيل بالنسبة إليَّ بلدًا ككل البلدان الأخرى؛ فأنا لا أكرهها ولا أحبها. ثم لماذا يجب على المرء كرهها؟ ورغم أنني لا أشكك في حقها في الوجود، إلا أنني أنتهز حقًا عاديًا بسيطًا في انتقاد سياستها. ألم يكن جواب هاينرش لوبكه، عندما طُرح عليه سؤال هل يحب ألمانيا، "أنا أحب زوجتي"؟ الأمر نفسه ينطبق على البلدان كلها. ولماذا لا ينطبق الأمر على إسرائيل أيضًا؟ إنني لا أطالب إسرائيل بأيِّ مطالب أخلاقية خاصة لا أطالب بها أيَّ دولة أخرى في هذا العالم. وإضافة إلى ذلك، فإنني لا أتوقع أن تتصرف هذه الدولة بأخلاقية أكثر من الدول الأخرى. وبكلمة: إنني لا أنتظر منها، ليس أكثر ولا أقل، سوى اتّباع مبادئ إعلان استقلالها والتزام ميثاق الأمم المتحدة لحقوق الإنسان.

لقد منح العالم الغربي بعد الحرب العالمية الثانية وبعد الهولوكوست اليهود الناجين من المحرقة أرض فلسطين هديةً لهم، وذلك لاسترضائهم عن أخطائه التي ارتكبها بحقهم، وبهذا أقام اليهود الصهاينة دولة لهم على حساب الشعب الفلسطيني الموجود هناك في الأصل. ولم يكن دعم العالم الغربي للدولة اليهودية سوى تكفير عن الظلم الذي لحق بهم في أوروبا. وبهذا ظهر ظلم جديد، ظلم سواء أكان غير معلوم لكثيرين بعد السنوات الأولى لتأسيس الدولة اليهودية حتى عام 1967، أو ظلم جرى السكوت عنه بوعي ومعرفة.

في الواقع، ما عاد ممكنًا بعد حرب الأيام الستة في عام 1967 التغاضي عن الظلم الذي ألحقته إسرائيل بالفلسطينيين، ولا سيَّما بعد أن بدأ الشعب الفلسطيني بالنضال ضده. أما موقف الشعوب في كلٍّ من أميركا وأوروبا فقد كان منقسمًا: هناك القلة القليلة التي دعمت حق الفلسطينيين، في حين كان موقف الأغلبية العظمى الوقوف إلى جانب إسرائيل. لكن حينما ازدادت وتيرة

انتقاد السياسة الإسرائيلية مع مرور الوقت، بدأ مروجو هذه السياسة وداعموها باتهام من ينتقد إسرائيل بمعاداة السامية وتوظيف هذه الاتهامات لخدمة أهدافهم.

ثمة كثير من الإسرائيليين ممن يكذب على نفسه كثيرًا، وذلك لعدم الرغبة في تصديق أنهم يرتكبون ذنبًا بحق الشعب الفلسطيني. تقول إحدى أساطير تأسيس دولة إسرائيل إن الفلسطينيين لم يُطردوا من أراضيهم بل غادروها "طواعية". لكن هل رأينا في التاريخ مثالًا واحدًا عن لاجئين يخرجون من أرضهم طواعية: لا. ما يدهشني دائمًا هو عدم رغبة اليهود أنفسهم في رؤية هذا: أن التاريخ اليهودي ممتلئ بالهجرات القسرية "الطوعية"، مثلًا الهجرات بسبب المذابح في روسيا وأيضًا الهجرات بسبب الاضطهاد في ألمانيا النازية. لنتذكر دائمًا أن اللجوء هو دائمًا قسري، ولا يهم ما إذا أجبِر الناس عليه باستخدام العنف ضدهم أو إذا ما قام به البشر خوفًا من تعرضهم للمذابح، كما حصل مع الفلسطينيين، مثلًا حينما ارتكب الإسرائيليون مذبحة بحقهم في دير ياسين قرب القدس قبل أيام قليلة من تأسيس دولتهم. كان المسؤول عن هذه المجزرة مناحيم بيغن الذي أصبح لاحقًا رئيس الوزراء وحينذاك تغاضى دافيد بن غوريون الذي كان أول رئيس وزراء لإسرائيل عن هذه المجزرة وكان راضيًا عليها ضمنيًا. ولاحقًا ذكر بيغن في كتابه الثورة (*Die Revolte*) على نحو صريح وواضح أن مجزرة دير ياسين قد أدت بالأساس إلى "تطهير عرقي" في فلسطين وساهمت في تأسيس دولة إسرائيل.

لقد تربيت أنا على الأخلاق اليهودية، وتعلمت أن لكلِّ إنسان الحق في الاختيار بين الخير والشر وكل شخص مسؤول عن أفعاله. ولكنْ للأسف، هناك اليوم أخلاق وأسس مغايرة أخرى تنطبق على أجزاء من اليهودية الحالية. ثمة كثيرون يعتقدون أن الهولوكوست تمنح اليهود الحق في تجاوز القوانين القائمة والأخلاق العالمية. لكن هذا لا يسمح لنا بأن نكون ضد الألمان، فضلًا عن الفلسطينيين الذين لم يكن لهم ذنب قط في حدوث الهولوكوست.

في الحقيقة يقف عدد كبير من المواطنين الإسرائيليين واليهود في العالم

على الضد من سياسات إسرائيل غير المفهومة ويرفضونها. والحال ذاته ينطبق على الأوروبيين الذين يبتعدون أكثر فأكثر عن إسرائيل للأسباب ذاتها. أما الصهاينة، من جانبهم، فلا يرغبون في استيعاب ذلك، بل يفضِّلون الاعتقاد أن كثيرًا من الناس في أوروبا، إن لم يكن جميعهم، لا يحبون اليهود. وهذا ما يجعل الأمور بالنسبة إليهم أسهل. وأتذكر حين انفجرت قنبلة في تل أبيب قبل سنوات عدة وأسفرت عن موت عدد من الأشخاص أن جريدة بيلد تسايتونغ الألمانية كتبت حينذاك بالأحرف الكبيرة "إننا نبكي مع إسرائيل" (WIR WEINEN MIT ISRAEL). إلا أنني لم أشهد في حياتي كلها أن أيًا من وسائل الإعلام الألمانية أو الرأي العام الألماني قد بكى وتعاطف مع فلسطين، مثلًا حينما انفجرت قنبلة ثقيلة في إحدى المناطق السكنية في قطاع غزة وأسفرت عن موت أكثر من مئة شخص، من بينهم كثير من العائلات والأطفال والرضع. وأيضًا ينطبق هذا الوضع على روسيا، حيث لا نشهد تعاطفًا لو حصل اعتداء وقتل بسببه المئات من البشر.

إن هذه المواقف بدأت بالتغير كما نلاحظ. الآن يدرك السياسيون الألمان أنفسهم أن تصرفات إسرائيل في المناطق المحتلة تؤجج الكراهية وتزيد من خطر الإرهاب. وثمة جملة تعبِّر جيدًا عن هذا الوضع قالها بيتر أوستينوف (Peter Ustinov): "الإرهاب هو حرب الفقراء (والضعفاء)، والحرب هي إرهاب الأغنياء (والأقوياء)".

بإمكان الجميع أن يدرك أن أساس الأيديولوجيا الصهيونية هو الشوفينية والعنصرية والكولونيالية التوسعية. حتى إن المستوطنين الإسرائيليين الراديكاليين والمتعصبين أنفسهم لا ينكرون هذا حاليًا أو يخفونه. من هنا، فإن الادعاء المستمر بأن كراهية اليهود تقف خلف معاداة الصهيونية ليست سوى ادعاء باطل. ثم لماذا يجب أن تختفي معاداة السامية نفسها وراء معاداة الصهيونية، إذا ما غدت اليوم من جديد كما يُزعم شائعة جدًا؟ هنا يتم جمع كل الحجج التي تتوافق مع الأهداف الأيديولوجية حتى لو كانت غير منطقية.

هل انتقاد قمع اليهود لشعب آخر هو بالفعل عداء للسامية؟ لقد سبق

لكارل ماركس، وهو ابن عائلة يهودية وحفيد حاخام، أن قال: "إن الشعب الذي يقمع شعبًا آخر، لا يمكن أن يكون هو نفسه حرًّا". وبناءً على هذا فلا يمكن إسرائيل ذاتها أن تكون حرة. كما أن اليهود الذين يدعمون إسرائيل على نحو أعمى، يربطون أنفسهم بهذه الدولة اليهودية غير الحرة. لماذا هذا؟

الحال أنه ومنذ سنوات تُنتقد هذه السياسة من جانب الإسرائيليين أنفسهم، مثل أوري أفنيري وجدعون ليفي، وكذلك من جانب يهودٍ مثل نوام تشومسكي ورولف فرليغر، طبعًا فضلًا عن سياسيين من كل أصقاع الأرض. في المقابل تحاول إسرائيل تصوير هؤلاء الناقدين لإسرائيل على أنهم معادون للسامية، أما إذا كان هؤلاء الناقدون يهودًا، فتجري إدانتهم بتعبير "اليهود الكارهين لأنفسهم". هنا ينبغي للتذكير بمقتل ستة ملايين يهودي في الهولوكوست أن يحملنا على تحمُّل مسؤولية خاصة؛ إنها المسؤولية في رفع الصوت في وجه كل شكل من أشكال القمع والعنصرية أو التمييز، وبغضّ النظر أكان ذلك في جنوب أفريقيا أو التيبت أو تركيا أو فلسطين.

إسرائيل تفقد التعاطف معها

كسب اليهود في عام 1945 تعاطف العالم أجمع. وبعد مدة وجيزة عندما أقاموا دولة إسرائيل حصدوا إعجاب العالم أجمع ودعمه، على الرغم من أن تأسيس هذه الدولة بدأ بظلم كبير، وبالتحديد مع طرد أكثر من 800.000 من سكان فلسطين. وبمرور السنين، تحوَّل هذا الإعجاب والتعاطف والرغبة في المساعدة إلى نقد وفي النهاية إلى رفض. وما يثير الإزعاج أن إسرائيل لم تعترف بهذا الظلم الذي ألحقته بالفلسطينيين في عام 1948 وبعده في عام 1967، وأيضًا في عدم إيجاد حل إلى الآن للصراع العربي - الإسرائيلي. وما عاد خافيًا على أحد أن هذه المسؤولية، التي يخفيها الإسرائيليون، تقع أساسًا على عاتق إسرائيل.

من الطبيعي بالنسبة إلى شخص مثلي أمضى أكثر من أربعين عامًا في العمل ضد سياسة إسرائيل، والتظاهر ضدها، والكتابة ونشر الكتب وإلقاء

المحاضرات ألا يجد ما يدعو إلى المسرة وأن يكون دائمًا يائسًا. إلا أن بصيص أمل بدأ يصعد في الأفق في الآونة الأخيرة. ذلك أن دولًا مثل بريطانيا وفرنسا والسويد والولايات المتحدة، وحتى ألمانيا التي تتحمل العبء الأكبر والمسؤولية في حدوث الهولوكوست، فقدت صبرها أمام ما تفعله إسرائيل. وفي عام 2016 عبَّر نائب رئيس كتلة الحزب الاشتراكي الديمقراطي في البرلمان الألماني رولف موتسنيخ (Rolf Mützenich) في لقاء مع مجلة دير شبيغل قائلًا: "تدرك الحكومة الألمانية أن نتنياهو يستغل صداقتنا". ومن المتوقع من وزارة الخارجية ومكتب الاستشارية إعادة التفكير في هذه المسارات، وثمة إشارات تدل على تغيُّر موقف الحكومة الاتحادية.

يجب ألّا يغيب عن ذاكرتنا أن معظم المهاجرين اليهود الذي هاجروا إلى فلسطين، ولاحقًا إلى إسرائيل، لم يهاجروا بسبب سحرٍ ما انجذبوا من خلاله إلى هذه الأرض، بل بسبب رغبتهم في الهروب من الصعوبات السياسية والاقتصادية وحالات الاضطهاد ضدهم في أوطانهم الأصلية، فضلًا عن إيصاد جميع الأبواب الأخرى في وجوههم. قد لا يكون الأمر أن كلهم كانوا صهاينة متحمسين، ربما أقلية فحسب، ولكن في كل الأحوال لم يكن أمامهم من خيار آخر. وحتى يهود إثيوبيا لم يستطيعوا الهجرة إلى إسرائيل سوى لاحقًا، كما هو الأمر كذلك مع يهود الاتحاد السوفياتي، الذين انتقلوا منه لاحقًا صوب ألمانيا والولايات المتحدة الأميركية.

ليس من الضروري أن يختار اليهود إسرائيل مكانًا للهجرة إذا ما أتيح لهم أن يختاروا أو إذا كان لهم خيارٌ آخر. لنتذكر هنا في هذا السياق أنه حينما انهار نظام الأبارتهايد في جنوب أفريقيا في تسعينيات القرن الماضي، هاجر كثير من اليهود الذين كانوا يعيشون هناك إلى أميركا وبريطانيا وأستراليا ولم يتجهوا صوب إسرائيل. والحال ذاته كان مع يهود العراق الأغنياء وميسوري الحال الذين هربوا من القومية العربية في ظل حكم صدام حسين وأسلافه، فلم يهاجروا إلى إسرائيل وإنما توجهوا إلى أميركا وكندا وبريطانيا؛ طبعًا ما عدا أولئك اليهود الذين لم تكن لهم وسائل وخيارات أخرى، فقد نُقلوا إلى إسرائيل

بواسطة سلاح الجو الإسرائيلي، وكان عليهم بعدها العيش لفترات طويلة في إسرائيل في مخيمات وعوملوا على أنهم إسرائيليون من الدرجة الثانية. خلاصة القول إن الصهيونية وإسرائيل لم تكونا قط حلم كل اليهود، وهذا الأمر يمكن قوله أيضًا في الوقت الحالي.

نشر ناشط السلام الإسرائيلي أوري أفنيري في تموز/يوليو 2016 في صحيفة هآرتس رسالة مفتوحة طالب فيها فئة الشباب الإسرائيلي في الخارج بالعودة إلى إسرائيل، وذلك لإطاحة حكومة نتنياهو اليمينية. وكان جواب إحدى الفتيات المعنيات بهذا الخطاب غاضبًا، ذلك أنها لا ترى فائدة بإهدار وقتها في محاولة تغيير دولة أصبحت الحياة فيها بالنسبة إليها لا تطاق. فكتبت "الشعب الذي اختار العيش في صهيون، قد اختار طريقه على نحو محدد"، وأنها تقبل برأي الأكثرية، إلا أنها لا ترى نفسها ملزمةً البقاءَ في إسرائيل والمعاناة تحت وطأة قرار الأكثرية؛ وتكمل قائلة: "لا توجد كلمات تصف الأسى إزاء هذه الحروب المستمرة والعنف في الشوارع، وفساد السياسيين الإسرائيليين والفلسطينيين، وارتفاع تكاليف المعيشة التي تخنقنا، فضلًا عن الإكراه الديني الذي يجعلني حبيسة المنزل كل يوم عطلة، وأيضًا نظرًا إلى حقيقة أنني لا أستطيع الزواج من دون التكبيل بالحاخام الذي يرى في ذاتي ملكيةً خاصة لزوجي". فلا يوجد مستقبل في إسرائيل للأشخاص العلمانيين أو ذوي المواقف الليبرالية. إنها لا تتوق إلى الحياة في برلين أو في أميركا، ولكنها لا ترغب في العيش في بلد حيث يصرِّح أحد الوزراء علنًا: "لن يحصل الفلسطينيون أبدًا على دولة خاصة بهم، وسيتم حكمهم دائمًا من جانب إسرائيل".

بالفعل، هذا ما صرح به نائب وزير الدفاع الإسرائيلي إيلي بن دهان؛ ويمكن المرء، إضافة إلى ذلك، إيجاد أدلة على تصريحات راديكالية عنصرية في صفحات غوغل ويوتيوب. وهذا ما يتصرف به أيضًا مسؤولون في الجماعة اليمينية "عطيرت كوهنيم" (Ateret Kohanim) (وتعني تاج الكهنة)، حينما يصادرون مئات المنازل للفلسطينيين ويستولون عليها، ويقاضون السكان، ويعملون على إفقارهم من خلال عمليات قانونية طويلة، ومن ثم يقدِّمون لهم،

كقارب نجاة مفترض، الملايين من الشيكلات لتسجيل منازلهم في السجل العقاري لهذه الجماعة اليمينية.

كثير من اليهود الآن الذين ينأون بأنفسهم عن مكائد كهذه يتزايد عددهم. لا بل حتى أولئك الذين أمضوا حياتهم كصهاينة وكانوا دائمًا من داعمي إسرائيل، ومنهم ستيفن لفيتسكي (Steven Levitsky)، أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفرد، وغلن ويل (Glen Weyl)، الأستاذ المساعد في الاقتصاد والقانون في جامعة شيكاغو، اللذان يصفان نفسيهما بأنهما صهيونيان، تجرَّآ على إدانة إسرائيل بسبب سياستها الاحتلالية ودعوا علنًا إلى مقاطعتها. وفي 27 تشرين الأول/ أكتوبر 2015 نشرا رسالة مفتوحة في صحيفة واشنطن بوست، جاء فيها:

"لقد كنا طوال حياتنا صهيونيين، ودعمنا إسرائيل كما دعمها اليهود التقدميون الآخرون في أميركا، ذلك أننا كنا مقتنعين، أولًا، بضرورة وجود هذه الدولة لتجنيب شعبنا أيَّ كوارث في المستقبل، وثانيًا، بأن وجود الدولة اليهودية - كدرس تعلمناه من الهولوكوست - لا يمكن أن يكون سوى ديمقراطي يقوم على أسس حقوق الإنسان العالمية. وكنا نظن أن التدابير غير الديمقراطية لدولة إسرائيل، كاحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة، هي تدابير مؤقتة فحسب.

ولكن علينا الآن الاعتراف بحقيقة أن الاحتلال أثبت أنه وضع دائم. ونعلم أيضًا أنه، بعد مرور نصف قرن على حرب الأيام الستة، تحولت إسرائيل إلى دولة شبيهة بدولة الفصل العنصري، الأبارتهايد، التي حذَّر منها كثير من قادتها السابقين. لقد ازداد عدد المستوطنين في الضفة الغربية ثلاثين ضعفًا من 12.000 في عام 1980 إلى 389.000. حتى إنه يُنظر إلى الضفة الغربية حاليًا وعلى نحو متزايد على أنها جزء من إسرائيل، كما تمت الآن إزالة الخط الأخضر الذي يشير إلى الأراضي المحتلة في كثير من الخرائط. كما صرح رئيس إسرائيل مؤخرًا رؤوبين ريفلين أن مسألة السيطرة على الضفة الغربية "ما عادت مسألة جدل سياسي، لقد أصبحت حقيقة أساسية للصهيونية الحديثة".

لقد ساهمت حركة المستوطنات المتنامية والعدد المتزايد لليهود الأرثوذكس الشوفينيين في تأجيج نمطٍ يهودي راديكالي أدى بدوره كذلك إلى الانعزال عن السكان العرب الآخذ عددهم بالتنامي. وإضافة إلى ذلك، تدهور الوضع الأمني على نحو كبير بسبب الاحتلال الدائم منذ حربي 1967 و1973. ورغم أن وجود إسرائيل بتفوقها العسكري على جيرانها العرب بات غير مهدد، فإنه، كما أوضح المديرون السابقون لجهاز الاستخبارات الداخلي الإسرائيلي، شين بيت، في عام 2012 في الفيلم الوثائقي "حراس البوابة" "The Gatekeepers"): لقد أجبر الاحتلال إسرائيل على خوض حرب غير متكافئة، حرب أضرت بسمعة إسرائيل الدولية وحدّت من قدرتها وإمكاناتها على الدخول في تحالفات إقليمية لمحاربة المتطرفين الطائفيين. إنه هذا الاحتلال الذي يجسِّد في نهاية الأمر السبب الرئيسي لعنف الفلسطينيين.

في الواقع، أضرت سياسات إسرائيل، التي انتقدها ستيفن لفيتسكي وغلِن ويل، بسمعة إسرائيل واليهود في جميع أنحاء العالم، سواء تماهوا بأنفسهم مع إسرائيل أو لا. لقد كتب كلٌ من لفيتسكي وويل أن ما يؤسف له أن تغدو المعارضة في إسرائيل أكثر ضعفًا في الوقوف ضد خطاب الحكومة. كما أن الأغلبية العظمى في إسرائيل، حتى العلمانيون منهم، يشعرون بالأمان في الوقت الحاضر بفعل الانتعاش الاقتصادي والأمن النسبي الذي يوفره نظاما الجدار العازل والدفاع الصاروخي "القبة الحديدية"، ولا يرون ضرورةً للسير في طريق صعبة نحو اتفاقية سلام دائم؛ ذلك أن هذا يعني بالنسبة إليهم أنه يجب على مواطنيهم مغادرة المستوطنات في الضفة الغربية، فضلًا عن وجوب اعتراف إسرائيل بمعاناة الفلسطينيين وتحمُّلها هذا الذنب الأخلاقي.

"لقد وصلنا منذ وقت طويل إلى نقطة حرجة لا يمكن العودة عنها أو التراجع حيالها. فبناء المستوطنات غير المقيد والتطورات الديموغرافية ستجعل من غير الممكن تغيير المسار في الوقت القريب. لقد دعمنا لسنوات الحكومات المتعاقبة، على أمل أن تتعامل إسرائيل بما يتوافق مع مصالحها الخاصة على الأمد الطويل. إلا أن هذه الاستراتيجيا فشلت، وبهذا ساهمنا

في هذه التطورات الكارثية. إن إسرائيل لم تحقق في الواقع الأمل في اتخاذ القرارات الضرورية والصعبة من دون ضغوط خارجية".

إن من المؤلم بالنسبة إلى جميع الذين دعموا إسرائيل ممارسة ضغوط خارجية عليها؛ فالوسيلة الوحيدة المتبقية لكي تقوم السياسة الإسرائيلية بتغيير نهجها هو منع الدعم المالي والدبلوماسي الذي تتلقاه من الولايات المتحدة الأميركية إضافةً إلى مقاطعة البضائع والخدمات وسحب الاستثمارات منها. وبالطبع، لن يكون من الكافي ممارسة مقاطعة المنتجات التي تصنع في المستوطنات فحسب لحث إسرائيل على إعادة التفكر جديًا في الوضع الراهن.

هذا هو السبب في رفض لفيتسكي ويل "على مضض ولكن بحزم" السفر إلى إسرائيل، ومقاطعة البضائع المنتَجة في إسرائيل ودعوة جامعتيهما وممثليهما المنتخَبين إلى رفض دعم إسرائيل. "ما دامت إسرائيل لم تدخل في عملية سلام تقود إما إلى دولة فلسطينية ذات سيادة وإما تضمن للفلسطينيين حقوق المواطنة لهم ضمن دولة مشتركة، فلن نكون قادرين على دعم السياسة الإسرائيلية أكثر من ذلك، وذلك لتهديدها على الأمد الطويل وجود إسرائيل نفسه".

بالطبع ليست إسرائيل الدولة الأسوأ في انتهاكها لحقوق الإنسان في العالم، لكن لم تظهر بعد المعايير المزدوجة للدعوة إلى مقاطعة إسرائيل، وذلك بسبب حب إسرائيل والقلق العميق بشأن بقائها، وهو أمر لا ينطبق على الدول الأخرى. والحال أن مقاطعة إسرائيل ستكون ملائمة، بخلاف دول أخرى، مثل كوريا الشمالية وسورية، اللتين تحتلان صورة سيئة دوليًا. ولن تستطيع الحكومة الإسرائيلية من دون الحماية التي تؤمنها لها الولايات المتحدة الاستمرار في هذا النهج الكارثي الذي تسير عليه.

ولنتذكر ذعر وقلق تيودور هرتزل نفسه، مؤسس الصهيونية، من حالة الفصل العنصري التي سادت جنوب أفريقيا، فهو يؤكد: "إننا لا نرغب في

أن نكون كدولة البوير[1] بل نرغب في أن نكون كمدينة البندقية". فمن هذا المنطلق، وحفاظًا على هذه الرؤية من هرتزل، يجب على الصهاينة الأميركيين اليوم ممارسة ضغوط على إسرائيل من أجل إنقاذ البلاد.

من الأمور التي تساعدني في الهدوء عندما أشعر بالسخط من إسرائيل، هو التفكر في ما تحويه القصة التوراتية عن إبراهيم والرب، وذلك حينما طلب إبراهيم من الرب أن يرأف بمدينة سدوم إذا كان يعيش فيها عشرة أشخاصٍ صالحين. والرب كان مستعدًا ليحقق هذا الرجاء، إلا أن سدوم لم يكن يقطنها عشرة صالحين. وهذا ما دفع إبراهيم إلى الطلب من الرب أن يخفض هذا العدد إلى شخص صالح واحد؛ إلا أن حتى هذا الشخص لم يكن له وجودٌ في سدوم، وفي النهاية عوقبت سدوم بأكملها. ولم يُسمح بمغادرة سدوم سوى لصهر [ابن أخي] إبراهيم، لوط، مع زوجته [وابنتيه]، لأنهم في الأساس لم يكونوا من سكانها، وإنما ضيوفًا عليها.

اليوم هناك كثير من الناس الصالحين يعيشون في إسرائيل، لهذا لا يجوز تكسير العصي على جميع أنحاء البلاد. بيد أن إسرائيل نفسها تتجه إلى الانتحار حين تستمر في سلوكها هذا. وللأسف، فإن العلامات الأولى على ذلك بادية أمام أعيننا. فإلى جانب خطر القومية الذي يزداد يومًا بعد يومًا، نجد صعودًا متزايدًا للأصولية الدينية في إسرائيل، والتي تُعتبر أكثر خطورة من سابقتها القومية، وذلك لأن هذه الأصولية تتشابه بسماتها مع الإسلام الأصولي في بعض الدول العربية. لنشدد على أن الصهيونية في حالة تحوُّل هائل. وبالفعل، يمكننا التأكيد أننا نواجه اليوم نقطة تحوُّل بعد مرور مئة عام على وعد بلفور في عام ١٩١٧، الذي صدر قبل وقت قصير من الثورة الشيوعية في العام نفسه. لقد أصبحت الثورة الشيوعية في روسيا مجرد ذكرى. وعمومًا، فإن الأمور لم تحسم بعد، في ما إذا كان مصير الصهيونية سينتهي في النهاية كما مصير الشيوعية.

---

(١) جمهوريات أو دول البوير سلسلة من الدول التي أسسها البوير أي المستوطنون المسيحيون الهولنديون الذين توغلوا في أفريقيا، وذلك في أواخر القرن الثامن عشر وفي القرن التاسع عشر في مناطق من جنوب أفريقيا وناميبيا الحالية. (المترجمة)

الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط تلغي نفسها

كان حلم مهندسي الصهيونية الأوائل تأسيسَ دولة خاصة لليهود، وقد نجحوا في ذلك. أما هدف الصهيونية الآخر فكان يتمثل ببناء مجتمع جديد ديمقراطي وحر وعادل يتوافق مع القيم الأخلاقية اليهودية، وبأن تسود العدالة بما يتماشى مع الأنبياء التوراتيين. إلا أن إسرائيل اليوم بعيدة كل البعد من هذا الهدف. ولنتذكر حلم تيودور هرتزل بإيجاد "وحدة أخلاقية وروحانية" كان من المفترض أن تتحقق في إسرائيل. يصوِّر هرتزل في روايته **الأرض القديمة الجديدة** (*Altneuland*) يوتوبيا دولة يعيش فيها اليهود إلى جانب غير اليهود بسلام، هذا رغم حلمه السابق بدولة لليهود فحسب. كما أن الكاتب الصهيوني الروسي ذا الأصل الأشكنازي فلاديمير جابوتنسكي (Vladimir Jabotinsky)، الذي يُعتبر مؤسس الجناح القومي الإصلاحي للصهيونية، كان يحلم كذلك بـ"صهيونية نبيلة"، وهذا بالضبط ما كان يقصده بها. أما دافيد بن غوريون، مؤسس دولة إسرائيل، فكانت رغبته تتجسد في خلق "مجتمع نموذجي" يكون "منارة للشعوب"؛ والحال أن جميع هذه الأحلام قد فشلت.

إن إسرائيل تسير اليوم في أفضل طريق للتخلي عن الديمقراطية. فكثير من القوانين التي صدرت في السنوات والشهور الأخيرة هي قوانين معادية للديمقراطية. كما تتألف الحكومة من وزراء عنصريين معادين للعرب ويعبِّرون تعبيرًا صريحًا وواضحًا عن أن الأمر الأشد أهميةً بالنسبة إليهم هو أن تغدو إسرائيل دولة يهودية أكثر من أن تبقى ديمقراطية؛ حتى إن كثيرًا من هذه القرارات لا يخرق الدستور الإسرائيلي فحسب، بل يسخر من المبادئ العالمية للحقوق والديمقراطية.

في تشرين الثاني/ نوفمبر 2014 تقدَّم حزب المستوطنين اليميني، البيت اليهودي، بقيادة نفتالي بينيت، شريك الائتلاف الحاكم بقيادة رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو، بمشروع قانون للبرلمان الإسرائيلي يجب بموجبه الوصول إلى أغلبية ليست كبيرة في الكنيست، 61 نائبًا من أصل 120، وذلك لنقض الأحكام التي تصدر عن المحكمة الدستورية العليا للبلاد أو بالتالي إلغائها.

وكان السبب وراء هذه المبادرة هو السخط من حكم المحكمة الدستورية الذي أخفق للمرة الثانية في قانون مُعد ضد المهاجرين غير الشرعيين. حيث إن الحكومة كانت قد خططت لوضع المهاجرين غير الشرعيين من أفريقيا، ولمدة عام تقريبًا في مخيمات لجوء من دون أيِّ إجراءات محاكمة أو حتى جلسات استماع، وهذا ما اعتبرته المحكمة العليا عملًا غير إنساني.

وهنا يمكن الإشارة إلى مقترح آخر كان يهدف إلى تمكين أغلبية بسيطة من النواب، عددها 61، من استبعاد أعضاء آخرين من الكنيست في حال لا يتوافق هؤلاء مع هذه الأغلبية. من هذا المنطلق يمكن القول إن الدولة التي تستطيع فيها الحكومة إلغاء قرارات المحكمة الدستورية العليا هي دولة ذات ديمقراطية زائفة. فالحكومة هنا تنصِّب نفسها فوق القانون، كما يسود هنا استبداد الأغلبية. ولحسن الحظ لم يجد مشروع ذلك القانون أغلبية مؤيدة له؛ بيد أنه، مع ذلك، كان يتلاءم مع سلسلة كاملة من القوانين التي يستطيع بواسطتها الشريك اليميني لائتلاف رئيس الوزراء نتنياهو، نفتالي بينيت، الضغط على رئيس الوزراء والتحكم فيه. ومن بين هذه القوانين قانونُ النكبة، الذي يسمح لوزير المالية الإسرائيلي بقطع وتقليص المنح الحكومية للمؤسسات التي تحتفل بيوم استقلال إسرائيل بربطه بطرد الفلسطينيين. ومثال آخر يسمح لأحد القوانين في بعض المناطق الصغيرة في إسرائيل، لأسباب مختلفة، برفض مرشحين معينين في الانتخابات. وعمومًا، فإن كل هذه القوانين موجهة ضد الأقلية العربية والمسلمة في البلاد التي يتم تهميشها تهميشًا متزايدًا.

بالفعل، أظهر أيضًا النقاش في مسألة قانون الدولة القومية ذلك المدى في تحوُّل إسرائيل نحو اليمين، حيث يفيد هذا القانون بإعلان إسرائيل دولة يهوديةً وبكونها "وطن الشعب اليهودي". لقد نصت الفقرة الأولى من الدستور على ما يلي: "ممارسة حق تقرير المصير في دولة إسرائيل حصرية للشعب اليهودي". وبموجبه يُعتبر رسميًّا كذلك مواطنو الطوائف الدينية الأخرى مثل المسيحيين والمسلمين والدروز مواطنون من الدرجة الثانية. وقد علّق معهد إسرائيل للديمقراطية بشأن هذا المقترح على النحو التالي: "إن مقترحًا كهذا

غير ضروري، بل هو خطير ويعمل على تدمير التوازن بين جوهرَي الدولة الأساسيين: اليهودية والديمقراطية". وفي بداية تشرين الأول/أكتوبر 2015 منع رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو في اللحظات الأخيرة هذا القانون الذي يسبِّب التمييز ضد المواطنين الإسرائيليين غير اليهود.

في تموز/يوليو 2016 انتقدت جريدة هآرتس قرار وزارة التربية تخفيضَ الدعم المالي عن الطلاب الدارسين العرب إلى النصف، مع العلم أن هذا القرار لم يشمل أقرانهم من اليهود، رغم أن كلتا المجموعتين مواطنون إسرائيليون. وهنا نذكّر أن كلمة مواطَنة (Staatbürgerschaft) في إسرائيل تكتسي طابعًا خاصًا للغاية. حيث يسجَّل في الأوراق الرسمية عند خانة القومية لفظة: **يهودي**. بينما عند الإسرائيليين العرب تدوَّن فقط لفظة: **عربي**، ويُكتب عند الدروز: **درزي**. طبعًا يأتي هذا مع عدم التمييز بين المسيحيين والمسلمين من العرب.

كان المبرر لهذا الإجراء حجةَ تزايد عدد المدرِّسين العرب في المدارس اليهودية تزايدًا كبيرًا رغم أن كثيرين منهم لا يدرِّسون سوى العربية. ومن هنا يبدو الأمر جليًّا مرة أخرى أن عرب إسرائيل لا يمتلكون الحقوق نفسها التي يمتلكها المواطنون اليهود. فقرار كهذا يغذّي العنصرية القومية التي تسود إسرائيل. لا بل حتى برلين تُظهر الآن مدى القلق الذي تشعر به إزاء هذا "المناخ السياسي الداخلي" في إسرائيل، وهذا ما يمكن قراءته في صحيفة **شبيغل أون لاين**[2] (*SPIEGEL-ONLINE*). كما ترغب إسرائيل، من خلال القوانين، في فرض مزيد من القيود على عمل المنظمات المنتقدة للحكومة، والتي ستشمل كذلك كثيرًا من المنظمات الألمانية. وهنا نجد على غير المعتاد النقد الحاد للحكومة الألمانية والبرلمان الألماني.

كان الصحافي جدعون ليفي قد كتب في آب/أغسطس 2016 في جريدة **هآرتس** أن الديمقراطية في إسرائيل تعيش أزمة عميقة، حيث تقدَّم يوميًا وتمرَّر

---

(2) لا شك في أن الأمر يكتسي حساسية شديدة عندما تتدخل الحكومة في الشؤون الداخلية لدولة أخرى. وهذا ما يمكن قوله خصوصًا في سياق العلاقات الألمانية - الإسرائيلية. من هنا يجب أخذ مسألة "قلق الحكومة الفدرالية من المناخ السياسي الداخلي" (SPON 11.7.2016) على محمل الجد.

مشاريع قوانين غريبة. فمثلًا، مرِّر قانون في شباط/ فبراير 2017 يُحظر بموجبه على المساجد أن يُرفع فيها صوت المؤذن عبر مكبرات الصوت، على الرغم من أن 20 في المئة من سكان إسرائيل هم من المسلمين، ومن أن هذا الأمر لم يشكّل أيَّ مشكلة طوال 70 عامًا. وثمة مثال آخر يتجسد بقانون يُمنع بموجبه الإسرائيليون من الدعوة إلى مقاطعة إسرائيل. وفي الحقيقة، وخلاصة الأمر، أن رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو وأعوانه حولوا إسرائيل إلى نظام استبدادي لم يعد بالإمكان وصفه بالديمقراطية.

في شباط/ فبراير 2017 صوَّت البرلمان الإسرائيلي بأغلبية صغيرة على قانون مثير للجدل يعزز سلطة الاحتلال والاستيطان في الضفة الغربية على نحو دائم كما يجعل حل الدولتين أمرًا مستحيلًا. والحال أن الحكومة الإسرائيلية تريد بهذا وفقًا للقانون الإسرائيلي "شرعنة" وجود الآلاف من مساكن المستوطنين على الأراضي الفلسطينية. وقد تم الترخيص بأثر رجعي لبناء قرابة 4000 منزل للمستوطنين الإسرائيليين في الضفة الغربية المحتلة، رغم أن البناء تم بشكل غير قانوني على أراضٍ خاصة بالفلسطينيين، حيث صوت 60 نائبًا من أصل 120 في الجلسة الثالثة والأخيرة مع هذا القانون، في حين أن 52 نائبًا من المعارضة وثمانية نواب عرب صوتوا ضده، وهنا فإن المحكمة العليا في إسرائيل هي المخولة الوحيدة إسقاط هذا القرار.

كان السياسيون اليمينيون المتطرفون يسعون مع هذا القانون لمنع عمليات إخلاء تلك المستوطنات غير القانونية، كما هو حال المستوطنة المثيرة للجدل، مستوطنة عمونا، شمال رام الله، والتي بنيت على أراضٍ فلسطينية. وفي عام 2014 صدر أمرٌ عن المحكمة بإخلاء المستوطنة، بيد أن الحكومة تجنبت بالطبع الصراع مع المستوطنين. وتعويضًا عن هذا الإخلاء أعلنت الحكومة الإسرائيلية في شباط/ فبراير 2017 إنشاءَ 3000 مسكن جديد للمستوطنين، على أن يتم فورًا إنشاء 2000 مسكن. وفي الوقت الحالي شُرع في بناء مستوطنة جديدة بدلًا من مستوطنة عمونا.

نتيجة لذلك يعيش في هذه الأثناء قرابة 600.000 إسرائيلي في أكثر من

200 مستوطنة في كلٍّ من الضفة الغربية والقدس الشرقية، أي ما يشكّل 10 في المئة من السكان. وللعلم، فإن إسرائيل تميز رسميًّا إلى الآن بين المستوطنات التي تُبنى بموافقة رسمية من الحكومة، وتلك غير القانونية التي تجري "شرعنتها" بموجب قانون جديد ذي أثر رجعي. لكن، من وجهة النظر الدولية، ما من فرق بينهما هنا، حيث إن جميع المستوطنات المبنية في الأراضي المحتلة تُعتبر غير شرعية قانونيًّا.

والحال أنه غالبًا ما يشار إلى أن إسرائيل هي الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط. لكن السؤال الذي يُطرح: إلى متى؟ ثمة كثير من الإسرائيليين أنفسهم يرون أن إسرائيل تتجه نحو السقوط. وحتى لو بقيت هذه الدولة لبضعة عقود أخرى، يبقى هذا السؤال، ما نوع هذه الدولة وشكلها؟ لقد صرَّح عاموس عوز، أحد أشهر الكتاب الإسرائيليين وقد كُرِّم في ألمانيا بمنحه جائزة غوته، في إحدى المقابلات مع جريدة معاريف الإسرائيلية بأنه: "عندما نستمر في السيطرة على شعب آخر، فهذا يعني إما قيام دولة عربية وإما أننا سنُنتِج دكتاتورًا يهوديًّا يقوم بقبضة من حديد بقمع كلٍّ من العرب واليهود الذين يحملون رأيًا مخالفًا له، ولا أظن بوجود إمكانية طريق ثالثة لذلك"[3].

هكذا نجد تحوُّل إسرائيل شيئًا فشيئًا إلى بلد يسوده مجتمع فاشي قومي- ديني، كما تنبأ بهذا الفيلسوف الديني الأرثوذكسي يشعياهو ليبوفيتش قبل خمسين عامًا، حيث رغم اعتباره الفلسطينيين عدوهم الرئيس، إلا أنه أيضًا مجتمع يستهدف الآن بالفعل حتى أجزاء من الشعب اليهودي: النساء والمثليين واليساريين، ولاحقًا كل من يخالفه الرأي.

هكذا أصبحت إسرائيل، كما هو حال أيِّ أمة عندما يقمع جيشها ولمدة خمسين عامًا شعبًا آخر بوحشية أو تعيش لمدة سبعين عامًا في بلد وعلى أرض تم نهبها من شعب مقموع ومضطهَد: أمة معتدة بنفسها، إلا أنها عمياء وصماء تجاه ظلمها للآخر، ومملوءة بالكراهية وعدم الحرية. لنختم هنا بأنه إذا كان

---

(3) مقابلة مع الصحيفة اليومية: Maariv, 6/11/2015.

الفلسطينيون سجناء في سجن ضخم في الهواء الطلق، فإن الإسرائيليين هم الحراس الوحشيون عديمو الرحمة لهذا السجن. ولنتذكر: في سجون كهذه لا يوجد أحدٌ حر، حتى الحراس أنفسهم.

هل إسرائيل دولة دينية؟

هكذا فإن هذه "الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط" تبتعد دائمًا عن بناء الديمقراطية الغربية. والأمر يُعتبر من نواحٍ عديدة حالة خاصة. فقد تبنت إسرائيل مباشرة بعد تأسيس الدولة الإسرائيلية في عام 1948 الشريعة اليهودية، الهالاخاه. وهذا يعني مثلًا أنه لا يمكن اليهود الزواج من غير يهود، ذلك أن لا وجود للزواج المدني في إسرائيل، ولا يُسمح للفنادق والمطاعم بتقديم إلا الطعام "الكوشر" [الحلال]، كما يتوجب على جميع الفنادق التزام قواعد "يوم السبت"، وهو ما يعني أن على النزلاء من غير اليهود أيضًا التزام هذه القواعد، ومنها الامتناع عن استخدام المصعد، والامتناع عن التدخين وعن أكل البيض أيضًا في هذا اليوم.

لقد كُلِّف المجلس القومي اليهودي، [أي] الصيغة السابقة للكنيست اليوم، حينما قامت دولة إسرائيل في عام 1948، صوغ دستور للدولة في غضون ستة أشهر، وهو الأمر الذي لم يتحقق إلى يومنا هذا بسبب عدم اتفاق الإسرائيليين العلمانيين والمتطرفين الدينيين والقوميين على ذلك. وبهذا جرى اللجوء إلى إعلان الاستقلال وسلسلة من القوانين الأساسية التي تشكلت عبر الزمن بكونها الأساس المبدئي للحياة، هذا فضلًا عن تطبيق القوانين البريطانية التي كانت سارية في مرحلة الانتداب.

إسرائيل تقدِّم نفسها على أنها دولة يهودية، الأمر الذي يمكن قراءته من خلال الاسم التوراتي "دولة إسرائيل"[4] (Medinat Israel) وأيضًا العلم الوطني الذي يحمل نجمة داود. أما لونا العلم، الأبيض والأزرق، فمستوحيان من

---

(4) بالعبرية: מדינת ישראל. (المترجمة)

لباس أو شال الصلاة الأزرق والأبيض، في حين أن الرمز الوطني، الشمعدان ذا السبع مواسير، يدل على مينوراه[5]. وحتى في ما يسمى "إعلان الاستقلال" لعام 1948 فإننا أمام طابع ديني يرتبط بشعب هذه الدولة اليهودي وبرؤيته التراثية لأرض إسرائيل وبصلواته في الشتات ورؤى أنبياء إسرائيل... وغير ذلك. ورغم أن مؤسس الصهيونية الحديثة [تيودور هرتزل] حينما كتب كتابه في عام 1896 **الدولة اليهودية** كان يحلم بدولة ليبرالية ووطنية وليس بدولة دينية، فإننا نجد المؤسسات الحكومية والدينية في إسرائيل تتشابك ويرتبط بعضها ببعض على نحو وثيق. كما تتحكم قانونيًا المؤسسات الدينية ذات الأهمية الكبرى في إسرائيل، مثل المؤسسة الحاخامية العليا ومجالس الحاخامات المحليين والمجالس الدينية، بكثير من مجالات الحياة المهمة مثل الزواج والطلاق والجنازات؛ وأيضًا حتى النظام المدرسي يخضع لرقابة حكومية-دينية؛ هذا فضلًا عن أن تمويل المدارس الدينية والمعابد اليهودية وكذلك المساجد والكنائس والمؤسسات وموظفيها والعاملين فيها تقوم به الدولة.

لا يوجد فصل بين الدين والدولة في إسرائيل. وعلى الرغم من عدم ذكر دين رسمي للدولة، فإن اليهودية، سواء تشريعيًا أو رمزيًا، تقف على نحو جلي وواضح فوق كل الأديان الأخرى.

هذا يبدو جليًا في ما يسمى "قانون العودة" الذي يُمنح بموجبه كل يهودي في العالم، بغضّ النظر عن مكان إقامته، الحق في الهجرة إلى إسرائيل والحصول على الجنسية الإسرائيلية هناك. ومنذ عام 1970 أخذ يسري الحكم الديني الأرثوذكسي الذي يُعتبر الشخص بموجبه يهوديًا لمجرد أن تكون أمه يهودية الأصل. ولا يُعدّ يهوديًا من اعتنق اليهودية لاحقًا أو من كان يهوديًا من جهة الأب فحسب وأمه تنتمي إلى دين آخر. من ناحية أخرى لا يزال الفلسطينيون الذين هُجِّروا من مناطقهم التي تحتلها إسرائيل اليوم ينتظرون الاعتراف لهم بـ "حق العودة" لهم ولأحفادهم إلى وطنهم السابق.

---

(5) أو الشمعدان السباعي العبري القديم، ويروى أن موسى وضعه في خيمة الاجتماع في البرية ثم وُضع في الهيكل في القدس. (المترجمة)

أما المواقف الليبرالية العالمية في إسرائيل فإنها لا تنتشر سوى بين أقلية صغيرة فحسب، وهذا الأمر يرتبط بالعلاقة الخاصة بين الدين اليهودي والصهيونية. ثمة كثير من اليهود القوميين الدينيين يعتقدون بأن الرب قد اختار دولة يهودية بقيادة زعيم يهودي ولم يختر دولة ديمقراطية. فلو سنحت لهم الفرصة لفضَّلوا تطبيق قوانين الشريعة اليهودية [الهالاخاه] اليوم قبل الغد في كل مجالات الحياة. وتُعتبر الهالاخاه بمنزلة الفقه اليهودي كما هو الأمر في الشريعة عند المسلمين.

ووفقًا لما أظهره أحد استطلاعات الرأي المنشورة من جانب مركز أبحاث بيو (Pew Research Center) في واشنطن، في آذار/مارس 2016، فإن فكرة قيام دولة يهودية على أسس الشريعة اليهودية، الهالاخاه، تلاقي بين اليهود المتدينين في إسرائيل إقبالًا كبيرًا: حيث يتعاطف مع هذه الفكرة ما بين 69 و86 في المئة من اليهود المتدينين، في حين يرفضها 57 في المئة من اليهود التقليديين و90 في المئة من اليهود العلمانيين. وتبلغ نسبة اليهود بين الشعب الإسرائيلي عمومًا 75.5 في المئة، من بينها 52 في المئة من الملحدين والعلمانيين. أما النسبة المتبقية 48 في المئة فهي تنقسم ما بين 15 - 20 في المئة من المتدينين الأرثوذكسيين وقرابة 10 في المئة من المتدينين القوميين. لكن لا ننسينّ أن نسبة المتدينين القوميين تتزايد تزايدًا سريعًا، سواء بالزيادة الطبيعية للولادات أو بالقناعات الأيديولوجية.

صدرت في عام 2009 رواية بالألمانية للكاتب ليون دي فينتر (Leon de Winter) بعنوان حق العودة (*Das Recht auf Rückkehr*)، وتصوَّر تقلّص إسرائيل إلى حد "الدولة-المدينة" المُؤمَّنة بإحكام والتي تغطي بشكل أساسي المنطقة المحيطة بتل أبيب. واليوم يمكننا القول إن دي فينتر كان محقًّا في هذه الرؤية التي أصبحت الآن تقريبًا واقعًا، ذلك أن إسرائيل تتكون من كتلتين: تل أبيب، وبقية البلاد. كما أنه في وقت يعيش فيه الناس في تل أبيب بشكل متنور إلى حدٍّ ما بأفقٍ علمانية وميول غربية، نجد هيمنة المتدينين والمتطرفين والمتخلفين على بقية البلاد، وكأنهم يعيشون في زمن آخر.

هكذا مع هذه المبادرات التشريعية الجديدة، تدشن إسرائيل الخطوات الأولى للتحول إلى دولة تسير وفق قواعد الشريعة اليهودية، الهالاخاه. إنها تسير بهذا في الجهة نفسها مع الدول المحافظة جدًا والإسلامية مثل المملكة العربية السعودية وإيران، حيث إن الشريعة تمثّل هناك القانون.

الأساطير التاريخية لإسرائيل

إنها لحقيقة بداهية أن المنتصرين في حربٍ ما، إلى جانب الغنائم التي يكسبونها، يكتبون رؤيتهم للتاريخ. ولكن إذا ما وُجدت اليوم شكوك متزايدة بشأن الرواية الرسمية للتاريخ الإسرائيلي، تلك الرواية التي تقول بنظرية "شعب بلا أرض" لـ "أرضٍ بلا شعب"، فذلك بفضل وجود مؤرخين إسرائيليين جريئين بدأوا بإعادة النظر في تاريخ الغزو الصهيوني لفلسطين. هكذا، فإنه ليس خافيًا علينا اليوم مثلًا مجازر دير ياسين، تلك القرية العربية في شمال غرب القدس، التي أبيدت كلها على يد الصهاينة والإرهابيين اليهود في عام 1948 في ظل قيادة مناحيم بيغن. بالطبع لا يرغب أحد، رغم ذلك، في الدوائر الصهيونية ودوائر الفيلوسامية في سماع شيء عن هذا الأمر. كما أن مجرد ذكر النكبة، تلك الكارثة التي حلت بالفلسطينيين، يُعتَّم عليه منذ مدة طويلة في المدارس الإسرائيلية. أما في منطقة دير ياسين نفسها فقد نشأت مكانها اليوم، كما نعلم، مستوطنة يهودية أرثوذكسية هي مستوطنة جفعات شاؤول التي لا يوجد فيها ما يذكِّر بتلك الأحداث.

كان من السهل سابقًا غض النظر وصمّ الأذنين عن الوقائع التي تحدث، أما اليوم فإن تلك الفظائع التي يرتكبها الجنود الإسرائيليون بحق الفلسطينيين لا تُنقل بعد دقائق فحسب من حدوثها إلى أماكن سكننا عبر الهاتف المحمول أو كاميرات التلفاز، وإنما توثَّق مباشرة على صفحات الإنترنت، مثل يوتيوب، ويمكن التحقق منها. خذ مثلًا مشهد قتل أحد الفلسطينيين في الخليل وهو ملقى بجراحه على الأرض، بعد أن استهدفه جندي إسرائيلي برصاصة في رأسه وقتله بدم بارد. لم تشفع لهذا الجندي مزاعمه أنه كان يدافع عن نفسه، ذلك أن الصور التي نشرتها منظمة حقوق الإنسان "بتسيلم" (B'tzelem) قد تحدثت

برواية أخرى واضحة جدًّا بشأن ما حصل. وهذا الأمر قاد إلى أنه لم يبق أمام السياسيين في إسرائيل أيُّ خيارٍ سوى اعتقال هذا الجندي، طبعًا وهم مكرهون على ذلك، رغم مزاعم عائلته أنه لم يفعل سوى ما أمره به رؤساؤه.

في كانون الثاني/ يناير 2017 دين الجندي الإسرائيلي إيلور عزريا، وكان عمره 18 عامًا، من جانب المحكمة العسكرية في إسرائيل بتهمة القتل غير المتعمد. كان هذا الإجراءُ الأوّلَ من نوعه وحظي باهتمام بالغ، وتعاطف كثير من الإسرائيليين مع الجندي المتهم، ولم يستوعبوا لماذا يحدث إجراء كهذا بحقه. حتى إن حماية الشرطة خصِّصت لبعض القضاة، بسبب التحريض ضدهم على صفحات الإنترنت. وحتى قبل إعلان الحكم، أعلن وزير التعليم نفتالي بينيت أنه سيعفى عنه إذا حُكم عليه بالإدانة. وفي نهاية المطاف حُكم على عزريا بـ 18 شهرًا في السجن، وخُفِّضت رتبته العسكرية. طبعًا حصل هذا رغم أن الادعاء كان يطالب له بالسجن لمدة خمس سنوات. لا بل حتى عشية إصدار الحكم طالب رئيس الوزراء نتنياهو وبشدة بالعفو عن الضابط. أما بالنسبة إلى الفلسطينيين، فقد كانت هذه المحاكمة وهذه العملية تبدوان مجرد مسرحية هزلية: لا ننسينَّ أنه حتى رمي الحجارة يعاقب عليه بأشد العقوبات.

بالطبع يمكن كل من يبحث عن الحقيقة معرفة أن كتابة تاريخ الصهيونية مبنية على كثير من القصص والأكاذيب. وما على المرء إلا أن يقرأ مثلًا وثائق سياسيين إسرائيليين مثل سيمحا فلابان الذي كشف عن بعض هذه الأساطير في كتابه **ولادة إسرائيل: الأسطورة والحقيقة**[6] (*Die Geburt Israels: Mythos und Wirklichkeit*) أو لمؤرخين أمثال إيلان بابيه (Ilan Pappe) الذي أثبت في كتابه **التطهير العرقي لفلسطين** (*Die ethnische Säuberung Palästinas*) أن العرب طُردوا من ديارهم في فلسطين بالقوة وليس كما تريد الروايات الصهيونية أن تقنعنا به بأن العرب "قد هاجروا طوعًا". ولا يخفى علينا اليوم أن عمليات التهجير تلك قد رافقها السطو والنهب والاغتصاب. حتى إن يتسحاق رابين ذاته كتب في

(6) Simcha Flapan, *Die Geburt Israels* (Neu-Isenburg: Melzer Verlag, 2005)

مذكراته عن قيامه هو وجنوده بمطاردة الفلسطينيين المدنيين في مدينة الرملة وتهجيرهم من المدينة.

وكان دافيد بن غوريون الذي صَدّر للعالم رواية أن الفلسطينيين قد خرجوا "طوعًا" من ديارهم، كتب خطابًا في 2 حزيران/ يونيو 1948 إلى قائد الهاغاناه آنذاك في حيفا، وقد ظهرت الرسالة في مزاد علني في لندن، وكانت الهاغاناه هي جيش الدفاع قبل تأسيس دولة إسرائيل، والتي ضُمّت لاحقًا إلى الجيش الإسرائيلي مع القوات الإصلاحية التابعة لبيغن والتي يطلق عليها اسم إرغون.

هنا النص:

"إلى الرفيق آبا حوشي،

يوجد بالقرب من مطار حيفا مدرسة مهنية بنَتها حكومة للعرب سابقًا. ويرغب سلاح الجو في استخدام هذه المدرسة لأغراضه. يرجى تحديد حالة المدرسة وإعلامي في ما إذا كانت هناك أسباب تقف ضد نقل هذه المدرسة إلى مصلحة سلاح الجو.

أسمع أن السيد ماريوت يهتم بشأن إعادة العرب إلى حيفا، لا أعرف كيف يبدو هذا الأمر عند السيد ماريوت، لكننا لسنا مهتمين بإعادة العدو إلى حين انتهاء الحرب. وعلى المؤسسات كافةً أن تعمل بموجب ذلك.

مع أطيب التحيات، دافيد بن غوريون".

هنا نأتي إلى نقطة أخرى: إن الحقيقة غير المعروفة بالنسبة إلى كثيرين هي ذلك التعاون الذي كان يجري حتى بين بعض الصهاينة والنازية خلال فترة التحضيرات لتأسيس دولة يهودية. فقد شهدت تلك الحقبة تعاونًا على مستوى عالٍ بين الصهاينة والنظام النازي.

إذا ما أخذ المرء بالرواية الرسمية، فقد تمثلت سياسة النازيين بعد استيلاء أدولف هتلر على السلطة في عام 1933 بتسريع الهجرة الممنهجة والمنظَّمة لليهود من جميع مناطق الرايخ، وذلك للقضاء على أيٍّ شكل من أشكال

"التأثير اليهودي" في السياسة والاقتصاد والثقافة الألمانية. من كان يخطر في باله حينذاك فكرة معسكر الإبادة أوشفيتز وفكرة "الحل النهائي"؟ والأمر الذي يجري تجاهله اليوم بكل سرور هو أن الوضع السياسي في ألمانيا قد هيّأ في الوقت نفسه فرصة فريدة لكسب اليهود الألمان إلى مصلحة القضية الصهيونية. ذلك أن أغلبية اليهود في ألمانيا حتى ذلك الوقت كانوا غير مهتمين بالهجرة إلى فلسطين؛ وقد باءت جميع الجهود لإقناعهم بالسفر بالفشل. إنه اضطهاد النظام النازي فحسب الذي قدَّم فرصًا جديدة للصهاينة لتعزيز الهجرة الكبيرة إلى فلسطين. لقد عبَّر رئيس اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية آنذاك، دافيد بن غوريون، عن أمله بأن انتصار النازية سيُمكّن الصهيونية من أن تغدو "قوةً مثمرة"، لأنه من خلال انتصارها ستشجع الهجرة إلى فلسطين. ووفقًا للمؤرخ والصحافي الإسرائيلي توم سيغيف، سافر أحد المسؤولين الصهاينة المرموقين إلى برلين بعد تسلّم هتلر السلطة، وذلك للتفاوض مع النظام النازي حينذاك بشأن مسألة هجرة اليهود الألمان ونقل ممتلكاتهم إلى فلسطين. عمّ أسفرت تلك المفاوضات؟ النتيجة كانت إبرام اتفاقية هعفراه (Ha'avara-Abkommen) بينهما، اتفاقية توفّق بين مصالح الحكومة الألمانية والحركة الصهيونية.

تعود اتفاقية هعفراه إلى الاصطلاح العبري المرتبط بالانتقال (Transfer)، ونفَّذتها الشركات الائتمانية التي قامت لهذا الغرض في ألمانيا وفلسطين. فقام المهاجرون اليهود قبل مغادرتهم ألمانيا بإيداع رؤوس أموالهم لدى هذه الشركات الائتمانية التي استخدمت هذه الأموال لشراء البضائع من الموردين الألمان وذلك لتصديرها إلى فلسطين. فحينما كان يطلب زبون ما في فلسطين بضائعَ من ألمانيا، فإنه يتعامل مع مدفوعاته من خلال الشركة الائتمانية، التي تعيد الأموال من جهتها إلى اليهود الذين كانوا يصلون في هذه الأثناء من ألمانيا. كان إبرام اتفاقية هعفراه مع النظام النازي مشروطًا بهجرة اليهود إلى فلسطين. وبهذا جرى تشجيع اليهود الألمان بأن الهجرة إلى فلسطين كانت فرصتهم الوحيدة لإنقاذ أموالهم. أما ممتلكات وأرصدة أولئك اليهود الذين فضَّلوا الهجرة إلى دول مجاورة لألمانيا، فقد بقيت محظورة عليهم. وقد استفادت ألمانيا على الصعيد المالي من هذه الاتفاقية التجارية، فكسبت من

خلالها ما بين عامي 1933 و1939 مبالغ بلغت 105 670 241,06 ماركًا ألمانيًا. وقد عُمل بالاتفاقية حتى منتصف الحرب العالمية الثانية[٧].

ميدالية تذكارية لاتفاقية هعفراه: "نازي يسافر إلى فلسطين".
لقد سُكّت هذه الميدالية في ألمانيا بموافقة الوكالة اليهودية.



استمر هذا التواصل مع القوميين الاشتراكيين النازيين في السنوات اللاحقة. ولأن الصهاينة كانوا مقتنعين بأن برامج لإعادة تأهيل اليهود من شأنها تسهيل توطين اليهود الألمان في فلسطين على نحو واسع، فقد تم في ألمانيا إيجاد نظام كامل من معسكرات التدريب وإعادة تأهيل اليهود. وكانت هذه البرامج موجهة في المقام الأول إلى الشبان اليهود الذين لم يكونوا قد بدأوا حياتهم العملية. فمع مساعدة هذه البرامج يمكنهم كسب المهارات والمعارف التي كانت مطلوبة منهم في فلسطين.

لم تدعم حكومة الرايخ الألمانية، خصوصًا قوات النخبة النازية، الهجرة إلى فلسطين فحسب، بل قدمت أيضًا مساعدات عملية للغاية في مختلف المناطق. وإضافة إلى ذلك، قامت تلك القوات بتدريب الشبان اليهود

(٧) https://bit.ly/[illegible]

الصالحين لأعمال عسكرية في معسكرات خاصة للتدريب العسكري. حتى إنه في فلسطين نشأ فرع محلي تابع للحزب القومي الاشتراكي النازي[8]. كما أدت الصلات السرية الألمانية إلى سفر رجال أمثال أدولف أيخمان إلى فلسطين. وبعد أن ضُمَّت النمسا إلى ألمانيا النازية في عام 1938، رأس أيخمان هذا مركز الهجرة اليهودية في فيينا، واجتمع مرات عدة بهذه الصفة إلى مسؤولين صهاينة. وكانت إقامة طاقم أيخمان في أحد أجنحة قصر روتشيلد.

هنا تجدر الإشارة إلى أن اتفاقية هعفراه تثبت لنا بوضوح أن الحديث عن وجود تحالف مزعوم بين مفتي القدس محمد أمين الحسيني والنازيين ليس أكثر من بروباغندا كاذبة؛ ذلك أن النازيين لم يكونوا مهتمين بالمصالح الفلسطينية، كما أن العلاقة بين المفتي وهتلر بقيت علاقة باردة وقصيرة الأمد. لقد كان اهتمام النازيين في المقام الأوّل منصبًّا على مسألة التخلص من اليهود، وكانت فلسطين بالنسبة إليهم بكل تأكيد هي الوجهة الصحيحة. ولنتذكر أن قرار "الحل النهائي"، وهو التعبير الملطَّف الذي أطلِق على القتل الجماعي ليهود أوروبا، لم يُبت به إلا في 20 كانون الثاني/ يناير 1942 في المؤتمر الشهير، مؤتمر فانزي (Wannseekonferenz).

كما أوضح ناشط السلام الإسرائيلي أوري أفنيري في كتابه **إسرائيل بلا صهاينة** (*Israel ohne Zionisten*) أن القيادة الصهيونية في أثناء الحرب "من النادر أن ساعدت اليهود لإنقاذهم". أما من وجهة نظر الصهيونية فقد كانت أعمال الإنقاذ الخالصة لليهود الألمان بلا فائدة. لماذا؟ لأنهم كانوا يأتون من دون ممتلكات ولم يقدِّموا أيَّ ميزات على عكس اليهود القادمين بإرادتهم وفق اتفاقية هعفراه. أما مجرد اليهود الألمان الذين مُنحوا تصاريح للهجرة واعتُبروا "لاجئين"، فقد كان يُنظر إليهم حتى من طرف الصهاينة على أنهم "أشخاص غير مرغوب فيهم". لقد أثيرت هذه الحقائق غير السارة والمحرجة لإسرائيل وجيلها المؤسس على الأقل في محاكمة أيخمان في عام 1961 في القدس.

---

(8) Tom Segev, *Die siebte Million. Der Holocaust und Israels Politik der Erinnerung* (Reinbek bei Hamburg: Rowohlt, 1995); Yfaat Weiss, "Ha'avara-Abkommen," in: Dan Diner (ed.), *Enzyklopädie jüdischer Geschichte und Kultur* (EJGK), Band 2 (Stuttgart/Weimar: Metzler, 2012), pp. 490-494.

كما هوجمت حنة أرندت وشُتمت بالخائنة حينما قدمت تقريرًا في كتابها عن **تفاهة الشر**.

وتطرح إحدى الوثائق[9] التي تعود إلى لجنة الإنقاذ والموجودة في الأرشيف الصهيوني في القدس تساؤلًا مفاده: "من تنطبق عليه شروط الإنقاذ [لليهود]؟ وهل يجب علينا إنقاذ جميع الناس الذين هم بحاجة إلى ذلك وأن نقدِّم لهم المساعدة بغضّ النظر عن كفاءتهم؟ ألا ينبغي لنا اتخاذ إجراء وطني صهيوني وأن نحاول أوّلًا وقبل كل شيء إنقاذ من يستطيعون إفادة أرض إسرائيل واليهودية؟ فإذا كنا قادرين على إنقاذ 10.000 شخص من أصل 50.000 وهؤلاء بإمكانهم المساهمة في بناء الأمة وإعادة تشكيلها بدلًا من إنقاذ مليون يهودي سيشكلون عبئًا علينا أو في أحسن أحوالهم سيشكلون عناصر خاملة، فإنه يجب علينا إنقاذ 10.000 شخص، رغم كل الاتهامات والتوسلات التي تأتي من المليون. وهذا ينطبق على الرواد [من فئة] الشباب في المقام الأول، خصوصًا أولئك المتعلمين منهم والقادرين عقليًّا على خدمة العمل الصهيوني".

نتذكر كذلك إحدى مقولات حاييم وايزمان، الزعيم الصهيوني صاحب النفوذ الكبير وأول رئيس لإسرائيل: "إنني أفضل رؤية هلاك اليهود الألمان من أن أرى دمار أرض إسرائيل لأجل اليهود". ونجد كذلك هنا دافيد بن غوريون يصرح بعد ثلاثة أسابيع من مجزرة "ليلة الكريستال" [في ألمانيا] في تشرين الثاني/ نوفمبر 1938: "لو كنت أعلم بأن من الممكن إنقاذ كل الأطفال اليهود في ألمانيا بترحيلهم إلى إنكلترا، وأن من الممكن إنقاذ نصفهم فحسب من خلال ترحيلهم إلى فلسطين لكان قراري مع الخيار الثاني". وفي الواقع، ضحى هذا الرجل بكثير من الأطفال اليهود، الذين كان من الممكن إنقاذهم، طبعًا لمصلحة الفكرة اليهودية لبناء دولة يهودية خاصة بهم. وقد رأى دافيد بن غوريون بما يتعلق بمذبحة "ليلة الكريستال" أنه يمكن "الضمير الإنساني" أن

---

(9) Segev.

يقود دولًا متنوعة لتفتح حدودها أمام اللاجئين اليهود من ألمانيا، بيد أنه كان يرى في ذلك تهديدًا. فقال محذرًا: "إن الصهيونية في خطر!". لقد تمثلت مهمة الوكالة اليهودية وفقًا لدافيد بن غوريون ببناء أرض إسرائيل، وليس إنقاذ أكبر عدد ممكن من اليهود. وبتفاقم وضع اليهود في ألمانيا وسوئه، ازدادت طلبات الهجرة إلى فلسطين. ولم تتوقف هذه الهجرة إلا في عام 1939 بعد مرسوم من السلطات البريطانية حدّت فيه من عدد المهاجرين إلى فلسطين.

لقد كتب موشيه تسوكرمان في كتابه قدر إسرائيل (*Israels Schicksal*): "ليست مسألة الشتات إلى اليوم محل إنكار بالنسبة إلى كثير من اليهود. وبقدر ما أدت معاداة السامية تاريخيًّا وظيفتها كقوة دافعة في تكوين فكرة الصهيونية وتأسيس دولة إسرائيل، احتاجت الصهيونية إلى وجود معاداة السامية، طالما أن مشروع "إنكار الشتات" لم ينته. وعلاوة على ذلك، لم يكن مسعى الصهيونية يتمثل بالقضاء على معاداة السامية في العالم، بل من مصلحتها أن تستمر".

يمكننا رؤية تلك العلاقة الجدلية بين معاداة السامية والصهيونية من خلال طريقة التعامل مع معاداة السامية في ألمانيا وأماكن أخرى. حيث لا توجَّه الاتهامات أو الاستنكار ضد معادي السامية الحقيقيين والواضحين ممن نجدهم في فضاءات فيكتور أوربان أو دونالد ترامب، اللذين يجري التعامل معهما؛ بل بدلًا من ذلك نجد ذلك الغضب المنافق وهو ينصبّ على منتقدي السياسة الإسرائيلية، الذين هم أبعد من أن يوصفوا بأنهم معادون للسامية.

والأمر الذي يمكن ملاحظته هو ذلك الترحيب من السياسيين الإسرائيليين باليمينيين الشعبويين الأوروبيين أمثال مارين لوبان من حزب الجبهة الوطنية [الآن: التجمع الوطني]، والتي تجري الإشادة بها منذ أن تخلت عن أفكار والدها المعادية للسامية، مؤسس الحزب جان ماري لوبان. يضاف إلى ذلك تلك الشخصية الهولندية الشعبوية اليمينية، التي تمقت الإسلام، غيرت فيلدرز،

الصديق الودود لإسرائيل، ولا نفاجئ أن نراه أيضًا محطَّ إعجابٍ ومديح هنريك برودر[10].

لنُشدد على أن الصهيونية، منذ نشأتها، تحمل طبائع عنصرية وكولونيالية وتهدف إلى سرقة أرض الفلسطينيين وطردهم منها. لقد كتب تيودور هرتزل في مذكراته في عام 1895: "نسعى لعبور الحدود من دون أن يلاحظنا أحد من الفقراء"، وهذا ما حصل بالفعل. إلا أننا نجد هرتزل ينافق في رسالة كتبها إلى يوسف ضياء الخالدي[11] في عام 1899 جاء فيها: "من سيطردهم من هناك؟ إن ما سيحدث هو مضاعفة ثرواتهم وممتلكاتهم الخاصة من خلالنا". وهذا النفاق ما زال الصهاينة يمارسونه إلى اليوم. فمن ناحية لا ينفكون يتلفظون بمفردات "السلام"، بينما، من ناحية أخرى، يحلمون دائمًا بضم الأراضي والترحيل الشامل لكل الفلسطينيين. لقد خدمتُ في الجيش الإسرائيلي، وأدرك ذلك تمامًا، حيث كانت هذه الأيديولوجيا الكولونيالية تقدَّم يوميًّا مع وجبة الإفطار.

ثمة كثيرون لا يودون رؤية أو معرفة ما فعله، وما زال يقترفه، السياسيون الإسرائيليون بحق الشعب الفلسطيني وما ينتظره المجتمع الإسرائيلي من جنوده للقيام به. وهذا ما يمكن المرء قراءته بالتفصيل في كتاب كسر الصمت (*Breaking the Silence*)، الذي نشرته دار إيكون (Econ Verlag) في عام 2012 لمنظمة حقوق الإنسان الإسرائيلية، والذي يقدِّم فيه الجنود الإسرائيليون تقارير عن وجودهم في المناطق المحتلة وعملهم فيها[12].

والحال أن المعاملة المذلة والوحشية للفلسطينيين على نقاط التفتيش ليست بجديدة. أذكرُ في إحدى المرات التي سافرت فيها إلى إسرائيل لزيارة

(10) https://bit.ly/3u3hTUu; https://bit.ly/3AzsUxl; Der niederländische Politiker Geert Wilders wegen seines Video-Pamphlets "Fitna" und Henryk M. Broder: https://bit.ly/3tZycS4

(11) فلسطيني ليبرالي، رئيس بلدية القدس حينذاك، وقد خشي من تضارب المصالح مع الشعب الفلسطيني على الرغم من تعاطفه مع المستوطنين اليهود.

(12) *Breaking the Silence: Israelische Soldaten berichten von ihrem Einsatz in den besetzten Gebieten* (Berlin: Econ Verlag, 2012).

والدتي المسنة، أن الصحافة الإسرائيلية كانت تضج بخبر الفعل الشنيع الذي قام به أربعة جنود إسرائيليين بدفن أحد الشبان الفلسطينيين وهو في قيد الحياة. وحين أخبرتها بهذا الخبر، لم تضطرب أو تنفعل لذلك، بل كانت ردة فعلها هادئة، وقالت: "لا يمكن أن يكون ذلك صحيحًا، فالجنود اليهود لا يفعلون ذلك".

لا يمكن أن يحدث ما لا يجوز حدوثه: هذا بالضبط ما يبدو كذلك للعديد من اليهود الألمان أمثال ديتر غراومان، وهنريك برودر، وميشا بروmليك (Micha Brumlik)، ومكسيم بيلر، وشارلوت كنوبلوخ. ورغم أن بروmليك يقارن في كتابه **نقد الصهيونية** (*Kritik des Zionismus*) أوضاع الفلسطينيين غير الإنسانية في الأراضي المحتلة بنظام الفصل العنصري، الأبارتهايد، في جنوب أفريقيا، فإنه في الوقت ذاته يقلل من شأن ذلك، ويضيف: "لا يسود في إسرائيل نظام فصل عنصري، حيث يتمتع الفلسطينيون غير اليهود الذين يعيشون هناك، مع تمييز ضئيل ضدهم في مقابل الشعب اليهودي، بحقوقهم الإنسانية والديمقراطية أكثير بكثير مما هو موجود في كل دول المنطقة مجتمعة". وهذا حقيقة ما يمثّل موقف كثير من المثقفين اليهود الذين يعتقدون أن مع "ازدياد قليل" من الحقوق للفلسطينيين وتمييز "ضئيل" ضدهم، فإنهم يقفون في صف الأخلاق والعدالة. إنهم يريحون ضمائرهم بهذه الأمور الناقصة. وكما نرى، فإن المثقفين الإسرائيليين أمثال بروmليك يفضّلون مقارنة ديمقراطية إسرائيل الناقصة بأحوال جيرانها من الدول العربية. لا شك، والحال هذه، أن إسرائيل تقدّم مثالًا جيدًا في هذا النمط من المقارنات، ولكن كيف ستكون الحال إذا ما قارناها بالدول الأوروبية. ستكون مختلفة جدًا بلا شك. لذلك لا يقوم المدافعون عن إسرائيل بمقارنتها بدول مثل فرنسا أو بريطانيا أو ألمانيا، وإنما دائمًا بدول مثل سورية والأردن ومصر.

عندما لا يشاء ديتر غراومان، الرئيس السابق للمجلس المركزي اليهودي، السفر إلى الخليل لرؤية ما يفعله المستوطنون هناك من رمي عابري السبيل الفلسطينيين والسياح المارين بالقاذورات والفضلات، فإن بإمكانه على الأقل

الاطلاع على شهادات الجنود، التي وردت في كتاب كسر الصمت، والمتوافرة كذلك على صفحة www.breakingthesilence.org.il، وهم يقدمون تقارير عن خدمتهم في الخليل، أو حتى بإمكانه، أي غراومان، مشاهدة بعض الأفلام التي قام الجنود الإسرائيليون بتحميلها على موقع يوتيوب. وهنا نشير في هذا السياق: لا يوجد دولة ولا مجتمع ولا أي إنسان في أيٍّ من النزاعات التي قد تحدث بين أي مجموعة في هذا العالم، بما في ذلك الحروب، يمكن أن يتسامح في رمي الفضلات على شخص آخر بطريقة ممنهجة ومن دون عقاب؛ والمرء الذي يشيح بنظره عن هذا يُعتبر أيضًا مذنبًا.

هناك عدد ليس بقليل من الإسرائيليين ممن يمتلكون الشجاعة في تقديم هذه الحقائق. عندما بدأ يهودا شاول، الجندي الأرثوذكسي، في عام 2004 بجمع أقوال وشهادات الجنود الإسرائيليين كان عدد هؤلاء أقل من مئة شهادة. أما اليوم فإن عددهم وصل إلى الآلاف، حيث يوثِّقون شهاداتهم عن كيفية تحويل النخبة السياسية والعسكرية في إسرائيل لأطفالهم إلى مجرمي حرب. من الممكن أن يقرأ المرء في هذا مثلًا كيف يوضح أحد القادة العسكريين في شركة ما لجنوده طريقة فصل الكرة الفولاذية عن غلافها وتصويب خرطوشها على الرأس بهدف ليس قتل المعارض وإنما أن يولي اهتمامه لأن يفقد هذا المعارض إحدى عينيه على الأقل، وكيف يضحك المرء على ذلك في الشركة؛ أو كما أوضح شاؤول موفاز، رئيس الأركان السابق، لقائد فرقة دبابات أنه يريد أن يرى على الأقل عشرة قتلى فلسطينيين كل يوم: عشرة قتلى في كل وحدة. وقد نُقل عنه حديثه: "أعلم حرصكم على قتل العرب".

يقول أحد الأشخاص من الذين أجريت معهم المقابلات: "أعلم أنني كنت واحدًا من أولئك الأشخاص الذين حصل لهم غسيل دماغ وارتكبوا جرائم في الأراضي المحتلة، وأعتبر أن الاحتجاج في توثيق كتاب كسر الصمت هو نوع من الكفارة عن الخطايا التي ارتكبتها". ويقول شخص آخر: "إنكم تتعاملون مع مواضيع مثل نقاط التفتيش وحظر التجول وغير هذا من الهراء. أما نحن فلا علاقة لنا بهذا؛ ما أرويه أنا مرتبط بحياة البشر، هل تفهم ما أعنيه؟ إنني

أتحدث عن القتل، القتل، القتل". وهذا بالفعل يتطابق مع ما يرويه لي أصدقاء إسرائيليون كانوا قد أطلعوني وبكل فخر على قائمة إشارات، يسجِّل عليها عدد القتلى، وقام بها إخوانهم حينما كانوا يقاتلون في لبنان، كل إشارة فيها تعني قتيلًا لبنانيًّا.

ورغم ذلك، يود غراومان إخبارنا بأن حديث زيغمار غابرييل [السياسي الألماني الذي تولى منصب وزير الخارجية] عن وجود نظام أبارتهايد في الخليل لهو أمرٌ مبالغ فيه؛ يقول غراومان: "لقد كنت لتوي في الخليل، إن الفلسطينيين هناك يعيشون خارج إطار القانون، وإن الحديث عن نظام فصل عنصري لا مبرر له". وكان غابرييل قد أثار في ألمانيا عاصفة صغيرة من الاستنكار واضطر لاحقًا إلى الاعتذار عن تصريحاته، لا بل إنه قلل من شأن ذلك. وعمومًا، يوجد في وسط الخليل والمستوطنات المحيطة بها قرابة 7000 مستوطن يميني بين 200.000 فلسطيني يسيطر عليهم الجيش، كما يوجد شوارع "خاصة لليهود فحسب". وذات مرة رفض الأسقف توتو (Desmond Tutu) [كبير أساقفة كيب تاون الأنغليكاني]، وهو الخبير جدًا بنظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، مقارنة الأوضاع هنا في فلسطين بتلك التي سادت جنوب أفريقيا، لماذا؟ "لأن الوضع في فلسطين أكثر شدةً وقسوة وغير عادل". ولهذا لا نستغرب وصف هذا الرجل بأنه معادٍ للسامية. ولا ننسى أيضًا وجود وزراء ووزيرات في الحكومة الإسرائيلية ممن لا يخفون هدفهم المعلن بضم كامل الضفة الغربية إلى إسرائيل، وفي النهاية طرد كل السكان الفلسطينيين من هناك.

ولنعلم أن هناك كثيرًا من اليهود في العالم ممن يقفون ضد سياسة إسرائيل، إلا أنهم لا يمتلكون الشجاعة للخروج إلى النور لتوضيح ذلك والاعتراف به. كثيرون منهم يخافون من الضغوط التي يمارسها عليهم المجتمع اليهودي الذي ينتمون إليه. ومع ذلك فإننا نجد عددًا متزايدًا من اليهود ينتقد إسرائيل. وليس أقل من ذلك تلك المنظمة الجديدة التي أسسها إسرائيليون بارزون وأصحاب مبادرات سلام مع عالم النفس الفخري دانييل بار تال (Daniel Bar-Tal) في

شباط/ فبراير 2015 تحت شعار "نعم لإسرائيل، لا للاحتلال" .Save Isreal) (Stop Occupation - SISO. الخطوة هنا التي يريد هؤلاء إيضاحها هي تمكين كثير من اليهود من أن يبقوا جزءًا من مجتمعهم، لكن في الوقت نفسه من أن ينتقدوا إسرائيل. ومرة أخرى، علينا ألّا ننسى أن إسرائيل تحتل، وعلى نحو غير قانوني، أرضًا منذ خمسين عامًا وتُنكر أبسط الحقوق الأساسية للسكان المحليين. وأيًّا تكن الصفة التي يمكن إطلاقها على هذا التصرف الإسرائيلي، فإنه يبقى ظلمًا. من هنا لا نستغرب أيضًا إدانة العديد في محكمة لاهاي الدولية كمجرمي حرب بسبب ما يفعله الإسرائيليون في حق الفلسطينيين.

7

المجلس المركزي لليهود في ألمانيا لا يمثلني

أُسّس المجلس المركزي لليهود في ألمانيا في 19 تموز/يوليو 1950، إلا أن هذا الاسم يوحي بالفصل بين اليهود والألمان. لقد كان بالإمكان تسمية هذه الرابطة "المجلس المركزي للألمان اليهود" أو "المجلس المركزي لليهود الألمان". ويمكن تفسير عدم حدوث هذا بسبب حالة الاغتراب التي شعر بها كثير من اليهود بعد الهولوكوست في ألمانيا. بيد أن هذا الفصل بين اليهود والألمان المستمر إلى اليوم يُحدث نوعًا من الشيزوفرينيا.

كان إيغناتس بوبيس (Ignatz Bubis) الذي رأس المجلس المركزي لليهود من عام 1992 إلى وفاته في عام 1999، على سبيل المثال، يتصرف وكأن ألمانيا هي موطنه الأصلي. وكان عضوًا في الحزب الديمقراطي الحر وناشطًا في السياسة المحلية. إلا أنه دفن في نهاية الأمر في إسرائيل ولم يُدفن في المقبرة اليهودية في فرانكفورت، حيث يجري دفن بعض اليهود الألمان البارزين. قبل وفاته بوقت قصير قال في إحدى مقابلاته مستسلمًا: "أردت التخلص من هذا الاستبعاد، هنا الألمان، وهناك اليهود. لقد اعتقدت، ربما يمكنك أن تجعل الناس يفكرون على نحو مختلف بعضهم عن بعض والتفاعل في ما بينهم على نحو مختلف. لكن لا، فبالكاد حركتُ ساكنًا".

وعندما حاول السياسي في حزب الاتحاد المسيحي الديمقراطي (CDU) غونتر رايشرت في عام 1996، بمناسبة زيارة الرئيس الإسرائيلي السابق لألمانيا عزرا وايزمان، التملق لبوبيس قائلًا له: "لقد ألقى رئيسك خطابًا ممتازًا"، فكان جواب بوبيس متذمرًا: "دائمًا يلقي الرئيس هرتسوغ خطبًا جيدة"، في إشارة إلى الرئيس الألماني السابق رومان هرتسوغ. لكن ليس من المفاجئ سوء الفهم هذا إذا ما أخذنا في الحسبان أن العلم الإسرائيلي يُعلّق في كل المجتمعات اليهودية وتحته صورة الرئيس الإسرائيلي المعني.

في مناسبة مماثلة قامت عمدة مدينة فرانكفورت وعضو حزب الاتحاد المسيحي الديمقراطي بألمانيا بترا روت بالطلب من إيغناتس بوبيس تبليغَ تهانيها لرئيس دولته [أي الرئيس الإسرائيلي] في إحدى المناسبات اليهودية المهمة. وقد شعر بوبيس حينذاك بأن هذه التهنئة تعبيرٌ عن معاداة السامية. ولا تزال أمثال هذه النماذج موجودة إلى يومنا هذا. وكانت رئيسة المجلس المركزي لليهود السابقة شارلوت كنوبلوخ، التي كانت الممثلة العليا لليهودية في ألمانيا بين عامي 2006 و2010، تعبِّر في كل مناسبة عن أن قلبها ينبض لإسرائيل، بيد أنها عندما تُسأل لماذا لا تنتقل إذًا إلى إسرائيل، تعتبر ذلك معاداة للسامية.

من حيث المبدأ يمكن المرء أن يحلّق إلى أي بلد يختاره، فكثير من الألمان يحلّقون إلى مايوركا، وقد أطلق غوته بشغف على إيطاليا "الأرض التي يزهر فيها الليمون"، إلا أنني لم أسمع قط سياسيًا ألمانيًا يعلن علنًا أن قلبه في مايوركا.

ولم يكن كذلك خَلَفُها رئيس المجلس المركزي لليهود بين عامي 2010 و2014 ديتر غراومان يفوِّت فرصة ليعلن ولاءه ووفاءه لإسرائيل. وفي هذا تقضي التعاليم اليهودية وعلى نحو صريح تقديم الولاء للدولة التي يعيش فيها المرء.

وفي خطبة ألقاها في عام 2011 ضد إعلان إقامة دولة فلسطين المستقلة الذي نطق به الرئيس محمود عباس قال [غراومان]: "من يدعو الآن إلى قيام دولة فإنه يؤكد رفضَ عملية السلام". قد لا يكون منطق هذه الجملة واضحًا بالنسبة إليَّ. فما الذي يجب على الفلسطينيين انتظاره. هل عليهم الانتظار لحين فقدانهم أرضهم كاملة وحتى تحتلها إسرائيل كلها؟ ونتذكر هنا أن الأمم المتحدة رفضت مجددًا قيام دولة فلسطينية، خصوصًا في أثناء محاولة الفلسطينيين أن يعلنوها في كانون الأول/ ديسمبر 2014. ونادرًا ما احتج ضد هذا التصرف من الأمم المتحدة شخص ما، هذا فضلًا عن المجلس المركزي لليهود في ألمانيا، الذي يقوده منذ عام 2014 جوزف شوستر، وهذا الرجل

يرى كذلك أن من المبكر جدًّا منح الفلسطينيين دولة خاصة بهم وأن ذلك سيأتي "بنتائج عكسية"، طبعًا متجاهلاً عقودًا من الانتظار الفلسطيني. على ما يبدو، يجب على الفلسطينيين انتظار غودو.

لقد اعترفت حاليًّا 135 دولة من أصل 193 في الأمم المتحدة بفلسطين كدولة، وكانت أولى الدول الغربية التي قامت بهذه الخطوة هي السويد. ومن المأمول أن تحذو جميع الدول الأوروبية الأخرى هذا، حتى لو كانت ألمانيا بالتأكيد البلد الأخير. وفي أي حال، فإن لليهود دولتهم الخاصة منذ 67 عامًا، فهل يجب على الفلسطينيين الانتظار حتى يوافق لهم المجلس المركزي لليهود في ألمانيا على دولة فلسطينية؟ ثم لماذا يشكِّل الأمر سؤالًا في الأصل وعلى المجلس المركزي لليهود في ألمانيا قول رأيه فيه؟

إذا كان على هذا المجلس أن يقدِّم رأيه في قضية تتعلق بإسرائيل، فلماذا لم يرفع صوته في مسألة محاكمة الجندية الإسرائيلية أنات كام ذات الـ 24 عامًا، التي حُكم عليها بالسجن لمدة أربع سنوات ونصف؟ ونعلم أنها قدمت للصحافة وثائق مهمة تثبت فيها أن الجيش الإسرائيلي يواصل قتل الفلسطينيين، على الرغم من أن المحكمة العليا كانت قد منعت ذلك. ولماذا لم ينضم هذا المجلس بقيادة جوزف شوستر إلى مبادرة قام بها 800 إسرائيلي شجاع - من بينهم أشخاص حائزون جائزة نوبل، وحاملو جائزة إسرائيلية مرموقة، وجنرالات، وأساتذة بدرجة بروفسور، وكتّاب، وممثلون وكثير من المشاهير - طالبوا الحكومات الأوروبية في رسالة مفتوحة بالاعتراف بفلسطين؟ لكن من الواضح أن شوستر يعرف جيدًا ما هو الصالح لإسرائيل أكثر من أولئك المعنيين على أرض الواقع.

فضلًا عن ذلك، يمثِّل المجلس على نحو مطلق خط الحكومة الإسرائيلية في ما يتعلق بقضايا أخرى. وكان شوستر هذا قد أعلن في إحدى مقابلاته مع جريدة يوديشه ألغماينه، عندما تم التوصل في عام 2015 إلى اتفاق مع إيران بشأن سياستها النووية بعد مفاوضات دامت سنوات عدة، قائلًا: "كنت أتمنى لو كان بإمكاني المشاركة في هذه الفرحة بشأن هذه الصفقة مع إيران، إلا

أنني أنظر نظرة المتشكك تجاهها نظرًا إلى السلوك الحالي لنظام آية الله. إن صفقات كهذه تتطلب وجود ثقة متبادلة بين الطرفين، وهذا لا يمكن تحقيقه مع دولة ترفع شعار الموت لإسرائيل على أعلامها وتنكر الهولوكوست دائمًا". فضلًا عن ذلك، يبدي شوستر قلقه أيضًا من رفع العقوبات عن إيران ويطالب بفرض رقابة دولية فعالة عليها. لكن، ربما لا يعرف السيد شوستر أن جالية يهودية كبيرة تعيش في إيران، ويتمتع أفرادها بالحرية الكاملة، بل إنهم يخدمون في الجيش، وهو الأمر الذي يُحرم منه المسلمون في إسرائيل.

إنه لأمر غامض بالنسبة إليَّ، لماذا على طبيب أمراض باطنية وعامل في رابطة ما الاعتقاد بالتدخل في شؤون السياسة العالمية. ما أود معرفته هو من أين استمد هذه الوقاحة لاعتبار نفسه أكثر ذكاءً وحنكةً من سياسيين وشخصيات مرموقة ساعدوا في التوصل إلى هذا الاتفاق، أمثال ممثلة السياسة الخارجية للاتحاد الأوروبي فيديريكا موغيريني، ووزير الخارجية الإيراني محمد جواد ظريف، ووزير الخارجية الأميركي جون كيري، ووزير الخارجية الألماني فرانك فالتر شتاينماير، ووزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف، ورئيس الوزراء البريطاني ديفيد كاميرون، ووزير الخارجية الفرنسي لوران فابيوس وكثير من الأطراف الأخرى. من الممكن أن يكون هذا الرجل أذكى وأكثر حنكة من شخص ما من هؤلاء، لكن أيعقل أن يكون أكثر ذكاء منهم كلهم مجتمعين؟

وبالطبع يبدو أن امتلاك إسرائيل مئات القنابل النووية[1] التي لا يُسمح بمراقبتها، لا يشكِّل مصدر قلق للسيد شوستر. إلا أن إيران قامت من جهتها، على عكس إسرائيل، بتوقيع الاتفاق النووي مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية.

---

(1) يستند عدد تقديرات الرؤوس النووية عمومًا إلى حساب عدد المواد التي يمكن أن تنتجها المفاعلات الذرية في إسرائيل سنويًا. وقد ذكر علماء إسرائيليون في عام 1982 أن العدد يصل إلى 250 رأسًا. إضافة إلى ذلك، اعتقد اتحاد العلماء الأميركيين في عام 2007 أن إسرائيل تمتلك ما بين 100 رأس و250 رأسًا نوويًا لصواريخ متوسطة المدى. وقد قدّر الضابط الكولونيل ورنر فار (Farr) (من سلاح الجو التابع للقوات الجوية الأميركية) عدد الرؤوس الحربية النووية في عام 1997 بأكثر من 400. وفي مقابل ذلك، يخمن المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية أن عدد هذه الرؤوس النووية وصل في عام 2009 إلى 200 رأس.

ورغم ذلك، نجد السيد شوستر يتحدث عن "الثقة المتبادلة". ومع ذلك، لا يمكن تحقيق ذلك مع وجود دولة تتسلط على شعب آخر منذ خمسين عامًا تقريبًا.

في الحقيقة، إن لليهود في ألمانيا قيادةً خاصة بهم تمثِّل مصالح إسرائيل في المقام الأول. لهذا السبب نرى أن نصف اليهود في ألمانيا، والبالغ عددهم قرابة 200,000 يهودي، هم أعضاء في جاليات يهودية للمجلس المركزي. فمثلًا، لا يجوز له إغماض عينيه عن حقيقة أن كثيرًا من [فئة] الشباب الألمان اليهود قاموا بخدمتهم العسكرية في إسرائيل بمعرفة وموافقة المجلس المركزي لليهود في ألمانيا والسلطات الألمانية. ونحن نعلم أن من غير المسموح لمواطن ألماني تأدية الخدمة العسكرية لمصلحة جيش آخر. هنا نسأل: كيف ستتعامل وسائل الإعلام والمحكمة والسلطات عندما يقوم أحد الشبان المسلمين أو ممن له أصول تركية ويحمل الجنسية الألمانية بالخدمة العسكرية في الجيش التركي؟

لكن كلا الجانبين نجده صامتًا حيال هذا الأمر. وطالما أن المجلس المركزي يعتبر نفسه سفارةً غير رسمية، لإسرائيل فأن كثيرًا من اليهود سينأون بأنفسهم عنه.

هكذا، فإن جوزف شوستر يفوِّت فرصة كبيرة من شأنها أن تكون جيدة ليهود ألمانيا. وللعلم فإن إسرائيل تمتلك رابع أقوى جيش في العالم وبالتالي ليس لديها قلق من الحروب. أما خوفها فإنه ينشأ أساسًا من حالة السلم. فإسرائيل تعيش منذ ما يقارب 70 عامًا وهي متهيئة دائمًا وبحالة حرب، بيد أن الوقت حان للتفكير في استمرارية هذا. ألن تكون رسالة رائعة للممثلين الكبار لليهودية الألمانية القيام بدور الوسيط بين إسرائيل والعالم، خصوصًا العالم العربي؟

لقد كان بإمكان شوستر السير على خطى التراث الليبرالي والإنساني لليهودية الألمانية وشخصيات أمثال موسى مندلسون أو، لكي لا نذهب بعيدًا إلى الوراء، كان بإمكانه أن يحذو حذو شخصيات مثل ليو بيك، الحاخام

الأخير لليهودية الألمانية، أو شخصيات مثلت منارة للبشرية في هذا التراث أمثال ألبرت أينشتاين، ومارتن بوبر، وحنة أرندت، ويانوش كورتشاك. والحال أنه بدلًا من السير في تجمعات لا معنى لها ومحرجة لإسرائيل، كشفت عن عجز المجلس المركزي لليهود ومعه الطبقة السياسية في ألمانيا، فإن عليه اتخاذ خطوات أخرى، أي: الحرية والاستقلال والكرامة الإنسانية وأيضًا هوية يهودية مختلفة عن تلك التي فرضتها الصهيونية على اليهود.

يمكن تلخيص اليهودية، التي تشتهر بوجود 613 وصية وتحريمًا فيها، بجملة واحدة للحاخام هيليل: "تجنب أن تتصرف مع الآخر بفعل لا ترغب أنت في أن يفعله بك". لقد عاشت اليهودية الألمانية منذ القرن الثامن عشر، منذ أن اندمجت في المجتمع والثقافة الألمانيين، في إطار مساهمتها في عصر التنوير والتحرر، وصولًا إلى العصور الحديثة بما يتوافق مع مبدأ الضرورة لإيمانويل كانط الشهير[2]. وإننا كيهود ألمان نمتلك إرثًا مجيدًا يمكننا أن نفتخر به، وبالتالي لسنا بحاجة إلى الصهيونية دينًا بديلًا لنا. ويجب علينا أيضًا ألا نردد كالببغاوات ذلك الدعاء القديم: سيكون عامنا المقبل في القدس. فمن يرغب في زيارة القدس يمكنه أن يسافر عبر شركات طيران اقتصادية تكلفتها أقل من 400 يورو، ولكن من يرغب في البقاء في ألمانيا فعليه التخلص من شعور أنه غريب في بلده، كما جاء في عنوان كتاب غريب في بلدك (*Fremd im eigenen Land*) الذي نشر في سبعينيات القرن العشرين[3]. لكننا في ألمانيا لسنا غرباء أو أجانب حتى لو نظر إلينا الآخرون على أننا يهود.

في أحد اللقاءات في برلين مع أحد ممثلي البرلمان من حزب الاتحاد المسيحي الديمقراطي أخبرني بحادثة اعتبرها ذات دلالة مهمة، فقال: "في أحد الاحتفالات بمناسبة افتتاح منشأة يهودية في برلين، بدأ أطفال وصلوا إلى هناك بالتلويح بالأعلام الإسرائيلية. ثم سألت المضيفين، مسؤولي الجالية اليهودية

---

(2) يقصد المؤلف مقولة كانط: "تصرف بشكل يمكن أن يُعتبر فيه مبدأ إرادتك الأقصى في كل وقت مبدأ للتشريع العام". (المترجمة)

(3) Henryk M. Broder & Michel R. Lang (eds.), *Fremd im eigenen Land: Juden in der Bundesrepublik* (Frankfurt: Fischer Taschenbuch, 1979)

في برلين، أين هي إذًا الأعلام الألمانية؟ ثم إذا كانت هناك أعلام، فلماذا إذًا ليست أعلامًا يهودية، بل إسرائيلية؟". ووفقًا لوصفه، كان رد المضيفين يعتريه التجاهل. وعلى ما يبدو لم يفهموا معنى السؤال، بل ربما ظنوا أنه معادٍ للسامية.

إنني أتساءل كيف يمكن أن يتوجّه بردود كهذه أحد حاخامات الجالية اليهودية في فرانكفورت عندما سألته إحدى مراسلات إذاعة هِسِن "لماذا تعلَّق الأعلام الإسرائيلية في صفوف المدرسة التابعة لمركز الجالية اليهودية؟"، فقال: "ذلك لأن إسرائيل أرضنا وهي ما يحمينا".

وهل يمكن أحدًا ما أن يشرح لي سبب وجود ممثلين عن الجمعيات اليهودية يرافقون الوفود الألمانية في أثناء الزيارات الرسمية لإسرائيل؟ هل سنرى أيضًا مشاركة ممثلين عن المساجد أو أئمة يرافقون الوزراء الألمان في الزيارات الرسمية لدولة مثل تركيا أو المملكة العربية السعودية؟

نشير هنا إلى أننا نشهد مرة أخرى في ألمانيا، هذه البلاد التي أبادت شعبَها اليهودي ذات يوم، نشوءَ جماعة يهودية، وهي في طريقها لتشكيل يهودية ألمانية جديدة. لقد حان الوقت كي يدرك المجلس المركزي لليهود في ألمانيا وجوب أن يندمج على نحو كامل في هذا البلد، قبل أن يطالب هو بذلك المهاجرين واللاجئين الجدد. للأسف، فإن هذا المطلب غير متحقق إلى الآن؛ فعلى سبيل المثال لا يزال اليهود الذين أتوا من الاتحاد السوفياتي ما بين عامي 1990 و2005، وعددهم أكثر من 200.000 مهاجر يهودي، يتحدثون في هذه التجمعات بالروسية، حتى إن كل اللافتات واللوحات في مراكز تجمُّع الجالية، كما الإشارة إلى المرحاض، نجدها بالروسية. وأظن أن هذا بالضبط يمثِّل فشلًا في الاندماج؛ ومن الواضح أن هذا ما يريده المجلس المركزي.

من هنا نجد رعايةً للأصوات التي ترى نفسها ليست ألمانية؛ وبهذا يتم، ومن دون أن ندري، دعم أصوات اليمين في البلاد مثل حزب البديل لأجل ألمانيا أو غيره من التوجهات اليمينية. يعيش المرء هنا ويسأل نفسه ماذا تعني له هذه البلاد الألمانية، إلا أنه لا يرغب في الرحيل إلى إسرائيل تحت أيِّ ظرف من الظروف، ولهذا يبقى وجود اليهود في ألمانيا وجودًا هشًا. وعلى ما يبدو

فإن الرغبة في إيجاد يهودية ألمانية جديدة غير موجودة، بل يجري الاكتفاء بقناعات فحسب: "يهود في ألمانيا". فتُعلَّق الأعلام الإسرائيلية وصور الرؤساء الإسرائيليين في مراكز اجتماع الجاليات اليهودية ويؤكَّد في كل فرصة مناسبة أو غير مناسبة الولاء لإسرائيل؛ لا بل إن الأمر يتعدى هذا، فحتى الصلاة تتلى في المعابد اليهودية في سبيل خير الجيش الإسرائيلي.

لا شك في أن معظم اليهود الذين يسكنون ألمانيا ليسوا يهودًا "ألمانًا" أو ألمانًا "يهودًا"، لأن غالبيتهم تعود أصولها إلى الاتحاد السوفياتي، وليس من المؤكد حتى أن جميعهم يهود. لكن حينما يجري دمجهم ضمن اتحاد يطلق على نفسه "يهود في ألمانيا"، فبالتأكيد لن تكون أمامهم فرصة للاندماج في ألمانيا، وسيبقون "يهودًا في ألمانيا".

لقد كتب ميشيل لانغ (Michel Lang) الذي نشر كتابه مع هنريك برودر غريب في بلده: **اليهود في ألمانيا** في عام 1979[4] في إحدى الفقرات التي عنونها "غريب في أرض غريبة"، والتي يتحدث فيها عن رئيس المجلس المركزي لليهود قائلًا: "إن مسألة أن يستمر هو وزملاؤه في الحديث باسم اليهود في ألمانيا لهو أحد أعراض التدهور والانحطاط الروحي والسياسي لليهودية في ألمانيا". ومع نهاية سبعينيات القرن الماضي عندما قدَّم الرئيس السابق للمجلس المركزي لليهود فرنر ناخمان لـ "المحامي المروع" هانز فيلبنغر براءة ذمة يهودية، تعرّض هذا الرئيس لهجوم من الصحافيين اليهود مثل برودر باعتباره "يهوديًا رجعيًا محترفًا". وبالمناسبة، يفخر برودر اليوم بأنه "رجعي".

ما يعني إسرائيل هو الولاء المطلق لها والاعتراف المستمر بأن المرء يقف في صف إسرائيل "من دون أي تردد"، وهذا ما يوحي بالسخرية، إن لم نقل إنه يمثّل جانبًا خطرًا. لقد أظهرت المسيرات الهزيلة التي شهدتها برلين ضد تظاهرات الفلسطينيين والمسلمين في برلين والمناوئة للحرب في غزة

---

(4) Broder & Lang (eds.)

في خريف 2014، أن معظم اليهود وكثيرين من غير اليهود أيضًا ما عادوا يستحسنون ما يجري ولا يفهمونه. يعيش في برلين أكثر من 10.000 يهودي، من المسجلين أعضاءً في مجمع الجالية اليهودية، ويقدّر بوجود 30.000 إسرائيلي(5). وكانت المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل قد حضرت مسيرات نظّمها المجلس المركزي لليهود في ألمانيا وكان عدد المشاركين فيها أقل من ألف. والحال أننا لا نعيش في أيام عام 1933. وهنا نذكر أنه لم يكن للحوادث التي شهدتها تظاهرة رسمية في الشوارع الألمانية [ضد الحرب على غزة]، كما للهجمات المتفرقة المنفردة ضد اليهود، من علاقة بالمعاداة الممنهجة للسامية التي كانت تحت حكم النازيين. إن المبالغة المفرطة التي يقوم بها رئيس المجلس المركزي لليهود السيد غراومان بسبب ذلك لهي أمر محرج ودليل على فقدان الذاكرة التاريخية، أم إن السيد غراومان يودّ من هذا الإفراط تهجير اليهود من ألمانيا؟

يدعو المجلس المركزي لليهود في ألمانيا إلى تنظيم تظاهرات ضد معاداة السامية، لكن لنعلم أن هدفها يتعلق بحماية إسرائيل فحسب والدفاع عنها من الانتقادات الموجهة إليها، بسبب سياستها المخالفة للقانون الدولي وغير الإنسانية. إنني أسأل هنا، لماذا يصمت هذا المجلس المركزي عندما يصرِّح اثنان من أغنى رجال الأعمال اليهود في العالم، ملك الكازينو الأميركي شلدون أدلسون (Sheldon Adelson) والمتنفذ في الإعلام اليهودي الإسرائيلي حاييم صبّان، في مؤتمر صحافي أن: "ليس بالأمر السيئ أن تبقى إسرائيل دولة غير ديمقراطية، ففي النهاية لم يرد أمرٌ كهذا في الكتاب المقدس". كما تحدّث شلدون بأنه يفكر مع صبان في شراء جريدة نيويورك تايمز لـ "تعديل" التغطية الصحافية لهذه الجريدة بشأن إسرائيل؛ ألهذا حظي كلامه بالتصفيق الحار من الجمهور اليهودي؟ وبهذا يتساءل المرء أين هو استقلال الصحافة؟

حتى اليوم، هناك كثير من الناس في جميع أنحاء العالم يعتقدون اعتقادًا خاطئًا أن اليهود يريدون حكم العالم ويأخذون هذه الكذبة الأسطورة من كتاب

(5) "Israelis in Berlin. Wie viele und was zieht sie nach Berlin?," *Süddeutsche Zeitung*

بروتوكولات حكماء صهيون على أنها حقيقة. لكن لنعلم أن أشخاصًا أمثال حاييم صبان وشلدون أدلسون يغذون تلك الأحكام المسبقة، خصوصًا أن كليهما من أغنياء العالم ويحتلان فيه وزنًا كبيرًا.

وللعلم كذلك، فإن شلدون أدلسون هو أحد الداعمين الشديدي الحماسة لرئيس الوزراء اليميني بنيامين نتنياهو، ويمول جريدة مجانية يومية في إسرائيل تنشر البروباغندا الصهيونية اليمينية وخطاب الكراهية. وتوزَّع يوميًا ملايين النسخ مجانًا من هذه الجريدة على الأسر الإسرائيلية. من هنا ندرك كيف يؤثر هذا "الفاشي المجنون" أدلسون، كما أطلق عليه أحد المدونين في صحيفة هآرتس اليومية الإسرائيلية الليبرالية، المقيم في أميركا، في الجمهور الإسرائيلي تأثيرًا هائلًا. أما صبان، الفاعل في إمبراطوريته الإعلامية العالمية، فيوضح في المؤتمر الصحافي الذي أتينا إلى ذكره أعلاه عن طموحات إيران النووية بالقول: "لو أني أقصف أبناء الكلب هؤلاء وأحولهم إلى أشلاء!".

وجاء مرة في جريدة نيويورك تايمز بنسختها الاقتصادية عن صبان أنه باعتباره "أحد أكثر العمالقة تأثيرًا في هوليوود" يستخدم نفوذه وأمواله في كل مكان في واشنطن للتأثير في قضايا إسرائيل. وقد صرَّح ذات مرة "إنني رجل له قضيته، وقضيتي هي إسرائيل"، وبأنه يمضي ساعات متواصلة في الحديث بالهاتف مع أريئيل شارون، رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق.

ولكي يحقق أدلسون مبتغاه، فقد رشَّح في أوائل نيسان/ أبريل 2016 مرشحين محتملين من الجمهوريين للانتخابات الرئاسية في تشرين الأول/ نوفمبر 2016 في لاس فيغاس. فإلى جانب جب بوش، وهو الأخير من سلالة بوش الكبيرة، كان هناك كذلك حاكم ولاية نيوجرسي كريس كريستي، وحاكم من ولاية ويسكونسن سكوت ووكر، وحاكم أوهايو جون كاسيتش بحسب ما جاء في مجلة ذي أتلانتيك (*The Atlantic*). والمدهش في الأمر أن الجمهوريين في نهاية المطاف قاموا بترشيح الملياردير دونالد ترامب الذي لم يكن يعتمد على أموال أدلسون، لكنه مع ذلك كان ولا يزال يقدِّم نفسه صديقًا لإسرائيل ويفتخر بصلات جيدة بالحكومة اليمينية بقيادة بنيامين نتنياهو.

يريد كلٌّ من صبان وأدلسون ممارسة السياسة من طريق أمواله، خصوصًا في ما يتعلق بالسياسة الإسرائيلية، وهذا فعلًا ما يفعلانه. أما بالنسبة إلى المجلس المركزي لليهود في ألمانيا فبإمكانه كسب الصدقية إذا ما نأى بنفسه عن مثل تلك الشخصيات، وهذا قد يكون أفضل وسيلة في مواجهة معاداة السامية.

ومن اللافت للانتباه مدى الضآلة في ما يقدِّمه المجلس المركزي لليهود في ألمانيا، ومعه المتبجحون المنحازون دائمًا إلى السياسة الإسرائيلية، حيال ظواهر مثل الجماعة الاشتراكية القومية؛ النازية الجديدة. وإذا ما أخِذ أمر مماثل على سبيل السخرية، فيمكن تفسير مواقفهم تجاه هذه الظواهر النازية الجديدة بعوامل تعود إلى أنه لم يكن ثمة ضحايا يهود على أيدي هذه الجماعة، لهذا نجدهم لا يهتمون بهم. بيد أن ذلك أيضًا يدل على أن بعض اليهود والمدافعين عن إسرائيل في ألمانيا لا يمكنهم النظر إلى أكثر مما يتجاوز آفاقهم العقلية والعاطفية؛ ذلك أن ما يهمهم هو اليهود فحسب. من هنا يمكن رؤية عدم اهتمام المجلس المركزي بسلسلة الجرائم التي راح ضحيتها عشرة أشخاص أغلبيتهم من أصول تركية، قتلوا فحسب لأنهم "أتراك" في نظر قاتليهم، فهذا أمرٌ لا يعني المركز بشيء طالما أن الضحايا ليسوا يهودًا. لقد كان رئيس المجلس المركزي لليهود في ألمانيا السيد إيغناتس بوبيس، الذي توفي في عام 1999، رجلًا من نمط آخر، ومن المؤكد أنه كان سيتضامن بقوة مع الأقلية التركية في ألمانيا كما هو حال السكرتير العام السابق للمجلس شتيفان كرامر. وعمومًا، لا يزال كثيرون من الآخرين مصابين بمرض التوحد عندما يتعلق الأمر بمشاكل بقية العالم. من جهتي، لا أستطيع قبول هذه المعايير المزدوجة.

علينا الإقرار باحترامنا لشخص مثل هاينتس غالينسكي الذي توفي في عام 1992، وشغل منصب رئيس المجلس المركزي لليهود في ألمانيا بين عامي 1954 و1963، ومرة أخرى بين عامي 1988 و1992، وقد مثَّل فعليًّا مصالح اليهود في ألمانيا ولم يأتمر بما يمليه عليه أحد من القدس. أما رؤساء من أمثال جوزف شوستر فكان الخوف يؤرقهم من ذلك. فماذا يمكن أن يقول "بيبي" [أي نتيناهو]؟ فالرجل، بيبي نتيناهو، لا يستطيع الاستفادة من "الألمان اليهود"

وإنما هو بحاجة إلى "يهودٍ في ألمانيا" وإلى "يهود في فرنسا"، أو قل إنه بحاجة إلى يهودٍ موالين لإسرائيل في كل مكان، مستعدين دومًا مع حقائبهم الجاهزة للرحيل إلى إسرائيل.

رغم أن شوستر سار بطريق معاكسة وهاجر مع أهله من إسرائيل باتجاه ألمانيا، فإنه على ما يبدو ما زال بعيدًا من وصولٍ حقيقي إلى ألمانيا، بل نراه مهتمًّا بشؤون اليهود فحسب، بأن الخوف يتملكهم من العيش هنا ويفزعون من المشي في شوارع ألمانيا وهم يعتمرون القلنسوة اليهودية. لكن لنعلم، أن اليهود لن يعيشوا في أي أرض غير آمنين ومعرضين للخطر أكثر مما هو الحال في إسرائيل.

رغم ذلك يدّعي كاتب ألماني هو مكسيم بيلر كذبًا أن "من الواضح بالنسبة إليَّ كيهودي أن إسرائيل هي وطني. ومن السذاجة أن يعتقد يهودي ما أن أيَّ بلد آخر ممكن أن يحميه أكثر من إسرائيل"(٦). من جهتي، أظن أن بيلر يعاني جنونَ العظمة على نحو واضح وأتمنى له الشفاء العاجل. وربما أنا شخصٌ ساذج، لأنني أعيش هنا وأؤمن بأن الدستور الألماني يكفل الحماية لكل شخص، بل يكفلها حتى لمكسيم بيلر.

من الواضح أنني لست الوحيد الذي يحمل هذا الرأي. حيث رغم كل الهستيريا والبروباغندا الهائلة التي شاعت بعد الهجوم الإرهابي على سوبر ماركت يهودي في باريس، ورغم طلب بنيامين نتنياهو الفاضح بضرورة أن يهاجر اليهود الفرنسيون إلى إسرائيل فقد كشفت وزارة الهجرة الإسرائيلية عند نشر إحصاءات الهجرة أن عدد اليهود الذين هاجروا من فرنسا إلى إسرائيل أقل بـ 40 في المئة مما كان عليه قبل سنة واحدة.

كما اعتبر المجلس المركزي لليهود خروج التظاهرات العارمة التي عمت أرجاء ألمانيا وأماكن أخرى في صيف 2014 للاحتجاج على حرب غزة، "انفجارًا مرعبًا ومذهلًا يعبِّر عن معاداة للسامية"، ولم يعتبرها احتجاجًا ضد

---

(6) https://bit.ly/3lbBbdY

سياسة إسرائيل، وهو هدف تلك التظاهرات في المقام الأول. إنهم يغمضون أعينهم أمام المشاهد الرهيبة على التلفاز ويزعمون أنهم يقفون بثبات "إلى جانب أخواتنا وإخواننا في إسرائيل". فإسرائيل لديها الحق في الدفاع عن نفسها عندما تُقصف كثيرًا بالصواريخ. وهنا نجد تجاهلًا للتفوق العسكري لإسرائيل التي تقتل آلاف الضحايا بواسطة القنابل العالية التقنية.

لا يمكن إنكار أن في حالات الغضب تلك تحدث حوادث معادية لليهود، وقد يُساء لمعبد يهودي ما بتلطيخه، وهو ما يجد تبريره. لكن لا ننسينّ أن هذا الغضب العارم هو نتيجة ذلك الدعم الهائل وغير المشروط لإسرائيل من المجلس المركزي لليهود، الذي يقف إلى جانبها بصرف النظر عن الأعمال الوحشية التي ترتكبها دائمًا ضد الشعب الفلسطيني. وللأسف يعتقد كثيرون أن المجلس المركزي يمثّل رأي كل يهود ألمانيا.

بالطبع هذا غير صحيح. فمن بين أكثر من 200.000 يهودي روسي أتينا على ذكرهم وقدموا إلى ألمانيا من الاتحاد السوفياتي، لا يوجد سوى قرابة نصف ذلك العدد ممن سجّل رسميًا في تجمعات الجالية اليهودية. من هنا نجد أن هناك كثيرًا من اليهود خارج تلك التجمعات، وبالتالي لا يمكن المجلس المركزي أن يتحدث باسمهم.

لقد وصف ديتر غراومان نفسه ذات مرة قائلًا بأنه يهودي "واعٍ" و"يهودي واعٍ بذاته"، ولا تمثّل يهوديته عبئًا ثقيلًا عليه، بل يحملها "بشموخٍ لا يقهر". وبالفعل، فإن المتحدثين باسم اليهود في ألمانيا، سواء أكانوا يهودًا في ألمانيا أم يهودًا ألمانيين، فإنهم يقفون وراء إسرائيل بحزم وفقًا لشعار: "سواء أكان بلدي على صواب أم خطأ، فإنني أقف إلى جانبه". ودائمًا ما يتردد على مسامعنا كلام من جانب هؤلاء الناس بأن إسرائيل هي "وطنهم الروحي"، وربما يظن المرء، والحال هذه، بأنهم تركوا أرواحهم هناك في إسرائيل وهم يعيشون هنا من دونها.

هكذا، اختفى الدور الإيجابي الذي قامت به اليهودية في ألمانيا، كما عبَّر عن ذلك تيودور مومزن في عام 1880 في ما أطلق عليه اسم الجدل

البرليني بشأن معاداة السامية. لقد ولّى زمن التفاخر بالشتات اليهودي عندما طردت الرابطة المركزية للمواطنين الألمان ذوي المعتقدات اليهودية تيودور هرتزل والصهاينة في عام 1897 من البلاد. وكان عليهم الانتقال إلى سويسرا، إلى بازل، عندما أرادوا تنظيم أول مؤتمر صهيوني في ميونيخ. هنا نذكر أن ممثلين عن أغلبية اليهود البرجوازيين المندمجين في ألمانيا اجتمعوا في الرابطة المركزية التي تأسست في 5 آذار/ مارس 1893 في برلين، ووفقوا بين دينهم اليهودي وجنسيتهم الألمانية ودافعوا عن المواطنة الكاملة والمساواة الاجتماعية. ولم تستطع هذه الرابطة العمل مع تلك القومية اليهودية الصهيونية التي أرادت تأسيس دولة خاصة لليهود المشتتين في جميع أنحاء العالم. أما التجاوب الكبير الذي حصلت عليه تلك الصهيونية فقد أتى حقيقة من أوروبا الشرقية أكثر مما أتى من ألمانيا، والسبب يعود إلى الاضطهاد والتمييز والمذابح التي عاناها اليهود حينذاك والتي كانت أكثر قساوة مما تعرضوا له في أوروبا الغربية، حيث كانوا هنا يحرزون تقدمًا في ما يتعلق بحقوق المساواة القانونية والتقدم الاجتماعي.

بالطبع أخذت هذه اليهودية بالتهاوي، وانتهى ذلك التقدم مع الوحشية في جرائم الإبادة التي ارتكبها النازيون [القوميون الاشتراكيون]. أما مسألة إمكان إنقاذ هذه اليهودية، وهل كان هرتزل على صواب في أيديولوجيته التي طرحها، فهي أمرٌ عفّى عليه الزمن. لقد كانت نشأة الصهيونية مبررة ومثّلت إجابة ممكنة عن معاداة السامية المسعورة التي كانت منتشرة. ورغم ذلك، كتب الروائي اليهودي من غاليسيا، جوزف روث، في نهاية مقالة له حملت عنوان "يهود على طريق الهجرة": "لم تكن الصهيونية سوى حل جزئي للمسألة اليهودية"[7]. لقد هيكلت الهولوكوست منذ ذلك الحين الفكرَ اليهودي، خصوصًا في ألمانيا. ولدينا أمثلة رائدة على ذلك، ميشا برومليك، وميشيل فريدمان، وهنريك برودر، ودكتور ديتر غراومان، وشارلوت كنوبلوخ. وباستثناء مكسيم بيلر، فإن معظم

---

(7) Joseph Roth, *Romane und Erzählungen*, p. 1179

العائلات اليهودية التي عادت إلى ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية كانت تعاني صدمات نفسية بسبب معتقل أوشفيتز؛ وهؤلاء بالفعل يهود بارزون قاموا بنقل هذه الصدمة إلى أطفالهم.

تعيش في داخل كثير من اليهود الألمان روحان، روح يهودية وأخرى ألمانية. إن حقيقة أن اليهود يتأرجحون ما بين ولائهم لهذه الأرض التي عاشوا فيها وولائهم لإسرائيل - أو حتى ولائهم للغيتو الذي قدموا منه - تمثّل ظاهرة قديمة قِدم اليهودية نفسها في ألمانيا. لقد كان موسى مندلسون، الذي أدمج اليهود في الثقافة الألمانية من خلال ترجمته للكتاب المقدس، يهوديًا ولم يكن سوى القليل من الألمان يعتبرونه ألمانيًّا. كما أن اليهود لم يعترفوا بترجمة مارتن لوثر للكتاب المقدس حتى إنهم لم يقربوها؛ لذلك كان الأمر يمثِّل خطوة تحررية في تعليم اليهود اللغةَ الألمانية من خلال الكتاب المقدس. بالطبع هناك ترجمات أخرى مهمة للكتاب المقدس قام بها يهود منها ترجمة مارتن بوبر وفرانتس روزنتسفايغ (Franz Rosenzweig)، إلا أنها لم تلقَ الإقبال الجيد عند كثير من اليهود. أما الترجمة الأكثر انتشارًا والأكثر شعبية عند اليهود الألمان فكانت تلك التي أشرف عليها ليوبولد تسونتس (Leopold Zunz)، الذي ولد في مدينة دتمولد باسم يوم توب ليبمان تسونتس، وهو عالم يهودي ألماني من الرواد في مسألة تحرير اليهود في ألمانيا.

هنا نذكِّر بأن الفترة الزمنية التي عاش فيها اليهود والمسلمون العرب مع بعضهم في الأندلس قد أثمرت تعايشًا مثمرًا أثرى أوروبا كلها روحيًا وفكريًا. حتى إن المؤرخين اليهود يطلقون عليها "العصر الذهبي". وقد كانت بداية ذلك مع الفترة الفاعلة للطبيب والدبلوماسي اليهودي الأندلسي حسداي بن شبروط الذي خدم في بلاط الخليفة الأموي عبد الرحمن (912-929م) في قرطبة. ومن الشخصيات التي كان لها تأثير في القرون التالية في إسبانيا والبرتغال كان هناك علماء وفنانون يهود أمثال موسى وإبراهيم ابني عزرا، ويهوذا اللاوي، وإسحاق أبرابانيل، وموسى بن ميمون. وكان الأخير، ابن ميمون، فيلسوفًا وفقيهًا وطبيبًا يُعدّ من أهم العلماء في العصور الوسطى بل في كل العصور.

الحال نفسه يمكن قوله في ما يخص التعايش اليهودي - الألماني الذي خلق فضاء هائلًا من الشعراء والكتّاب والفلاسفة والأطباء والعلماء والفنانين والموسيقيين، وكذلك من السياسيين. لقد بدأ هذا العصر الذهبي في القرن الثامن عشر مع موسى مندلسون الذي مهد الطريق لعصر التنوير اليهودي [أو هاسكالا] انطلاقًا من برلين. لقد بقي هاينرش هاينه طوال حياته في أعين معاصريه يمثّل شخصًا يهوديًا حتى بعد اعتناقه المسيحية وإعلانه في كتاب الأغاني (*Buch der Lieder*): "إنني شاعر ألماني، معروف في الأرض الألمانية، فإذا ما أردتم أفضل الأسماء، فسيكون أيضًا ذلك الاسم اسمي".

الأمر نفسه ينطبق على كثيرين أمثال، كارل ماركس، وراحيل فارنهاغن (Rahel Varnhagen)، ولودفيغ بورني (Ludwig Börne)، وهرمان كوهين (Hermann Cohen)، إلى فرديناند لاسال، وفالتر راتناو (Walther Rathenau)، وإلزه لاسكر-شولر (Else Lasker-Schüler)، وياكوب فاسرمان (Jakob Wassermann)، وأرنولد تسفايغ، وحنة أرندت. لقد كانت بحق فترة تعايشٍ مثمرٍ أغنت كلًّا من ألمانيا واليهود.

لقد ساد اعتقادٌ لزمن طويل بأن اليهودية الألمانية اختفت إلى الأبد ومن غير الممكن بعثها من جديد. لكن اليوم لدينا يهودية جديدة ومن الصعب فهم كنهها. فقيادتها قيادة مرتبكة وحائرة وتتعرض لضغط خصوصًا من إسرائيل. وبالطبع، سيقرر اليهود في ألمانيا في السنوات اللاحقة ماذا يريدون وما يرغبون في أن يكونوا عليه: يهود في ألمانيا أم يهود ألمان؟ وفي الواقع، هم أمام نشوء غير متوقع لمعارضةٍ بين [فئة] الشباب اليهودي الذي يأتي من إسرائيل إلى ألمانيا ولا يميل إلى الانخراط في السياسة المتبعة في إسرائيل.

لقد عرف العالم بأكمله قبل 70 عامًا حقيقة جرائم النظام النازي في ألمانيا، كما أدرك مع تحرير معسكرات الاعتقال، أكثرَ الانتهاكات الإنسانية قسوة وبشاعة في القرن الماضي. إنه لأمر مهمٌّ وضروري ذلك الاستخلاص للدروس من تلك الحقبة الزمنية المظلمة من تاريخ ألمانيا وأوروبا. كما أن

الإقرار بالذنب وتحمُّل مسؤولية ما حدث من جرائم في تلك الحقبة كان أيضًا أمرًا مهمًّا، وذلك لحماية الحياة اليهودية المتبقية في ألمانيا وأوروبا وضمان أن يشعر اليهود من جديد بأنهم، في ألمانيا وفي أوروبا، يعيشون في بلدانهم الأصلية.

لكن، بعد 70 عامًا، علينا إدراك أن ما ينادى به لحياة طبيعية لليهود لا يزال بعيدًا. فعلى الرغم من أن الحياة اليهودية في ألمانيا في نظر كثيرين طبيعيةٌ ويتعاملون معها على هذا الأساس، إلا أن أجهزة الإعلام والسياسة فيها تصرُّ على معاملة الحياة اليهودية على أنها "مسألة خاصة". ولا شك في أن هذه "المعاملة الخاصة" تمثِّل عقبة للتعامل بطبيعية مع هذه المسألة. فهي لا تمنع اندماج أقلية دينية في المجتمع فحسب، بعد أن صنفت سابقًا "أقليةً خاصة" وتم القضاء عليها تقريبًا؛ بل تمثِّل، علاوة على ذلك، دفعًا للأصوات الراديكالية والجهلة في هذه البلاد.

طبعًا، إنني لا أقصد بتعبير "المعاملة الخاصة" أن الدعم الحكومي ودعم البلديات للجالية اليهودية قد ازداد ازديادًا كبيرًا منذ تسعينيات القرن الماضي. بل على العكس، فما يجري أعتبره مهمًّا لإدماج المهاجرين اليهود من دول أوروبا الشرقية. ولا أقصد كذلك بهذا التعبير تلك التدابير الأمنية لحماية المنشآت اليهودية، طبعًا رغم اعتباري هذه السلوكيات الأمنية أمرًا مبالغًا فيه إلى درجة كبيرة، وذلك نظرًا إلى حقيقة أن المؤسسات الإسلامية والمساجد ودور اللاجئين قد تعرضت لهجمات أكثر بكثير في السنوات الأخيرة ولم تحمها السلطات الأمنية حماية كافية وواضحة. ما أعنيه تحديدًا بتعبير "المعاملة الخاصة" هو ما أصبح طبيعيًّا في شأن العلاقة الخاصة لنخبتنا السياسية ونخب الدولة مع المجتمعات اليهودية التي تعمل "كممثلة" غير رسمية لدولة إسرائيل. إن هذه "العلاقة الخاصة" تمنح طرفي العلاقة - من عاملين في الجالية اليهودية وبعض السياسيين - حضورًا إعلاميًّا وتسليطًا للضوء عليهم. ومع ذلك، فإن من غير الأخلاقي، وهو ما يجب شجبه، أن أغلبية اليهود في ألمانيا يدعمون السياسة الكولونيالية لإسرائيل على نحوٍ أعمى وغير مشروط.

لقد حان الوقت ليدرك الجمهور الألماني أنه ليس كل يهودي يدعم السياسة الإسرائيلية أو يقف في صف المجلس المركزي. فإذا ما كان علينا تعلّم درس من الماضي المظلم لألمانيا، فيجب علينا ألّا نعمّم وألّا نتعامل بحساسية مع الأقليات الدينية والإثنية، كبديل من وضعها في أدراج [إهمالها] أو وضعها في عربات دعائية. ولنعلم أن اليهود في ألمانيا ليسوا ملائمين للطموحات المهنية للسياسيين والمسؤولين من المهووسين بجني المكاسب والشهرة الإعلامية.

8

هل هناك معاداة للسامية
مستوردة من صفوف اللاجئين؟

أحد الادعاءات الشنيعة الذي انتشر في سياق الحديث عما يسمى أزمة اللاجئين، ولد من حضن رئيس المجلس المركزي لليهود في ألمانيا الدكتور جوزف شوستر في خريف 2015، وقد ادعى: "إننا نستورد مع اللاجئين معاداة السامية أيضًا"[1]. كما ادعت من سبقته في رئاسة المجلس شارلوت كنوبلوخ أن هؤلاء اللاجئين ينتمون بالأصل إلى بلدان تُعتبر فيها معاداة السامية جزءًا لا يتجزأ من تنشئتهم الاجتماعية، ونددت بقرار استقبال هؤلاء اللاجئين على أنه "تسامح يساء فهمه".

في الأساس لا يمكن أن تُفهم لفظة التسامح على نحو خطأ. فالتسامح يعني أن تمنح الآخر الحرية بالتعبير عن رأيه. ولكن أستميحكم عذرًا: من يتسامح مع عمل إرهابي؟ إن أحد أهم أسس مفهوم التسامح أن يلقى قبولًا في كل زمان ومكان. وعدا ذلك ستكون هناك فجوة في القوة بين المتسامحين والمتسامَح معهم. لقد حظيت أنجيلا ميركل بإعجاب العالم أجمع، بسبب قرارها فتح الحدود أمام اللاجئين لدخول ألمانيا. ربما كان هذا القرار من الناحية السياسية غير دقيق، وقد رأت المحكمة الفدرالية العليا، في قرارها الصادر في تموز/يوليو 2017، أن هذا القرار مخالف لاتفاقية دبلن، لكنه من حيث المبدأ غير ممنوع. وبالتأكيد لم يشكّل القرار قط "معاداةً للسامية"، حتى لو استنكره المجلس المركزي لليهود أو حتى إذا أبدت الحكومة الإسرائيلية عدم تفهمها له. ولا ننسى أن القسم الأكبر من الشعب الألماني كان مؤيدًا لمستشارته في اتخاذها هذه الخطوة، باستثناء الناخبين من صف حزب البديل لأجل ألمانيا. والحال أن السيدة كنوبلوخ قد بلغت بها المغالاة أن تدّعي في

---

(1) https://bit.ly/3FZCcwc

خريف 2015، بكل خسة، أن ألمانيا تستورد معاداة السامية. إنها بادعائها أن "معاداة السامية غدت مرة أخرى تلاقي رواجًا وقبولًا اجتماعيًا؛ وهي تحتدم بين المسلمين الذين يعيشون هنا" تنشر الخوف والرعب بين اليهود في ألمانيا. لكن لنشدد على أن من غير المقبول أن يوضع مجتمع ديني بأكمله في موضع الشك العام.

في الحقيقة لا تحتاج ألمانيا ولا أوروبا إلى استيراد معاداة السامية، فهما قامتا، وعلى مدى طويل بتصديرها. ولنتذكر أن معاداة السامية في الحقيقة منتج أوروبي مسيحي ظهر في أوروبا وشُحذ وتمت تنميته وتغذيته هناك لقرون طويلة. أما في العالم العربي الإسلامي فلم يتعرض اليهود في أيِّ وقت من الأوقات للاضطهاد أو الملاحقة قط كما هو الحال في أوروبا المسيحية، بل على العكس من ذلك احتضنت هذه البلاد، مثل شمال أفريقيا والإمبراطورية العثمانية ودول البلقان، اليهود الذين فروا من محاكم التفتيش الإسبانية الكاثوليكية أو طُردوا بأمر منها، ولهذا تُعتبر هذه البلدان هي ما أنقذ حياتهم.

ما يزعج على نحو خاص هو أن تروَّج اتهامات جوزف شوستر فجأة في كل برنامج حواري ويُتعامل معها كأنها حقيقة ثابتة. فهنا نرى تلك النقاشات بين المحاورين الذين لا يمتلكون الدراية بالتاريخ اليهودي، عدا الضيوف الذين غالبًا ما تكون معرفتهم أنقص، ويدخلون في تحالفات زائفة وكاذبة مع اليهود، الذين يصوَّرون بشكل قلَّ أو كثر على أنهم معرضون لخطر اللاجئين كما هو حال غيرهم.

ثمة ما يشكِّل جزءًا من عقلية الغيتو اليهودي أن يسألوا أنفسهم في كل مناسبة: هل الأمر جيد أم سيئ لليهود؟ إننا ندرك أن اللاجئين القادمين إلى ألمانيا عليهم بالتأكيد مواجهة مشاكل مختلفة تمامًا من أن يحصروا تفكيرهم في اليهود الموجودين هنا. بيد أن شوستر يرى أن اللاجئين القادمين خاصة من سورية "معادون لإسرائيل واليهود" لأنهم تربوا على هذا في وطنهم.

وهذا بالفعل يمثِّل إحدى الأساطير الدعائية التي تروِّجها إسرائيل وأصدقاؤها من المسلمين عمومًا، والعرب المسلمين خصوصًا، ويصدِّقها كثير

من الناس. مرة أخرى، إن لليهود مكانتهم الثابتة في العالم الإسلامي. لا شك في أنه تم ازدراؤهم لكونهم غير مسلمين، كما هو حال المسيحيين، إلا أنه يُنظر إليهم، في الوقت نفسه، على أنهم أهل كتاب، خلافًا لحالهم في البلاد المسيحية، وقد حظوا بحماية النبي على نحو خاص. والحقيقة التي لا يمكن نكرانها هي أنه لم تُرتكب في البلاد الإسلامية في أيِّ وقت من الأوقات مذابح ضد اليهود، بل كانت البلاد الإسلامية، خاصة تركيا والمغرب ومصر والجزائر، هي ما احتضنهم بعد أن هجَّرتهم وطردتهم محاكم التفتيش الإسبانية.

في نيسان/ أبريل 2017 قدَّمت لجنة الخبراء التابعة للحكومة الاتحادية تقريرها الذي تصف فيه بالتفصيل مدى تنامي "المواقف المعادية للسامية" بين الشرائح المختلفة للسكان من اليساريين إلى اليمينيين، وبشكل خاص بين المسلمين. وكما هو الحال في كثير من الأحيان في استطلاعات مماثلة لما يسمى "الخبراء"، حيث تجري مقارنة التفاح بالموز، وفي معظم الحالات تقيِّم الأحكام المسبقة التي لا تحمل ضررًا وتصنف أنها معاداة خطرة للسامية.

وقد تم الاتفاق في البرلمان الألماني بالإجماع على ضرورة تعيين عامل للحكومة الألمانية للوقوف في وجه معاداة السامية. وهنا نذكر، أنه بعكس ذلك، فإن أفضل وسيلة لمحاربة معاداة السامية هي عدم تعيين مثل هؤلاء العاملين مع لجانهم على الإطلاق. ليست معاداة السامية إلا شكلًا من أشكال العنصرية، وإن أيَّ تشديد أو تأكيد خاص عليها أو محاولة لإظهارها لهو في حد ذاته معاداة للسامية خالصة.

كما ينبغي عدم التعامل مع اليهود وكأنهم تُحف يتوجب حمايتها أو كمحميات طبيعية يجب الحفاظ عليها، ولا ينبغي إيلاؤهم أيّ أهمية خاصة من جانب أيِّ سلطة أو لجنة.

وقبل كل شيء يجب ألّا يحاول المرء التخلص من شكوك معاداة السامية من طريق نقل أوزارها إلى المسلمين، خصوصًا اللاجئين. وكما ذكرنا، فإن معاداة السامية لم تظهر في فضاءٍ عربي، وإنما صُنعت في فضاء مسيحي أوروبي في كنف الكنيسة الكاثوليكية ورعايتها.

لقد أعرب كلٌّ من جوزف شوستر من المجلس المركزي لليهود في ألمانيا وفولكر بيك، المتحدث باسم حزب الخضر في البرلمان الألماني لسياسة الهجرة والدين، عن قلقهما من "تنامي معاداة اليهودية بين المسلمين"، هذا على الرغم من كلام جميلة يوسف (Cemile Giousouf)، وهي متحدثة باسم كتلة الائتلاف الحاكم في البرلمان الألماني، حول سياسة الاندماج، ومن كلام الاتحاد المسيحي الديمقراطي على أن ظاهرة معاداة السامية المتزايدة ليس لها علاقة بسياسة اللاجئين. ووفقًا لها: "ببساطة لا توجد أرقام موثوقة يمكن أن يستقرئ المرء منها ارتباطات كهذه"[2].

الحال أن شوستر وبيك لا تتملكهما الرغبة في استيعاب ذلك، فضلًا عن كونهما لا يرغبان في أن يوسما بأنهما عنصريان، أو يُندد بهما، لذا نجدهما يحذِّران بنحوٍ غير يقيني من شكوك عامة ضد المسلمين، لكنهما بهذا يؤججانها. حيث إن شوستر، في الوقت نفسه، يؤكد أنه ينبغي لليهود "عدم الكشف عن هوياتهم في بعض المناطق في المدن الكبرى" لما قد "يتعرضون له من تهديدات لفظية أو جسدية". حتى إن هنريك برودر قد حذَّر في خطبة التكريم لمارسيل رايش رانيكي، وسط ذهول ودهشة الجمهور في كنيسة باول في فرانكفورت، في 8 حزيران/يونيو 2010، قائلًا إن محرقة جديدة (هولوكوست) على وشك الحدوث وإن هذه المحرقة "إن لم تحدث في ألمانيا فبالتأكيد في أماكن أخرى مثل العفولة، وكفر سافا والمطلّة" (هذه المناطق كلها في إسرائيل).

حتى إن فولكر بيك قال: "على المرء الأخذ على محمل الجد أن اليهود في ألمانيا لديهم الإدراك بشأن التعرض لتهديدات خاصة في مناطق معيّنة وأيضًا في المناطق ذات الكثافة السكانية المسلمة"[3]. بالنسبة إليَّ هذا الكلام عنصري؛ فأنا كيهودي لا أعرف مناطق كهذه لا يمكنني الذهاب إليها، وما إذا كان لها من وجود، فهذا يشير إلى وجود مشكلة حقيقية مع الشرطة وليس مع اليهود.

(2) "Nahost-Konflikte erreichen deutsche Schulhöfe," *Die Welt* (24 July 2017).

(3) Ibid.

لا بل الأدهى هو مدى سرعة انتشار أساطير كهذه، بسبب تعرُّض شخص أو اثنين من اليهود للضرب فحسب. ولكن هل توجد أرقام وإحصاءات عن الذين تعرّضوا للضرب من غير اليهود؟ وهنا نرى أن من يشارك في هذه النقاشات، من شوستر إلى برودر حتى بيك، يرون أنه "طالما هناك نزاع في الشرق الأوسط فإنه سيصل إلى ساحات المدارس الألمانية"[4]. وبدلًا من رؤية هذا الموضوع ومعالجته يصرّح "الراديكالي الصهيوني" فولكر بيك عضو البرلمان مطالبًا أن "تبدأ التجمعات الإسلامية في النهاية في تحديد موقفها من إسرائيل وبالتالي من الدين اليهودي على نحو إيجابي"[5]. وهنا أقول ربما كان من الأفضل عدم إظهار هذا الخلط والمزج الشديد بين الدين والسياسة والنَسَب ورهاب الإسلام (الإسلاموفوبيا) في إناء واحد. لماذا؟ لأن من جراء هذا الخلط ستنتج أمامنا رائحةُ عنصريةٍ متعفنة.

يرى البروفسور ليو لاتاش (Leo Latasch) أيضًا، عضو مجلس إدارة الجالية اليهودية في فرانكفورت لفترة طويلة وعضو مجلس الأخلاق الألماني: "إن معاداة السامية 'الجديدة' في ألمانيا التي تتخللها ميول إلى العنف تنبعث خصوصًا من المسلمين"[6]. يا لها من تصريحات جريئة. طبعًا هذا على الرغم مما تصدره الشرطة ووزارة الداخلية من بيانات وتصريحات عن أن العنف العنصري والمعادي للسامية لا يزال يأتي أساسًا من اليمين. لاتاش يغالي حتى أيضًا بقوله إن معاداة السامية، وهنا يسأل المرء أي نمط من هذه المعاداة، "لا تقف عند حدود انتشار الهتافات في شوارع فرانكفورت بعبارات 'اليهود إلى غرف الغاز'"[7]. وطبعًا يتفق لاتاش مع برودر في الرأي أن اليهود على وشك مواجهة هولوكوست جديدة. لكن حقيقة عدم مغادرة كل الألمان اليهود للبلاد تُظهر أن شوستر وبرودر ولاتاش وكنوبلوخ، من بين آخرين، لا يأخذون اليهود على محمل الجد، حيث إنهم يريدون بث الرعب والخوف بينهم، لكي

(4) Ibid.

(5) Ibid.

(6) Ibid.

(7) Ibid.

يهاجروا إلى إسرائيل. إنني أسأل هنا: لماذا؟ هل يريدون البقاء رؤساء للمجلس المركزي وزعماء للتجمعات التي يتركها اليهود؟

لقد كتب الصحافي، الإسرائيلي الأصل، جيل باشراش (Gil Bachrach) في 8 آذار/ مارس في جريدة دي تسايت[8] الألمانية مقالة هجوميّة وتشهيريّة ضد الجالية المسلمة في ألمانيا، ولم يحتجّ ضد ذلك أحد، لا الصحافة الليبرالية المزعومة، التي تمثّل هذه الجريدة دي تسايت منارة لها، ولا أيٌّ من المنظمات اليهودية "المحترمة"؛ وجاء فيه: "بالطبع يوجد معادون للسامية في ألمانيا. وهي (معاداة السامية) كذلك جزء من الثقافة الإسلامية". لكن من الواضح أن هذا الرجل ليست لديه أيُّ معرفة بهذه الثقافة الإسلامية، وإلا لكان يجب أن يعرف أن المسلمين قد أنقذوا اليهود عندما اضطهدهم المسيحيون المتعصبون. وحقًّا، حينما يكتب باشراش ضد المسلمين في كل أنحاء العالم فسندرك السخف والافتراء عنده، فهو يقول: "كيف ندرك حقيقةً أن المسلمين يريدون هذا المستقبل المشترك أيضًا؟ ربما ستكون الفكرة المثالية لذلك هي تقديم العلاج النفسي لـ 1.5 مليار مسلم"[9].

إنه يعتقد أن اليهود لديهم "التزام تجاه المستقبل"، بخلاف المسلمين. ولكن كيف سيكون الحال مع تقديم العلاج النفسي لـ 15 مليون يهودي؟ فعلى الرغم من أن هؤلاء اليهود يشكّلون فقط 1 في المئة من المسلمين، إلا أنه ليس هناك القليل من اليهود ممن له التأثير الكبير. والحق أن من المخجل والإهانة أن يطلب هذا الصهيوني من جميع المسلمين في ألمانيا أن يتخلوا عن "معاداتهم للسامية الغاضبة والساخطة والمعتدة بنفسها". فمن يحمل السخط والاعتداد بالنفس هو هذا اليهودي الذي يعتقد أن بإمكانه كتابة هذا الهراء، لأنه يهودي فحسب ولأن صحيفة عريقة مثل دي تسايت تسمح له بالكتابة فيها. والحال أن الصحف الرائدة في ألمانيا تتقاطع مع بعضها من فرانكفورتر ألغماينه تسايتونغ، إلى تاغستسايتونغ إذ تفتقر إلى الشجاعة والجرأة في قول الحقيقة.

---

(8) *Die Zeit*, no. 10 (5 March 2015).

(9) "Die Mar vom liberalen Islam," *Die Welt* (26 June 2017).

لقد نشرت صحيفة دي فلت في عددها الصادر في 26 حزيران/ يونيو 2017 إحدى المقالات للباحث في العلوم الإسلامية حامد عبد الصمد، الذي هجر الإسلام وتركه، وذلك تحت عنوان "أسطورة ليبرالية الإسلام". هنا أسأل، هل من الممكن أن تتجرأ إحدى الصحف الألمانية على نشر مقالة لعالم النفس اليهودي والعضو السابق في المجلس المركزي لليهود البروفسور رولف فرليغر عن أسطورة ليبرالية الصهيونية. والحال أن المرء لا يجرؤ حتى على قبول مساهمة تتناول اليهودية الليبرالية الموجودة بالفعل. ففي السياسة، ليس صحيحًا إلا اليهودية القومية المتطرفة سياسيًّا فحسب، والتي يطلق عليها كثيرون، الصهيونية.

تبتدأ مقالة عبد الصمد بالقول: "ينجح الإسلام الراديكالي دائمًا وأبدًا بإلهام [فئة] الشباب المسلم واجتذابهم وتعبئتهم خدمة لأهدافه بالقتل". والسؤال المطروح هنا: لو استبدلنا كلمة "إسلام" بكلمة "اليهودية" وبدل تعبير "الشباب المسلم" [وضعنا] تعبير "الشباب اليهودي" فهل ستتجرأ إحدى الصحف على نشر هذا؟ هناك لا شك اختلاف طبعًا في تقييم كلٍّ من الإسلام واليهودية في ألمانيا، وعندما كتب البروفسور ميشال بودمان (Michal Bodemann) مرة "أن المسلمين اليوم هم يهود هذا الزمان"، هاجمه هنريك برودر متهمًا إياه بأنه معاد للسامية وأن "عقله أصبح مسطحًا كقطعة بيتزا"[10].

ليس ثمة علاقة للعداء ضد اليهود في البلدان العربية المجاورة لإسرائيل، ولا سيَّما سورية التي يقدم منها معظم اللاجئين الجدد إلى ألمانيا، بعنصرية دينية أو إثنية، بل هو نتيجة الصراع في الشرق الأوسط ووضعية الحرب مع إسرائيل فحسب. إنها لحقيقة لا يمكن أحدًا نكرانها وهي عيش اليهود في سورية حتى بدأ انفكاك الدولة، وتم قبول المجتمع اليهودي واحترامه من قبل الدولة. أما في إيران فيُسمح لليهود حتى بالخدمة العسكرية.

أما عن يهود العراق، فقد كان المجتمع اليهودي هناك بالأهمية نفسها التي للمجتمع اليهودي في ألمانيا، حيث كان اليهود مندمجين في المجتمع

---

(10) https://bit.ly/3u0bZ6w

العراقي اندماجًا كاملًا... حتى اندلاع الصراع في الشرق الأوسط وتأسيس دولة إسرائيل، حينذاك تم تدمير كل شيء.

ليس الأمر على ذلك الشكل في ما يخص ما يقال عن اللاجئين. فاللاجئون يشكّلون تحديًا للمجتمع الألماني - كما شكّل اللاجئون اليهود القادمون من الاتحاد السوفياتي قبل أكثر من عشر سنوات تحديًا كبيرًا حينما استقبلتهم ألمانيا. بيد أن موظفين يهودًا، مثل جوزف شوستر، يرون في اللاجئين خطرًا على اليهود وعلى إسرائيل خصوصًا ويثيرون جنون العظمة. لكن لندرك أن صورة القلق من "معاداة السامية المسلمة" تتلاءم كذلك مع صرف الانتباه عن الاحتلال الإسرائيلي غير القانوني.

للأسف تلاقي تصريحات كهذه تشجيعًا كبيرًا. وأيضًا نجد البروفسور في مجال السياسة، الألماني السوري بسام طيبي يصرح في تموز/يوليو 2016 من دون أيّ دليل أن كثيرًا من اللاجئين من بلده، سورية، هم معادون للسامية. الآن، ربما من الممكن أن تكون الكراهية لإسرائيل بين السوريين منتشرة بسبب تغذية النظام السوري لها هناك. ولكن هل يصح دعوة ذلك بأنه معاداة للسامية؟ ثم ماذا عن انتشار كراهية إسرائيل لسورية؟ ما يذكره طيبي في جريدة دي فلت هو عبارة عن مجرد اتهامات. ولم تنل مقابلته الصحافية الاستحسان من هنريك برودر فحسب، وإنما من السيدة بياتريكس فون شتورش، من حزب البديل لأجل ألمانيا، التي غردت على تويتر قائلة: "مقابلة جيدة"، وأيضًا صرحت السياسية يوليا كلوكنر من حزب الاتحاد المسيحي الديمقراطي بخصوصها: "مقابلة عظيمة مع بسام طيبي في جريدة دي فلت [...] ويجب قراءتها".

بالطبع من غير المستغرب أن كثيرين من الشرق الأوسط لا يحترمون السياسة الإسرائيلية ولا إسرائيل طالما أن إسرائيل لا تحترم الحقوق الأساسية للفلسطينيين. كما أن مطالبة اللاجئين القادمين من الشرق الأوسط بقبول دولة إسرائيل واشتراط ارتباط حقهم في اللجوء بهذا لهو أمرٌ شعبوي ويدعو إلى السخرية. وهذا بالضبط ما طالبت به رئيسة اللجنة الأميركية اليهودية في برلين ديدري برغر (Deidre Berger) في إحدى المقابلات الخاصة مع كتلة البرلمان

من حزبي الاتحاد المسيحي الديمقراطي، والاتحاد المسيحي الاجتماعي في بافاريا في تموز/ يوليو 2016، والتي تحدثت، إلى جانب نائب رئيس المجلس المركزي لليهود أبراهام ليرر، عن "الهيكلية البطريركية المهيمنة على الأسر المسلمة" حيث تربى أبناؤها على معاداة اليهود وكره إسرائيل. وفضلًا عن ذلك، طالبت بـ "ترحيل اللاجئين الذين لا يقرُّون بقبولهم إسرائيل". ولا يخفى أن هذه المطالبة بالاعتراف بإسرائيل، والمرتبطة بالانتقام، لهي مهينة ومذلة، وفي كل الأحوال لا تصل سوى إلى درجة الاعترافات اللفظية من غير اقتناع داخلي بها. وعلاوة على ذلك، تتنافى مطالبات كهذه بالاعتراف الإجباري مع المادة 4(1) من القوانين الأساسية في ألمانيا، والتي تنص على أنه "لا يجوز انتهاك حرية الإيمان والضمير وحرية الرأي والدين". فأن نسمع مطالبات بهذا الاعتراف تأتي من اللجنة الأميركية اليهودية، فهذا في حد ذاته نفاق فريد. ولا ننسى أن هذه المنظمة تقف بحدة ضد الاعتراف بدولة فلسطين في كل أنحاء العالم. إن من ينكر على الفلسطينيين حقهم في العيش في أمان في دولة مستقلة، ليس له أيُّ حق في المطالبة بالاعتراف بإسرائيل.

لا شك في أن تعليقات تعميمية كتلك التي تتلفظ بها ديدري برغر وأبراهام ليرر تغذي الخطابات العنصرية التي تثار حاليًا ضد المسلمين. وفضلًا عن ذلك، فإنها خطابات ازدرائية حتى تجاه اليهود والإسرائيليين المقيمين في ألمانيا، لأن نصف الإسرائيليين اليهود، على أقل تقدير، أتوا من بلدان وثقافات ذات طابع إسلامي أو من عائلات يهودية أرثوذكسية يمكن المرء أيضًا وصفها بأنها تمثِّل "مع أطفالها الكثر هيكليةً بطريركية مهيمنة".

بالطبع يوجد كذلك في ألمانيا النازيون والفاشيون والرجعيون الذين يعبِّرون عن سخطهم ضد اللاجئين والمخالفين لهم بالرأي من طريق أحزاب غامضة، ومدونات، وتظاهرات. لكن هذا لا يجعلني كيهودي أشعر بالخوف؛ ذلك أنه، أوّلًا، لا يوجد مكان في العالم أفضل من هنا، وثانيًا، إن من المخيف فعلًا ما يحدث، ولكن هذا لا يجعلني أخاف كيهودي، وإنما كمواطن في هذه البلاد مثلما هو حال كثير من المواطنين المحترمين أيضًا هنا. أقول هذا

الكلام مع إقراري أنني بهذا لا "أنكر" يهوديتي ولا أخجل بها. فهذا ما لا أقوم به أبدًا؛ ولكنني أيضًا لن أدرج نفسي ضمن الجبهة التي ينتمي إليها النازيون، والفاشيون، وحزب البديل لأجل ألمانيا، وحركة بيغيدا.

الآن، كيف يمكن ممثل الجالية اليهودية اليوم التشهير باللاجئين وتصويرهم على أنهم إرهابيون محتملون؟ لقد كان اليهود، على مدى قرون، لاجئين. إنني أفكر هنا في اللاجئين اليهود الذين هربوا من ألمانيا النازية ولم ترغب أيُّ دولة في استقبالهم. وأفكر أيضًا في تلك السفينة موتورشيف سانت لويس (MS St. Louis) التي كان على متنها ما يقارب ألف لاجئ يهودي ورفضتها الولايات المتحدة وكوبا في أيار/مايو 1939، فلم يبقَ أمام هؤلاء اللاجئين اليهود سوى طريق وحيدة هي العودة إلى أوروبا وألمانيا، حيث قتل كثير منهم في أفران الغاز في معسكرات أوشفيتز ومعسكر تربلينكا (Treblinka). إنني أفكر في آلاف المواطنين الألمان الذين يقدّمون مساعدات ويدافعون عن اللاجئين الذين يحتاجون إلى المساعدة. وهنا أذكر أن من واجب اليهود اليوم أن يقفوا في الصفوف الأمامية في مسائل استقبال اللاجئين واندماجهم في المجتمع، بصرف النظر ما إذا كانوا مسلمين أم لا.

لكن للأسف، إننا نجدهم بدلًا من ذلك، يستثيرون عدم الثقة تجاه المسلمين. لنقرأ مثلًا ما ورد في صحيفة شبيغل **أون لاين** في ربيع 2015: "ينصح المجلس المركزي لليهود بعدم اعتمار القلنسوة اليهودية". فحينما يطالب جوزف شوستر اليهود بعدم اعتمار القلنسوة اليهودية في المناطق التي يغلب عليها السكان من خلفيات مهاجرة، فهذا يساعد على تعزيز المخاوف. طبعًا، يعني الرجل باصطلاح "الخلفيات المهاجرة" الأماكن التي يسكنها عرب وفلسطينيون ومسلمون. ونؤكد هنا أن الصراعات بين اليهود والعرب أو الفلسطينيين في برلين، في حال وُجدت، فإنها لا تتعلق بمعاداة السامية بقدر ما تتعلق بالصراع في الشرق الأوسط.

كما تتجاهل وسائل الإعلام وكثير من السياسيين حقيقة أن مجتمعات يهودية لا تزال موجودة في العالم الإسلامي، وأن اليهود في إيران التي تنتمي

إلى "محور الشر"، على سبيل المثال، يتمتعون بجميع الحقوق المدنية تقريبًا بل حتى يخدمون في الجيش. وإنه فيما كان اليهود يُلاحقون في أوروبا ويُحرَقون، كانوا على الضفة الأخرى في الدول الإسلامية، مثل تركيا وسورية وإيران، يعيشون بسلام، ولم تحصل بحقهم مذابح أو اضطهادات أو ملاحقات ولم تدمَّر مجتمعاتهم. لقد تمتع اليهود في هذه البلدان بالاعتبار والاحترام والعيش بسلام. وأيضًا لا ننسى استقبال العالم الإسلامي لليهود حينما طردتهم إسبانيا المسيحية. وحينما ارتكب النازيون جرائمهم ضد اليهود، لجأ كثيرون منهم إلى تركيا. في الواقع يقع على عاتق المجلس المركزي لليهود في ألمانيا أن يذكّر بهذه الحوادث، بدلًا من أن يسكب الزيت على النار في ما يخص الرهاب [الفوبيا] من الإسلام.

أخيرًا نشير سريعًا إلى أنه عندما استقبلت الدولة الألمانية مئات الآلاف من اليهود الروس، كان المجلس المركزي سيحتج بشدة إذا ما جرى التفوه بوجوب أن يكون هناك "حدٌّ أعلى" لاستقبالهم في ألمانيا. لقد كان بإمكان المجلس المركزي للمسلمين أن يدلي أيضًا بدلوه بأن المهاجرين اليهود القادمين من الاتحاد السوفياتي ينتمون إلى ثقافة تعتبر الكراهية ضد المسلمين وعدم التسامح معهم جزءًا لا يتجزأ منها، فهذا أيضًا ليس بالقول الخطأ.

لا أدري السبب الذي يجعلني أدهش وأسخط؛ أبسبب المطالبة الوقحة بـ"حد أعلى" لقبول اللاجئين، أم بسبب التأجيج في خطاب الكراهية ضد المسلمين أو العرب عمومًا، أم بسبب نقص الوعي التاريخي أو الافتقار إلى التعليم، وهي تُنتج لنا رؤى كتلك التي لشوستر تفسر الصراعات الكبرى في التاريخ من خلال عدسة الاختلافات العرقية أو الثقافية فحسب. إنه حقًا من الوقاحة الكبرى أن يُحذِّر الألمان، بصفتهم أحفاد النازيين من الثقافات التي "تُعدّ فيها كراهية اليهود والتعصب جزءًا لا يتجزأ منها".

9

عدائي للصهيونية

يُستخدم عادةً اصطلاح "معاداة الصهيونية" ضمن دوائر محددة على أنه اصطلاح يرمز إلى "معاداة السامية" أو أنه يقف على قدم المساواة مع "معاداة السامية". ولكنني بالطبع أعرِّف عن نفسي وبكل ثقة بأنني يهوديّ معادٍ للصهيونية. وليس من الضروري أن يكون المرء معاديًا للسامية حتى يرفض الصهيونية، فهي عبارة عن أيديولوجيا يمينية وإمبريالية، لذا يمكن أن يرفضها المرء أو يؤيدها كما هو حال أيِّ أيديولوجيا أخرى. إلا أن موقفي منها هو موقف ازدراء وعدم احترام، لأنني اعتبرها أيديولوجيا غير إنسانية. وهذا ليس له علاقة بموقفي من اليهودية أو من اليهود كبشر، ولا حتى بموقفي من إسرائيل.

لا ننسين أن ثمة وجودًا كبيرًا للمعادين للصهيونية بين اليهود المتدينين - مثلًا مئات الآلاف من أتباع مختلف المدارس الحسيدية [حسيديم] مثل حسيدية ساتمار[1] - وهؤلاء يرفضون دولة إسرائيل رفضًا واضحًا، لأنهم يعتقدون أن المسيح الذي أرسله الرب هو وحده من له الحق في إقامة دولة يهودية. حتى إن كثيرين من اليهود في ألمانيا بنسبة 95 في المئة قبيل صعود النازية لم يُبدوا سوى تعاطف قليل مع الصهيونية؛ وإحدى الحوادث المشهورة الدالة على ذلك هي رفض المجمع اليهودي في ميونيخ استضافة أول مؤتمر للصهيونية، وكان هرتزل يرغب في تنظيمه هناك، فاضطر لنقله إلى بازل.

لقد اعتبر المواطنون العلمانيون الألمان من اليهود أن الصهيونية

---

(1) حسيدية ساتمار حركة دينية أسسها الحاخام يونيل تيتلبوم في عام 1905. سميت، كالعادة في المدارس الحسيدية، طبقًا لمنطقة نشوئها في مدينة ساتو ماري (ساتمار الألمانية)، التي كانت في ذلك الوقت ملكًا لمملكة المجر، وتقع اليوم في أقصى شمال غرب رومانيا. وأعيد تأسيس الطائفة أو الحركة بعد الهولوكوست في الحرب العالمية الثانية في نيويورك. (المترجمة)

أيديولوجيا قومية انفصالية إلى حدٍّ كبير تقف في طريق اندماجهم واستيعابهم في ألمانيا. فلو لم تقضِ النازية على اليهودية الأوروبية، لم تكن لتتقطع السبل بالناجين منهم على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، ولو لم تقف القوى الغربية في صفهم، لم يكن ربما لدولة إسرائيل اليوم من وجود. ثم لنعلم أن الأوروبيين لم يقدِّموا المساعدة لليهود من مبدأ حبهم لليهودية، بل بسبب تعذيب الضمير الذي عاشوه بسماحهم بقتل ستة ملايين يهودي. والحال أنه كان على الفلسطينيين أن يدفعوا ثمن هذه الفاتورة التي تسببت بها أوروبا.

كنت أظن لوقت طويل أنني اليهودي الوحيد الذي يحمل هذه المواقف، إلى أن قرأت ما نشره برومليك في التسعينيات في كتاب سيرة ذاتية له غير ممكن كألماني ويهودي (*Kein Weg als Deutscher und Jude*) ووجدت أن الرجل هذا قد تغيَّر أيضًا "تحوَّل من صهيوني شديد إلى معادٍ شديد للصهيونية على نحو متعصب" كما كتب هو نفسه[2]. وكتب في مذكراته بعد إقامته لسنتين في تجمُّع في إسرائيل "لقد وجدتني أعود إلى ألمانيا في عام 1968 عندما كنت شابًا يساريًّا يهوديًّا معاديًا للصهيونية".

لم يكن برومليك الوحيد في ذلك حينذاك. فقد كان هناك، في فرانكفورت، قرابة 50 شخصية من المثقفين اليهود اليساريين الذين أسسوا مجموعة فرانكفورت اليهودية، وقاموا بحملات مناهضة لإسرائيل ومعادية للصهيونية. كما شاركوا في التظاهرات مع جماعات يسارية في فرانكفورت أو تظاهروا أمام السفارة الإسرائيلية في مدينة بون ضد السياسة الإسرائيلية. لقد تجادلوا، كما يكتب برومليك، "مرارًا وتكرارًا مع دولة إسرائيل وسياستها مع الفلسطينيين، التي كنا نعارضها بشدة". هكذا، كانوا في تضاد مع سياسات الجاليات اليهودية، التي لا تتسامح، إلى اليوم، مع أيِّ انتقاد للسياسة الإسرائيلية. والحال: إذا لم يتوجه الوعي الذاتي المنجرح للناجين من الهولوكوست إلى إسرائيل، فإلى ما تراه سيكون موجهًا؟

---

(2) Micha Brumlik, *Kein Weg als deutscher und Jude. Eine bundesrepublikanische Erfahrung* (Berlin: Ullstein, 2000)

لقد استمرت المجموعة اليهودية في فرانكفورت لمدة خمس سنوات فقط، ما بين عامي 1980 و1985، وكانت تقف في معارضة تامة للجالية اليهودية في المدينة. وعندما تظاهر أكثر من 4000 فلسطيني في مدينة بون في نيسان/أبريل 1982 ضد الحملة الإسرائيلية على لبنان، نشرت صحيفة فرانكفورتر روندشاو نداءً[3] من المجموعة اليهودية ووقّعه 16 شخصًا لا يود كثيرون اليوم معرفتهم.

لقد أهين أعضاء المجموعة ووُصفوا بأنهم "خونة"، و"عملاء"، و"يهود كارهين لأنفسهم"، وأهينوا وطُردوا من الجالية اليهودية. كما قوبل نداؤهم في سبيل "أخلاق يهودية رفيعة" بالسخرية والتجاهل. لقد كان هناك، كما هو الحال اليوم، خشية من أن تفسيرات كهذه في ألمانيا لن تؤدي إلا إلى إنعاش "معاداة السامية التي لا تزال قائمة إلى حدٍّ ما". وكان معظم أعضاء مجمع الجالية اليهودية في فرانكفورت يشاطرون رئيس إسرائيل السابق مناحيم بيغن وحزب الليكود الداعم له الرأي أن منظمة التحرير الفلسطينية هي عبارة عن "منظمة إرهابية" وترغب في إتمام الإبادة الجماعية التي لم تكتمل على أيدي النازية. أما المجموعة اليهودية في فرانكفورت فبدأت بالتهاوي تدريجًا، ومنذ ذلك الحين كرَّس مثقفون أنفسهم لمسيرتهم المهنية أمثال دان دينر، وسوزان هينن، وغرترود كوخ، وسيلي كوغلمان، ومارتن لوف بير.

بالطبع ما أدهشني، هو اعتراف برومليك، لأنني التقيته في السنوات الأخيرة وهو واحد من اليهود المصطفّين بشدة إلى جانب الصهيونية. بالكاد مضى عشرون عامًا حتى غدا برومليك يجادل بالشكل نفسه الذي كان يجادل به خصومه في الثمانينيات. وعندما نشر 70 شخصًا من اليهود في عام 2007 بيانًا، أطلِق عليه عنوان "شالوم 5767"، دعوا فيه إلى سلام عادل في الشرق الأوسط، اتهم برومليك الموقعين بأن سخطهم وغضبهم من السياسة الإسرائيلية يقودانهم أحيانًا إلى التقليل من شأن معاداة السامية، "لا بل تزيينها بمكافأة استحسان". لكن لا ننسى أن هذا البيان كان مشابهًا لتلك الدعوة التي وقّعها

(3) نص النداء منشور في ملحق هذا الكتاب.

برومليك نفسه في عام 1982. ومما جاء في كتاب برومليك نقد الصهيونية في عام 2007، أن الأمر "ليس بالخطأ الجوهري" حينما يصف يهودي أحد اليهود بأنه "معادٍ للسامية" بسبب نقده لإسرائيل. لكن عندما كان المجمع اليهودي في فرانكفورت يصفه بأنه "معادٍ للسامية"، ربما كان يفكر بطريقة مختلفة.

للتذكير مرة أخرى: إن لفظة معاداة السامية تعني كراهية اليهود لأنهم يهود، أي كراهية مجموعة من البشر لأنهم يهود فحسب. وأمرٌ كهذا يُعتبر رفضه من المسلمات. ولكن على النقيض منها فإن معاداة الصهيونية ليس لها علاقة بكراهية البشر. حيث إنها أيديولوجيا شوفينية وعنصرية وكولونيالية، ويمكن، بل يتوجب، رفضها بحسب ما يرى كثيرون من مناهضي الصهيونية. بإمكان الإنسان أن يكون معاديًا للصهيونية، وفي الوقت نفسه محبًا لإسرائيل، حتى لو كان يرفض سياستها. طبعًا هذا هو موقفي بالضبط.

في الواقع، إن معاداة الصهيونية تمثِّل مفارقة تاريخية، وكان هدفها تمكينَ اليهود من إنشاء دولة خاصة بهم. والآن: لقد مضى سبعون عامًا على وجود هذه الدولة. إنها، والحال تلك، تُعدّ من مخلفات عصر الكولونيالية التي ودَّعها العالم منذ وقت طويل. ومع ذلك، لا تزال دولة إسرائيل تشرِّع أبوابها لكل يهود العالم الراغبين في الإقامة في "الأرض المقدسة". واليهودي الذي يصل إلى هناك يحصل تلقائيًا ومن دون أيِّ مشاكل على الجنسية الإسرائيلية بصفته يهوديًا، أما الشخص غير اليهودي فلا يمكنه ذلك، إلا إذا اعتنق اليهودية.

إن صهيونية اليوم لها ارتباط وثيق أيضًا بالتوسع الإمبريالي، وقمع شعب آخر، والاحتلال الدائم لمساحات كبرى كاملة من الأراضي، وطرد السكان الأصليين بقصد إسكان اليهود على الأرض المنهوبة. وهذا الأمر لا يمكن أن أوافق عليه.

لا شك في أنه لا تزال هناك معاداة للسامية في ألمانيا ومعادون للسامية، وينبغي علينا بالطبع مواجهتهم. ولكن فعليًّا يتم يوميًا إنتاج نمط جديد مفترض من معاداة السامية في فضاءات أخرى متميزة. حيث يُشتم منتقدو السياسة الإسرائيلية الذين ليس لهم تأثير خطر ويهانون بوصفهم معادين للسامية، وفي

الوقت ذاته يُترك معادو السامية الحقيقيون من دون التعرض لهم، لا بل يشار إليهم أنهم سيكونون بسلام طالما أنهم لا ينتقدون إسرائيل ويتركونها في مأمن. وإضافة إلى ذلك، فإننا نشهد اهتمامًا من المجلس المركزي لليهود في ألمانيا والجمعيات المماثلة في الدول الأوروبية الأخرى والولايات المتحدة بصراع الشرق الأوسط وانتقاد السياسة الإسرائيلية الفاشلة، بيد أنهم لا يدركون الخطر الحقيقي.

إن محاولة وضع معاداة الصهيونية مع معاداة السامية على قدم المساواة تمثِّل خزيًا وابتذالًا، بل إنها أيضًا محاولة تدوس على حرية التعبير التي يقدِّرها ويثمنها العالم الغربي كثيرًا في كل مكان. يمكن أن يكون الشخص اليهودي صهيونيًّا، لكن يمكنه أيضًا أن يكون معاديًا للصهيونية. ونعلم أن رفض أيٍّ أيديولوجيا هو أمر طبيعي في السياسة.

كانت المفوضية الأوروبية قد قررت في تشرين الثاني/نوفمبر 2015 تمييز المنتجات التي تُستورد إلى الاتحاد الأوروبي من المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية والقدس الشرقية ومرتفعات الجولان وعدم وسم بلد منشئها على أنه "إسرائيل". وحينما استبعد المتجر الغربي "KaDeWe" في برلين من تشكيلته ثمانية أنواع من النبيذ مصدرها مرتفعات الجولان، أخذ رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو يذكِّر بالماضي النازي لهذا المتجر الذي كان في السابق ملك ملّاك يهود. أما برودر فدعا قرّاءه في مدونته "محور الخير" قائلًا: "ينبغي علينا مقاطعة من يقاطع إسرائيل". وحينما تراجع هذا المتجر عن قراره بسحب المنتجات، صاح برودر بسخرية: "حسنًا، تابعوا أرجوكم". وفعلًا، احتُفي بهذا النصر.

هذا هو الحال بالنسبة إلى الشركات التي تستخدم القانون الأوروبي عندما ينقلب هذا الحق ضد إسرائيل. فهم يتعاملون مع اللوبي الإسرائيلي ومع مؤسسة النشر شبرنغر وصحف مثل بيلد ودي فلت، ومن الضروري أن يتملكها الخوف من جراء الأضرار الاقتصادية التي قد تصيبها ولا يمكن التنبؤ بها.

يزعم المسؤولون الإسرائيليون أن مطالبات الاتحاد الأوروبي تُذكِّر بالدعاية

النازية التي تدعو "لا تشتروا من عند اليهود"، ثم نجد كثيرين من الدعاة الإعلاميين يكررون هذا من دون كلل، من صحيفة بيلد إلى تلك المدونات الغامضة المنتشرة على الإنترنت. وهنا يتم كذلك عمدًا تشبيه حركة "المقاطعة وسحب الاستثمارات والعقوبات" (BDS) بالنازية، طبعًا بغية تشويه سمعتها. وبحسب رأي كثيرين، حتى بحسب رأي العلماء الإسرائيليين والمؤرخين والناشرين والسياسيين، فإن هذه الحركة ليست لها علاقة بمعاداة السامية ولا بالأيديولوجيا النازية. يُحتمل أن يكون بعضٌ من أنصارها غير مؤيدين للأطعمة الحلال [بالعبرية: كوشر]. لكن، نظرًا إلى أن هذه تمثِّل جماعة صغيرة، فليس هناك مثال عالي المستوى يتناقض مع رؤى غير مؤهلة أو غير مقبولة. بيد أن هذا هو السبب في عدم إمكان تشويه الحركة بأكملها والتشهير بها، وهي تتكون من مئات الآلاف، إن لم نقل الملايين، من الناس، بمن في ذلك كثير من اليهود والإسرائيليين. لا بل حتى الممثلة العليا للاتحاد الأوروبي لشؤون السياسة الخارجية والأمنية، فيديريكا موغيريني، أدانت الاعتداءات على المدافعين عن حقوق الإنسان وأعادت تأكيد حق المواطنين الأوروبيين في حرية التعبير والتجمع. وإضافة إلى ذلك، فإن المشاركة في هذه الحركة [أي] المقاطعة وسحب الاستثمارات والعقوبات، التي تقاد فلسطينيًا، ستكون محمية أيضًا بحقوق كهذه.

لنتذكر ما قاله مرة الجنرال الإسرائيلي شلومو غازيت منذ 35 عامًا للصحافي البريطاني آلن هارت (Alan Hart) "الحقيقة هي أننا أصبحنا كإسرائيليين ضحايا دعايتنا الإعلامية"[4]. وفعلاً، ما يؤسف له أن هناك اليوم عددًا كبيرًا من اليهود في العالم يقفون على نحو أعمى في صف إسرائيل وسياستها، وهم أيضًا غدوا ضحايا هذه البروباغندا الإعلامية.

ثمة حادثة تُظهر لنا مدى حساسية الجمهور اليهودي، خاصة الإسرائيلي، من مواضيع معاداة السامية، وهي حادثة إدراج اليونسكو في تموز/ يوليو 2017 قبر الجد الأكبر لليهود، أبراهام [إبراهيم]، على لائحة التراث العالمي. فبدلًا من الاحتفاء بهذا القرار اندلع تسونامي من السخط والغضب وامتد صداه من

(4) Alan Hart, *Zionismus gegen Judentum* (Zambon Verlag, 2015).

القدس إلى واشنطن. حتى إن الرئيس الأميركي دونالد ترامب شعر بلزوم أن يغرد على تويتر ساخطًا من هذا القرار. ومجددًا اتُّهمت منظمة اليونسكو بأنها معادية لإسرائيل، وبالتالي بالتلاعب التاريخي المعادي للسامية، لماذا؟ لأنها حددت مكان قبر الجد الأكبر لليهود "في فلسطين"، وهو تمامًا أمر صحيح تاريخيًّا.

وفسَّر بنيامين نتنياهو على نحو مقصود أو عن جهل، قرارَ اليونسكو، بأنه يعني أن القبر تراث ثقافي فلسطيني لأنه يقع في فلسطين. وسيطرت على كل الإسرائيليين موجة غاضبة، في الأقل بين اليهود. إذ توحدوا جميعًا احتجاجًا ضد الأمم المتحدة.

لكن لو قرأ نتنياهو وجميع الإسرائيليين، والأساتذة الجامعيون في الجامعات العبرية، وصحافيو كل الصحف الإسرائيلية ودونالد ترامب، بشكل صحيح وتَروٍّ لاكتشفوا أن اليونسكو صنفت القبر "إرثًا ثقافيًّا عالميًّا"، وهذا يعني أنه ليس ملك الفلسطينيين ولا ملك الإسرائيليين بل هو ملك العالم أجمع، ملك لنا كلنا. كما أن الموقع الجغرافي يقع في منطقة حبرون [الخليل] التي تمثِّل جزءًا من منطقة الحكم الذاتي الفلسطيني. بيد أنها تقع تحت سلطة الاحتلال الإسرائيلي.

هذا هو مدى ذلك القرار وما أثاره من ردات فعل. المسألة هنا هي أن هذا القبر في الحقيقة يخص الملايين من المسلمين لأنه مقدس، فهم يرون أيضًا في إبراهيم أنه سلَفهم بحكم أنه والد إسماعيل(5)، والحال هذه ينطبق على اليهود فهو مقدس بالنسبة إليهم؛ لكن إذا كان اليهود يحصرونه في أنفسهم فحسب، فذلك، مرة أخرى، لأنهم يفسرون الكتاب المقدس من جانب واحد لمصلحتهم. ومع ذلك، إذا افترض المرء أن إبراهيم هو سلَف أو أبو اليهود، وإسماعيل هو سلَف العرب، فينبغي القراءة في سفر التكوين (الأصحاح 25: 9) "وَدَفَنَهُ إِسْحَاقُ وَإِسْمَاعِيلُ ابْنَاهُ فِي مَغَارَةِ الْمَكْفِيلَةِ فِي حَقْلِ عِفْرُونَ بْنِ

---

(5) سفر التكوين، الأصحاح 25: 12-18.

صُوحَرَ الْحِثِّيِّ الَّذِي أَمَامَ مَمْرَا". وهذا يعني أنه وفق الكتاب المقدس اليهودي، [أي] التوراة، للعرب الحق في هذا القبر كما هو الحال تمامًا بالنسبة إلى اليهود، وبالمناسبة أيضًا بالنسبة إلى المسيحيين.

كما قال أوري أفنيري: "لقد اعتبر وليام شكسبير مرة إشكالًا كهذا أنه يحمل "الكثير من اللغط حول لا شيء". ولكن للأسف لهذا الموضوع جوانب خطرة جدًّا. فهو يُظهر مدى سهولة شحن اليهود من دون استثناء في إسرائيل: السياسيون والمعلقون، ومن المعسكرات اليمينية واليسارية، وحتى من أوساط المجتمع، اليهود الأشكناز الغربيون والسفارديم العرب، الدينيون والعلمانيون؛ فكل هؤلاء اتحدوا مع بعضهم في كتلة غاضبة".

أما الجانب الآخر والأشد خطورة فهو أن اليهود كانوا طوال قرون عديدة مضطهدين وملاحقين في أوروبا وهجِّروا منها وارتُكبت المجازر بحقهم، وهذا كان جزءًا من وجودهم وقد تعلّموا التعايش معه. لذا فإن معاداة السامية بكل أشكالها، حتى الأكثر إجرامية، مثَّلت جزءًا من واقعهم. وهنا فقد التقت سادية غير اليهود مع مازوشية اليهود.

لكن لاحقًا بعد الحرب العالمية الثانية والهولوكوست، اختفت معاداة السامية هذه القاتلة، ربما تحت الأرض [غدت مبيّتة] فحسب، بيد أن اليهود لم يتمكنوا من معايشة هذا الواقع. ذلك أنهم لا يزالون يخشون إمكان صعود "معادين للسامية" من أيِّ جحر، وفي أيِّ لحظة ضدهم. وسيشعرون أن مخاوفهم في محلها إذا ما حدث هذا أو كما يعتقدون هم أنفسهم أن ذلك سيحدث.

الأمر في إسرائيل أكثر تعقيدًا. لقد كان أحد أهداف الصهيونية تحريرَنا نحن اليهود من عقدة النقص في الشتات وجعلنا شعبًا طبيعيًا "مثل كل الشعوب". بيد أن فشلَ هذا الهدف في تحقيق مبتغاه واضحٌ الآن، أو أنه في نكوصٍ في زمن بنيامين نتنياهو.

هكذا فإن قضية كهذه تجعل كثيرًا من اليهود راضين. ويقولون "لقد كنا على حق. الكلّ معادٍ للسامية".

10

يهوديتي

إنني لا أعتبر اليهود شعبًا بالمعنى المتعارف عليه. ويعتقد حاخامات اليهود الأرثوذكسيون وحتى الإصلاحيون اليهود أن شعب إسرائيل شعب مميز لأنه لا يستمد هويته من الأرض ولا من لغة مشتركة، بل من الإيمان المشترك. وبالفعل أتذكر أنني خلال الفترة الدراسية قد تبنيت في بحثٍ أطروحة القدر المشترك للمجتمع اليهودي. لقد اتحد اليهود وتكاتفوا لقرون طويلة بسبب امتلاكهم عقيدةً مشتركة ومصيرًا مشتركًا أكثر من امتلاك أصل إثني غير موجود أساسًا. وقد قال مرة يشعياهو ليبوفيتش: "ما يميز الشعب اليهودي هو وجوده في الشتات لمئات السنين من دون وحدة إقليمية ووحدة دولة له".

لقد كتب المؤرخ شلومو ساند كتابًا مستفيضًا يستحق القراءة عن مسألة اختراع الشعب اليهودي[1]. إن اليهودية بحسب رأيه - وهو ما أعتبره مقنعًا - هي دين ديناميكي انتشر في العصور القديمة بسرعة. وبالتالي فإن الأصل البيولوجي لليهود متنوع وواسع جدًا مثله مثل بقية الأديان. فإذا لم تكن الأرض المقدسة، التي تسمى أرض كنعان، التي سماها الرومان لاحقًا فلسطين واليهود أطلقوا عليها اسم صهيون، تمثل مهدًا لليهودية، فإن الصهيونية برمتها أيديولوجيا قائمة على أسس تاريخية زائفة. ومع ذلك تقاتل إسرائيل بكل عناد وبكل الوسائل الممكنة لكي يُنظر إليها على أنها استمرار لصهيون.

لنعلم أن اليهودية كانت، وما زالت، دينًا قبليًا[2]. وهناك أجزاء شعبية

(1) Shlomo Sand, *Die Erfindung des judischen Volkes. Israels Grundungsmythos auf dem Prüfstand* (Berlin, Propyläen Verlag, 2010).

(2) الديانات القبلية هي الديانات التي تطورت من خلال التراث. وغالبًا ما تكون هذه الديانات عبارة عن مجتمعات دينية صغيرة، محددة بمنطقة إقليمية ما، وتمتد ضمن نطاق منطقة سكنية معيّنة. وكان الأمر أن "الإثنية والدين" في الديانات القبلية يرتبطان ببعضهما ارتباطًا وثيقًا. واليوم يوجد قرابة 100 مليون شخص في جميع أنحاء العالم ينتمون إلى ديانات قبلية.

من اليهودية، خاصة اليهودية في إسرائيل، لا تنشغل إلا بنفسها ولا تهتم إلا بمصالح شعبها وتلك القطعة الصغيرة من الأرض على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، أما سكان الأرض الآخرون ومشاكلهم فلا يدخلون في حسبان هؤلاء اليهود. بيد أن هذا يتناقض مع الكتاب المقدس، مصدر اليهودية، الذي يُعدُّ ميثاقًا للحقوق العالمية والعدالة والحقوق الاجتماعية والدفاع عن الفقراء في المجتمع والسعي لتحقيق السلام العالمي وكثير من المعايير الأخرى التي لا تسمح للحكام بالتعامل بتعسف مع البشر. لقد قدَّمت اليهودية للعالم ديانة التوحيد والوصايا العشر، التي من دونها لم يوجد مجتمع مدني متحضر. لقد كان موسى أوّلَ محرر للعبيد، وحتى كارل ماركس ورث عن اليهودية مُثلًا عليا يهودية انتشرت في العالم أجمع. إنها بالفعل أفكار موسى الثورية التي تنتمي أيضًا إلى جذور الاشتراكية.

يعتقد يهود الشتات، الذين تعرضوا مرارًا وتكرارًا للاضطهاد في أوروبا، ابتداء من القرن الحادي عشر، أن الجميع في العالم يرغبون في إبادتهم والتخلص منهم. ورغم أن الإسرائيليين اليوم لا يعيشون في الشتات، فإن فكرة الشتات تعيش في داخلهم وفي داخل رؤوسهم. لهذا السبب تراهم لا يتوقفون عن الادعاء أن العالم كله يرغب في نزع الشرعية عنهم، وهذا لا يعني إلا شيئًا واحدًا بالنسبة إليهم هو: الرغبة في إبادتهم.

المفارقة هنا هي أن الحضارة الغربية، بالنهاية بكليتها، هي حضارةٌ يهودية، بنيت على أسس العهد القديم لليهود والعهد الجديد للمسيحيين، حتى لو تجاهلت الشعوب الغربية هذا ولم ترغب في معرفته، بل وُصم اليهود بأنهم أعداء الحضارة، كما قام بذلك النازيون على الأخص. كما أن الاعتقاد أن كل شخص ولد على صورة الرب لهو جزء من صلب العقيدة اليهودية. حتى إننا نقول إنه لولا وجود هذا المبدأ، لما قامت أصلًا الحضارة الغربية.

وفقًا للديانة اليهودية فإن جميع البشر متساوون، ولكن للأسف لا يلتزم كثير من اليهود هذا. إنهم يعتبرون أنفسهم متفوقين ويقولون، كما هو الحال مع هنريك برودر، إن 14 مليون يهودي هم الأكثر قيمة وأهمية من مليارات

المسلمين، من حيث إن اليهود قد استطاعوا تقديم وإنتاج العشرات من الأشخاص الذين فازوا بجوائز نوبل، بعكس العالم العربي الذي لم يقدِّم أمثلة على هذا. هذا صحيح من ناحية، ولكن من ناحية أخرى لم يتسبب العالم العربي بإثارة وحدوث حرب عالمية منذ ظهور جائزة نوبل، وليس مسؤولًا عن تجاوزات الاستهلاك وتغيُّر المناخ، ولا عن السياحة المدمرة تمامًا، ولم يخترع الديناميت المدمر الذي لا يفيد بسوى القليل في المناجم، بل يستفاد منه دائمًا في الحروب، وتُموَّل جائزة نوبل من أرباحه.

تحتل مسألة الأصل بالنسبة إلى اليهودية مكانة أهم من الاعتقاد الديني. وإذا كان الأمر على هذا النحو، فهي أكثر الديانات التي عرفتها البشرية عنصريةً؛ ذلك أن معظم الأديان الأخرى تقبل أيَّ شخص لديه استعداد لقبول ديانة أخرى، بل يُعتبر هذا الشخص مثله مثل أتباع هذه الديانة. أما في اليهودية فالأمر مختلف، حيث على المرء إثبات انحداره من أمٍ يهودية، وإلا لا يُعدُّ يهوديًا "صحيحًا". طبعًا بإمكان المرء اعتناق اليهودية، إلا أنها طريقة شاقة تبدأ بإجبار الرجال على الاختتان، كما هو الحال في الإسلام؛ ثم لا تقبل التيارات اليهودية كلها المتحولين إليها.

كتب جوزف شوستر رئيس المجلس المركزي لليهود في ألمانيا على صفحة المركز على الإنترنت بمناسبة عيد حانوكا[3]: "بالنسبة إليَّ تحتوي الأسطورة رسالةً مهمة. لا يجلس المكابيون وينتظرون حدوث معجزةٍ ما تقوِّم كل شيء بطريقةٍ ما؛ لا، فهم يتميزون بالفعل والعمل". لكن لنعلم أن المكابيين كانوا أصوليين ومتعصبين دينيًا. لقد قادوا شعبهم إلى حرب ضد اليونانيين الذين كانوا حينذاك قوة عظمى، وفي النهاية كانت الكارثة بهلاكهم. لقد كان المكابيون في نظر اليونانيين عبارة عن "إرهابيين"؛ تمامًا كما هو أمر الفلسطينيين

(3) حانوكا أو حَنُكَّة هو عيد الأنوار اليهودي، يحتفل به اليهود لمدة 8 أيام ابتداء من 25 شهر كيسليف بحسب التقويم العبري (بين الأسبوع الأخير من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر والأسبوع الأخير من شهر كانون الأول/ ديسمبر)، وهو من الأعياد اليهودية الصغيرة وليس عطلة، يتميز بالامتناع عن الحداد والتعبير عن الحزن، والقيام ببعض الطقوس الدينية الخاصة. (المترجمة)

اليوم في عيون الإسرائيليين. وكذلك الفلسطينيون ما عادت تتملكهم الرغبة بعد الآن في انتظار معجزة. إنهم يقاتلون من أجل حريتهم واستقلالهم فحسب، كما فعل المكابيون سابقًا.

ربما يمثِّل عيد حانوكا الذي يستمر ثمانية أيام سنويًّا، الاحتفالَ بإعادة افتتاح المعبد الثاني في القدس في عام 164 ق.م.، الوقت المناسب لاسترعاء الانتباه إلى حقيقة أن حانوكا يرمز إلى التجديد الأساسي الذي مرت به اليهودية بعد الانتفاضة الطائشة للمكابيين وتدمير المعبد. وأتساءل هنا: لماذا لا يعرف السيد شوستر ذلك؟

لقد ولدت اليهودية بشكلها الحالي قبل 500 عام من التأريخ الميلادي في أثناء السبي البابلي لليهود. كما عاشت أغلبية اليهود سابقًا في مناطق خارج أرض إسرائيل (Eretz Israel)[4]، بحسب المصطلح التوراتي لدولة اليهود أو العبرانيين. لقد قطنوا بابل، والإسكندرية، وعلى طول الساحل الأفريقي للبحر الأبيض المتوسط، وقبرص ورودس وروما. كما عارض الحاخامات تمجيد وعبادة البطولة، وذلك بعد الكارثة التي حدثت في عام 70 م، والكارثة الكبرى التي اندلعت بعد سبعين عامًا الناجمة عن تمرُّد الرجل المغامر والمتعصب شمعون بار كوخبا[5]. لقد تجاهل هؤلاء الحروب والانتصارات التي حققها المكابيون وحوّلوا احتفال حانوكا إلى احتفالٍ ديني لا يركِّز على البطولة بل على معجزة الرب. وهنا شكَّلت المعجزة أهمية أكبر من الانتصارات العسكرية؛ ثم إنه لم يُدرَج كتاب المكابيين، الذي يصف الحروب والنصر، في الكتاب المقدس العبري. ولم يتغير هذا إلا بعد 1800 عام على يد كتّاب صهاينة، إذ وضعوا فيه الأبطال القدامى، ويهودا البطل، والمكابيين، وبار كوخبا - روبن هود اليهودي - تحت دائرة الضوء مرة أخرى. وقد أصبح هذا جزءًا لا يتجزأ من الميثولوجيا اليهودية، حيث يتم اليوم الاحتفاء في

---

(4) وهذا هو التعبير التراثي في الوصف الديني لأرض إسرائيل.

(5) كان شمعون بار كوخبا يهوديًا زعم أنه المسيح، قاد ما عُرف بثورة بار كوخبا ضد الإمبراطورية الرومانية في عهد الإمبراطور هادريان من عام 132 إلى عام 135م.

إسرائيل بـ "الانتحار الجماعي" لأولئك المتعصبين اليهود والمدافعين عن قلعة مسادا [مسعدة][6] باعتباره عملاً بطوليًا. من هنا لا نستغرب أن تُقسم أجيال من الشبان الإسرائيليين الذين يجندون على تلك الصخرة المقدسة على نحو منتظم ما يسمى "عهد مسادا" وذلك بالولاء لإسرائيل واليهودية. وبحسب هذا العهد: "مسادا، لن نسقط أبدًا مرة أخرى".

لقد كان اختراعُ الصهيونية أكبرَ ثورة في التاريخ اليهودي الحديث. لقد صنعت من تجمُّع ديني-إثني، أمةً جديدة حديثة وفقًا للنمط الأوروبي. ولتحقيق هذا الهدف، توجبت عليهم إعادة كتابة التاريخ اليهودي. هكذا، ومنذ ذلك الوقت، أصبحوا يمجدون أبطال الثورات التي قامت ضد اليونان وروما، وأما الكوارث التي حملها هؤلاء الأبطال لليهود فيجري تجاهلها وإخفاؤها[7].

ليس كل اليهود صهاينة، فاليهودية ديانة متنوعة وعالمية. كما أن الصهيونية تؤيد تفسيرات اليهودية الراديكالية الأحادية الجانب. وليست اليهودية محل اهتمام بالنسبة إلى بعض منهم إلا بقدر ما تمنحهم هذه الديانة شرعية دينية بشأن أرض إسرائيل. وفضلًا عن ذلك، إننا نجد الصهاينة المتدينين يأخذون من العهد القديم تلك الحقيقة المطلقة التي يرونها [أي] إن الرب منحهم، هم فحسب، هذه الأرض، ويعتبرون الكتاب المقدس كما لو أنه شهادة منحهم الرب إياها؛ في حين أن الكتاب المقدس هو أكثر من ذلك بكثير. فالعهد القديم هو، من ناحية، رواية مثيرة عن الشعب اليهودي، وخروجه من مصر، وغزو أرض كنعان (فلسطين)، وحروب وغزوات لا حصر لها، بيد أنه أيضًا كتاب ممتلئ بالقوانين الاجتماعية والأخلاقية والإنسانية. فمثلًا يعلِّم الكتاب المقدس قبول الأشخاص الغريبين ومنحهم جميع الحقوق التي تخص اليهود أيضًا.

---

(6) تقع قلعة مسعدة اليهودية في إسرائيل في الجانب الجنوبي الغربي من البحر الميت. وهناك في هذه القلعة التي بناها هيرودس، وقعت المعركة الأخيرة ضد الجيوش الرومانية لتيتوس الذي أصبح في ما بعد إمبراطورًا. وعندما أدرك المدافعون اليهود أنهم لا يستطيعون هزيمة الرومان الذين سيحتلون القلعة عاجلًا أم آجلًا، قتلوا أنفسهم جميعًا.

(7) Josephus Flavius, *Geschichte des Judischen Kriegs*

إن الكتاب المقدس لا يوثّق ملكية أرض ما، بل يسعى لتنظيم أمور التعايش السلمي بين الجميع. أما بالنسبة إلى الصهاينة، فإن الكتاب المقدس هو كتاب سجلٍ عقاري ينبغي الأخذ به حرفيًا. ولا ينصبُّ اهتمامهم على الأخلاق والعدالة والحقوق وإنما على حدود ملكية الأراضي. وكما قال أحد العلماء اليهود ذات مرة: "إما أن يؤخذ الكتاب المقدس بحرفيته أو يُتخذ بجدية".

يروي لنا سفر إستير أن اليهود تحولوا من شعبٍ مُضطَهَد إلى شعبٍ مُضطَهِد. لنقرأ ما جاء في الكتاب: "وَفِي الشَّهْرِ الثَّانِي عَشَرَ، أَيْ شَهْرِ أَذَارَ، فِي الْيَوْمِ الثَّالِثَ عَشَرَ مِنْهُ، حِينَ قَرُبَ كَلاَمُ الْمَلِكِ وَأَمْرُهُ مِنَ الإِجْرَاءِ، فِي الْيَوْمِ الَّذِي انْتَظَرَ فِيهِ أَعْدَاءُ الْيَهُودِ أَنْ يَتَسَلَّطُوا عَلَيْهِمْ، فَتَحَوَّلَ ذلِكَ، حَتَّى إِن الْيَهُودَ تَسَلَّطُوا عَلَى مُبْغِضِيهِم. اجْتَمَعَ الْيَهُودُ فِي مُدُنِهِمْ فِي كُلِّ بِلاَدِ الْمَلِكِ أَحَشْوِيرُوشَ لِيَمُدُّوا أَيْدِيَهُمْ إِلَى طَالِبِي أَذِيَّتِهِمْ، فَلَمْ يَقِفْ أَحَدٌ قُدَّامَهُمْ لأَن رُعْبَهُمْ سَقَطَ عَلَى جَمِيعِ الشُّعُوبِ... فَضَرَبَ الْيَهُودُ جَمِيعَ أَعْدَائِهِمْ ضَرْبَةَ سَيْفٍ وَقَتْلٍ وَهَلاَكٍ، وَعَمِلُوا بِمُبْغِضِيهِمْ مَا أَرَادُوا" [سفر إستير، الأصحاح 9: 1-5].

كم يبدو عصرنا اليوم مشابهًا لذلك الزمان، كما لو أن يهود ذلك الزمان قاموا مرة أخرى وهم يفعلون بخصومهم المزعومين كما يشاؤون. ففي وقت خطط فيه هامان[8] بالفعل لتدمير يهود الإمبراطورية، وقام بصنع حبل مشنقة لمردخاي، وفقًا لسفر إستير، فعلِّق هو عليه في النهاية، فإن التهم الموجهة ضد معادي السامية المزعومين اليوم لهي تهمٌ عبثية تمامًا وغبية. إننا نجد اليوم كيف يجري التعرض لأناسٍ ويُشهر بهم، كما لو أنهم مجرمون مطلوبون، لماذا؟ لأنهم يحملون رأيًا مختلفًا فحسب عن الصراع في الشرق الأوسط، رأيًا يختلف عن رأي نتنياهو أو ليبرمان أو هنريك برودر.

لقد حان الوقت لكي يتعلم الإسرائيليون وكثيرون من يهود العالم قبولَ مأساة الآخرين وعدم تجاهلها إلى الأبد. لقد حان الوقت ليتعلموا ويفهموا أن الهولوكوست تمثِّل المرحلة الأكثر مأساوية في تاريخهم والتي لن يُسمح

(8) لنتذكر أن هامان ومردخاي هما الشخصيتان الرئيسيتان في سفر إستير في العهد القديم.

بتكرارها أبدًا. لكن مرحلة "فحسب". لنعلم أن تاريخ اليهود لم يتوقف مع الهولوكوست، ولم تبدأ الهوية اليهودية مع أوشفيتز. يجب علينا كأفراد وكمجتمع التطلع إلى الأمام والكف عن التحديق إلى الوراء. وكما يعلّمنا الكتاب المقدس، فمن يوجّه نظره إلى الخلف يمكن أن يتصلب بشكل عمود ملح (سفر التكوين، الأصحاح 19: 26).

إن القصة التوراتية عن هروب لوط من سدوم هي قصة مجازية. وقد أراد علماؤنا الحكماء، الذين كتبوا الكتاب المقدس، تحذيرنا من النظر إلى الوراء، بل علينا النظر إلى المستقبل فحسب. وهذا هو بالضبط الذي هيكَل البراغماتية اليهودية وصاغها لقرون طويلة، ومكّن اليهود من البقاء في قيد الحياة. إلا أنهم، وفي أرضهم، فقدوا هذه الخاصية، فنجدهم يتطلعون دائمًا إلى الوراء، إلى الهولوكوست، وإلى الملك داود. لكن سأقول إن الملك داود شبع موتًا وبات لا يفيدنا اليوم بشيء، هذا إن صح القول بوجوده أساسًا. لقد نجا اليهود واليهودية من معتقل أوشفيتز واستطاعوا أن يكونوا أقوى بتجاوزه، كما كان الحال مع الكوارث الأخرى التي أصابتهم وتجاوزوها.

يجب إجبار الإنسان، أو تربيته، على فعل الخير؛ والأديان نفسها سعت منذ آلاف السنين لتربية الإنسان على الخير. لكن الإنسان حيوان مفترس أناني: فنجده متسامحًا ويعظ بالإنسانية حينما يكون مجردًا من السلطة والقوة فحسب. لكن في اللحظة التي يكسب فيها السلطة، فإنه يستخدمها أيضًا، لكن ليس دائمًا، لصالح الإنسانية.

11

برودر وبرومليك وشركاؤهما

يُعدّ هنريك برودر ظاهرةً في عالم الصحافة الألمانية. لقد قيل إنه، بعد تخرجه في المدرسة الثانوية، في عام 1966، درس القانون والإحصاء والسوسيولوجيا والاقتصاد والتربية وعلم النفس الاجتماعي، إلا أنه لم يفلح في دراسة كل هذه المجالات إلى نهايتها، فكان يقطع دراسته بها قبل أن يكملها. فأيُّ حفاوة كان سيلاقيها هذا الرجل فيما لو توصَّل إلى هدف من بين أهدافه هذه! كمتوسط، إذا ما حسب المرء العطل الدراسية، فسيكون الرجل قد أمضى في دراسة كل قسم من هذه الأقسام أربعة أشهر. لكن يتضح في النهاية أنه لا يستطيع القيام بأيِّ شيء سوى الكتابة. ومن دون حسد يجب أن نعترف له أنه يجيد الكتابة. وفي واقع الأمر لا يمكن أحدًا الكتابة عن موضوعة معاداة السامية بجدية في ألمانيا، من دون التطرق إلى أشخاص يحاولون إقناعنا منذ سنوات، من هم معادو السامية ومن هم ليسوا كذلك. كما لا يمكن التطرق في هذا البلد إلى معاداة السامية من غير التعامل كذلك مع أولئك الديماغوجيين والمحرضين والمتلاعبين، الذين يستفيدون أساسًا من تهمة معاداة السامية في تقويض أيِّ نقد ضد سياسة إسرائيل، وبالتأكيد لتحقيق مكاسب في التميز.

لا محال أمام المرء في هذا السياق الألماني من التوقف عند هذا الرجل: هنريك برودر، أحد أبرز اليهود شهرةً في ألمانيا. وقد صنف الرجل بحسب صحيفة يوديشه ألغماينه، في عام 2012، في المرتبة الخامسة بعد كلٍّ من قائد الأوركسترا الموسيقية دانييل بارنبويم، والمؤلفة شتيفاني تسفايغ، والمخرج داني ليفي، والناقد الأدبي الراحل مارسيل رايش-رانيكي.

لقد تعرَّف الجمهور الألماني إلى أوّل ضجة كبيرة لبرودر منذ 27 شباط/ فبراير 1981، حينما فجَّر حينذاك قنبلة من خلال مقالة أفردت لها جريدة

دي تسايت[1] صفحة كاملة يعلن فيها ابتعاده عن "أصدقائه اليساريين". إلا أن "رسالة الوداع" هذه لم تمثّل سوى شهادة تدل على حالة اليأس والإحباط التي كانت تتملكه. ولا يمكن المرء التكهن بما إذا كانت هذه القطيعة منه بسبب أصدقائه "اليساريين المعادين للسامية"، أم إنها هربٌ من والدته اليهودية التي كانت تحوم فوقه مثل سحابة مظلمة تحرس حياته وتراقبها.

يحاول برودر بكثير من الوقاحة والنفاق وعدم المبالاة، ومنذ ما يقرب من ربع قرن، تشويه وتشنيع أيّ انتقاد يطاول إسرائيل أو سياستها المدمرة وتصوير ذلك على أنه غير مقبول اجتماعيًا. أما أسهل الطرائق في ذلك فهي اعتبار النقد "معاداةً للسامية" والذي ينتقدُ شخصًا "معاديًا للسامية"، وهو الأمر الذي يؤدي في هذه الحال إلى عدم حاجة المرء إلى معرفة محتوى النقد أو نقاشه. وبرودر نفسه لا يعتمد تلك النقاشات الجدية، حيث يكفي أحيانًا التحدث عن إسرائيل فحسب؛ لكن إذا كان هذا الحديث لا يروقه، فمباشرة يُصنف خطابًا معاديًا للسامية.

من هنا هجومه على النقاد والصحف التي تقوم بطباعة ونشر الانتقادات التي تطاول إسرائيل، ليرميها بأبشع الألفاظ، وكله يقين بأن شيئًا ما من هذا سيؤتي ثماره. إنه يقود الحملات ضد الجميع، لا بل يطالبهم بمقاضاته إذا ما حطّ من شأنهم أو أهانهم. فهو يتصرف كجروٍ عظيم، ويتخبط في ذاته، وغالبًا بنحوٍ غير منتظم. أما عن الأضرار التي يسببها للمجتمع اليهودي ولديمقراطيتنا، فبالكاد يمكن إدراك حجمها.

لقد نعت برودر الناشر ياكوب أوغشتاين بأنه شخصٌ معادٍ للسامية وبأن له "سلاطة لسان معادية للسامية"[2]، بل أيضًا بكونه "شخصًا يعمل على إقناع الآخرين، ولم تتح له الفرصة للعمل في مكتب الأمن الرئيسي التابع للرايخ

(1) Henryk M. Broder, "Ihr bleibt die Kinder Eurer Eltern "und" Warum ich gehe," Die Zeit (27 February 1981).

(2) https://bit.ly/3r0jtV3

سوى بفضل ولادته المتأخرة". ووصفه غاضبًا بأنه "شترايخر الصغير"[3]، وكتب كذلك مطالبًا "أحث أوغشتاين على مقاضاتي"[4]. لكن بحق ماذا يجب على أوغشتاين مقاضاة برودر؟ لقد استطاع أوغشتاين تحمُّل هذه الإهانات وأراد ألّا يسدي له خدمة تُحسب لمصلحته.

يمتلك برودر أيضًا صوتًا عاليًا في ألمانيا يجول في خطابات رهاب الإسلام التي تهاجم الإسلام والمسلمين بحدة، هكذا نجده يحذِّر: "إن الخوف من الإسلام لهو خوفٌ مبرر كما هو خوفنا من الكوارث الطبيعية"[5]. وهل هنا يحق مقارنة دين عالمي مثل الإسلام بالكوارث الطبيعية؟ وفي أيِّ حال، لا نفاجأ لو كان هذا الكلام يصدر عن أحد نزلاء مأوى المجانين.

هنا يربط برودر على نحو مباشر بين القاعدة في العراق والانتفاضة في فلسطين والشبان الذين يُطلق عليهم اسم الشبان ذوي "الخلفيات المهاجرة في نيوكولن وموابيت" في الأحياء البرلينية. ووفقًا للمختصة بالعلوم الإسلامية نجلاء كيلك، فإن برودر يرى في كل اللاجئين أشخاصًا مشبوهين وينظر إليهم على أنهم مشروع إسلاميين محتملين[6]. أما مسألة أن الاستياء المعادي للمسلمين قد أثبت قدرته على ترسيخ نفسه ضمن المجتمع الألماني في السنوات الأخيرة، فهو أمر لا يرجع إلى جدارة برودر.

يكتب برودر في كتابه يا سلام، إننا نستسلم (*Hurra, wir kapitulieren*) الذي دخل قائمة الكتب الأكثر مبيعًا: "كما عززت سياسةُ التهاون تجاه هتلر موقفَ النازيين التوسعي، فإن الأوروبيين اليوم أيضًا وباتّباعهم سياسة التهاون نفسها يمشون في مسار خطر في تسريع تحويل أوروبا إلى قارة إسلامية". والحال أن من يكتب بهذا الشكل فإنه لا يدافع عن الثقافة الغربية ولا عن المجتمع

---

(3) https://bit.ly/3tWGGtd

[المقصود بشترايخر مؤسس صحيفة دير شتورمر النازية يوليوس شترايخر. (المترجمة)]

(4) https://bit.ly/3nXc9Qg

(5) https://bit.ly/3KUBxrN

(6) https://bit.ly/34SopyU

المدني، هذا فضلًا عن أن أنماطًا مماثلة من الكتابة تعزز الفضاءات المعادية للإسلام؛ تلك الفضاءات الآخذة في الانتشار على نطاق واسع، ليس في ألمانيا فحسب بل في جميع المجتمعات الأوروبية تقريبًا.

بالطبع، يستسيغ برودر أن يستشهد به العنصريون الأوروبيون الآخرون والمتطرفون اليمينيون، بل حتى الإرهابيون. خذ مثلًا القاتل النرويجي أندرس بهرنغ بريفيك (Anders B. Breivik) الذي استهل بيانه - المكون من 1500 صفحة - بوضع تاريخ 2083، بعد 400 عام على حصار الأتراك لفيينا. وفي هذا البيان نقرأ الجملة التالية: "بعد هزائم بواتييه (732) وفيينا (1683)، سيُهزم الأوروبيون الآن بسلاح الديموغرافيا" إلا أن هذه الجملة لم يكتبها بريفيك[7].

يحاول برودر صرف الانتباه عن العنصرية الإسرائيلية من خلال رسم صورة لتهديد إسلامي مزعوم يجب على اليهود وغير اليهود الخشية منه. وبطريقته اللاإنسانية نفسها في الحديث عن المسلمين، يتحدث برودر أيضًا عن منتقدي السياسة الإسرائيلية وعن الفلسطينيين. فهو يقول في ما يخص الفلسطينيين: "ليست مشكلة الفلسطينيين أنهم طُردوا وهجِّروا من أرضهم، بل إن طردهم لم يتم على نحو كافٍ"[8].

هنا يتساءل المرء هل تصرُّف برودر نابعٌ من دوافع وضيعة أم من غيرة وطنية أم إنه يتلقى أموالًا لقاء هذه التصريحات. وهذا بالطبع ليس بالأمر الغريب في ما يخص برودر. ويخبرنا الكاتب الكندي اليهودي فيكتور أوستروفسكي (Victor Ostrovsky) العميل السابق للموساد الإسرائيلي، في كتابه الصادر بالألمانية في عام 1996 **الملفات السرية للموساد: الأعمال القذرة للاستخبارات السرية الإسرائيلية**[9] أن هناك الملايين من الناس "المساعدين"

---

(7) https://bit.ly/331nNwt

طبعًا جرى الاستشهاد بهذا الكاتب الألماني برودر في "البيان" الإرهابي اليميني المزعوم لأندرس بهرنغ بريفيك.

(8) https://bit.ly/3r1E1xT

(9) Victor Ostrovsky, *Geheimakte Mossad. Die schmutzigen Geschäfte des israelischen Geheimdiensts* (München: Goldmann Verlag, 1996)

[بالعبرية: سعانيم] من الذين دعموا إسرائيل في عمليات سرية. وقد تشكَّل هؤلاء المساعدون من اليهود وغير اليهود أيضًا ممن عملوا، لأسباب وطنية أو لأسباب أخرى، عملًا متقطعًا مع الموساد أو مع المنظمات الصهيونية الأخرى. وقد تمثلت مساعدتهم بأن يضعوا خبرتهم واتصالاتهم بل حتى منازلهم، في الحالات الدقيقة، في خدمة الموساد. وفي خريف 1990 حاولت الحكومة الإسرائيلية في الولايات المتحدة الأميركية بأمر مؤقت حظر نشر كتاب آخر لأوستروفسكي من طريق الخداع: صناعة ضابط موساد *(By Way of Deception: The Making of a Mossad Officer)*. بيد أن هذا الطلب قوبل بالرفض من المحكمة العليا في أميركا.

مناسبة هذا الكلام أن برودر يذكِّرني بهؤلاء السعانيم، الذين يشكِّلون "جدارًا صحافيًّا" حول إسرائيل ويدافعون عن سياساتها ويعمون عن انتهاكات حقوق الإنسان.

من الممكن للمرء مقارنة السعانيم بالموظفين غير الرسميين الذين كانوا يمدون وزارة أمن الدولة في دولة ألمانيا الشرقية المعروفة [سابقًا] بالمعلومات أو كان لهم تأثير ونفوذ في أحداث أو في أشخاص، طبعًا من دون أن تكون لهم صيغة عمل رسمية لدى تلك السلطات. وأصبح تعداد المنتمين إلى هذا التنظيم ما يقارب 189.000 شخص. وبات هؤلاء الموظفون غير الرسميين يغطون كل قطاعات الحياة الاجتماعية لدولة ألمانيا الشرقية. وبهذا تشكلت إحدى أهم أدوات القمع الدكتاتورية لحزب الوحدة الاشتراكي في ألمانيا (SED). ولا يُستبعد أن يكون عدد السعانيم أضعافًا عما تقدمه هذه الأرقام في جميع أنحاء العالم.

لا تخفي إهانات برودر وسخريته خلفها سوى النية لإسكات منتقدي إسرائيل، ومن جانب آخر عدم التعامل مع هذا الانتقاد بأيِّ شكل من الأشكال. طبعًا لا ننسى أن برودر يلجأ دائمًا إلى أسلوبه نفسه: السخرية من النقاد والتنكر لهم، والضغط عليهم، والتهديد بالمحامين، وإرسال التحذيرات، وإنهاك المعارضين بعصبية حتى يستسلموا في النهاية.

وعمومًا، ربما يكون برودر مؤمنًا بالهراء الذي ينشره. لكن على الرغم من أنه يكتب على نحو جيد، فإن البروباغندا الشريرة النتنة التي يقدِّمها لنا لا تستحق المكافأة بجائزة تحمل اسم أحد أكثر الصحافيين صدقًا وأكثرهم نقدًا، بين من كتب بالألمانية؛ أقصد الكاتب والديمقراطي التنويري لودفيغ بورني الذي عاش بين عامي 1786 و1873، وهو في الأصل يهودي إلى أن تحوَّل إلى البروتستانتية، واسمه أساسًا لوف باروخ (Löw Baruch).

في هذا السياق اعتبر الناشر الألماني الفرنسي الكبير ألفرد غروسر قرار منح جائزة لودفيغ بورني في عام 2007 لبرودر "مهزلة وإهانة للإنسانية". وللتوضيح فإن فهم برودر لمعنى الحق والعدالة والإنسانية يقارب فهم كثير من الإسرائيليين الذين يعتبرون اصطلاحًا مُثل "الإنسانية" دليلًا على الإهانة والضعف. وبرودر نفسه يعدّ التسامح علامةَ ضعفٍ، كما يذكر في كثير من الكتب.

النقطة التي أود تأكيدها هنا أن برودر لا يعنيني في حد ذاته، بل ما يعنيني هو ما يرتبط بنا وبحريتنا. ليست المشكلة إهانات برودر أو سخريته بل حقيقة أن بعض الصحافيين، على ما يبدو، يتجنبون الكتابة والقيام بأمرٍ بسبب الخوف منه ومن ارتداده عليهم. وبالفعل، هذا ما قاله لي أحد الأكاديميين اليهود المرموقين عند سؤالي له عن عدم مواجهته تحريض برودر علانية، فكان رده بأنه يحاول عادة الابتعاد عن برودر خوفًا منه. برودر، والحال هذه، يمارس الإرهاب الصحافي ويرهب الصحافيين والكتاب والسياسيين. وقد عبّر ذلك الأكاديمي عن هذا بقوله: "أحاول الابتعاد عن برودر، لأنه إذا بصق، فإنه يبصق السم". حتى إن القضاة وأعضاء النيابة العامة يتجنبونه، لا بل نجدهم على استعداد لتحمُّل الإهانات بدلًا من مساءلته. ومن المحتمل أن يفهم هو هذه السطور بمنزلة إطراء له.

في الواقع لا أدري، في هذا السياق، عدد المرات التي شهّر بي فيها برودر باعتباري معاديًا للسامية أو من اليهود الكارهين أنفسهم. لقد قارنني مرة بهتلر، والشيء نفسه قام به مع مؤلف نجا من الهولوكوست، هو هايو ماير، مؤلف

كتاب نهاية اليهودية: سقوط المجتمع الإسرائيلي *Das Ende des Judentums. Der Verfall der israelischen Gesellschaft*). حيث كتب في أثناء وجودنا، أنا وهايو ماير، في مدينة لايبزغ الألمانية التابعة لمقاطعة سكسونيا "إن أبراهام وهايو يعملان على صناعة هتلر جديد للناس في لايبزغ"[10]. لكنني سأقول إن مقولات كهذه لو لم تكن غبية، لبعثت غالبًا على الضحك، علمًا أنه ليس هناك أغبى من ذلك، بيد أن أنصاره يُطرَبون ويصفقون لسماع هذا الكلام.

لا شك في أن تصريحات مدونته المضحكة، التي اختار لها شعارًا "لماذا الموضوعية، حينما تسير الأمور على نحو شخصي!" تنضح بالسخرية، إن لم نقل أيضًا بازدرائه للبشر الفائق التصور. وإحدى مقولاته الشهيرة: أن يكون المرء جانيًا، لهو أمر يبعث "على المتعة" أكثر من أن يكون ضحية، وهي مقولة لا تخرج بالفعل إلا من عباءة الاشتراكيين القوميين النازيين العفنة.

حقًّا، لقد ارتكبنا أنا وهايو ماير خطأ حينما قمنا بمقاضاة برودر. وكم كنت أتمنى لو امتلكت الهدوء الذي يحمله يورغن تودنهوفر وياكوب أوغشتاين، اللذان لم يقعا في فخ برودر وتركا اتهاماته تتبدد وحدها ولم ينحدرا إلى مستواه. وقد كان رد أوغشتاين الخشن هو: "يجب أن يتمتع برودر بالحرية للوم نفسه، كما يرغب هو".

نشير هنا أن في عالم برودر تتم صناعة معادي السامية كما تمت سابقًا صناعة الهراطقة والزنادقة من جانب محاكم التفتيش و[صناعة] السحرة من جانب مطارديهم. على المنوال ذاته، يحدد برودر أيضًا من يعتبره ساحرًا أو من هو المعادي للسامية. لكن بسبب عدم استطاعته حرق كل معادي السامية المزعومين في محرقته، كما كانت تفعل ذلك محاكم التفتيش سابقًا مع الكفرة المزعومين، فإنه يحاول التخلص منهم بطريقته الخاصة. إنه يتعامل مع اصطلاح معاداة السامية بإسراف وتبذير شديد إلى درجة غدوّه عملة رخيصة، بالكاد له تأثيره الملائم.

---

(10) https://bit.ly/3ICzBCS

مع كل ذلك يحب برودر أن يقدِّم نفسه على أنه مثال أخلاقي. فقد كتب في آب/أغسطس 2016 في جريدة دي فلت أن القصف الذي تتعرض له مدينة حلب لهو بالنسبة إليه "أسوأ من أوشفيتز". يا لها من صرخة! لكن لو أن شخصًا آخر من معاصريه قد نطق بذلك لانهالت عليه الاتهامات ونال نصيبه لذلك من برودر. ونجده يحذِّر السياسيين وممثلي الكنيسة: "لا يمكن أن يقول أحد إن هذه المجزرة قد حدثت بعيدًا من أعين الناس"، وهو بذلك يثبت أيضًا أن الحكم الجيد أكثر أهمية من اكتساب المعرفة أو التحليل الدقيق. لكن لا ننسى أن هذا الكلام ينطبق أيضًا على المجازر الإسرائيلية التي حدثت في شتاء 2008-2009 وصيف 2012. لكن من يقرّ بالعدالة للسوريين، ومعهم أيضًا للفلسطينيين، لهو شخص "معادٍ خالص للسامية".

من بين من تعرضوا لهذه التهمة الأخيرة من طرف برودر عضو البرلمان الألماني، اليسارية إينغه هوغر، التي وُصفت أيضًا بأنها "معادية خالصة للسامية"، وأيضًا القناة الألمانية الثانية (ZDF) بأنها "قناة معادية للسامية"، و"تحوِّل الأطفال إلى معادين للسامية"، لماذا؟ لأنها تكتب تقارير عن التظاهرات المعادية لإسرائيل فحسب. الأمر لم يقف عند هذا الحد، بل طاول أيضًا أشخاصًا كثرًا بأنهم بلهاء، من الناشطين في مجال حقوق الإنسان، والمخرجين، والموسيقيين، والراقصين، والفنانين، والمترجمين، والأكاديميين، ومغني الراب، ومنسقي الموسيقى من المجموعة التي تتكون من أكثر من 400 فنانٍ وقّعوا رسالة مفتوحة ضد الحرب في غزة، في عام 2014.

حتى الممثل الكوميدي ديتر هالرفوردن وُصِف بأنه "فنان غبي معادٍ للسامية"، ووُصف يورغن تودنهوفر بأنه "أبدي في عدائه للسامية"[11]، وجريدة تاغستسايتونغ بأنها جريدة "شتورمر الصغيرة"[12] [الجريدة النازية]، وجريدة زودويتشه بأنها جريدة "تعمل على رعاية معاداة السامية". وبرودر يعتبر ذلك أمرًا عرضيًّا: "فلأن هؤلاء لم يمضوا في إكمال الحل النهائي [في القضاء على

(11) https://bit.ly/3tZVpDt

(12) https://bit.ly/3lD9miY

اليهود]"، فإن الألمان مصابون بالصدمة. ومثال آخر على أساليبه هذه ما حدث مع رئيس الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني زيغمار غابرييل حينما تجرأ وانتقد إسرائيل، فما كان من برودر إلا أن وصفه بـ"الخنزير الذكي"[13]. ومن ثم يتوجه إلى قرائه معلمًا إياهم أن "إحياء ذكرى جرائم النازية يخدم حاليًا التحضير على نحو دعائي لمسألة الحل النهائي التالي للقضية اليهودية في الشرق الأوسط"[14]. وفي هذا المسار لا نجده يفعل شيئًا.

إنني أؤكد أن علينا التحلي بالقدرة على النقاش بعضنا مع بعض من دون إلقاء اتهامات بمعاداة السامية مباشرةً؛ ذلك أن الإدانة بتهمة معاداة السامية يمكن، لا بل من المؤكد، أن تعرّض حياة الناس للخطر وتعزلهم اجتماعيًا. وهذا ما يمكن قراءته في محاولات طاولت أناسًا مرموقين مثل غونتر غراس (Günter Grass)، ومارتن فالزر، ويورغن تودنهوفر، وألفرد غروسر، ولكن أيضًا أناسًا عاديين كثرًا لا يجيدون الدفاع عن أنفسهم جيدًا في مقابل الاتهامات ضدهم.

لقد صرح برودر مرة أن "معاداة السامية هي جزء من الحمض النووي الصبغي (DNA) للألمان، كما هو حبهم للبيرة"[15]. بالطبع إن تصريحًا كهذا يمثّل افتضاحًا مشينًا هائلًا، وأقول افتضاحًا ليس بسبب عمن يصدر، بل بسبب قبوله بصمت، ولا سيّما من الجانب اليهودي. ربما لا يعطي المرء هنا هذه التصريحات الطائشة اهتمامًا، بل يتجاهلها لكيلا يمنحها قيمة أكبر عند الحديث بها. إلا أنها تبقى أقوالًا شائنة. ولا ننسى أن أفكار برودر تعتمد على ما يخدم مصلحته بحسب اللحظة. وفي آب/أغسطس 2016 كتب الرجل في جريدة دي فلت: "لن ولا يمكن تكرار ما حدث في معسكر أوشفيتز". وقبلها بوقت قصير، في شباط/فبراير 2015، كتب في الجريدة نفسها: "إن ما نعايشه ونشهده راهنًا لا يعبّر عن نهضة للحياة اليهودية في أوروبا وفي ألمانيا، بل يعبّر

---

(13) https://bit.ly/3FVqJ8N

(14) https://bit.ly/3KIjhlb

(15) https://bit.ly/3rSz1JE

عن نهايتها. إنها حقًا انتهت". ربما يتساءل المرء هنا عما تعنيه مفردة "النهاية"؛ لكنها على ما يبدو تعني "تلك أوقات المحميات"[16] (Schonzeit).

يتمثل أحد تحريضاته كذلك بأن ما سنلاقيه سيكون أسوأ مما هو عليه الآن، فما نشهده ليس سوى مقدمة لما سيأتي لاحقًا. فقد تحدَّث في أثناء كلمة تكريم في جائزة مارسيل رايش-رانيكي عن "الحل النهائي الثاني" مقتبسًا ما كتبه هاينرش هاينه "لا يمثِّل هذا سوى مقدمة؛ فحيثما يتم حرق الكتب، يتم في النهاية حرق البشر". ليس غريبًا هنا مطالبة صديقه أيديولوجيًا ميشا برومليك بالقضاء على كتبٍ ما، خذ مثلًا مطالبته دارَ النشر زوركامب (Suhrkamp) بعدم توزيع كتاب تيد هوندريش (Ted Honderich) **ما بعد الإرهاب** (*Nach dem Terror*). وهنا ماذا كان على دار النشر هذه أساسًا فعله غير ذلك أي سحب الكتاب من التداول؟ أمّا برودر، فقد رأى صحة هذا الإجراء.

لقد طاول لسانه في السخرية حتى اليهود الذين يتصرفون وكأن شيئًا لم يحدث لهم ويستمرون في حياتهم و"عملهم كالمعتاد"؛ فيتهمهم بالخوف من "خيار الذهاب إلى إسرائيل"؛ لكن طبعًا هو ذاته لن يذهب إلى إسرائيل لأنه على دراية كاملة بما ينتظره هناك، حيث سيكون شخصًا نكرة.

طبعًا لا ننكر وجود أشخاص يبدِّلون مواقفهم دائمًا. لقد خرجتُ منذ ما يقرب جيلًا فحسب إلى الشوارع مع هنريك برودر ضد العنصرية في جنوب أفريقيا وتظاهرت معه من أجل إطلاق سراح نلسون مانديلا. بيد أنني أرى اليوم أن برودر سينعت حتى مانديلا بأنه شخصٌ معادٍ للسامية لأنه تجرّأ فحسب واتخذ موقفًا مؤيدًا لحرية الفلسطينيين.

هنا نجد كيف يسري الشعار الذي يتبناه الصهاينة المحترفون أمثال برودر: إنه هو من يحدد من هو الشخص المعادي للسامية. حيث تتمثل وظيفة هؤلاء بالعمل على نزع الشرعية عن أيِّ نقد لإسرائيل وتقويضه وجعله نقدًا غير قابلٍ

---

(16) 15.08.2000 achgut.com. Der Schmock der Woche. Günther Rühle und das Ende der Schonzeit.
[أي الأوقات التي تحمى فيها الحيوانات ويُمنع اصطيادها. (المترجمة)]

للتصديق. وهذا ما يقومون به من خلال الشتم وتشويه سمعة هؤلاء المنتقدين. لكن لنعلم أن معادي السامية الحقيقيين لا يهمهم هؤلاء. ولا ننسى أن برودر نفسه قد طالب بوجوب السماح للمرء بأن ينكر الجرائم النازية في معسكر أوشفيتز. أما أن يتوجه الأمر إلى نقد إسرائيل، فهو ما لا يرضيه.

إضافة إلى ذلك، تجدر الإشارة إلى حقيقة أن معادي السامية المزعومين في مدونته التي يطلق عليها "محور الخير"، يُصنفون تصنيفًا مختلفًا تمامًا عن العنصريين العاديين؛ كما لو أن كراهية اليهود أسوأ من أيِّ شكل آخر من أشكال العنصرية.

نشير سريعًا كذلك إلى أنه عندما حصلت الفيلسوفة اليهودية البارزة جوديث بتلر، التي دعمت "المقاطعة وسحب الاستثمارات والعقوبات" ضد إسرائيل، على جائزة أدورنو (Adorno-Preis) في عام 2012 في مدينة فرانكفورت، ثار غضب كبير في صفوف المنتمين إلى معسكر الصهاينة المتطرفين والمتعصبين لإسرائيل. وقد اشتكى بعضهم من منح بتلر جائزةً تحمل اسم أهم شخصية ناقدة لمعاداة السامية. بالضبط، لهذه الأسباب، حصلت هي على هذه الجائزة. فقد كانت هذه المرأة معارضة دائمة لكل شكل من أشكال الكراهية البشرية، وهو الأمر الذي لا ينطبق على كثيرين.

وهناك صحافي يدعى بنيامين واينتال من صحيفة جيروزاليم بوست يقف بحزم في صف إسرائيل ويتهم كل الأشخاص المحتملين بمعاداة السامية ما إن يتفوهوا بكلام ضد إسرائيل على نحو موضوعي وصحيح بسبب جرائم الحرب التي ترتكبها. والآن نجد هذا الصحافي يتفوق حاليًا على برودر في الحقد والسخرية والبدائية. ومن خلال عمله كصحافي يمارس ضغوطًا يمكن اعتبارها ابتزازًا، حيث يجبر مدنًا وجمعيات وشخصيات بتهديداته السافرة على إلغاء فعاليات أو احتفالات أو توزيع جوائز تُعتبر بالنسبة إليه غير مقبولة.

كما يميز برودر بين العشرات من الأنواع المختلفة لمعاداة السامية، حتى ليمكن القول إنه أوجد علمًا خاصًا بهذا، أي علم معاداة السامية، أو بالأحرى صنع من ذلك دينًا ونصَّب نفسه كاهنًا أعلى له. لنقرأ مثلًا من هذه الأنواع

بحسب تعريفاته، ثمة أشخاص مؤقتون معادون للسامية وهناك أشخاص معادون للسامية بحكم العادة، كما يوجد أشخاص معادون للسامية لديهم حياءٌ وآخرون معادون للسامية بلا حياء، كما نجده يفرِّق بين الأشخاص الذين يجهرون بمعاداتهم للسامية بعد ترك عملهم وآخرين يضمرونها سرًّا، وهناك أيضًا الأكاديميون المعادون للسامية، وهؤلاء الأكاديميون يقومون بتطبيق ما يُبحَث فيه... إلى ما هنالك. والسؤال الآن: أليست كل معاداة للسامية هنا مشابهة للأخرى بالنسبة إليه؟ أما عاد يؤمن بالهراء الذي كان يبحث فيه ذات مرة؟ بالطبع يبدو هذا الأمر مضحكًا ومبتكرًا، إلا أننا يجب أن نأخذه على محمل الجد، ذلك أنه لا يرتبط إلا بتدمير وجودنا وقمع خطاب شرعي وضروري سياسي في هذا البلد.

إن أعلى مرتبة لمعادي السامية بالنسبة إلى برودر هي تلك التي أتينا عليها سابقًا "معادو السامية الخُلّص"، أيًا يكن المعنى الذي يعنيه بذلك. لكن بينما نجده يعتقد أن هذا ينطبق على معادي السامية الذين يعتبرون معاداة السامية اختراعًا يهوديًا محضًا، فإنه في الواقع يطبِّق هذا "اللقب الشرفي" [معادو السامية الخُلّص] تقريبًا على من يجرؤ على نقد إسرائيل؛ ولنلاحظ هنا، نقد إسرائيل، وليس اليهود. وهذا فرق مهم. مثلًا اتهم برودر، قبل سنوات عدة، أحد الصحافيين بمعاداة السامية حينما كتب عن ظاهرة ازدياد الانتحاريين في إسرائيل. وعمومًا، ليس برودر في النهاية شخصًا مبدعًا ومرهفًا في اختراع هذه الإهانات.

وعلى الرغم من أنه نفسه كان من أوائل الذين كتبوا في ألمانيا عن "صناعة الهولوكوست" وصاغوا اصطلاح "تجارة الهولوكوست" (Shoah-Business) ("ليست هناك تجارة تشابه تجارة الهولوكوست")، فإنه يهاجم كل من يتجرأ على التفوه بأن إسرائيل تسيء إلى الهولوكوست وتستغلها لأهدافها.

هنا نشير إلى ما نشرته جريدة زودويتشه تسايتونغ في أيلول/ سبتمبر 2014 عن مشاركة مهمة للمؤلف اليهودي الألماني دافيد رانان (David Ranan) في

"صمت الشتات" (Das Schweigen der Diaspora)[17]. وكان رانان نفسه قد كتب في كتابه ظلال الماضي المستمرة (*Schatten der Vergangenheit sind noch lang*) بعد سؤال [فئة] الشباب اليهودي عن حياتهم في ألمانيا: "هل بات أمر الدفاع عن السياسة الإسرائيلية وأفعالها وحملاتها العسكرية من مهمات المجلس المركزي لليهود في ألمانيا؟ أم إن المجلس غير ملزم بتوضيح أن تمثيل اليهود الألمان لا يمكن أن يكون جهة مسؤولة في المسائل المرتبطة بإسرائيل؟".

حتى ملاحظة بسيطة كهذه، بالكاد تشي بالنقد، بدت لبرودر كما لو أنها متراس. وفعلًا إنه لأمر يدعو إلى التعجب ما يدفع برودر إلى إهانة شخص لا يعرفه عمومًا، بسبب رأي مخالف يتبناه فحسب. فالرجل لا يتلكأ في التعليق: "من أين تأتي جريدة زودويتشه دائمًا بالأشخاص الحمقى المفيدين؟". حقًا، إن تعليقات ساخرة وخبيثة كهذه هي ما يميز برودر، بل إنها كيد يرتد عليه، فهو الأحمق المفيد للدعاية الإسرائيلية في نهاية الأمر. ولمن الجيد أن الصحف الألمانية الرائدة والمجلات المعروفة ما عادت تعير بالًا لهذا الشخص الرجعي الساخر الكاره للإسلام، وما عادت تمنحه منصةً يبث منها سخريته وتهكمه.

من يعرف هنريك برودر اليوم لا يكاد يصدق أن هذا الشخص هو نفسه الذي كتب في مجلة فراي يوديشه شتيمه (*Freie Jüdische Stimme*) [الصوت اليهودي الحر] في أيلول/ سبتمبر 1979 رسالة مفتوحة وجّهها إلى رئيس وزراء إسرائيل حينذاك "مناحيم بيغن المحترم" وانتقد فيها سياسته بأنها "سياسة خاطئة وخطرة". هكذا نجده قد كتب في الرسالة: "من حق يهود الشتات أن يوجّهوا توقعاتهم، وربما مطالبهم إلى إسرائيل بالمقدار نفسه الذي تعول به إسرائيل على تضامن اليهود في الشتات معها". والرجل يكمل: "لقد أضاعت إسرائيل فرصة كبيرة لإظهار المسألة للعالم، خصوصًا للدول العربية التي يجري فيها اضطهاد وقمع الأقليات، بشأن إمكان وجود دولة يهودية يتم فيها تجنب الأخطاء التي يعانيها هي نفسها يهود الشتات". بالطبع يمكن المرء تغيير رأيه هنا، حتى لو كان هذا نحو الأسوأ.

(17) https://bit.ly/3H3Mchc

ليس بإمكاني الكتابة أفضل من ذلك؛ وللأسف لا يمكنني الاقتباس من هذه الرسالة أكثر من ذلك، وإلا سيقوم برودر بمقاضاتي لانتهاك حقوق النشر الخاصة به. لكن من يهمه هذا الأمر يمكنه الاطلاع على العدد الثالث الصادر في شهر أيلول/ سبتمبر 1979 من إصدار فراي يوديشه روندشاو (*Freie Jüdische Rundschau*) أو العدد الرابع من مجلة سيميت لعام 1989. وهنا سيجد المرء أيضًا رسالة مفتوحة أخرى من برودر موجهة إلى صديقته ليا فلايشمان (Lea Fleischmann) التي تركت ألمانيا على نحو صاخب مع كتابها **هذه البلاد ليست وطني** (*Dies ist nicht mein Land*). وهنا نجده يطالب "بمزيد من حسن السلوك، لا أن يشرح للشخص الذي يشير إلى القذارة أنه المسبب للقذارة، وأن يعتبر وصفه للقذارة الشرَّ الحقيقي بدلًا من التركيز على القذارة نفسها".

كل هذا كان قبل رحلته إلى إسرائيل. أما اليوم فهو لا يملك للأسف حسن السلوك هذا لكي يترك بسلام أولئك الناس الذين يشيرون إلى ظلم إسرائيل، وبدلًا من ذلك يقوم بالتشهير بهم من خلال القذارة. لقد غدا الرجل، بعد عودته من إسرائيل بعد عشر سنوات، قوميًا متشددًا، لا يرغب حتى في معرفة ما كان يحمله سابقًا من تلك الآراء التي انقلبت بعد ذلك. سأسأل هنا: ما الذي حدث؟ أين وكيف حدث ذلك التحول معه؟ ثم هل كان يؤمن بما كان يكتبه سابقًا؟ وهل يؤمن بما يكتبه راهنًا؟ أيًا يكن الأمر: فإن الأمر الأساسي هو أن الآخرين يؤمنون بذلك.

يؤدي برودر منذ سنوات دور المهرج اليهودي، وطبعًا لاعتقاده بأنه من خلال هذا الدور يمكنه تمرير الإهانات والهراء. وبالفعل، فقد تمتَّع المهرجون في العصور السابقة بحرية التهريج في داخل أروقة بلاط الملوك والأمراء المسيحيين الغربيين، وكان يُسمح لهم بالجلوس إلى موائدهم والأكل من بقايا طعامهم، لا بل حتى بالتبول إلى جانب العظماء والكبار. وبرودر اليوم يصنع من نفسه اسمًا في مجال هذه الأنماط من التهريج بين الصحافيين والأقوياء، حيث يتم استخدامه وعرضه دائمًا حينما تكون هناك رغبة في تقديم أحد "الأغبياء المفيدين".

شتيفان آوست (Stefan Aust) هو أحد أصدقاء وزملاء برودر منذ أيام مجلة زانكت باولي ناخريشتن (*St. Pauli-Nachrichten*) في ستينيات القرن الماضي، وأصبح في ما بعد بين عامي 1994 و2008 رئيس تحرير المجلة الإخبارية دير شبيغل، ومنذ عام 2014 أصبح ناشرًا مساعدًا في صحيفة دي فلت. أما برودر فقد عمل بين عامي 1995 و2010 لدى دير شبيغل، ومنذ عام 2011 يعمل في صحيفة دي فلت. وعندما ترك صديقه وحاميه العمل في دير شبيغل، لم يَمضِ وقت طويل حتى ترك برودر أيضًا وظيفته فيها. وبعد وقت قصير تولّى شتيفان آوست الإشراف في دي فلت. إنني أشير إلى هذه المعلومات كي أنبه إلى تلك الروابط بين هاتين الشخصيتين، لكن من يقول بارتباطات مماثلة، سيكون بالطبع شخصًا سيئًا.

عمومًا، إن قائمة الصحافيين والكتّاب والسياسيين والممثلين الذين يهينهم برودر طويلةٌ جدًا. وليس من الغريب أن يجد المرء فيها أسماء الكل تقريبًا من الصحافيين البارزين في ألمانيا، فضلًا عن مؤسسات إعلامية تلفزيونية مثل الهيئة العامة للبث الإذاعي والتلفزيوني (ARD)، والقناة الألمانية الثانية، أو صحف ومجلات مثل زودويتشه ودي تاغس، لا بل حتى المجلس المركزي لليهود. طبعًا برودر لا يحسب مقاضاتَه مشكلةً، لأن هذا الأمر إذا حدث، وأحيانًا يحدث، فلديه ما يكفي من الزبانية الرعاة الذين يتولون قضايا الأجور القضائية وأجور المحامين. وهو نفسه أقرّ بهذا حينما سُئل ذات مرة [فقال] "عدد من الداعمين يساعدونني في تسوية التكاليف القانونية، وذلك لإعجابهم بما أقوم به"[18]. وهنا نتساءل هل "وزارة الشؤون الاستراتيجية والدعاية" الإسرائيلية مشمولة ضمن هؤلاء الداعمين، ذلك أن هذه الوزارة، وهذا مما لا شك فيه، ستحب ما يفعله برودر.

لقد تعرّض برودر في السنوات الأخيرة لعدد من المحاكمات بسبب الإهانات، في بعضها كان مُدعًى عليه وفي الأخرى كان هو المدعي. وإضافة

(18) ما عاد الرابط لهذا الحديث من برودر متوافرًا على الإنترنت، لكن يمكن التثبت منه من بعض الصفحات الأخرى، مثلًا: https://bit.ly/3s8N91N

إلى ذلك، تلقّى، وأحيانًا أرسل، كثيرًا من التحذيرات، فضلًا عن خسارته كثيرًا من المحاكمات، وهو الأمر الذي لا يُخجله في أيِّ حال. وفي إحدى المحاكمات في فرانكفورت نعت برودر القاضي بأنه من "ورثة شركة فرايزلر" (Freisler)، وسخر بأن هؤلاء "الورثة" هم الآن يقررون في معاداة السامية.

لكن أشير هنا إلى ناحية؛ فالقضاء يتسامح هنا في ألمانيا في ما يخص قضايا حرية التعبير وفقًا للمادة الخامسة من الدستور، لكنني أجد هذا التسامح مفرطًا أحيانًا. خذ مثلًا رفض المدعي العام في برلين فتحَ دعوى جنائية ضد ناتان غلبارت، وهو محامي ومدير منظمة كيرين هايسود (Keren Hayesod) الصهيونية [الصندوق التأسيسي] في برلين، رغم أن هذا الرجل قد تجاوز كل مستوى محتمل من الجدل حينما ادعى في جريدة يوديشه ألغماينه في نيسان/ أبريل 2015 في ما يخص "المؤتمر الفلسطيني في أوروبا"، أنه: "تقام في وسط برلين منصة لمعادي السامية والقتلة".

وفي رسالة مؤرخة في 21 كانون الثاني/ يناير 2016، كتبها إليّ مكتب المدعي العام في برلين: "يجب أن تُفهم التصريحات بأنها تمثِّل على نحوٍ واضح أحكامَ قيمة، وينبغي ألا تُفهم حرفيًا على أنها إهانة أو سوء معاملة. فهي تخدم النقاش في هذه المسألة ولا تهدف في المقام الأول إلى التشهير. لا بل إن النقد الجدلي والمبالغ فيه ضد الفعالية كان يهدف أساسًا إلى نقاش واقعي لقضية سياسية". هكذا إذًا. هل يُسمح بوصف فعالية شارك فيها أكثر من 10,000 فلسطيني، بمن في ذلك عائلات مع أطفال، بأنها منصة لـ "معاداة السامية والقتلة"، ثم يقول لي مكتب المدعي العام في برلين إن هذا "نقاش واقعي"؟ هل الأمر حقًّا يعكس بعضًا من جبن المحاكم وبعض القضاة في ألمانيا لأسباب تتعلق بضميرهم التاريخي السيئ [تجاه ما أحدثته النازية الألمانية] أم لأسباب مهنية بحيث يظهرون لنا تحفظًا وتمنعًا خاطئًا؟

في إحدى المحاكمات، التي كنت شاهدًا فيها، سخر برودر من المدعي العام بإخباره أنه زار مرة معتقل أوشفيتز وقال له: "لقد كنت مؤخرًا في أوشفيتز أيضًا، وأفضل مكان أعجبني هناك هو الكافتيريا".

لا أدري عدد المحاكمات التي أقيمت لبرودر. إلا أن الأضرار جراء ذلك لم تجعل منه شخصًا أكثر ذكاء، بل على العكس. ففي آب/ أغسطس 2014 نشر كتيبًا يهاجم فيه ديتر هالرفوردن جاء فيه: "ديدي، أيها الممثل البارع، إنك تمثِّل نموذجًا لمعادي السامية في ظاهرة ما بعد النازية. لكن تعال وقاضِني، لا بل إنني أستطيع نصحك بأحد المحامين المختصين بالدفاع عن معادي السامية. هيا أطربني بالسعادة أيها الأحمق"(١٩). إلا أن هالرفوردن أثبت هنا أنه أكثر ذكاء منه.

لكن ما يُدهِش هو عدد الأشخاص المرموقين الذين أهانهم برودر والقلة منهم الذين ساقوه أمام المحاكم، طبعًا رغم قدرتهم على تحمُّل تكاليف المحامين. لكن من الواضح أن أيًّا منهم لا يرغب في الانحدار إلى مستواه.

أذكر أن تودنهوفر اقتبس مرة من ألفرد غروسر مقولة "من يريد التخلص من هتلر، يجب عليه الدفاع عن الفلسطينيين"، وأوضح لنا أن هذه المقولة صدرت عن يهودي. لكن لا نستغربن أنها مقولة قضّت مضجع برودر، فبات لا يستطيع النوم وهو يفكر لأسابيع طويلة كيف يمكنه جعل تودنهوفر يدفع ثمن هذا الكلام. وفي نهاية الأمر جعل محاميه ناتان غلبارت يكتب ردًّا قاسيًا(٢٠) لمحامي تودنهوفر: "إن كان الأمر يساعدك فإنني أنصحك بإجراء اختبار أساسي يتم التعرف من خلاله إلى الشخص المعادي للسامية. فالشخص المعادي للسامية لديه 'أصدقاء يهود' يفضِّل دائمًا الاستشهاد بهم، لأنه من خلال هذا يثبت أنه ليس معاديًا للسامية، وبالأخص أكثر حينما يود 'التخلص من هتلر' بغية تحرير نفسه من تأنيب الضمير وعبء التاريخ". وكم هو مؤسف هذا الكلام.

طبعًا تهجمات برودر مؤذية؛ وأحيانًا نجده يتشبث بضحاياه كما لو أنه جرو مسعور. كما حصل مع لودفيغ فاتزال، الموظف في الوكالة الاتحادية للتعليم

---

(19) "Die Achse des Guten" (2/8/2014)

(20) "Die Achse des Guten" (18/12/2013)

السياسي، والذي غدا هدفًا لبرودر لملاحقته شهورًا وسنوات. فقد استمر برودر يرسل رسائل إلى رئيسه في العمل توماس كروغر وإلى وزير الداخلية يطالب فيها بإقالة فاتزال من عمله. صحيح أن برودر لم ينجح في مساعيه تلك، إلا أن فاتزال باعتباره عالمًا سياسيًا لاقى مع سمعته كثيرًا من المعاناة جرّاء برودر.

أيضًا فيليسيا لانغر، المديرة السابقة لرابطة حقوق الإنسان الإسرائيلية، كانت قد تلقّت في تموز/يوليو 2009 وسام الاستحقاق الفدرالي الألماني من الدرجة الأولى تقديرًا لمسيرة عملها. ولم يختلف الأمر، فقد قوبلت الجائزة هذه بانتقادات حادة من المجلس المركزي لليهود في ألمانيا واللجنة الأميركية اليهودية والجمعية الألمانية الإسرائيلية. هكذا نجد النائب السابق لرئيس المجلس المركزي لليهود يتهم لانغر بأنها تعمل على نحو "مهني ومزمن ومهووس على شيطنة إسرائيل". لا بل حتى هناك صحافيون يهود ألمان أمثال رالف جوردانو، وأرنو لوستيغر، وأرنو هامبرغر، تعهدوا بإرجاع وسام الاستحقاق الألماني إذا لم يتم التراجع عن تكريم لانغر. وفي نهاية الأمر لم يلتزم هذا التعهد سوى أرنو هامبرغر.

البروفسور فولفغانغ بنتس، المدير السابق لمركز بحوث معاداة السامية في برلين، تعرَّض أيضًا للمضايقات والشتم من برودر طوال شهورٍ وسنوات بسبب تجرئه على مقارنة رهاب الإسلام اليوم بمعاداة السامية بالأمس. من هنا ليس من الغريب أن يجبر برودر منتقدي السياسة الإسرائيلية المحتمَلين على أن يكونوا حذرين جدًّا في صياغاتهم وأن يدققوا في كل كلمة خوفًا من التهديد والعقاب، حيث يُخشى فعلًا أن تصلهم منه التحذيرات، طبعًا بينما يشعر هو بالحرية المطلقة في اختيار إهاناته.

كما أنه لا يخجل من إساءة المعاملة. فقد كتب في عام 2014 في مدونته عن شخص يدعى بودو راميلو بأنه ليس من الواضح ما إذا كان هذا الرجل "معاديًا للسامية أم بليدًا أحمقَ يلهث لأقل الأسباب". ويعلق [المحلل النفسي]

هورست إبرهارد-ريشتر: "تحليل نفسي على مستوى تنظيم القاعدة"[21]. أما نوام تشومسكي، بالنسبة إلى برودر، فإنه يحمل "ذاتًا إطلاقية"[22]، وحتى رجل الدين اللاهوتي البروتستانتي، القس والصحافي يورغ تسينك، أحد أفضل المتحدثين الرسميين عن حركة السلام والبيئة، لم يسلم من لسانه، فقد قال عنه مرة: "شخص نازي قديم بلباس لاهوتي"[23]، ذلك أن تسينك أعرب عن تفهمه وتعاطفه مع دوافع الانتحاريين الفلسطينيين.

طبعًا القائمة هذه تطول. ويمكن إضافة أسماء كثيرة أيضًا إلى جانب خبراء في الشرق الأوسط. مثلًا، بيتر شول-لاتور، وميشائيل لودرز، وأودو شتاينباخ، وفولكر بيرتس، وأولريش كينسله، وسوزانا كناول، وغونتر ماير، وكارين لوكفيلد، ويورغ أرمبروستر. فهؤلاء بالنسبة إليه ينتمون "إلى العصابة نفسها"، لأنهم يتجرأون على نقد إسرائيل من دون إذنه. ولا ننسى مرة أخرى مثوله أيضًا أمام المحكمة، مثلًا بسبب الإهانة الشخصية لكلٍّ من شتيفان فايشرت، ولوتس هوخمايستر. وقد وصف أيضًا روفن موسكوفيتش حقًّا بأنه "الأحمق المفيد لحزب اليسار"، وغونتر غراس بأنه "لا يتمتع تمامًا بالفهم، بيد أنه شاعر".

لم تسلم منه أيضًا شخصيات يهودية مثلي أنا وكذلك ميشائيل فولفزون، وتوماس روتشيلد[24]، ورافائيل سيليغمان، وهايو ماير. لا بل حتى لم يشفع لكلٍّ من فولفزون وسيليغمان أنهما صهيونيان قويان، كما هو برودر، طبعًا ليس هناك ما يمنع أن تتطوع كلتا هاتين الشخصيتين للدفاع عن الدولة الصهيونية إذا كانت لا تزال صالحة للدفاع عنها. برودر يأخذ على سيليغمان أنه يستخدم دائمًا كلمة "صهيون" بدلًا من إسرائيل ويفضّل لفظة "العبرانيين" على كلمة اليهود.

لقد شتم برودر مرة مؤلفي هايو ماير، الذي نجا من معسكر أوشفيتز، بأنه

---

(21) https://bit.ly/3H0Wizj

(22) https://bit.ly/3H1nSNd

(23) https://bit.ly/3qZQK2J

(24) توماس روتشيلد (Thomas Rothschild): باحث أدبي بريطاني نمساوي، محاضر جامعي بجامعة شتوتغارت، فضلًا عن أنه مؤلف وصحافي.

"الناجي المحترف". وقد توفي الرجل في منزله بالقرب من أمستردام في أيلول/ سبتمبر 2014 عن عمر يناهز التسعين. وكانت جريمة ماير أنه ألّف كتاب **نهاية اليهودية: سقوط المجتمع الإسرائيلي** الذي تبنى فيه رأيًا بأن إسرائيل تخون أخلاق اليهودية من خلال سياستها الوحشية والمسلحة.

بالنسبة إلى برودر لا يوجد أيُّ فروق دقيقة، فإما الأبيض وإما الأسود، وليس هناك شيء بينهما. إنه يقيس معاداة اليهودية تبعًا لموقف الشخص من إسرائيل، وكأن من دون إسرائيل لا يوجد معاداة للسامية.

يتعلق الموضوع عندي وعند كل من أعرفهم بالحق والعدالة، وهذا ينطبق أيضًا على الفلسطينيين، لأنه بذلك فحسب يتم ضمان أمن إسرائيل أيضًا. إن الأشخاص اليائسين الذين ليس لديهم ما يخسرونه، وإذا كانوا طوال حياتهم محاصرين وتابعين، فهم يحاولون دائمًا اختراق الأسوار والحواجز والجدران، بغضّ النظر عن ارتفاعها. والتاريخ يقدّم لنا أمثلة كافية عن ذلك. لكن أقول عندما يتعلق الأمر بـ "حق الوجود" لإسرائيل، فينبغي أيضًا أن يتعلق الأمر بحق الفلسطينيين في الوجود.

لقد قاد تحريض برودر إلى كثير من النتائج الملموسة والخطرة التي مست عددًا لا بأس به. خذوا مثلًا ما حدث مع الناشط من مدينة كولونيا فالتر هرمان الذي توفي في عام 2016. لقد أنشأ هرمان مع بعض أصدقائه "حائط مبكى من أجل السلام" أمام كاتدرائية كولونيا بمناسبة حرب الخليج الثانية في عام 1991. وأخذ يتظاهر يوميًا، في جميع الظروف الجوية، أمام الكاتدرائية مباشرة، ضد التعامل الإسرائيلي مع الفلسطينيين. لكن لاحقًا ومنذ عام 2005 أصبح "حائط المبكى" هذا عرضة للانتقاد من بعضهم، لأنه يصوِّر على نحوٍ مشوَّه الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي وعلى نحو أحادي الجانب. ثم وصلت موجة الانتقادات إلى ذروتها في كانون الثاني/ يناير 2010 حينما وُضعت عند الحائط صورة كاريكاتورية ليهودي بألوان العلم الأميركي وهو يقطع ويأكل طفلًا فلسطينيًا في صحن بسكين وشوكة. وفي الواقع، لم يُرَ هذا الرسم سوى على صور من الاحتجاجات المناهضة لإسرائيل في الهند ضد الحرب في غزة

حينما رفعتها إحدى المتظاهرات. وكان قد التقط الصورة من أحد التقارير الصحافية وأظهرها مع شرح توضيحي مصاحب كوثيقة تاريخية.

لم يكن برودر هو الشخص الأخير الذي اتهم هذا الرجل بمعاداة السامية؛ فادعى أن الهجاء يسمح "بكل شيء"، كما قال كورت توخولسكي ذات مرة. إلا أن هذا لا ينطبق على هرمان وكاريكاتوره. فليس كل كاريكاتور يُعتبر ساخرًا؛ وإنني على ثقة أن توخولسكي يعني بمقولته أيضًا الرسوم الكاريكاتورية. لكن برودر نفسه يعتقد بأن الكاريكاتور يسمح له بكل شيء. وهنا أشير إلى أن برودر عندما دافع عن نشر الرسوم الكاريكاتورية المعادية للمسلمين، والتي تصوِّر النبي محمدًا، دافعتُ أنا أيضًا عن تلك الرسوم الكاريكاتورية التي عرضها أحد المتقاعدين علانية على لوحة الكاتدرائية في كولونيا. ويمكن المرء النقاش هنا إن كانت هذه الرسوم مبتذلة أم لا. بيد أنه ينبغي عدم منعها، أو التهديد بـ "إزالتها كليًّا" ضد مالكيها أو من ينشرونها أو نشَرَها (كما يطالب برودر)، وبرودر نفسه هدد في أحد الأعمدة الصحافية بإزالتها "بواسطة جرار رغب في استئجاره من شركة أفيس أو شركة هرتز". طبعًا يمكن اعتبار هذا الكلام بمنزلة دعوة إلى العنف، وهي لغة تعوّدناها من هذا الرجل. والأمر الذي يدعو إلى التعجب هنا هو عدم مطالبة برودر الجيشَ الإسرائيلي بدبابة ميركافا في حملاته هذه.

عمومًا، في النهاية، هوجم فالتر هرمان في 19 أيار/مايو 2012 بسكين عند حائط المبكى في كولونيا وأصيب حينذاك بجروح خطرة في راحة يده اليسرى. بالطبع، لم يستطع برودر فعل أيِّ شيء حيال هذا الهجوم. فهو لا يعير بالًا أن كلماته تُترجم حرفيًّا [إلى استخدام العنف] من بعض الناس. فهو يحتل وظيفة "الجاني الذي يكتب".

فضلًا عن ذلك، إنه يغذي من خلال نقده الإسلام إلى حد بعيد حركة بيغيدا [اليمينية] التي ستكون من جهتها شاكرة له على ذلك. وأشير هنا مثلًا إلى أن الصحافي المتوفى الآن أودو أولفكوت، عندما كتب خبرًا يبعث على القلق بأنه تمت "أسلمة المقابر" في ألمانيا، ختم الرجل تقريره بـ "شكرًا جزيلًا هنريك برودر"، وحينذاك صفق الجمهور له بشدة.

إن شخصًا مثل برودر يخدم بالفعل الفضاءات وردات الفعل العنصرية. فهو يحمل يهوديته وكأنها وعاء قربان مقدس لأنه يعلم مدى الحماية الذي تقدمه اليهودية له.

إنه يحرض ضد المسلمين وضد أنجيلا ميركل وضد "وسائل الإعلام"، رغم علمه أنه ذاته رجل إعلام، أو بتعبير أفضل ذكوري الإعلام. إنه يبعد فحسب سردية "الصحافة الكاذبة" التي تثابر على نشرها حركة بيغيدا وحزب البديل لأجل ألمانيا وشركاؤهما. ولهذا السبب يتبنى الموقع الإلكتروني المشهور الراديكالي اليميني والمعادي للإسلام بي آي نيوز (PI NEWS) مساهماتِ برودر بانتظام، ويشاركها زعيم الشعبويين اليمينيين النمساويين هاينتس كريستيان شتراخه على صفحته على الفيسبوك. ولا شك في أن برودر سيسعد بالمعجبين الجدد. ورغم ذلك، فهو نفسه يقلل من شأن الهولوكوست، عندما كتب في جريدة دي فلت: "بالنسبة إليَّ ما يحدث في حلب لهو أسوأ من أوشفيتز، لقد أصبح أوشفيتز عبارة عن ماضٍ".

وكتب ديتر بارتيتسكو (Dieter Bartetzko) مرة عن برودر في قسم المقالات في فرانكفورتر ألغماينه تسايتونغ، وجاءت كتابته بعد ظهور هذا الأخير في برنامج تلفزيوني لفرانك بلاسبرغ وهو يحاول اجتذاب الاهتمام إليه [فقال]: "نظرًا إلى أن السيد برودر يحب تلقيب الشخصيات الكبيرة علنًا إلى جانبه بـ'الصناديق التي تثرثر بعد الوفاة' أو 'المجانين المعترفين' أو 'المتشردين الدكاترة'، فقد قيل له بعد هذه الأمسية: لقد عايشنا رجلًا مسنًا يتمتع بالعبث، متعجرفًا يهين الآخرين على نحو سيء، لأن لديهم ما يفتقر هو إليه: احترام كرامة الإنسان".

أسأل دائمًا "لماذا يفعل برودر هذا؟"، أو "ما هي مشكلة برودر؟"، أو "هل من الممكن أن يكون مؤمنًا بما يقوله؟". ولكوني أعرف هذا الشخص منذ مدة طويلة، فهناك بالفعل من ينتظر مني أجوبة منطقية عن هذه التساؤلات. إلا أنني سأقول ليست لدي تفسيرات تجيب عن ذلك، فكل ما أملكه هو التكهن، مثلي مثل الآخرين.

لماذا يفعل ذلك؟ ولماذا يصف شخصٌ كل من يقارن غزة بالغيتو في وارسو بأنه شخصٌ معادٍ للسامية، ثم يقارن هو نفسه غزة بغيتو وارسو وحلب بأوشفيتز. فحين ألقى خطبةً تكريمًا لمارسيل رايش-رانيكي في 6 آب/أغسطس 2010، لم يستطع السيطرة على نفسه وتحدّث أمام جمهور متصلب كامل الوقت في سياق ذكرى صادمة عن غزة، والتجأ إلى رايش-رانيكي كشاهد في عصره على غيتو وارسو طالبًا منه القيام للتحدث عن غيتو وارسو بأنه كان عبارة عن جحيم، وأن غزة مقارنةً بهذا الجحيم ليست سوى نادي المتوسط (Club Méditerranée) [للترفيه]. لكن لنعلم، أن رايش-رانيكي لم يزر قط غزة، وحتى برودر نفسه لم يكن قط في غزة ولا في وارسو. إلا أنه يعرف تمامًا كيف جرت الأمور هناك وكيف تجري الآن.

بالعودة إلى السؤال عما حدث له، فهل من الممكن أن يكون مؤمنًا بما يقوله؟ إنني مقتنع بأنه غير مؤمن بما يقوله، ذلك لأنه يعرف أن دفاعه عن السياسة الصهيونية غير صحيح من الناحية السياسية، وبالتالي يتم الرضى به، بل ويُدعى إلى برامج حوارية ويُسمح له بالعمل لدى مؤسسة النشر شبرنغر، حتى لو قال هو عكس ذلك.

مع ذلك، فقد تحدّث الرجل منذ مدة طويلة أن من الممكن أن يكون مقتنعًا بما يقوله. لكن من ناحية أخرى، فإن برودر شخصية ساخرة وعنيدة للغاية لأن يقوم بهذا حتى لو لم يكن مقتنعًا به. وأحدهم كان قد قال مرةً إن لدى برودر القدرة على إلحاق الأذى بجدته من أجل نكتة.

ربما يكون لهذا الشخص عقدة نقص من الطفولة والشباب ولم يتمكن إلى الآن من التخلص منها. وفضلًا عن ذلك، فهو لم يكمل دراسته في أيٍّ فرع من الفروع التي بدأ الدراسة بها ولم يتمكن قط من الحصول على وظيفة مهمة ومسؤولة في أيٍّ من الصحف. وطوال حياته كان "صديقه" شتيفان آوست هو رئيسه، ويسبقه دائمًا بخطوتين: أولًا في المجلة الإخبارية زانكت باولي ناخريشتن، تلك المجلة التي تمزج مزجًا سطحيًّا بين الجنس والسياسة، حيث التقيا وكان آوست رئيسه، ثم في مجلة دير شبيغل حيث لحق برودر بآوست إلى

هناك، واليوم لدى صحيفة دي فلت حيث آوست هو الناشر وبرودر المراسل. ولا نستبعد أن تمثّل هذه المسائل عقد نقص، خصوصًا الغيرة.

حتى عندما هاجر إلى إسرائيل في عام 1981 بسبب الإحباط والغضب وخيبة الأمل لعدم سريان الأمور على نحو جيد معه، فإنه لم يتمكن من الحصول على موطئ قدم في القدس. وقد ذكر كسبب لرحيله من ألمانيا، بالرجوع إلى عام 1993، من بين أمور أخرى، مقالة صحافية لإنغريد ستروبل (Ingrid Strobl) في مجلة إيما (*Emma*)، رُفض فيها حق الوجود لإسرائيل.

أضيف أيضًا أن برودر لم يستطع في ما يقارب عشر سنوات وهو في القدس تعلُّم العبرية، ولم يتواصل إلا ضمن الصحافة الأجنبية التي تحدَّث معها بالألمانية، أو بالإنكليزية إذا لزم الأمر. مع ذلك، طلب ناشرون ألمان تقديم تقارير عن المنشورات العبرية الجديدة هناك. ولأنه لم يكن قادرًا على قراءة ما يصدر بهذه اللغة، كان يرسل إليَّ هذه المنشورات لأقرأها ويطلب مني أن أعلِمه بمواضيعها. وبناءً على ما أكتبه أنا، كان يكتب ملخصًا للناشر الألماني ثم يستلم المكافآت المالية لقاء هذا ويقوم بتحويل نصف المبلغ إليَّ.

لقد زرته مرات عدة في القدس وكنت مضطرًا إلى الاستماع إليه وهو يتحدث عن مدى السوء هناك وعدم جدوى أيِّ شيء إلا الطعام العربي الجيد في المدينة القديمة العربية، التي زرتها معه وأكلت الفلافل. وكان يصاحبه دائمًا كلبه العربي الصحراوي، وبدا لي أنه الشيء العربي الوحيد الذي تقبَّله وتساير معه. وكان هو أحيانًا يصنع الكيك ونأكله سويًا مع القهوة التركية ذات الطعم القوي والكثير من السكر.

وبالفعل، فقد شعر بخيبة أمل وألم في إسرائيل لأن أحدًا لم يعرف به ولم يحتج إليه. إلا أنه كان أيضًا شخصًا متكبرًا ومتعجرفًا ومتهورًا ومشتتًا ونرجسيًا معتدًا بنفسه، بل متصنعًا أكثر من ميشائيل فولفزون. في أيِّ حال، لم يستطع العمل في الصحف الإسرائيلية لأنه لم يتحدث العبرية، وبدأ اتصاله بالصحف الألمانية يزداد هشاشة. لهذا السبب قرر العودة إلى ألمانيا، وفجأة غدونا نراه هنا مرة أخرى.

الأمر اللافت أنه عاد يحمل موقفًا سياسيًا مختلفًا تمامًا. فقد تحوَّل من النقد الكبير إلى صهيوني متطرف. وفجأة بات كل شخص يحمل موقفًا نقديًا من إسرائيل لا يُعتبر صحافيًا ناقدًا بل معاديًا للسامية حتى لو تعلَّق الأمر بأصدقائه اليهود مثلي ومثل توماس روتشيلد. منذ مدة قصيرة كان قد آذى المرأة اليهودية ليا فلايشمان[25] لأنها صورت إسرائيل بصورة وردية وأن كل شيء رائع هناك، وهو الأمر الذي شككنا فيه جدًّا قبل فترة زمنية. وفجأة تجاوزها باتجاه اليمين، وحتى تجاوزها في مبالغتها. بالطبع يحق للمرء تغيير وجهات نظره، ولكن عندما يغيِّر رأيه وفقًا لما تسير به الرياح، فهذا يسمى الانتهازية بعينها.

في إحدى المقابلات، التي يمكن مشاهدتها على يوتيوب، يدافع برودر عن ساراتسين[26] ونظرياته البيولوجية الوراثية، التي تكاد تكون عنصرية، فيقول: "لكل شخصٍ الحق في التعبير عن رأيه". في هذه المسألة لا يمكنني إلا أن أتفق معه، ولكن عندما يتعلق الأمر بحرية الرأي لمنتقدي السياسة الإسرائيلية، فإنهم يُعتبرون معادين للسامية. ليس كل شخص يشبه الآخر.

بالنسبة إلى برودر، فإن مصطلح "التسامح" عفَّى عليه الزمن، لأنه نفسه لا يريد التسامح، فذلك يتمتع بحقوق قانونية في الدستور الألماني. "من يتسامح معي، يمكنه القضاء عليَّ، إذا كان يرغب في ذلك". لكن مسألة أنه نفسه لا يستطيع ذلك، لهي مسألة يؤيدها أيضًا الدستور.

برودر مقتنع تمامًا بأن ثقافته اليهودية الغربية متفوقة على الثقافة الإسلامية. لكن أؤكد أنه لا توجد ثقافة متفوقة على أخرى. لكن قد تكون هناك اختلافات بين الثقافات، وبرودر شخص لا يفهم ربما كثيرًا في الإسلام أو حتى ربما لا يعرف أيَّ شيء عنه. وإذا كان الحال هكذا، فإن المرء الذي يستمد من ذلك "أعلوية" ثقافة على أخرى، فإنه كمن يدّعي أن الألمان متفوقون على الفرنسيين، وهو الأمر الذي يقود إلى الزعم "ألمانيا، ثم ألمانيا فوق الجميع"، بل يقود في

(25) Lea Fleischmann, *Dies ist nicht mein Land* (Hoffmann und Campe Verlag, 1990).

(26) ساراتسين (Sarrazin): أحد أشد الكتّاب الألمان يمينية في عدائه للإسلام ووجود اللاجئين في أوروبا. (المترجمة)

النهاية إلى محاولات "القضاء"، إذا استخدمنا كلمة تابع برودر، ساراتسين، على الثقافات التي يُزعَم أنها ثقافات دنيا. ولنتذكر أنه منذ وقت ليس بالبعيد، ربما لألفية، كانت الثقافة الإسلامية تفوق إلى حدٍّ بعيد الثقافة الأوروبية التي كانت تغوص في وحل العصور الوسطى.

لكن دعوني أؤكد أن المشكلة مع برودر هي أنه يطوع كل أمر بالطريقة التي تناسبه، ويفسر كل أمر بالشكل الذي يخدمه. فعلى سبيل المثال يجد أن الرسوم الكاريكاتورية الاستفزازية ضد الإسلام غير مؤذية ويقول إنه يجب السماح بمسائل إهانة الأديان والسخرية منها. لكن حذارِ لو سخر أحدهم من اليهود. حتى كلمة "يهودي" تعبِّر بالنسبة إليه عن معاداة للسامية حقيقية قائمة.

أما قمة تفاهته الصحافية فكانت بالضبط في نهاية تموز/ يوليو 2017، قبل طباعة هذا الكتاب بوقت قصير. حيث كان له رأي في القناة التلفزيونية فلت (Welt N24) بشأن الضجة المرتبطة بالمؤرخ المتوفى رولف بيتر زيفرله (Rolf Peter Sieferle)، الذي أثار كتيبه **نهاية ألمانيا** (*Finis Germania*)، الذي نشر بعد وفاته، الكثير من الغضب واستُبعد من قائمة مجلة دير شبيغل للكتب الأفضل مبيعًا، لأن المجلة عُدّت "معادية للسامية بوضوح". وفي هذه المسألة بالذات، لم نرَ من بين الذين ثاروا حزبَ البديل لأجل ألمانيا اليميني المتطرف، أو الحزب الوطني الديمقراطي (NPD)، أو هورست مالر (Horst Mahler) [النازية الجديدة]، بل بالتحديد كان هنريك برودر، الذي كتب في 26 تموز/ يوليو 2017 "معادي السامية هو من تبنّه 'دير شبيغل'". فالذي يعتبره برودر فضيحة أو ضجة، هو بالنسبة إلى الآخرين الذين يعرفونه عبارة عن أضحوكة. ومن المفارقات أن برودر الذي شوَّه لسنوات عديدة سمعة مواطنين محترمين باتهامهم بأنهم أعداء السامية، بمن في ذلك كثير من اليهود، نجده ينتقد دير شبيغل. وربما هذا يعود إلى أن هذا الامتياز محصور فيه فحسب.

تحدَّث برودر في جلسة علنية من جلسات البرلمان الألماني في 16 حزيران/ يونيو 2008: "اسمحوا لي بكل تواضع أن أقدِّم نصيحة: اتركوا أمر الانشغال بمعاداة السامية القديمة الجيدة (ما الذي كان جيدًا في معاداة السامية

القديمة؟)، لهورست مالر، لعلماء الآثار والمؤرخين. أولوا اهتمامكم لمعاداة السامية الحديثة التي تتقنع بقناع معاداة الصهيونية، وممثلوها موجودون بين ظهرانيكم".

إضافة إلى ذلك، فإن التواضع والاتضاع ليسا من شيم برودر. إنه من الأشخاص الذين يستمتعون بجذب الاهتمام إليهم. يتصرف مثل رجب طيب أردوغان الذي يهين الحكومة الاتحادية الألمانية، ثم يتوقع الشكر منها. لقد تفاعل البرلمان الألماني معه بالطريقة نفسها مثل الحكومة الفدرالية مع أردوغان: أي التصفيق. فلم تقابَل إهانة برودر للبرلمان الألماني بطرده على نحو مهين، بل سُمح له بالاستمتاع برضاه.

هكذا نجد برودر الشخص نفسه يستعلي بنفسه على نحو أشد وأعلى، حتى أكثر مما كان عليه قبل عشر سنوات تقريبًا، لكنه دائمًا ذاك الشخص المعجب بنفسه والمعتد بها، الساخر والغدّار، ثم إنه يعتقد بقدرته على السخرية من مجلة دير شبيغل التي يزعم أنه غادرها طواعية وانتقل إلى العمل لدى دي فلت. ويا لها من مصادفة أن هذا الأمر قد حصل بعد فترة وجيزة من ترك معلمه شتيفان آوست، رئيس تحريره، منصب رئيس التحرير في شبيغل.

يقول برودر: "من الآن فصاعدًا فإن رئيس تحرير دير شبيغل له الكلمة الفاصلة في تحديد من هو الشخص المعادي للسامية ومن هو ليس كذلك". إنه لأمر مؤلم بالنسبة إلى برودر الذي يغضب بسبب هذا ويكتب بآخر قطرة من حبره، لأن هذا المنصب من حقه تقريبًا بالولادة، واستفاد منه بكثرة في السنوات الأخيرة. كم مرة زعم أنني معادٍ للسامية؟ لكن سأقول إن من المسموح له ذلك، لا لأنه يهودي بل لأن أحدًا من الصحافة الألمانية لم يقف ضده. هكذا نجده يكتب على نحو منافق وخاطئ أساسًا: "حتى صحيفة وطنية مثل 'زودويتشه تسايتونغ' تنشر أحيانًا كاريكاتورًا معاديًا للسامية من دون أن تعي ذلك. وحتى قصيدة غونتر غراس الإسرائيلية "ما يجب قوله" (Was gesagt werden muss)، التي كتبها "بآخر قطرة من حبره"، تُفسَّر بطرائق مختلفة". والحال أن الأمر بالنسبة إلى برودر يتسم بالوضوح منذ البداية بكونه كان يتعامل مع معاداة خالصة

للسامية. "بعضٌ يقول رأيًا وبعضٌ آخر يقول رأيًا مختلفًا". أما برودر فهو يقول دائمًا الكلام نفسه. أما الآن، فإننا نرى كيف ترغب شبيغل في سلب برودر هذا الحق وهذه الفرحة منه.

بالطبع، لا يزال أمامه مركز سيمون فيزنتال في لوس أنجلس؛ فهناك بإمكانه أن يقترح عليهم سنويًا أسماء شخصيات ألمانية معادية للسامية لتُوضع على قائمة العشرة الأوائل كنشطاء معادين للسامية.

والآن: ماذا عن أنجيلا ميركل؟ خصوصًا حينما رفضت استقبال بنيامين نتنياهو وحكومته المروعة في ربيع 2017 في برلين. هل يُعدّ ذلك معاداة للسامية؟!

12

عدائي مع ميشا برومليك

ننتمي نحن، أنا (مواليد 1945) وهنريك برودر (مواليد 1946) وميشا برومليك (مواليد 1947) إلى جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية. ويعرف بعضنا بعضًا منذ مجيئي إلى ألمانيا وأنا طفل صغير. فضلًا عن ذلك، فإننا نحمل الخلفية الاجتماعية والثقافية والإثنية نفسها إلى حدٍّ ما، وكنا قد تعرّفنا إلى بعضنا في المجمع اليهودي في كولونيا (أنا وبرودر) وفي تجمُّع "الشباب الصهيوني في ألمانيا" (أنا وبروملیك). أما انفصالنا عن بعضنا فقد تجلّى عندما ازدادت مع الوقت المناقشات والجدل في شأن إسرائيل وسياساتها حدةً. فبينما وقف كلٌّ من بروملیك وبرودر بثبات وحزم وإخلاص إلى جانب إسرائيل وسياستها القومية، كنت أنا ممن يعارض تلك السياسة؛ ومع ذلك فقد كنت "الإسرائيلي" الوحيد بين هؤلاء الثلاثة.

بدأت شيئًا فشيئًا بالنأي عن إسرائيل، وعن الصهيونية خصوصًا. وقمت بتأسيس مجلتي الخاصة دير سيميت – **الصوت اليهودي الآخر** (*DER SEMIT - die andere jüdische Stimme*)، فانتقدت فيها بحدة سياسة إسرائيل ومن يدعمها.

أما بروملیك، في المقابل، فقد عاد إلى الحضن الصهيوني في اقتناعاته، طبعًا بعد ما يقرب من عشرين عامًا كان فيها معاديًا للصهيونية. ومع مرور الوقت غدا برودر أكثر راديكالية. هكذا وضع برودر وبروملیك نفسيهما في خدمة إسرائيل بلا أدنى موقف نقدي وعلى نحو أعمى تقريبًا (وبرودر في هذا كان يفوق بروملیك). وهذا بالفعل ما عبَّرا عنه مع مرور الزمن في كثير من النصوص التي نشراها.

لقد تجسدت إرادة بروملیك في تمييز نفسه من مناهضي الصهيونية مثل إريش فريد، حيث كتب في عام 1996: "يبدو لي أن معاداتي الصهيونية قد

نبعت من الداخل، سواء بنحوٍ أفضل أم أسوأ؛ أما معاداة الصهيونية ليهودي مثل إريش فريد فقد قامت عن وعيٍ مطلق بأخلاق عليا تتجاوز دائمًا ومن دون أدنى شك ما يحرك معظم اليهود داخليًّا". من هنا نجد بروملیك يختم كتابه الذي أصدره في عام 1996 بعبارة: "إن دولة إسرائيل، التي كنت قد تجنبتها لعقود ولم أزرها حتى في إجازة، غدت اليوم هدفي المفضل مرة أخرى". قد يظن بعضهم أن هذا عبارة عن علامات النضج عند الشخص، لكنني سأقول إنني نادرًا ما قرأت إضافة واضحة إلى الانتهازية كتلك التي وردت هنا في اعتراف ميشا بروملیك.

في عام 2005 كانت دار النشر زوركامب قد نشرت كتاب الفيلسوف الكندي الأصل تيد هوندريش ما بعد الإرهاب. وقد شمل الكتاب 300 صفحة، وتناول فيه في ثلاث صفحات الصراع في الشرق الأوسط. لقد جادل البروفسور هوندريش أن الفلسطينيين، ومن وجهة نظر أخلاقية، على حق في استخدام القوة للدفاع عن أنفسهم ضد سياسة الاحتلال الإسرائيلي. حيث يكتب: "في ربيع عام 2002، وكنتيجة لاستفزازات رئيس الوزراء شارون وما تلى ذلك من تكرار للتفجيرات الانتحارية من جانب الفلسطينيين، ومع إرهاب 11 أيلول/ سبتمبر، كسبب أو ذريعة إضافية، أعادت إسرائيل جيشها وقوتها الجوية. فحاصرت دباباتها القرى، وأهين الرئيس الفلسطيني، كما دمرت الصواريخ والجرافات المدمرة المنازل، وحتى سيارات الإسعاف التابعة للصليب الأحمر التي كانت تحاول الوصول إلى الجرحى أوقفت، بل تم القضاء على جثث الضحايا من طرف أولئك الذين قتلوهم. لقد هزت هذه الأخبار العالم أجمع، طبعًا باستثناء كثير من المواطنين الأميركيين الذين لم يجرِ إعلامهم بواسطة وسائل إعلامهم".

يضيف هوندريش: "يبدو أن بعض اليهود، كضحايا للعنصرية في التاريخ، قد تعلّموا اليوم من جلاديهم. وكما تطرح الصهيونية نفسها اليوم، فقد أدانتها الأمم المتحدة بحق باعتبارها عنصرية. وبالمثل، فإن فلسطين تطرح أمامنا أسئلة عن الحق والظلم عمومًا، أسئلة ترتبط بمسؤوليتنا عن الأخطاء التي تحدث".

هذا الأمر دفع عالِمنا التربوي ميشا برومليك إلى الطلب من دار نشر زوركامب سحبَ الكتاب من التداول بذريعة أنه معادٍ للسامية. لقد جذب الانتباه بالفعل هذا الطلب للرقابة المشين والسخيف، بيد أن الغريب أنه لم يثِر أيَّ موجة من الاحتجاج. وبعد 24 ساعة كانت دار النشر قد خضعت لهذا، فأوقفت تسليم الكتاب وأتلفت النسخ المتبقية لديها. لقد حدث كل ذلك في عام 2003، أي بعد عام واحد من وفاة زيغفريد أونسلد الناشر الفذ لدار النشر هذه، وما أرجحه أن أونسلد ما كان ليوافق على إلغاء الكتاب وما ارتبط بذلك من إهانة لمؤلفه. ولم يكن لأرملته ووارثته في الدار أولا أونسلد-بركوفيتش (Ulla Unseld-Berkéwicz) القوة والسلطة اللازمتين لردع ذلك، والأرجح أن الضغط مورس عليها لاتخاذ هذا القرار. بيد أن قرارها جاء سريعًا وخاطئًا ولا يمكن القول إنه قرار يمثِّل صفحة مجيدة في تاريخ دار نشر زوركامب. طبعًا لا ننسى أن نسخ الكتاب قد وصلت إلى الصحافة؛ ولنا أن نتصور أيَّ هستيريا أظهرتها هذه الحادثة حينذاك في مسألة معاداة السامية في ألمانيا. ميشا برومليك، وهو اليهودي اليساري الليبرالي ومدير معهد فريتس باور (Fritz-Bauer-Instituts)، كان أيضًا من بين هؤلاء الذين غاصوا في وحل هذه الهستيريا.

أما المؤلف هوندريش فإنه يدرّس الفلسفة في جامعات عديدة في لندن ويال ونيويورك. وكتابه يحاول تناول مسألة حياة جيدة في إطار 11 أيلول/ سبتمبر. وحتى في أميركا، التي دارت فيها نقاشات في شأن مقاطع من الكتاب ادُّعي أنها معادية للسامية، لم يُقدِم أحدهم هناك على طلب سحب الكتاب من التداول. إنني على يقين أن بروملیك لم يقرأ الكتاب، بل تابع تلك الجدالات فحسب. وهذه متابعةٌ كانت كافية بالفعل بالنسبة إليه حتى يدعي ضد دار النشر ويوجّه اتهامات خطيرة إليها، بل وأن يطالبها في رسالة مفتوحة "مباشرة ومن دون تأخير" أن تسحب الكتاب من السوق. وكانت الرسالة التي كتبها إلى إدارة دار النشر قد نشرها في جريدة فرانكفورتر روندشاو، حتى قبل أن تصل إلى إدارة الدار.

إنه لأمر مدهش حقًا ولا يمكن تصديقه أن يقوم تمامًا أحد المثقفين اليهود

بالطلب من دار نشر ما إتلاف مئات الكتب. وفي النهاية: لقد اختفى الكتاب من السوق، بل مُنع كذلك أيُّ نقاش وجدال في أطروحات الفيلسوف هوندريش.

وعندما قررتُ أنا نشر الكتاب من جديد رغم الرقابة على دار النشر زوركامب، رأيت ضرورة ترجمة الكتاب من جديد، ذلك أن الدار الناشرة هذه لم تمدني [بالحقوق] للترجمة الخاصة بها. ولاحقًا اتضح أن رفض دار النشر هذا كان نعمة لنا، لأننا اكتشفنا أن ترجمة زوركامب كانت تتسم بالفوضى والإهمال. ومن الواضح أن محرر دار النشر هذه كان نائمًا في أثناء عمله، وإلا لما ورد خطأ في الصفحة 51 من الكتاب. حيث لم يكن في الحقيقة عدد الأشخاص اليهود السوفيات بين عامي 1989 و1991 الذين استوطنوا الأرض العربية يراوح بين 250.000 و400.000 كما اشتكى برومليك بحق. وهذا الخطأ في الرقم تم تجاوزه في نسختنا لدار نشر ملتسر. عمومًا، ربما كان هذا خطأ مطبعيًّا، لأن العدد كان في هاتين السنتين يراوح بين 25.000 و40.000. وللمناسبة تعود هذه الأرقام إلى المعهد الإسرائيلي للإحصاء السكاني لعام 1992.

مع ذلك، تجدر الإشارة إلى أنه بين عامي 1983 و2004، ووفقًا للبيانات الرسمية للحكومة الإسرائيلية، استوطن أكثر من 317.179 مستوطنًا في الأراضي المحتلة. بالطبع، كان هوندريش على وعي بهذا الرقم، خصوصًا أنه لهذا السبب أطلِق عليه أنه معادٍ للسامية. أما الآن فهناك أكثر من 500.000 مستوطن.

ما أغضب برومليك تحديدًا أنه وجب عليه فعلًا أن يقرأ من كتاب هوندريش، فهو يكتب: "ليست لدي من جهتي أيُّ شكوك جدية في أن الفلسطينيين مارسوا في إرهابهم ضد الإسرائيليين حقًّا أخلاقيًّا". طبعًا برومليك ينعت هذه الشهادة بـ "النزاهة"، بيد أنها تعبير عن سخط. إن نضال الفلسطينيين من أجل حريتهم لهو أمرٌ معترف به في أنحاء العالم كافة، طبعًا باستثناء إسرائيل وأميركا، وهو مشمول باتفاقيات الأمم المتحدة لحقوق الإنسان. حتى إن وزير الدفاع الإسرائيلي السابق إيهود باراك نفسه قد قال في التلفاز، في عام 1988،

إنه كان سينضم إلى منظمة إرهابية لو كان فلسطينيًّا. ولقد أوضح لنا هوندريش أن نضال الفلسطينيين يُعدّ شرعيًّا تمامًا كما هو نضال الشعب الأسود في جنوب أفريقيا ضد مضطهديهم البيض وضد نظام دولة الفصل العنصري/ الأبارتهايد. فهؤلاء الفلسطينيون الذين لجأوا إلى وسائل الإرهاب بغية تحرير شعبهم لم يفعلوا أي أمر سوى ما فعله القائدان الإسرائيليان نفسهما، مناحيم بيغن ويتسحاق شامير، في معاركهما من أجل استقلال بلادهما. لنتذكر أن بيغن كان المسؤول عن مذبحة دير ياسين، التي حصلت في نيسان/ أبريل 1948، وشامير المسؤول عن تدمير فندق الملك داود، في 22 تموز/ يوليو 1946، والذي كان يضم في أحد أجنحته المقر الرئيسي البريطاني. لقد قتل حينذاك في هذه الحادثة 86 إنكليزيًّا وجرح المئات منهم. لكن من الواضح أن هذا يعتمد دائمًا على الزاوية التي نقرأ من خلالها الأمور.

بعد ثلاث سنوات فحسب من هذه الفضيحة أو الضجة كتب بروملِيك كتابه نقد الصهيونية الذي انتقد فيه "سياسة الاحتلال الإسرائيلي التي تنتهك حقوق الإنسان"، لا بل وصل إلى الخلاصة نفسها التي تتطابق مع خلاصة هوندريش، أن أحوال الفلسطينيين في إسرائيل من جهات عدة "لهي أسوأ مما كان عليه حال أغلبية السود في جنوب أفريقيا في ظل نظام الفصل العنصري/ الأبارتهايد". لكن السؤال هنا: لماذا لم يقدِّم بروملِيك إلى اليوم، مع خلاصته هذه، اعتذرًا إلى تيد هوندريش؟ ثم لماذا يغيِّر رأيه كل بضع سنوات؟

محامي برودر واللوبي الإسرائيلي

قد يكون محامي برودر ناتان غلبارت محاميًا جيدًا يفعل كل ما هو جيد لموكليه. إلا أنه في وقت فراغه يكتب منشوراتٍ رهيبةً وينشرها على مدونة برودر "محور الخير"، كما يشغل منصب رئيس مجلس إدارة منظمة كيرين هايسود في ألمانيا، والتي تهتم بجمع التبرعات لأجل إسرائيل. وهو لا يخفي عنا توجيه ولائه حينما يكتب: "نحن إسرائيل. لقد كان ولا يزال بالنسبة إلينا، نحن اليهود، أمرًا مُرضيًا الدخول في عباءة مواطن ألماني يحمل معتقداتٍ يهوديةً يمتنع عن تحمُّل المسؤولية المشتركة لسياسة إسرائيل. لكن: إننا نتعاطف عند قتل كل

مدني إسرائيلي وفي جنازة كل جندي إسرائيلي يموت وفي أيِّ هجوم إرهابي في إسرائيل. أجسادنا تقشعر ونحن نسمع على مدار الساعة أخبارًا عن فوز تل أبيب بالكأس الأوروبية لكرة السلة. نفخر بكل اختراع إسرائيلي وكأننا نحن أهل هذا الاختراع. دعونا لا نخدع أنفسنا: في الحقيقة لقد قبلنا أداء الدور الذي اضطررنا إلى القيام به. لقد حان الوقت لمواجهة هذه الحقائق؛ ذلك أنه، وفي غالب الأحيان، على عكس أصدقاء إسرائيل المؤقتين، فإننا نحن أبناءَ إسرائيل نشكِّل مع إسرائيل مجتمعًا تاريخيًّا ودينيًّا ذا قدر مشترك. إنني أقول ذلك سواء شئنا أم أبينا، سواء أكنا أرثوذكسيين أم محافظين أم ليبراليين أم متحولين دينيًّا أم علمانيين... كل هذه القضايا ليس لها أي دور. هذه هي الحقيقة التي لا ينبغي زحزحتها؛ فنحن إسرائيل". قد يكون هذا بالفعل ما يسعده، إلا أنني على يقين لو أن أحد المحامين الألمان وقف أمامه وقال "إنني ألمانيا" لكان غلبارت نظر إليه ليس نظرة غباء فحسب، بل لوصفه على الفور بمعاداة السامية، حتى قبل أن ينبس هذا الشخص بكلمة واحدة.

وكما هو حال كثير من الأتراك من الجيلين الثاني والثالث الذين ولدوا ويعيشون في ألمانيا ولم يحققوا من الاندماج سوى خطوات صغيرة، ويحبون تركيا ويمجدون رئيسها أردوغان، فكذلك الأمر مع أشخاص مثل ناتان غلبارت وكثير من اليهود في ألمانيا. وهذا بالضبط يرجع إلى حدٍّ كبير إلى سياسات الاندماج الفاشلة. طبعًا إن النص الذي قرأناه الآن من غلبارت لهو أحمق وصبياني ويثير السخرية إلى حدٍّ كبير، ويرفضه ويضحك عليه كثير من اليهود في ألمانيا وفي جميع أنحاء العالم. غلبارت للأسف يمثِّل يهودًا آخرين في ألمانيا وفي العالم من الذين يدعمون على نحو أعمى دولة إسرائيل، والذين يُعتبر بالنسبة إليهم موت جندي إسرائيلي أكثر أهمية وأشد مدعاة للأسف من آلاف القتلى الفلسطينيين.

لا شك في أن هذا الاعتراف غير المشروط لإسرائيل، الذي يدّعي فيه "لقد قبلنا أداء الدور الذي اضطررنا إلى القيام به" يمثِّل للأسف حالة أنموذجية للعديد من يهود ألمانيا. "إنهم إسرائيل" رغم أنهم لا يعرفون ماذا وما هي

إسرائيل. فهم يؤمنون بكل الهراء الذي يتفوه به موظفون أمثال غلبارت وبأنهم كأبناء لإسرائيل يشكّلون مجتمعًا تاريخيًا ودينيًا ذا قدر مشترك. لكن لنعلم أن كثيرًا من هؤلاء اليهود لم يكونوا يومًا في إسرائيل ويرفضون حتى الهجرة إليها. إلا أنهم بفكرهم وعقلهم يجلسون وحقائبهم مهيأة للسفر إلى هناك، لاعتقادهم أن محرقةً ثانية على وشك الحدوث. لكنني أعتقد أنه إذا ما وجب عليهم القرار بالهجرة فسيكون قرار وجهتهم إلى ألمانيا أو أميركا، لكن ليس صوب إسرائيل. أما في ما يخص اليهود الذين لا يقولون "نحن إسرائيل" ولا يرغبون في ذلك، فهم بالنسبة إلى الدعائيين الدوغمائيين والموالين أمثال ناتان غلبارت خونة أو يهود كارهين لأنفسهم، أو في الأقل من أولئك الذين يلوثون بيتهم (Nestbeschmutzer). ولحسن الحظ ليس كل اليهود في ألمانيا واقعين تحت هذا التأثير القومي والشوفيني لهؤلاء الأشخاص أمثال برودر وغلبارت أو كنوبلوخ أو يرضون عما يصدر عنهم. وهذا ينطبق أيضًا على تلك الأصوات اليهودية من منظمة "الصوت اليهودي من أجل السلام العادل في الشرق الأوسط". وهنا نشير سريعًا إلى هذه المنظمة لما لها من أهمية في سياقنا: لقد تأسست منظمة الصوت اليهودي في 21 أكتوبر/تشرين الأول 2007 كرابطة. وفي برلين، في 9 تشرين الثاني/نوفمبر 2003 تم تأسيس، وتحت هذا الاسم، "الصوت اليهودي"، فرع "اتحاد يهود أوروبيين من أجل سلام عادل" (Europäische Juden für einen gerechten Frieden) وذلك في "بيت الديمقراطية" وحقوق الإنسان.

أما عمل المنظمة فهو قائم على أساس الإعلان التأسيسي الذي اعتُمد في أمستردام في أيلول/سبتمبر 2002 من جانب 18 منظمة يهودية من 9 دول أوروبية. وبصفتها عضوًا مشاركًا في هذا الاتحاد فإنها تهتم بضرورة وإمكان وجود سلام عادل بين الفلسطينيين وإسرائيل. وترى أن مهمتها الأساسية العمل باتجاه أن تستخدم الحكومة الاتحادية الألمانية على نحو قاطع وصريح سياستها الخارجية ووزنها الاقتصادي في الاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة وليس آخرًا في الشرق الأوسط في مصلحة إقامة دولة فلسطينية قابلة للحياة وذات سيادة على أرض متكاملة ضمن حدود آمنة والمساهمة بنشاط في تحقيق سلام دائم وقابل للحياة لكلا الشعبين.

الأهم أن أصوات هذه المنظمة، الصوت اليهودي، يصرحون في وجه كل من يتظاهر للتحدث باسم كل اليهود في العالم: ليس باسمنا [لا يمثلوننا]!

هنا يمكنني أن أتفهم أناسًا لهم تحفظاتهم تجاه إسرائيل، طبعًا حينما أدرك كيف يتصرف الساسة الإسرائيليون أنفسهم بغطرسة وتعجرف وكيف يتجاهلون بكل عنجهية جرائمهم التي يرتكبونها. وعندما أرى وأسمع كيف أن يهودًا ألمانيين لا يكلون وهم يمدحون إسرائيل ولا يتطرقون البتة إلى مصير الفلسطينيين الذين يتعرضون يوميًا للإهانة والاضطهاد، أستطيع فهم شعور أشخاص يشعرون باليأس من جراء تلك الغطرسة.

لقد حان الوقت لنتفق على نحوٍ موضوعي ماذا تعني معاداة السامية اليوم. لا شك في أن من يحمل تحفظات تجاه جماعة معيّنة يُعدّ فعله من التحيزات المسبقة. ومع ذلك، فلا ينبغي مساواة تفاهات كهذه بالكراهية الحقيقية لليهود. فإذا كان لدى أيِّ أحد، مثلًا، تحيزٌ ما بأن جميع اليهود أغنياء، فمن الأفضل تجاهله. والحال أن حقيقة وجود أشخاص في العالم لديهم تحيزات مماثلة أو غيرها، لهو أمر لا يشكّل أيَّ خطر على اليهود أو حتى على وجود الدولة اليهودية نفسها. وبالفعل نقول هنا إن مصطلح "معاداة السامية" يُستخدم اليوم على نحو تضخيمي مبالغ فيه وغير مسؤول. علينا أن ندرك أن أكبر تهديد لوجود الدولة اليهودية هو سياستها نفسها المناهضة لحقوق الإنسان، والتي حولت اليهود الآن إلى "شعبٍ جانٍ" كما كتب مرة هنريك برودر نفسه.

هناك في ألمانيا إلى حدٍّ ما لوبي يهودي يتمتع بالدعم الكبير من مصادر غير يهودية. وهذا له تاريخ تقليدي في ألمانيا. فالصهيونية قد حظيت بالدعم منذ البداية من غير اليهود، وهذا يعود إلى أسباب متنوعة تاريخية وأيديولوجية وسياسية ودينية؛ طبعًا أضف إلى ذلك سبب الجهل. ولنتذكر أن الصهاينة المسيحيين كانوا أيضًا موجودين في إنكلترا قبل نصف قرن من الصهيونية اليهودية؛ وكانوا أعضاء في الحكومة والبرلمان وطبقات النبلاء، بما في ذلك الأحزاب اليمينية واليسارية، والتيارات الأصولية المسيحية، تمامًا كما هو الحال مع التيارات المعادية للسامية أو المناصرة لها. أما في الآونة الأخيرة فأخذت

فوبيا الإسلام تؤدي الدور الكبير وتجري تغذيتها من خلال ديماغوجيين أمثال برودر. هنا نلاحظ في الوقت نفسه كيف يُسكت عن إحدى المسؤوليات التاريخية الخاصة بألمانيا وهي الاعتراف أخيرًا بالفلسطينيين على أنهم ضحايا؛ ذلك أنهم هم آخر من يتحمل تكاليف الهولوكوست. وللأسف ما زال الفلسطينيون إلى اليوم ينتظرون هذا الاعتراف من دون جدوى.

طبعًا برودر سيكون آخر من يدافع عن ذلك. لقد كتب هذا الرجل منذ ما يقرب الأربعين عامًا أنه يمكن أن يتوقع المرء من إسرائيل "أن لا تتصرف كأنها "الشريف" [الشرطي] في الشرق المتوحش وأن تحافظ على التراث الذي ميز اليهودية الأوروبية إلى حين إبادة اليهود، خاصة التعددية في داخلها والتسامح مع الآخرين. وأن تعتبر نفسها جزءًا من منطقة الشرق الأوسط وليس موقعًا متقدمًا لأوروبا في آسيا"[1]. لكن موقفًا كهذا قد ودّعه حقيقة منذ زمن طويل؛ فاليوم نراه يكتب: "لا يمكن إنقاذ القيم الغربية إلا بعدم التسامح".

إن شخصيات مثل فريدمان وبرودر وكنوبلوخ وشوستر لهي شخصيات معروفة: إنها شخصيات تمثّل صفارات إنذار الأمة؛ وما يدهش هو ذلك التشابه بينها؛ والحال أن ثمة ألمًا من إنسان يهودي حينما يرى في ألمانيا كيف يجري نقد اليهود الذين ينتقدون إسرائيل، بسبب نقدهم فحسب. اليهودي هنا ليس مذنبًا في مسألة معاداة السامية بل يدعمها تمامًا من خلال محاربته [المعاداة]. ولا ننسى أنه يوجد بين ظهرانينا أيضًا كثير من غير اليهود ممن يمثّلون أبواقًا دعائية في هذه المسائل، مثلًا ماتياس دوبفنر من مؤسسة النشر أكسل شبرنغر، وفولكر بيك من حزب الخضر، وبترا باو من حزب اليسار، وهانز بيتر أول (Hans-Peter Uhl) من الحزب المسيحي الاجتماعي وغيرهم كثر.

هؤلاء كلهم ينشرون أساطير عن إسرائيل المسكينة والصغيرة التي تقوم بـ"الدفاع" عن نفسها فحسب ضد "هجمات جيرانها الإسلاميين"، كما كتب مرة أحد موظفي مؤسسة أكسل شبرنغر للنشر، ليور إنغلندر (Leeor Engländer)

---

(1) *Freie Jüdische Stimme*, no. 3 (Köln, September 1979)

في يوديشه ألغماينه. هكذا أصبحت الدول المجاورة لإسرائيل بكليتها إسلاميين فحسب، في حين ما عادت إسرائيل تقاتل جيرانها منذ عقود، باستثناء لبنان، وبشكل أساسي مقاتلي المقاومة الفلسطينية، الذين يطلق عليهم الإسرائيليون اسم "إرهابيين".

كان كريستيان غاير-هيندميت (Christian Geyer-Hindemith) قد كتب في 25 تموز/يوليو 2014 في جريدة فرانكفورتر ألغماينه تسايتونغ أون لاين (*FAZ-Online*): "لقد وصل العار في كراهية اليهود الحالية إلى مستوى جديد تمامًا". وتابع: "كما هو ملاحظ فإن معاداة السامية هذه تنبع أساسًا وقبل كل شيء من رؤوس المهاجرين القادمين من تركيا ومن دول عربية إسلامية المنشأ، ولا يمكن إخفاء هذا النمط من معاداة السامية في التحالف غير المقدس لكره اليهود؛ ولن يغدو وضعه أفضل فحسب من خلال تأكيدات تذهب إلى القول إن هذا النمط من معاداة السامية يسيطر عليه ظلاميون من بلادٍ بعيدة. الأصح أن نقول إن عداء تقليديًا للسامية منبثٌ ويفعل فعله في كثير من هذه البذاءات المعادية لليهود في بلاد الوطن، وهو عداء لا يمكن رؤيته بمعزل عن خلفياته الدينية".

يشير المؤلف كذلك إلى التظاهرات التي كانت موجهة ضد الحرب الإسرائيلية على السكان المدنيين في غزة. وحتى لو تخلل هذه التظاهرات بعضٌ من الشعارات المتفرقة المعادية لليهود، فإن التظاهرات في حد ذاتها لم تكن لها دوافع معادية للسامية، بل كان لها دافع سياسي محدد. إلا أن المؤلف يتجاهل هذا الأمر ببساطة. وكم هو أمر لاتاريخي نقاشه الذي يتنكر لـ "معاداة السامية التقليدية" في أوروبا ويصوِّر إنتاجها بدلًا من ذلك على أنه من العالم العربي؟ ففي وقت هَجّرت إسبانيا المسيحية اليهود وباتت أوروبا المسيحية لا ترغب في وجودهم على أراضيها - باستثناء هولندا - كانت الإمبراطورية العثمانية المسلمة هي ما أعطى اليهود الإسبان وطنًا جديدًا. لنتذكر أيضًا عيش اليهود من دون إزعاج إلى حدٍّ كبير في كلٍّ من البلقان التي كان يحكمها العثمانيون وفي اليونان وبلغاريا إلى أن قدم جيل من أهل كريستيان غاير-

هيندميت فتم ترحيلهم من هناك إلى معسكر أوشفيتز. ولقد نجا اليهود في تركيا، بلا شك. أكتفي بهذا في ما يخص "المعاداة للسامية في بلاد الوطن"!

يمكننا في الأساس الشعور بالأسف لمثل هؤلاء الناس. فهم يعيشون في وسطٍ غير محبوب، غرباء في بلدهم، قلوبهم معلقة بالقدس كما عبَّرت عن ذلك شارلوت كنوبلوخ ذات مرة على نحو مثير للشفقة. كيف يمكن أن يعيش المرء من دون قلب؟ لا يمكن أن يرد ذكر للفلسطينيين في نصوص برودر وأمثاله أو أن نعثر على تعاطف معهم ومع مصيرهم في هذه النصوص. لكن لنشدد على وجود قلة التعاطف بالعموم مع أيِّ شخص لا يكون غربيًّا أو مسيحيًّا أو يهوديًّا. أما عند برودر فلا يوجد عرب أو فلسطينيون، هناك فحسب في عالمه: إسلاميون أو إرهابيون أو جهاديون. والمسلم الوحيد الذي يصفه بالصديق هو المتمرد.

إن الحياة من دون قلب ليست بحياة. أما الفلسطينيون فهم محتقرون، ولا يفيد مصيرهم سوى الإحصاءات. لنشاهد كيف يبكي المرء عندما يُقتل جندي إسرائيلي أو طفل يهودي، إلا أنه بالكاد يُعترَف بقتل عشرات الأطفال الفلسطينيين، ثم نجد كيف يبرِّر ذلك: دفاعًا عن النفس. هكذا وصلنا فحسب إلى حلقة مفرغة، يتوجب علينا في النهاية كسرها. لقد تحولت إسرائيل إلى وحشٍ جشع يطلب دائمًا المزيد من الضحايا، وكأنها غدت تشبه "كرونوس[2] الذي يفترس أطفاله". ولنتذكر ما قاله الحاخام غولدبرغ من لندن مرة: "إننا نحن اليهود نلحق ضررًا بأنفسنا، حينما ننادي دائمًا: 'معادو السامية'".

يمكن قراءة هذه العدالة التي ينسبها المرء إلى نفسه في هذا الاقتباس ذي السمعة السيئة الذي يعزى إلى غولدا مائير: "إننا نغفر لكم قتلَ أطفالنا، ولكن أن تجبرونا على قتل أطفالكم فهذا أمر لا نغفره لكم".

لكن أود من جانب آخر أن أؤكد أن الناس الطبيعيين لا يجدون متعة في

---

(2) كرونوس ابن غايا إلهة الأرض عند اليونانيين. لخوفه من أن يؤذي أولاده كما آذى هو والده أورانوس، كان يبتلعهم وهم رُضَّع، حتى أعطته زوجته حجرًا مقمطًا فابتلعه، وبهذا نجا الابن الأصغر زيوس، الذي حرر إخوته من بطن أبيه بعدما كبر واشتد عوده. (المترجمة)

أن يكونوا جناة. وإنه لأمر معروف لنا أن كثيرين من الإسرائيليين يفقدون على نحو متزايد هذه المتعة ولهذا السبب يغادر كثير منهم هذه الأرض. وكثير منهم يأتون إلى برلين التي يعيش فيها حاليًا قرابة 30.000 إسرائيلي. كما نعلم أيضًا أن كثيرًا من الجناة النازيين انتحروا بعد الحرب، ذلك أنه ما عاد بمقدورهم الاستمتاع بكونهم مرتكبي جرائم. وكان هايو ماير، الذي نجا من معسكر أوشفيتز، قد أجاب عن سؤال هل يشعر الشخص بمتعة "أن يكون جانيًا": "يعتمد هذا الأمر على الشخص إذا كان لديه ضمير أم لا". لكن على ما يبدو فإن شخصًا مثل برودر لهو رجل بلا ضمير.

يبقى سؤال أمامنا: هل برودر مهرج بلاط أم محقق؟ والحال أنه يصعب تصنيف الفذلكات التي تصدر عن هؤلاء ما إذا كانت جدية في ما تصرِّح به أم هي مجرد تهريج. أيضًا من الصعب تصديق أن شخصًا يُعتبر ذكيًا يرى في شخص يعادي الصهيونية أنه ينأى عن اليهودية. لنعلم أن هناك مئات الآلاف من الحسيديين [حسيديم] واليهود الأرثوذكسيين المتطرفين الذين يرفضون الصهيونية لعدم توافقها مع اليهودية. لكن بالنسبة إلى برودر فإن هؤلاء من الواضح ليسوا يهودًا، بل إنه يخرجهم من الملة [يعتبرهم خارجين عن اليهودية]. فالرجل يعتقد، وهو ما صرح به لمجلة تاخليس (*Tacheles*) السويسرية اليهودية، أن كل يهودي معادٍ للصهيونية "لديه ميل إلى أن يكون معاديًا للسامية". وبهذا فالرجل يضع أيديولوجيته، أي الصهيونية، فوق وصايا الدين اليهودي ويرفض اعتبار الآخرين كلهم، بمن فيهم اليهود المتدينون، أنهم يهود حقيقيون. ربما يبدو لنا هذا الكلام مجرد هراء يثير السخرية، إلا أن الرجل للأسف جِدّي تمامًا في ما يقوله.

لن أحاكم برودر بسبب أسلوبه. ولن ألقي باللوم عليه، بل على الصحافة الألمانية التي صنعته على هذا النحو. فهو يُسمح له بالتفوه بالإهانات الساخرة وشتم الآخرين، لماذا؟ لأنه يهودي. بالنسبة إليَّ، أعتبر مناصرة السامية هذه [أي الفيلوسامية] هي بذاتها المعاداة الحقيقية للسامية، حيث إنني غالبًا ما أتساءل في ما إذا كان السبب وراء صمت الزملاء عن برودر يمثِّل خبثًا ورضًا ليسمحوا لبرودر بأن يقدِّم لنا نفسه على أنه الشخص اليهودي الذي لا يمكن المرء

سوى احتقاره وكرهه. إن برودر بالنسبة إليَّ يمثِّل الاشمئزاز بعينه ويستمتع باشمئزازه، طبعًا وفقًا لشعاره نفسه: "لماذا الموضوعية، حينما تسير الأمور بشكل شخصي". إنه يسخر من الناس الذين لا يتفقون معه ولا يدركون بذلك ما يصنعه، أي معاداة السامية.

لقد غدا الأمر حقًّا كما لو كان مع مشاركين في معسكرات تخييمية في الغابات: فالشيء الأساس هنا هو شهرة الشخص، وثمة الكثير من المال، بل يُقبل بالإهانة والضحك على الآخرين. فبرودر يستفز الآخرين ويعمل على إحداث استقطاب في المجتمع، ويكفيه أن يكون محط إعجاب من طرف جماعة "ضد الألمان" [ستُذكر لاحقًا]، بينما نجد آخرين يتجاهلونه تمامًا ولا يعيرونه بالًا. وإذا لم يكتسب المرء الشهرة بلباقة فهذا يعني كسبها بالكراهية؛ والأمر نفسه هو ما يسير به النازيون الجدد. أخيرًا أختم بهذه الجملة: كما أفادت الصهيونية من معاداة السامية، والعكس صحيح، فإننا نجد أيضًا برودر يدعم الميول المعادية للسامية في المجتمع من خلال ما يظن أنه يحاربها؛ بيد أننا نجد أن هذه الميول نفسها تدعمه.

13

تشويه سمعة غونتر غراس

في 10 نيسان/ أبريل 2012 نشرت جريدة زودويتشه قصيدةً للأديب الحائز جائزة نوبل غونتر غراس، فأحدثت القصيدة قنبلة بين الجمهور الألماني. لا يخفى أنها احتوت أيضًا ذكر القنبلة، القنبلة النووية، وبالتحديد أكثرَ الكاتب من الحديث عن القنبلة النووية الإسرائيلية وخوفه من إمكان استخدامها ضد إيران.

على الفور بدأت عاصفة من السخط عليه. أهان هنريك برودر حامل جائزة نوبل بنعته بأنه "معادٍ أبدي للسامية"، كما اتهم المؤرخ ميشائيل فولفزون الشاعر بأن قصيدته تحتوي "تقريبًا كل الصور النمطية المعادية للسامية"، مدعيًا، أي فولفزون، أن غراس حوّل في قصيدته "الضحايا" إلى "جناة". مع العلم أن غراس لم يذكر قط في قصيدته أن الإسرائيليين هم "جناة"، بل أراد التحذير من أن يصبحوا هكذا. ومن لا يريد رؤية هذا الفرق، فهو لا يريد رؤيته.

ووصف المجلس المركزي لليهود القصيدة بأنها عبارة عن "كتيب تحريضي وعدواني"؛ أما بالنسبة إلى الكاتب رالف جوردانو الذي توفي في عام 2014، فالقصيدة ليست أقل من "هجوم على وجود إسرائيل". وعمومًا فقد أنقذته إسرائيل. والحال أن في إسرائيل نفسها نجد تصنيفًا لوزير الخارجية وصف فيه هذه القصيدة بأنها "تافهة"، وهو الأمر الذي كان بمنزلة انتقاد خفيف تقريبًا وغير مؤذٍ وذلك مقارنةً بردات الفعل الألمانية. لقد فرضت إسرائيل على حامل جائزة نوبل للأدب أمرًا بمنع دخوله البلاد، رغم أن هذا الرجل بالأصل لم تكن لديه نية السفر إلى إسرائيل.

أما في أميركا فقد سأل الناشر وحامل جائزة نوبل للسلام إيلي فيزل (Elie Wiesel) مذعورًا: "هل عاد الألمان القدماء فجأة ورفعوا رؤوسهم؟". كما أن جزءًا كبيرًا من النخبة الألمانية وقف موقف الضد من غراس. أما الناشر فرانك

شيرماخر من جريدة فرانكفورتر ألغماينه تسايتونغ فيتحفنا بأن الأمر يتعلق هنا بـ "صنيعة الضغائن"؛ في حين تحدّث ماتياس دوبفنر، عالم المسرح ورئيس دار نشر أكسل شبرنغر، عن "معاداة سامية دقيقة سياسيًا"، وادّعى، في إشارة إلى رواية غراس تقشير البصل (*Häuten der Zwiebel*) أن نواة البصل لهي بُنية [فاسدة]. كما قال ميشائيل نومان، الناشر ووزير الثقافة السابق وعضو الحزب الاشتراكي الديمقراطي: "إن قصيدته عبارة عن فضيحة أخلاقية وسياسية".

لقد كان هذا غيضًا من فيض مما تداولته الانتقادات الغاضبة ردًّا على هذه القصيدة غير المؤذية. ومن الأشخاص القلائل الذين دافعوا عن غراس رئيسُ أكاديمية الفنون كلاوس شتيك (Klaus Staeck) الذي قال: "يجب السماح للمرء بالتحدث بوضوح من دون إدانته كعدو لإسرائيل". ورغم أن المؤرخ الإسرائيلي توم سيغيف وجد أن قصيدة غونتر غراس "انفعالية" و"أنانية"، فإنه لم يصفها بمعادية للسامية مذكّرًا في الوقت نفسه بالنقاشات التي تجري في إسرائيل منذ زمن بشأن الهجوم الإسرائيلي على إيران. كما صرَّح أيضًا ناشر كتب غونتر غراس، الإسرائيلي الأصل، تسيف ليفيز (Ziv Lewis): "لم ينزعج الإسرائيليون من القصيدة كما انزعج الألمان"، ولم يكن قوله هذا عبارة عن رأي بل كان بيانًا.

صرح السفير الإسرائيلي السابق في ألمانيا أيضًا إيمانويل نحشون أن عليه التدخل في هذا النقاش كما هو حال كثير من أسلافه وخلفائه، وبيَّن أن هذا ينتمي إلى التراث الأوروبي في اتهام اليهود بشأن طقوس القتل في عيد الفصح، وهنا نجده يقول: "كان الزعم في الماضي أن اليهود يستخدمون دم الأطفال المسيحيين من أجل صنع خبز المصة، أما اليوم فهناك الشعب الإيراني، الذي يُزعم أن إسرائيل ستقضي عليه"، ثم يصنف الرجل غراس في تلك السلسلة القديمة نفسها التي تحوي أحكامًا تحيزية مسبقة معادية للسامية. لكن من يدّعي بكل جدية أن غراس مع قصيدته يضع نفسه في ذلك التراث عن أساطير طقوس القتل، التي نُشرت سابقًا عن اليهود وساهمت في اضطهادهم، لهو شخص لا يتسم خطابه بالجدية.

وهنا نسأل: بماذا اتُّهم غراس بالضبط؟ القول إن الرجل قد كتب أن إسرائيل وضعت خطة لمهاجمة إيران من خلال ضربة استباقية بغية منعها من صنع قنبلة نووية، لهو قولٌ لا يشي البتة بمعاداة السامية، بل هو أمر معروف لنا منذ سنوات. سأشير هنا مثلًا إلى مقالة شاملة نشرها الناشر يوزيف يوفيه، من جريدة دي تسايت، في عام 2010 في المجلة الأسبوعية هامبرغر فوخن تسايتونغ (*Hamburger Wochenzeitung*) بعنوان "هل إسرائيل بمفردها ضد إيران؟"، والمقالة تتناول بالضبط هذا الموضوع[1]. يمكننا أن نقرأ كذلك ما جاء في جريدة هاندلسبلات (*Handelsblatt*)، في عددها المنشور في تشرين الثاني/ نوفمبر 2011، بأن إسرائيل تهدد بتوجيه ضربة عسكرية إلى إيران. وفي جريدة دي فلت نشر المؤرخ الإسرائيلي المشهور بيني موريس في تموز/ يوليو 2008 مقالةً تطرق فيها إلى مسألة هل إسرائيل وإيران على وشك حرب نووية، فكتب موريس: "ستجرأ إسرائيل على الهجوم، وذلك لاعتقادها أن وجودها الفعلي في خطر". وتتوقع وكالات الاستخبارات الغربية أن إيران ستتمكن من البدء في إنتاج القنبلة النووية في غضون سنة إلى أربع سنوات[2].

ولنتذكر أيضًا تهديد رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو سابقًا، في عام 2008، لإيران بضربة مدمرة إذا أرادت مواصلة تطوير برنامجها النووي وبناء قنبلة نووية. وما عاد منذ سنوات الأمر سرًّا أن إسرائيل نفسها لديها أكثر من مئة قنبلة نووية وأنها ثبتت صواريخ نووية على طائراتها المقاتلة في حرب أكتوبر 1973 ضد مصر. لقد مضى على تلك التصريحات تسع سنوات، ولحسن حظنا لم تصنع إيران قنبلة نووية ولا إسرائيل هاجمتها. إلا أن الإعلام قد جال وفاض بين عامي 2008 و2014 في تناوُل هذا الموضوع. ووحدها دير شبيغل قدَّمت تقارير عدة تفيد بأن إسرائيل تخطط لشن هجوم نووي؛ ليس أقله بمساعدة الغواصات التي تستلمها من ألمانيا. إنه لأمر مدهش، بل وصل إلى حد النفاق والسخرية، بأن يُتهم غونتر غراس بـ "معاداة السامية"، لأنه تجرأ فحسب على تناوُل خطر الحرب النووية في قصيدة نقدية.

(1) https://bit.ly/3H0JYtE

(2) https://bit.ly/3nXft5S

وصل الأمر حتى إلى نقاش غونتر ياوخ (Günther Jauch) هذه القصيدة في برنامج الحوارات السياسية مساء الأحد في ألمانيا. لقد تخلت عن غراس أيضًا السياسية هايدي سيمونيس من الحزب الاشتراكي الديمقراطي في مقاطعة شليزفيغ هولشتاين، وكان غونتر غراس قد دعمها في حملاتها الانتخابية. صرحت سيمونيس أنها "لا تستطيع الموافقة على قصيدة غراس المزعومة"، وقالت غاضبة إنه "فشل في الدخول في العمل الدبلوماسي"، كما لو كانت تلك حقًا نيته. أما مارسيل رايش-رانيكي فقد رأى أن غراس ليس معاديًا للسامية ولكنه "معاد لإسرائيل"، وربما كان على حق في ذلك، رغم أنه لا يمكن اعتبار الشخص "معاديًا لإسرائيل" لمجرد انتقاده سياساتها. فأنا أنتقد إسرائيل ولا أرغب في أن يتم وصفي بأنني معادٍ لإسرائيل. وقد صرَّح الممثل ميشائيل ديغن أن غراس لديه مشاكل منذ زمن طويل مع اليهود وإسرائيل، طبعًا من دون أن يخبرنا كيف توصَّل إلى هذا الاستنتاج. نشير هنا كذلك إلى رأي الخبير بالشرق الأوسط ميشائيل لودرز الذي يرى أن إيران قد لا تكون في موقع يمكِّنها من تعريض إسرائيل للخطر على نحو جدي، وهو الأمر الذي جلب إليه السخرية من ميشائيل فولفزون، ووزير التنمية السابق ديرك نيبل الذي يعمل الآن في لوبيات العمل والتجارة بالسلاح، وهو من الحزب الديمقراطي الحر.

كان مالته ليمنغ (Malte Lehming) قد سرق الأضواء حينما قام في جريدة **تاغسشبيغل** (*Tagesspiegel*) البرلينية بمقارنة عنوان قصيدة غراس - "ما ينبغي قوله" - بالشعار النازي "اليهود هم حظنا السيئ"، وهو الأمر الذي كان كافيًا بالنسبة إليه لوجود دليل على "معاداة المؤلف [غراس] للسامية". طبعًا ليمنغ لم يكن غبيًا حينما يكتب وهو يسيء تقدير الأعمال الأدبية لغراس: "من يكتب الشعر فجأة في الصحف الوطنية من دون أن يلاحظ ذلك، فربما يفعلها دائمًا من دون أن ينتبه له الآخرون". يمكن أن يسأل المرء هنا على نحو معاكس: أيكتب ربما ليمنغ نفسه في الصحف الوطنية من دون ملاحظة ذلك؟ ثم ألم تنتبه له لجنة جائزة نوبل أيضًا؟

أما ميشيل فريدمان فإنه لم ينسَ تذكيرنا أن غونتر غراس نفسه، وبعمر

السابعة عشرة، استُدعي إلى "الفرقة العاشرة مدرعات"، التابعة للجناح العسكري للحزب النازي، و"طوال خمسين عامًا" بقي صامتًا حيال ذلك. هنا في هذا السياق يأتي دور برودر ليضيف في مجلة فوكوس (*Focus*): "كان غراس في السابق أحد رجال القوات النازية الخاصة، واليوم يكتب وكأنه واحدٌ منهم". صحيح أن غراس كان قد تسجَّل في القوات البحرية طوعًا إلا أن دخوله مع قوات النخبة النازية الخاصة (SS) لم يكن كذلك. لكن نقول هنا إن من بدأ قضايا كهذه ليسوا إلا أناسًا متعجرفين أمثال برودر وفريدمان وفولفزون. ويود هؤلاء بالطبع تصوير أنفسهم بأن أفعالهم دائمًا بلا عيوب أخلاقية وصحيحة من الناحية السياسية.

لقد ولدتُ في عام 1945 ولا أستطيع الحديث والكتابة من تجربتي الخاصة عما سبق ذلك. لكن بحكم الحس السليم والتجربة والمعرفة التاريخية يمكن القول: إن شخصًا بعمر السابعة عشرة في عام 1944 سيكون بعيدًا كل البعد من أن تكون له دراية سياسية وسيكون أيضًا من السخف مقارنته بشبان يافعين اليوم أعمارهم سبعة عشر عامًا، طبعًا إذا غضضنا النظر كذلك عن أن غونتر غراس قد نشأ أصلًا في ظل دكتاتورية مارست بشدة غسل دماغ الشعب.

بالطبع إن صيادي معادي السامية يحتاجون إلى معادي السامية المزعومين حاجةَ التنفس إلى الهواء. وإلا كيف يمكن تبرير انفعالاتهم؟ فبالنسبة إلى برودر، إن معادي السامية هم "الفطور" كما وصف ذلك عالم السياسة مارك فليغاوف (Mark Fliegauf)؛ حيث إن معاداة السامية، بالنسبة إلى برودر وشركائه، منتشرة في كل مكان. "غراس؟ بالتأكيد هو معادٍ للسامية. القناة الألمانية الثانية؟ أيضًا هي قناة معادية للسامية. وكلاوديا روت؟ أيضًا هي الأخرى معادية للسامية. الألمان؟ أيضًا هم معادون للسامية. حتى باراك أوباما الذي حذَّر إسرائيل من ضربة أولى ضد إيران: أيضًا هو معادٍ للسامية"[3]. والحق فإذا ما كانت معاداة السامية تمثِّل رهابًا [فوبيا]، فإن هذا الرجل برودر يحمله. وإذا ما وثقنا بأبحاث معاداة السامية في ما تذهب إليه في توضيح هذا الاصطلاح،

(3) https://bit.ly/3tXTO17

فإن ثمة معيارًا، وفق هذه الأبحاث، بشأن الرؤية المعادية للسامية: أي النظر إلى اليهود وإسرائيل على أنهم مسائل خاصة والتعامل معهم بمعايير مزدوجة؛ وإلا، أجيبوني من فضلكم، ماذا يعني المعيار في تحديد معاداة السامية أكثر من هذا المعيار حينما يتم استخدام اتهامات معاداة السامية على نحو وسواسي مهووس؟

الحال، أن من الأفضل لهؤلاء الناس، بدلًا من البحث عن آثار معاداة السامية المزعومة في ألمانيا، أن ينشغلوا بالعنصرية التي تحكم على نحو واضح في إسرائيل. وثمة اقتناع تام عند المستوطنين اليهود المتطرفين في الأراضي المحتلة من إسرائيل، بشكلٍ ما، أن قيمة الدم العربي أقل من قيمة الدم اليهودي؛ ويدعمهم في ذلك الحاخامات المستوطنون الراديكاليون الذين يسعون لتبرير أيديولوجيتهم لاهوتيًّا. ومثل هذا السوء الذي نقابله عند هؤلاء الراديكاليين موجود كذلك في المجتمع نفسه الذي يتيح لهم الاستمرار في تطرفهم أو لا يفعل شيئًا ضد ذلك.

لقد أسس مرة الحاخام المستوطن موشيه لفينغر (1935-2015) حركة المستوطنين الدينية القومية "غوش إيمونيم" (أي جماعة المؤمنين) التي هدفت بعد حرب أكتوبر 1973 إلى الاستيطان على جميع "أراضي إسرائيل" بما في ذلك مناطق في الضفة الغربية وفي قطاع غزة. لقد كان لفينغر نفسه مشاركًا في تأسيس مستوطنات في مدينة الخليل وكريات أربع القريبة منها، وتقدَّم إلى المحاكمة مرات عديدة ودين في مناسبات أخرى، بما في ذلك في إدانتين لإطلاقه النار على فلسطينيين في مناسبتين منفصلتين. كما رحب صراحة بمذبحة الحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل الفلسطينية، في عام 1994، والتي قام بها الطبيب اليهودي والمستوطن الراديكالي باروخ غولدشتاين. تلك المذبحة التي ارتكبها بحق 29 فلسطينيًّا كانوا يصلّون في المسجد الإبراهيمي في الخليل. وكان شعاره أن "الأرض أكثر أهمية من الحياة".

يُعدُّ الحاخام يتسحاق شابيرا الذي ولد في عام 1966 أحد أتباعه الروحيين، وهو يدير مدرسة دينية في الضفة الغربية في مستوطنة يتسحار. ونشر

في عام 2008 بالتعاون مع الحاخام الراديكالي أيضًا يوسف إليتسور كتاب **توراة الملك** (*Die Tora des Königs*) الذي شرّع فيه من الناحية الدينية العنف ضد الفلسطينيين ورأى أن يُسمح لليهود بقتل غير اليهود إذا كانوا يشكّلون تهديدًا لإسرائيل. وهذا ينطبق أيضًا على الأطفال الذين من الممكن أن تكون لهم نشأة كأعداء للشعب اليهودي. ولا ننسى أن زميله يوسي بيل كان قد دافع في السابق عن فكرة طرد أو قتل جميع الذكور الفلسطينيين الذين يتجاوزن الثالثة عشرة، وتلقّى تأييدًا من يتسحاق شابيرا. ورغم أنه تم السير بإجراءات ضد هاتين الشخصيتين بسبب تحريضهما، إلا أنها إجراءات ذهبت أدراج الرياح ولم يأت منها شيء.

إضافة إلى ذلك، يجادل حاخامات راديكاليون مثل هذه الشخصية شابيرا بشأن تأييد استغلال استخدام الفلسطينيين في الحرب دروعًا بشرية لحماية الحياة اليهودية. وكان شريكه يوسي بيل رحَّب بتلك الهجمات الانتقامية، ومن ضمنها كتابات مسيئة على الجدران، والتي يقوم بها المستوطنون المتطرفون ضد الفلسطينيين أو ضد ممتلكاتهم أو مساجدهم، حيث يمارسون "الانتقام" بسبب أعمال العنف الفلسطينية بحسب رأيهم[4].

إذا ما أخذنا في الحسبان هذه الظواهر، فسيبدو أمامنا من المعقول ما رواه مؤسس منظمة "كسر الصمت" لحقوق الإنسان، يهودا شاول، أن المستوطنين المتطرفين قد قاموا بتسميم بئرٍ يستخدمه الفلسطينيون في الضفة الغربية بجثث الدجاج، لذلك أُجلي السكان لسنوات عدة ولم يتمكنوا من العودة إلى هناك إلا لاحقًا. لقد كان هدفُ تسميم الماء إخراجَ الفلسطينيين من مدنهم وقراهم بغية تمكين المستوطنين من السيطرة على الأرض الفلسطينية. طبعًا هذا الأمر ليست له علاقة بالأسطورة القديمة عن تسميم الآبار التي درجت في العصور الوسطى للتحريض ضد اليهود. وللعلم، ليس هناك أيُّ دليل حتى على القيام بأفعال سخيفة كهذه في العصور الوسطى، لأن اليهود أنفسهم قد شربوا من الماء نفسه.

---

(4) https://bit.ly/3rPOIGX

رغم ذلك، فقد كيلت الاتهامات في المدونات الموالية لإسرائيل والراديكالية لهذا الناشط في حقوق الإنسان يهودا شاول، وهو نفسه بالمناسبة يهودي أرثوذكسي، بأنه يدعم هذه التحيزات المسبقة، لأنه تحدَّث بتلك الحقائق فحسب[5].

طاول الأمر حتى محمود عباس، رئيس السلطة الفلسطينية، الذي أشار إلى ذلك في خطاب له أمام البرلمان الأوروبي، فتمت مقارنته بكاره اليهود يوليوس شترايخر.

يمثِّل النزاع بشأن المياه أحد أهم النزاعات الأساسية في المنطقة، لأن الإسرائيليين والفلسطينيين يستخدمون خزانًا مشتركًا من المياه الجوفية. ووفقًا للدراسات الاستقصائية التي أجراها البنك الدولي في عام 2009، فإن الإسرائيليين يحصلون على أكثر من 86 في المئة من المياه، في حين أن الفلسطينيين لا يصلهم سوى 14 في المئة من حصتهم. والسلطات الإسرائيلية نفسها تقرّ بأن الإسرائيليين يصلهم من المياه أكثر بكثير من الفلسطينيين[6]. إضافة إلى ذلك يجري باستمرار، في الوقت نفسه، توسيع إمدادات المياه للمستوطنين اليهود في الضفة الغربية. أضِف إلى ذلك الانتشار الواسع لحمامات السباحة الكبيرة في المستوطنات اليهودية، في حين تندر المياه في المناطق العربية، وليس أدلّ على ذلك من تلك الطوابير من السكان الذين يقفون أمام صهاريج المياه، حيث يتكلفون مبالغ باهظة، من أجل أن يحصلوا على ماء فحسب.

لقد أصبح من المعتاد أن يهاجم المستوطنون الإسرائيليون الشبان الفلسطينيين، ويلطخوا المساجد بشعارات معادية للإسلام، ويُتلفوا بساتين الزيتون. أما الجيش فنجده لا يتدخل لإيقافهم سوى بحدٍّ قليل. ووفقًا لمكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية (OCHA) فإن أكثر من 90 في المئة من

---

(5) https://bit.ly/3KHTJV8

(6) https://bit.ly/3u7foQG

البلاغات التي قُدمت إلى الشرطة ضد عنف المستوطنين، لم يكن لها أيُّ تأثير ضد الجناة. أما بعض الحاخامات المقربين من حركة الاستيطان فيُبدون أمامنا تفهمًا لهذا العنف ضد الفلسطينيين.

في صيف 2016 اشتكت وزارة الخارجية الفلسطينية في رام الله على ما تعوَّده الفلسطينيون من سرقة الإسرائيليين لمياههم ثم بيعها لهم بسعر باهظ؛ بل قامت السلطات الإسرائيلية أيضًا في أيام رمضان الحارة بقطع إمدادات المياه عن شمال الضفة الغربية وفرضت شروطًا صارمة على الفلسطينيين الذين يريدون حفر آبار مياه.

بالعودة إلى غراس، حيث لم يكن هذا الرجل أول شخص تملكته الرغبة في كسر الصمت عن هذه التطورات؛ فقد سبقه بسنوات عديدة الناشط في حقوق الإنسان روبرت نويدك فنشر كتابًا بعنوان: **لم أعد أطيق الصمت: حول الحق والعدالة في فلسطين**[7]. وكان الشاعر اليهودي كذلك إريش فريد قد نشر أيضًا في عام 1974 ديوان شعر بعنوان **اسمعي يا إسرائيل** (*Höre Israel*) انتقد فيه بحدة إسرائيل والصهيونية[8]. وعنون قصيدةً "أشعار ضد الظلم" وتوجَّه فيها ضد العنصرية والفاشية، والقمع وطرد الأبرياء من الناس في كل مكان في العالم، وحتى ضد الظلم الذي يطاول الفلسطينيين. وتبدأ القصيدة بالسطور التالية: "الذين صرخوا [بالأمس] 'اليهود مذنبون'، هم [اليوم] مذنبون، بأن الصهاينة قد يكونون مذنبين". وحقًا فقد توقَّع هذا الشاعر في قصيدته "التسميات" الكثير مما سيكتبه غراس بعد أربعين عامًا. لقد واجه فريد سابقًا صعوبات في نشر ديوانه، لكن حقيقة أنه كان يهوديًا، قد مثَّلت حماية له من شرورهم كما حدث مع غونتر غراس.

نشير كذلك إلى نقطة أخرى: لقد حصلت حنة أرندت في عام 1959 على

---

(7) Rupert Neudeck, *Ich will nicht mehr schweigen: über Recht und Gerechtigkeit in Palästina* (Melzer Verlag Neu-Isenburg, 2005).

(8) Erich Fried, *Höre Israel* (Neu-Isenburg: Melzer Verlag, 2005).

جائزة لسينغ من مدينة هامبورغ. وكانت كلمة الشكر لها "حول الإنسانية في الأوقات المظلمة" من أكثر الخطابات حكمة على الإطلاق بشأن علاقة الروح والقوة. تقول أرندت: "لم يصنع لسينغ سلامه مع العالم الذي عاش فيه. لقد كانت سعادته في الوقوف ضد التحيزات المسبقة وإخبار الحقيقة لأولئك الغوغاء النبلاء. أما ما هو مقدار الأثمان التي تكلَّفها لقاء هذه السعادة، فهنا بالضبط كانت تكمن سعادته". وأنا أيضًا أتعاطف مع ذلك، خاصة حينما يتعلق الأمر بأولئك الغوغاء النبلاء.

لنعلم أن الإسرائيليين هم أيضًا جناة، إلا أنهم يشعرون بكونهم هم الضحايا فحسب، ويرفضون النظر في المرآة إلى ذلك الوجه القبيح الذي يتحفون العالم به من خلال سياساتهم. إنهم يتجاهلون تحذيرات أفضل أصدقائهم ويشتكون من أنهم يقفون وحدهم. وشيئًا فشيئًا تتحول إسرائيل كما رأى الفيلسوف الديني الأرثوذكسي القدير يشعياهو ليبوفيتش قبل خمسين عامًا: إلى بلد يسوده مجتمع فاشي قومي-ديني، حيث رغم اعتباره الفلسطينيين عدوه الرئيس، فإنه يستهدف أيضًا الآن بالفعل حتى فئات من الشعب اليهودي: النساء، والمثليين، واليساريين، ولاحقًا كل من يخالفه الرأي.

وهذا هو في الحقيقة ما توقَّعه الشاعر هاينرش هاينه قبل 200 سنة في قصيدته الشهيرة إلى أدوم (*An Edom*) في هذه الأسطر التالية:

ألف سنة طويلة تمر،
لنكن متسامحين،
تتسامح معي بأن أتنفس،
وحينما تغضب أنت فإني أتسامح.

وأحيانًا في الأوقات المظلمة فحسب
تصبح غريبًا،

وتلك الوداعة المرتسمة على حواف القطط الصغيرة[9]
ترسمها وتلونها بدمي!

الآن أصبحت صداقتنا أقوى،
وتزداد كل يوم؛
حيث بدأت أتهيأ بنفسي،
وسأغدو شبيهًا بك.

لقد توقَّع هاينه أن يصبح اليهود في يومٍ من الأيام كأولئك الذين لطخوا حوافهم الناعمة الوديعة بالدم اليهودي. وكما هو حال أدوم أصبحت حال اليهود منذ وقتٍ طويل. وكما هي الحال عند هاينه، أيضًا هي حال غونتر غراس الذي كان يرغب في تحذير اليهود، ولا سيَّما الإسرائيليين، من أن يصبحوا كحال أعدائهم.

(9) يستخدم هاينه لفظة Tatzchen ليعبّر عن الوداعة، وهي تصغير لكلمة Tatze. واللفظة تعني بالأساس مخالب صغار الحيوانات قبل ظهورها، خصوصًا القطط، والتي تكون غير مؤذية وناعمة. (المترجمة)

14

منظمة أونستلي كونسرند

لا محال أمامنا ونحن نناقش موضوعة معاداة السامية في ألمانيا إلا أن نأتي إلى دور بعض المنظمات مثل أونستلي كونسرند (Honestly Concerned) [معنية بصدق]. المنظمة تعمل وفق أساليب كتلك التي طبَّقها السياسي الأميركي من الحزب الجمهوري جوزف رايموند ماكارثي، الذي يطلَق عليه اسم "جو"، والذي اشتهر في أوائل خمسينيات القرن الماضي في أميركا بحملته ضد الشيوعيين، فاتهمهم باختراق الأجهزة الحكومية للولايات المتحدة. إنه هو هذا الرجل الذي سيطر اسمه على مرحلة زمنية كانت فيها نظريات المؤامرة المعادية للشيوعية والإدانات هي ما يُحدد المناخ السياسي في الولايات المتحدة. هكذا لا نستغربن أن الحديث يجري إلى اليوم عن "حقبة ماكارثي".

هذه هي الاستراتيجيا نفسها التي تتبعها منظمة أونستلي كونسرند: أي إدانة كل من ينتقد السياسة الإسرائيلية بأنه معادٍ للسامية، وإيلاء الإعلام والسياسة الاهتمام، بل أحيانًا التوجه حتى إلى رؤساء المؤسسات المعنية أو مصارفها بغية سلبها الأسس القائمة عليها. فحينما تهدد هذه المنظمة إحدى الفعاليات غير المرغوب فيها أو محاضرة لكاتبٍ ناقد أو احتفالية أيضًا غير محبَّذة، تقوم، بين أعضائها والمتعاطفين معها، بتوزيع أرقام الهواتف أو عناوين البريد الإلكتروني الخاصة بالمسؤولين، مثل رؤساء البلديات والمسؤولين الثقافيين والمديرين المعنيين في الإذاعات، ويطلبون منهم إرسال خطابات احتجاج جاهزة ومطبوعة إلى عناوينهم. إنهم يقومون بإثارة الدعوات أو حتى التهديدات أحيانًا بغية تخويف الآخرين. وهذه فعلًا أساليب ماكارثي ذاتها.

هذا بالضبط ما حدث في عام 2015 حينما طالبت منظمة أونستلي كونسرند من أعضائها في قائمة بريدية الاحتجاج على معرض للنكبة

[الفلسطينية] كان مخططًا له في مدينة بريمن الألمانية، وكان ينوي إحياء ذكرى طرد الفلسطينيين عند تأسيس إسرائيل في عام 1948. لقد بدا من المهم بالنسبة إلى المنظمة، كما جاء في النشرة الإخبارية، تقديم شكوى إلى جميع الهيئات ذات الصلة والأشخاص والمنظمات المعنية: بدءًا من المكتبة العامة للمدينة وصولًا إلى رئيس البلدية وأعضاء البرلمان الألماني وبرلمان بريمن ومجلس الشيوخ ومكتب الاستشارات هناك. وبالفعل، فقد لبى هذا النداء كثيرون.

يقف خلف هذه المنظمة وكيل العقارات الألماني اليهودي ساشا ستافسكي من فرانكفورت. وستافسكي هذا هو المبادر إلى إقامة فعالية أيام إسرائيل السنوية، التي يجري فيها التطبيل والترويج للحكومة الإسرائيلية، كما شارك في تأسيس المؤتمر الإسرائيلي - الألماني الذي يُعقد بانتظام منذ سنوات عدة في فرانكفورت. وفي عام 2016 مثَّل هذا المؤتمر الإسرائيلي ملتقى لكل المشتبه بهم تقريبًا مثل السفير الإسرائيلي في ألمانيا ياكوف هداس-هاندلسمان، وهنريك برودر، ورئيس المجلس المركزي لليهود جوزف شوستر، والسياسي في حزب الخضر فولكر بيك، وأمين صندوق مدينة فرانكفورت السياسي في حزب الاتحاد المسيحي الديمقراطي أوفه بيكر، ورئيسة التحرير في إذاعة هِسِن إستر شابيرا. ولا ننسى كذلك أن من بين الشخصيات البارزة من إسرائيل مثلًا وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق شاؤول موفاز، في ظل حكومة أريئيل شارون، وهو اللواء الشهير السابق في إسرائيل الذي شجع جنوده على قتل أكبر عدد ممكن من الفلسطينيين.

نضيف أيضًا أن ستاوفسكي هو أحد مؤسسي مجلس التنسيق الألماني لمنظمات المجتمع المدني (NGOs)، التي تزعم أنها تعمل ضد معاداة السامية، وتشارك في عدد من الشبكات من أجل "مكافحة معاداة السامية ونزع الشرعية عن دولة إسرائيل" كما يطلَق على الأمر؛ وفضلًا عن ذلك فقد نشر كتابًا مع المؤرخ يوليوس شوبس [من منطقة بوتسدام][1]، يتناول، وفقًا لما يقوله، معاداة

---

(1) Klaus Faber, Julius H. Schoeps & Sacha Stawski (eds.), *Neu-alter Judenhass. Antisemitismus, arabisch-israelischer Konflikt und europäische Politik* (Berlin: Verlag für Berlin-Brandenburg, 2006).

السامية في دوائر الثقافة الغربية المسيحية والإسلامية. ويزعم هذان المؤلفان أنه مع هجرة المسلمين إلى أوروبا قد حدث ارتباط بين كلا هذين النوعين من معاداة السامية [الإسلامية والمسيحية] في علاقة كارثية. ويذهب ادعاؤهما أيضًا إلى أن هتلر، بالتحالف مع أجزاء كبرى من الحركة القومية العربية آنذاك، قد ساهم مساهمة كبيرة في نشر فهمه المعادي للسامية في العالم. والدليل على هذا الزعم هو ادعاء علاقة هتلر، السخيفة طبعًا، بمفتي القدس محمد أمين الحسيني حينذاك، والذي لم يكن قط "جزءًا أساسيًا" من الحركة القومية العربية. وبالكاد تجاوز عدد المسلمين المتطوعين الـ 12.000 - ومعظمهم من منطقة البلقان - من الذين جعلهم يشتركون في القتال إلى جانب الألمان. وللمقارنة: فقد كان عدد المسلمين الذين قاتلوا في صف الحلفاء ضد هتلر 250.000 جندي مسلم؛ ومعظم هؤلاء كانوا من الجزائر والمغرب.

لقد شارك في ذلك الكتاب الذي أشرنا إليه قرابة 31 كاتبًا، منهم أبراهام فوكسمان من رابطة مكافحة التشهير (Anti-Defamation-Liga)[2]، وديتر غراومان من المجلس المركزي لليهود، والناشر ماتياس كونتسل وأولريش سام وإستر شابيرا وساشا ستاوفسكي. طبعًا كل هؤلاء ليسوا بمؤرخين، ومعارفهم ضحلة للغاية وأحادية وغير كافية، والأرجح أنها تنبع من البروباغندا الإسرائيلية. ومن بين المؤلفين أيضًا في هذا الكتاب غير الرزين والأحادي النظرة هناك شبه مسلمين [أو مسلمون بالاسم فحسب] أمثال السياسي في حزب الخضر جم أوزدمير والناشر السيئ السمعة بسام طيبي.

كما أن للسيد ستاوفسكي علاقاتٍ طيبة بالمجلس المركزي لليهود والسفارة الإسرائيلية؛ حتى إن السفير الإسرائيلي اصطحبه بسيارة السفارة الإسرائيلية إلى أحد النقاشات الحوارية في الإذاعة الألمانية الشمالية (NDR). ورغم ذلك، فعندما سأل الصحافيون الحاضرون هذا السفير عن علاقته بمنظمة أونستلي كونسرند، ادعى أنه لا يعرف شيئًا عنها، ونسي طبعًا أنه اصطحب

(2) منظمة تعلن أنها تعنى بالدفاع عن الحقوق المدنية وتدعم إسرائيل وتعمل على مكافحة معاداة السامية في كل أنحاء العالم. (المترجمة)

بنفسه منذ قليل ساشا ستاوفسكي بالسيارة الخاصة للسفارة الإسرائيلية وترجلا منها سوية أمام أعين الجميع.

في الحقيقة ليست لدي معرفة بنوعِ العلاقات تلك التي تربط السفارة الإسرائيلية بساشا ستاوفسكي. بيد أن الأمر الذي لا شك فيه أن هذه المنظمة لديها الوسائل الجمة التي تخدمها. ويكفي مثلًا ملاحظة ذلك فحسب من خلال تسيير الفعاليات السخية التي تكلف الكثير، مثل فعالية "أيام إسرائيل" أو مناسبات مثل "أحب إسرائيل"، والتي، بالتأكيد، لا يعود الفضل في إقامتها إلى التبرعات التي تقدِّمها مدينة فرانكفورت.

لقد تأسست منظمة أونستلي كونسرند في عام 2002 لبناء "تغطية حقيقية" في الإخبار عن إسرائيل ومحاربة معاداة السامية، كما تعلن المنظمة نفسها عن ذلك. أما السبب وراء هذا التأسيس فهو تصريحات رئيس كتلة الحزب الديمقراطي الحر يورغن مولمان في ولاية نورد راين فستفاليا [شمال الراين - وستفاليا] في ألمانيا؛ وكان هذا الرجل قد وقف إلى جانب السياسي جمال قارصلي[3] الذي اتَّهم إسرائيل بتعاملها مع الفلسطينيين باستخدام "أساليب النازية". من هنا كان تصريح ساشا ستاوفسكي العضو المؤسس لمنظمة أونستلي كونسرند: "لقد وصل الآن الألم إلى ذروته على أبعد تقدير". هكذا، لا نستغربن قيام مجموعة وقَّعت بلاغًا نشرته جريدة فرانكفورتر ألغماينه أعربت فيه عن صدمتها بأن مولمان "يراهن ضمن مستنقع من الوحل".

لقد كان صدى هذا البلاغ أكثر مما هو متوقع. وهنا بالضبط ظهرت فكرة التوسع في بناء "المبادرة العفوية للمواطنين القلقين". وهذا حقيقة ما يفيده عنوان هذه المنظمة التي يعتريها القلق (concerned). فالاسم، أونستلي كونسرند، يجب أن يعبِّر عما تفعله المجموعة فيها، وفقًا لستاوفسكي، كما أنها لا تريد أن تُحسب على أي توجُّه سياسي محدد. لكن ما هو مطلوب هو "التضامن مع

(3) جمال قارصلي: سياسي ومترجم ألماني من أصل سوري اتُّهم بسبب تصريحاته بأنه "معادٍ للسامية". (المترجمة)

الشعب في إسرائيل" والتشديد على عدم وجود دولة "فلسطين"، كما يشار إلى ذلك أحيانًا في تقارير وسائل الإعلام. ويعتبر صاحب المبادرة ستاوفسكي أن رسائل القراء "وسيلة مهمة جدًّا، لإحداث تغيير في وسائل الإعلام". وهذا هو سبب الاهتمام بأن يتلقّى رؤساء التحرير العدد الكبير من رسائل الاحتجاج، بما فيها رسائل البريد الإلكتروني، عند طباعة أو إرسال رسالة نقدية.

فمن خلال قائمة بريدية يتلقّى أكثر من 1200 مستقبل حاليًا تلخيصات صحافية شاملة راهنة، مرآة صحافية لما ينشر، وكذلك مراسلات خاصة وتعليقات بشأن مواضيع الشرق الأوسط واليهودية ومعاداة السامية.

على سبيل المثال، تثار الاحتجاجات من الأعضاء النشطين في القائمة البريدية عندما لا يجري تهوين أمر الجدار، الذي بنته إسرائيل على طول الحدود مع الضفة الغربية لحماية السكان من الإرهاب وضم المساحات الكبيرة من الأراضي، باعتباره مجرد "سياج". بل حتى في "مسابقة إسرائيل" التي أقيمت في جريدة زودويتشه بمناسبة الذكرى الخمسين للعلاقات الألمانية - الإسرائيلية نجد ساشا ستاوفسكي يحتل مساحة مهمة، وتحديدًا حينما يجد اختيار الأسئلة منحازًا، حتى لا ينطلق ضد ذلك انهيار حقيقي للاحتجاج.

يمكن هنا أن نقرأ كذلك لدى هذه المنظمة في 15 تموز/يوليو 2015، بمناسبة الاتفاق على استخدام الطاقة النووية مع إيران، السطور التالية:

"لقد أعلن وزير الاقتصاد الألماني غابرييل، قبل توقيع الاتفاق النووي، أنه سيسافر إلى إيران مع وفد أعمال للقاء ممثلين رفيعي المستوى من السياسة والأعمال. فطالما تستمر طهران في تهديد شركاء ألمانيا وزعزعة الاستقرار في المنطقة وتشجيع الإرهاب، فإنه ينبغي الإحجام عن العلاقات الاقتصادية معها". وهذا بالفعل ما كتبته ديدري برغر، مديرة اللجنة الأميركية اليهودية في برلين.

أما عن استمرارية منظمة أونستلي كونسرند في عملها فإنه يعود إلى المساهمات الهائلة التطوعية التي يقدمها السعانيم [المساعدون] وكثير منهم

أعضاء في المجمعات اليهودية. إنهم يقومون بمراقبة الإعلام في أوقات فراغهم، "ويمارسون نفوذهم" وينخرطون في "تغطية حقيقية حول إسرائيل" بحسب ما كتبه ساشا ستاوفسكي، الذي يهتم شخصيًا بالقائمة البريدية. ويمكن القراءة على موقع المنظمة ما يلي: "إننا نبلِّغ عن الحقائق استباقيًا وننشر الأخبار التي تروم الحقيقة. سنساعد في نشر الحقائق المهمة لتكون معلومة. وسنتصرف بفاعلية ضد من يسهم في نشر خبر غير عادل ومزور. سندعو إلى إجراءات في مسائل رسائل القراء وتشجيع حملات التوقيع، وتنظيم الفعاليات، ودعم الأشكال المناسبة كافة للمعلومات والأفعال وردات الفعل".

أخيرًا نشير إلى أن من يقف خلف منظمة أونستلي كونسرند هم عبارة عن مجموعة من المتعصبين الأيديولوجيين العنيدين والمقتنعين بأنهم يقفون أخلاقيًا على ضفة الحق، وهذا ما يخوِّلهم الضغط على منتقدي السياسة الإسرائيلية ومضايقتهم. لكن لنعلم أن ما يهم هذه المنظمة في النهاية هو منع كل نقد يتصدى لإسرائيل. وهذا بالضبط ما يقف ضد الديمقراطية التي تعني طرح النقد والسماح به، سواء أكان النقد مشروعًا أم لا.

15

مركز سيمون فيزنتال، كلود لانتسمان أو:
تهمة معاداة السامية باعتبارها أضحوكة

يقوم مركز سيمون فيزنتال (SWC) سنويًا بنشر قائمة العشرة الأوائل (Top Ten) التي تضم أخطر عشرة أشخاص معادين للسامية وفقًا لرأي المركز. والقائمة هذه حقيقية وليست نكتة، بل نجد أصحابها جادين تمامًا فيها. لكن هذا لا يمنع من القول إن تهمة معاداة السامية قد دخلت أخيرًا قطاع الترفيه. حيث إلى جانب قوائم أفضل عشر أغانٍ في مجال الموسيقى، وأفضل عشرة أفلام، وأفضل عشرة حلّاقين أو مصففي شعر، لدينا أيضًا، وهذا ما يدعو إلى الدهشة، قائمة العشرة الأوائل من معادي السامية.

هكذا، فإن هذه القائمة التي يصدرها مركز سيمون فيزنتال في لوس أنجلس مخزية، ذلك أنها تضع هي الأخرى معاداة السامية، في خلط شديد، على قدم المساواة مع نقد إسرائيل. وقد احتل طبيب من بلجيكا المركز الأول، في عام 2014، في هذه القائمة لأسوأ عشرة أشخاص معادين للسامية وفي حوادث معادية لإسرائيل. لكن ما السبب لاحتلال الطبيب هذه المرتبة؟ يقال إنه أحجم عن مساعدة امرأة يهودية تبلغ من العمر 90 عامًا لديها كسر في الضلع. وبحسب ما يروى: عندما اتصل ابن السيدة العجوز هذه من طريق الخط الساخن الطبي وشرح حالة السيدة، قال له الطبيب: "أرسلها إلى غزة لبضع ساعات، وهناك ستتخلص من آلامها". نكتة. لكنها ربما نكتة سيئة للغاية. لكن أود القول هنا: إذا كان هذا يعبّر عن أسوأ ما تطوَّر في شأن معاداة السامية، فأحب أن أطَمئن أن لا داعي للقلق كثيرًا بشأن هذه المعاداة.

المركز الثاني في قائمة معاداة السامية احتله عضوان برلمانيان أردنيان كانا قد وقفا دقيقة صمت لأجل اثنين من الجناة الفلسطينيين. وكان هذان الفلسطينيان قد اقتحما في تشرين الثاني/نوفمبر 2014 كنيسًا يهوديًا ليهود

أرثوذكسيين في منطقة هار نوف في القدس الغربية وهما مسلحان بالفؤوس والسكاكين والمسدسات، فقتلا عند صلاة الفجر أربعة رجال وأصيب أشخاص عدة أيضًا، قبل أن يُقتلا بعد ذلك. ويتلخص رأي البرلمانيين الأردنيين، في هذا الفعل الفلسطيني، أنه كان بمنزلة مقاومة فلسطينية ضد احتلال ظالم ومنتهك لحقوق الإنسان؛ طبعًا ليس من الضروري مشاركة هذا الرأي. لكن ثمة سؤالًا لا يمكن هنا تفصيله والإجابة عنه، ويتعلق بمدى اعتبار أشخاص، بالنسبة إلى البريطانيين الذين حكموا فلسطين في ظل عصبة الأمم بين عامي 1917 و1948، أنهم ليسوا أكثر من "إرهابيين"، كرؤساء وزراء إسرائيليين احتُفل بهم على أنهم أبطال الحرب الثورية، مثل مناحيم بيغن ويتسحاق شامير.

المركز الثالث في قائمة "توب تن" معاداة السامية كان من نصيب مجرمين ملثمين في فرنسا، اقتحموا في كانون الأول/ديسمبر 2014 شقة في إحدى ضواحي باريس فكبلوا شابًا هناك، ثم اغتصبوا صديقته. لقد كان المجني عليهما من اليهود، في حين أن الجناة كان تصرفهم على الأرجح بدوافع معادية للسامية. لكن لنتذكر أنه لو لم تكن الضحيتان يهوديتين، لما رأينا المغتصبين يحتلون مكانًا على هذه القائمة؛ ولو لم تكونا من اليهود، هل سيكون الأمر بالنسبة إليهم أقل إيلامًا وتهديدًا؟ أضِف إلى ذلك: كم من الجرائم البشعة من هذا النوع تحدث سنويًا في العالم بحق أناس كثر، طبعًا من دون أن يصنف هؤلاء في التقارير الإخبارية بمكانات خاصة بسبب دينهم من عدمه، سواء أكان دينهم الإسلام أم المسيحية أم الهندوسية؟ لنُشِر إلى نقطة مرة أخرى: لا يكفي الكهنة الكبار في تحديد معاداة السامية الكامنة أن يتوافقوا مع عقيدتهم الخاصة. فمعادي السامية هو في الحقيقة من ينظر إلى اليهود بمعايير مزدوجة. فعندما يكون الضحية مسيحيًا، يقال لنا هذا أمرٌ سيئٌ لكن إذا كان المعني يهوديًا حينذاك سيقال لنا: هذا معاداة للسامية!

بالمجمل، فإن ثمة ستًا من أصل عشر حالات في أوروبا، وفقًا لمركز فيزنتال، تُعتبر من أسوأ الحوادث المعادية للسامية التي حدثت في عام 2014، واحدة منها في تركيا، واثنتان في الولايات المتحدة الأميركية. المركز يزعم أن

"عام 2014 شهد انفجارات غير مسبوقة في حوادث الكراهية المعادية للسامية وإسرائيل". وبالمناسبة، يُبلغ المركز سنويًا تقريبًا عن مستويات جديدة من "الكراهية غير المسبوقة لليهود". ويكفي لنا أن ندرك السخافة التي تتحفنا بها هذه القائمة، والتي تضخَّم فيها أمور تافهة لتغدو وكأنها شؤون الدولة، فقط من خلال قراءة ما حدث لشخصية في ألمانيا كانت قد أدرِجت في هذه القائمة في عام 2011: والمعني بها هو السياسي المحلي من دويسبرغ (Duisburg) هرمان ديركس، الرئيس السابق للكتلة النيابية في دويسبرغ من حزب اليسار، والذي دعا إلى حملة مقاطعة لإسرائيل. القائمة تضم أيضًا المخرج الدنماركي لارس فان ترير، الذي تسبَّب بفضيحة كبيرة حينما ألقى خطبةً مضطربة في مهرجان "كان" السينمائي عن إسرائيل وهتلر؛ وأيضًا مصمم الأزياء جون غاليانو الذي أهان كثيرًا من الضيوف وهو في حالة سكر شديدة في إحدى الحانات الباريسية بألفاظ معادية للسامية. لقد خسر مصمم الأزياء في إثر ذلك وظيفته في دار الأزياء ديور (Dior) وبكونه كبير المصممين لماركة الأزياء التي سميت باسمه جون غاليانو، اضطر إلى المثول أمام المحكمة والإجابة عن الأسئلة التي تتعلق بهجومه ذاك. والأمر تجاوز الحدّ مع هذا الرجل حتى إنه جرِّد من وسام جوقة الشرف الفرنسي الذي منح له قبل عامين، وأصدر هذا القرار الرئيس فرانسوا هولاند. هكذا، ولحسن الحظ، يمكن أن تقدَّر الأقلية في هذه الأمور، وهي أقلية لا يبدو أن معارضيها أكثر من سياسي محلي في دويسبرغ لا يرغب في شراء بضائع من إسرائيل، أو مخرج أفلام ألقى خطبة مضطربة، أو مصمم أزياء في حالة سكر وفقد السيطرة على نفسه.

في عام 2012 أثارت قائمة مركز سيمون فيزنتال نقاشات في ألمانيا بسبب وضع ياكوب أوغشتاين على القائمة المثيرة للجدل، وهو صحافي وناشر الصحيفة الأسبوعية ذات التوجهات الليبرالية اليسارية دير فرايتاغ. أما سبب ذلك، من بين أسباب أخرى، فما كتبه أوغشتاين في عمود صحافي في جريدة شبيغل أون لاين "في حال الشك، اتجه يسارًا" (Im Zweifel links). وأريد أن أورد هنا مثالًا عما كتبه أوغشتاين فأدّى إلى نقده: "تمثّل غزة مكان نهاية الزمان للإنسانية. هناك حيث يعيش 1.7 مليون شخص، نجدهم محشورين في مساحة

قدرها 360 كيلومترًا مربعًا. إن غزة بهذا تمثّل سجنًا. أما إسرائيل فإنها تفقس أعداءها هناك".

من هنا لا نستغرب اهتمام مركز سيمون فيزنتال مجددًا بأوغشتاين في عام 2015 فأدرجه الآن ضمن فئة خاصة يطلق عليها "الإشارات أو الحالات الشائنة". وكان السبب هذه المرة هو العمود الصحافي لأوغشتاين في 7 كانون الأول/ديسمبر 2015، الذي أظهر فيه أوغشتاين أوجه التشابه بين حكومة إسرائيل بقيادة بنيامين نتنياهو وحزب الجبهة الوطنية [الفرنسي اليميني] وحزب البديل لأجل ألمانيا [أيضًا اليميني الشعبوي]. لقد كتب أوغشتاين: "إن حكومة بنيامين نتنياهو هي تمامًا شعبوية يمينية كما هو حال الشعبويين اليمينيين الألمان". إنه لأمر غني عن الذكر، أن كل ما في الأمر هنا يتعلق بسياسة إسرائيل وليس باليهود، وإنه لأمر غني عن الذكر أيضًا: أن أوغشتاين كان على حق في ما قاله.

لقد كان لليهودية في ما مضى أعداءٌ أشداء قتلوا الآلاف من اليهود. في ما مضى كان من يُعتبر المعادي للسامية هو من يقوم مثلًا بنشر كتاب **بروتوكولات حكماء صهيون** أو من يطالب بقتل كل اليهود أو على الأقل بطردهم. ليس من الملائم بالتأكيد تطبيق مصطلح معاداة السامية على أشخاص أمثال يوليوس شترايخر أو جوزف غوبلز [يوزِف غوبلز] فحسب، تلطخت أيديهم بدماءٍ يهودية. إننا نواجه اليوم سياقًا يكفي فيه أن يقوم شخص ما بمجرد انتقاد السياسة الإسرائيلية، أو أن لا يشغِّل شخصًا يهوديًا أو أن يخرجه من دورٍ ما حتى يُدرج هذا الشخص في قائمة العشرة "المزعومين الأكثر خطورة من معادي السامية في العالم". إنه لأمر يثير السخرية حقًا.

أما من احتل رأس هذه القائمة في عام 2011 فهو الرئيس الفلسطيني محمود عباس. لماذا؟ لأنه نسي خلال كلمة له أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة أن يذكر العلاقة التي تربط الشعب اليهودي بالأرض المقدسة. الاتهام هذا يمثِّل، حقيقةً، بكلمات أخرى، أن عباس ليس صهيونيًا. كيف سيطالب عباس إذًا ببلده لنفسه وشعبه؟ ألا تكفيه مساحة الأرض الأمامية القائمة في

ممتلكات وزير الخارجية الإسرائيلي أفيغدور ليبرمان؟ فعندما يتملكه السعي والتلهف لأرضٍ فلسطينية، يمكنه دائمًا العمل على قطعة الأرض هذه. إنني أسأل هنا: هل الأمر يتعلق حقًّا، في دعم الأميركيين لإسرائيل على نحو أعمى ومهووس، بأن ذلك يذكِّرهم باستعمارهم لأميركا الشمالية، كما يذهب بعضهم إلى القول؟ علمًا في هذه الحالة المذكورة، أن السكان الأصليين السابقين هنا هم الفلسطينيون؛ عندها سيكون الفلسطينيون بالفعل كشعوب السو والأباتشي، وسيكون عباس هو زعيم هذه الشعوب: سيتينغ بول[1]، وسيكون رئيس الوزراء السابق أرييل شارون مثل الكولونيل جيمس وليام فورسيث الذي ارتكب مذبحة "ووندد ني" (Wounded Knee) وقتل فيها آلاف الهنود.

في كانون الثاني/يناير 2005 نشر المركز الأوروبي لرصد العنصرية وكراهية الأجانب (EUMC) تعريفًا عمليًّا لمعنى معاداة السامية، ينبغي أن يكون بمنزلة الركيزة في تحديد الميول المعادية للسامية في الدول الأعضاء الأوروبية الخمس والعشرين. وقد تمثَّل هدف الاتحاد الأوروبي بالتوصل إلى معايير موحدة في الكشف عن جرائم معاداة السامية وملاحقتها ومحاكمتها. واقتُرحت التعاريف التالية:

- "رفض حق اليهود واليهوديات في تقرير مصيرهم، مثلًا من خلال تأكيد أن دولة إسرائيل هي مشروع عنصري.
- تطبيق معايير مزدوجة من خلال فرض مطالب على إسرائيل لا يمكن توقُّعها أو أن تطالَب بها أيُّ دولة ديمقراطية أخرى.
- استخدام رموز أو صور كلاسيكية معادية للسامية في توصيف إسرائيل أو الإسرائيليين (مثلًا اتهام اليهود بأنهم قتلة يسوع أو المزاعم بتقديم قرابين بشرية).

(1) سيتينغ بول (Sitting Bull): زعيم ومحارب من الهنود الحمر ومعنى اسمه الثور الجالس. يُذكر أنه لم يوقِّع أي معاهدة مع الأميركيين. أما شعوب السو والأباتشي فهم من قبائل الهنود الحمر الأصليين. (المترجمة)

- مقارنة سياسة إسرائيل الحالية بالنازية.

- الادعاء بشأن المسؤولية الجماعية لليهود في ما يخص سياسة دولة إسرائيل".

ومع هذا، فقد ذُكر أيضًا:

"ورغم ذلك، فإنه لا يمكن تصنيف انتقاد إسرائيل بأنه معادٍ للسامية، حينما يُوجَّه بالطريقة نفسها إلى دولٍ أخرى".

وفي إطار تطبيق "تعزيز مكافحة معاداة السامية ودعم الحياة اليهودية في ألمانيا"، قرر البرلمان الألماني في دورته السادسة عشرة في 4 تشرين الثاني/ نوفمبر 2008 "التوصية بالعمل بالتعريف العملي، للمركز الأوروبي لرصد العنصرية وكره الأجانب، في إطار مؤسسات الدولة"، وقد صوَّت على ذلك التحالف من أصوات الحزب الاشتراكي الديمقراطي، والحزب الديمقراطي الحر، وحزب الخضر. ومع ذلك، ففي كانون الأول/ ديسمبر 2013 أزيل مرة أخرى هذا التعريف العملي من موقع وكالة الاتحاد الأوروبي للحقوق الأساسية. وصرَّح قسم القضاء في المفوضية الأوروبية أن "ليس لدى المفوضية ولا الاتحاد الأوروبي تعريفٌ ثابتٌ لاصطلاح معاداة السامية وليس ثمة مساعٍ لإيجاد تعريف له". بيد أن هذا الامتناع عن إيجاد التعريف قوبل بالانتقاد من المؤتمر اليهودي الأميركي ومن المنظمة غير الحكومية، لكن المقرَّبة من الحكومة الإسرائيلية، أونست ريبورتينغ (Honest Reporting).

الحال، أنه بينما كان اسم سيمون فيزنتال يترصد في السابق أعداءَ السامية ومجرمين نازيين مثل أدولف أيخمان، نجد اليوم أنه يكتفي بترصد سياسيين محليين، بوصفهم أعداء للسامية، من دويسبرغ [أي هرمان ديَركس]. طبعًا، السبب أنه ما عاد هناك حاليًا من أعداء للسامية مثل تلك الصيغ السابقة. وبالفعل، فقد كتبت صحيفة يونغي فلت (*Junge Welt*) [عالم شاب] تعليقًا على هذا الحال: "من السخرية أنه بالكاد يمكن [العثور على الصيغ السابقة لمعاداة السامية]". السخرية هذه تمثِّل حقًّا جانبًا واحدًا من المسألة، أما الجانب الآخر فهو ما يتخلل ذلك من الحقد والخطورة. وهنا أتساءل كيف سيستمر ذلك:

هل سنُواجَه مثلًا بقائمة للعشرة الأوائل من اليهود الكارهين أنفسهم مع أسماء أكثر النقاد اليهود شهرة في العالم ممن ينتقدون السياسة الإسرائيلية والذين لا يكلون وهم ينادون: "ليس باسمنا [لا يمثّلوننا]؟" أو هل سيتحفوننا بقائمة "توب تن" لمن "يلوث بيته" [من اليهود]؟ الذين ربما يتزعمهم عاموس شوكن، ناشر الصحيفة اليومية الليبرالية هآرتس، الذي وصف إسرائيل مؤخرًا بأنها دولة الأبارتهايد؟ ما ينقصنا الآن فحسب هو أن يتحفنا مركز سيمون فيزنتال بنشر ملصق مكتوب عليه "مطلوب" ومُرفق بصور الجناة، ومكافأة مالية قيّمة لمن يساعد في القبض عليهم.

يكفينا فحسب أن نشكك في تلك القوائم المريبة إذا ما قرأنا كيف أدرِج فيها أبو مازن، الرئيس الفلسطيني، على أنه معادٍ للسامية (واحتل فيها المرتبة الأولى)، لأنه قال في خطبته أمام الأمم المتحدة ما معناه: "لقد جئت من الأرض المقدسة، مهد كثير من الأفكار الدينية"، ولأنه قدَّم مثالًا على هذا التعدد الإسلام والمسيحية فقط. طبعًا، فعباس لم يقل عمدًا أن الأرض هي أرض إبراهيم وإسحاق ويعقوب فحسب وليس لأيِّ شعب آخر [لم يقل إنها الأرض الموعودة].

لا نبالغ إذا قلنا إن تهمة معاداة السامية تحولت في الدوائر اليمينية في إسرائيل حاليًا إلى رياضة شعبية. من هنا، فليس من الغريب ما وصفت به وزيرة الثقافة والرياضة اليمينية ميري ريغيف الوفد اللبناني في أولمبياد ريو بأنه "معادٍ للسامية"، وذلك لرفضه السفر على متن الحافلة نفسها التي كان يستقلها الفريق الإسرائيلي. طبعًا الوزيرة لم تتطرق حتى إلى أن هذا يمكن أن يكون له علاقة بطبيعة الصراع العربي - الإسرائيلي وحالة الحرب بين إسرائيل ولبنان. وهي نفسها قاطعت حفل افتتاح الألعاب الأولمبية هذه، الذي صادف موعده يوم السبت، يوم عطلة اليهود. لهذا لن أُفاجأ إذا ما صنفت الوزيرة ريغيف حتى اللجنة الأولمبية بأنها معادية للسامية.

وإذا كان الشخص سابقًا يوصف بمعاداة السامية لأنه لا يُعجَب باليهود، فإننا نجد اليوم العكس؛ كل من لا يُعجِب جماعات يهودية محددة يصنف أنه

معادٍ للسامية. وهنا في الواقع النكتة بعينها التي تصف التحول الدلالي لهذا المصطلح. سابقًا كان اليهود يخافون من معاداة السامية، أما اليوم فإننا نجد أن غير اليهود هم الذين يخافون من اتهامهم بمعاداة السامية.

والحق: يُعتبر اليوم الشخص معاديًا للسامية، عندما تتم مثلًا في الجامعة معالجة بحثية لموضوع النكبة. اليوم يُعدّ الشخص معاديًا للسامية عندما يتطرق إلى حقائق تاريخية لا تناسب بعضهم؛ مثلًا، حينما يتحدث عن جرائم الحرب التي يرتكبها الجيش الإسرائيلي أو ينتقد المجازر الإسرائيلية في غزة أو حتى يتظاهر ضدها. اليوم يُعتبر الشخص معاديًا للسامية عندما يُرتدى العلم الفلسطيني في تظاهرة أو يُحتج على قتل الأطفال. وإذا لم يقم فندق ما بإدراج كل رموز الهاتف في دليل الهاتف لكل دول العالم، ولم يدرج بالتالي رمز إسرائيل فيه، فإن هذا الفندق اليوم سيصنف معاديًا للسامية. وهذا بالفعل يمكن أن يحدث أحيانًا؛ خذوا مثلًا حالة زائر فندق معتوه تتملكه "مشاعر تذكّر بالأوقات العصيبة في التاريخ الألماني"، بل يثرثر بهذا الكلام في مقالة لصحيفة يومية وطنية لها وزنها، ثم تقوم هذه الصحيفة بنشر هذا الجنون! في الحقيقة هذا بالفعل ما نُشر في 11 آب/أغسطس 2016 في صحيفة فرانكفورتر ألغماينه. وبالتأكيد لو كانت هذه المقالة منشورة في مجلة داخلية لمستشفى المجانين، لما تعجبتُ. هكذا يتحفنا كلود لانتسمان (Claude Lanzmann)، المخرج اليهودي المصاب طبعًا بجنون العظمة؛ بأن يكتب: "في عاصمة ألمانيا الجديدة تُستبعد إسرائيل وتُشطب وتُمحى"، لماذا؟ لأن هذا الرجل لم يجد الرمز الدولي لإسرائيل في دليلِ هاتفِ الفندق، وقدَّم نفسه للاستقبال هناك في الفندق وهو مملوء بالسخط والخوف بغية التعبير عن صدمته لعدم ورود رمز إسرائيل على دفتر الهاتف.

كما يقول المثل من الذبابة صنعوا فيلًا؛ لقد أصبحت قضية هذا المخرج قضية كبرى دخلت على خطها أيضًا جريدة بيلد ومجلة دير شبيغل. فكتبت الثانية "إنه لاتهامٌ خطيرٌ، ذلك الذي صرَّح به مخرج الأفلام الفرنسي اليهودي، الرجل التسعيني، كلود لانتسمان لجريدة فرانكفورتر ألغماينه". لكن الحق يقال

إنه اتهامٌ غبي، ومضحك وسخيف. إنها هذه السخرية التي أعنيها والتي يصنعها هؤلاء الناس من خلال تهمة معاداة السامية.

ربما ستكون مؤسسة شبرنغر للنشر آخر من ينشر ذلك لو أن هراءً مماثلًا كتبه صحافي غير يهودي. حيث إن هناك، وهذا أمر جلي، قوانين خاصة للمشاهير والصحافيين اليهود. أحيانًا أفكر أن مؤسسات مثل شبرنغر، وأيضًا صحفًا ومراسلين، يقدِّمون، بنيَّة مقصودة، لأولئك اليهود منبرًا لإظهارهم علانية هم وجميع اليهود الآخرين وإثارة الاستياء ضد اليهود. طبعًا هذا الرأي مني لهو مجرد شك، ولن أستنبط منه نظرية مؤامرة، بيد أنني لا أستطيع التخلص منه. لقد غدا ذلك معاداة للسامية، خصوصًا منذ أن استولت عليه منظمات يهودية متنوعة مثل لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية (AIPAC)، ومنظمة أونستلي كونسرند ومركز سيمون فيزنتال في أميركا، والعدد الهائل من "السعانيم" أمثال هنريك برودر وحتى ميشائيل فولفزون.

ولكي لا يساء فهم الأمر: إن معاداة السامية لهي مسألة سيئة. إلا أن الاتهام الرخيص بمعاداة السامية، والذي دائمًا ما نراه جاهزًا ماثلًا أمامنا، لهو أمرٌ أسوأ، ذلك أنه يضع الكراهية الحقيقية لليهود بالمستوى نفسه مع تلك الأمور التافهة. من الممكن أن يؤخذ اصطلاح "معاداة السامية" على حرفيته تقريبًا، حيث إنه في الحقيقة أصبح اليوم اصطلاحًا يُذبح البشر بسببه؛ لقد غدا المصطلح بالفعل عصًا أو هراوة كما وصف مارتن فالزر ذات مرة. ولنعلم هنا أنه حينما تُنتقد السياسة الاستعمارية الإسرائيلية، ثم يُفترض أن شبهات معاداة السامية تكمن وراء هذا النقد، فإننا بذلك نُفقد المصطلح نفسه أهميته التاريخية.

إنني على وعي أن كلماتي هذه قد يستخدمها النازيون الجدد والشعبويون من اليمين وغيرهم من المتعصبين ويسيئون استخدامها. ربما يخاطر المرء أحيانًا في مسار يأتي فيه الاستحسان والتصفيق من اليمين. ومع ذلك، يعلم الشعبويون اليمينيون والراديكاليون أنني لست صديقهم. ولهذا يحظى هؤلاء اليهود، مثل الراحل رالف جوردانو أو هنريك برودر، والذين يودون لو أنهم يمنعون نصوصي، بالاستحسان والتصفيق الذي يأتيهم من جهات يمينية مثل

أتباع حركة بيغيدا الألمانية ومنتديات اليمين المتطرف، خاصة مع تحولهم منذ مدة طويلة نحو اليمين.

أقول هنا، لقد حان الوقت تمامًا ليتلاءم بعض اليهود في ألمانيا مع القرن الحادي والعشرين. ما أعنيه هنا أنه يجب مثلًا، أوّلًا، أن يستمعوا أيضًا إلى انتقادات قاسية ضد سياسة دولة إسرائيل من دون أن يواجهونا على الفور بهراوة معاداة السامية التي من الواضح أنهم يحملونها معهم في أمتعتهم؛ وثانيًا أنه يجب عليهم في النهاية إبعاد أنفسهم عن الخطب المحرجة والمخزية لممثليهم، خاصة الخطابات المخزية والمتعجرفة القومية للسياسيين الإسرائيليين، بصرف النظر عن المكان الذي تُلقى فيه هذه الخطب، سواء في البرلمان الإسرائيلي في القدس أو في البرلمان الألماني. لقد كان من واجب ممثل يهود ألمانيا، رئيس المجلس المركزي لليهود، مغادرة البرلمان الألماني كما فعل بعض ممثلي حزب اليسار في البرلمان، وذلك احتجاجًا على ما قاله شمعون بيريز عند زيارته الرسمية للبرلمان الألماني في عام 2010: "إن إسرائيل دولة يهودية وديمقراطية، يعيش فيها قرابة 1.5 مليون مواطن عربي يتمتعون بحقوق متساوية. ولن نسمح لأيِّ شخص بالتمييز بسبب جنسيته أو دينه". والسؤال المطروح هنا: إلى أي مدى يجب أن يتمتع الإنسان بالتعامي والكذب حتى يستطيع نشر هذه الأكاذيب. لكن سأقول بكل بساطة: إن العرب الذين يعيشون في إسرائيل "غير متساوين" في الحقوق حتى على الورق، ولا ننسى هنا التمييز الشديد في جوازات السفر الإسرائيلية بين اليهود والعرب والدروز. من كان يظن ذلك؟ هل يبدأ نظام الفصل العنصري، الأبارتهايد من هنا؟ ولا ننسى أيضًا كيف يتعرض غير اليهود في الواقع الاجتماعي والسياسي للتمييز المنهجي منذ قيام دولة إسرائيل. وهذا بالضبط ما يتوجب على ممثلي اليهود في ألمانيا حاليًا إدراكه، لكنهم يتجاهلونه، بل ليس لديهم استعداد لمعرفة هذه الحقائق.

16

سفير إسرائيل ناشرًا البروباغندا

ولد ياكوف هداس-هاندلسمان (Yakov Hadas-Handelsman) في عام 1957 في تل أبيب، ويشغل منذ عام 2012 منصب السفير الإسرائيلي في ألمانيا. وسأبدأ بالإشارة إلى إحدى مساهماته في مجلة ذي يوروبيان (*The European*) التي صدمتني بمقدار ما أمتعتني[1]. لم يخطر ببالي قط أن تقوم السفارة الإسرائيلية بنشر نصٍّ مبتذل وسخيف كهذا. ألا يوجد في السفارة شخص يتنبه لأن يحتفظ السفير بكرامته ولا يتفوه بالهراء وينزل إلى مستوى لو أنني كنت فيه معلمًا وقدّم لي أحد التلاميذ مقالة كهذه، لحصل على أدنى العلامات عليها؟ لكن حسنًا، إن السفير الإسرائيلي يُسمح له بالقيام بأمور لا يقوم بها أيُّ سفير آخر: إنه يتدخل في الشؤون الداخلية لألمانيا، بل ويُستحسن ذلك.

لقد كتب هداس-هاندلسمان مساهمة في إحدى المجلات الإلكترونية التي حملت عنوانًا يُفصح عن لبّ ما يريد قوله: "كل شخص يمكن أن يكون معاديًا للسامية". وما يعنيه بهذا أن كل شخص ينتقد بلده لهو في نظره شخص معادٍ للسامية.

طبعًا كان بإمكانه كتابة أن من يحرِّض أو يناقش على نحوٍ عنصري أو يمجد العنف، فإنه يتجاوز بالنسبة إليه الخطوط الحمر. لكن لا شك في أن النقد مشروعٌ في كل وقت، بغضّ النظر عما إذا كان صحيحًا أم لا، أو إذا كان نقدًا ملحًّا أم قاسيًا، عميقًا أم سطحيًّا. هذه هي أسس الديمقراطية. وفي حال كان النقد غير مناسب، فعلى الشخص مراجعة ردات فعله وموقفه.

إلا أن هداس-هاندلسمان وضعَ نفسه ضمن طغمة دائمًا تشتمُّ رائحة

---

(1) https://bit.ly/3nUsUTR

معاداة السامية في كل أرجاء ألمانيا، بل طوَّر لأجل هذا حاسة شمّ خاصة جدًا. هكذا نجد مثلًا هذا السفير الإسرائيلي والمجلس المركزي لليهود وغيرهما يتحدثون عن موجة جديدة من معاداة السامية في البلاد، بسبب بعضٍ من المتهورين المصابين بالصدمة الذين رددوا شعاراتٍ معادية لليهودية خلال الاحتجاجات ضد حرب غزة. "موجة جديدة من معاداة السامية". بالفعل: ليس لجنون العظمة والهوس من حدود.

يكتب هداس-هاندلسمان: "كل من يقول إن إسرائيل يجب ألّا تُنتقد يخفي وراءه تحيزاته المعادية للسامية". لكن أسأل من يدّعي أن انتقاد إسرائيل غير مسموح؟ بالطبع إنه أمر مسموح، حتى لو حاول هداس-هاندلسمان وأصدقاؤه بكل سرور منع ذلك. والثمن لذلك كبير. والحال أن إهانتنا، نحن الذين ينتقدون إسرائيل، كثيرًا ما تحصل من جانب أصدقائها، بأننا "معادون للسامية" أو "اليهود الكارهون أنفسهم". ولماذا؟ لأننا نقول فحسب: يجب انتقاد إسرائيل. هذا بالفعل هو الجنون بعينه: إنه يخبرنا أن كل من يرى أن إسرائيل يجب ألّا تُنتقد يخفي وراءه معاداته الكامنة للسامية. طبعًا هذا في وقتٍ إذا تم فيه انتقاد إسرائيل على نحو موضوعي وملموس، فسينقلب هذا الحال ويغدو معاداة للسامية. لكن من الواضح أن هؤلاء السادة ليس لديهم وعي بعواقب هذه المجادلات. بل أيضًا أنه: بمقدار ما يحب المرء إسرائيل أكثر، بمقدار ما يجب عليه انتقادها على نحوٍ كبير؛ تمامًا كما هو الحال في الحياة الحقيقية.

طبعًا، من غير المعتاد أن يتدخل ممثل دولة أجنبية تدخلًا مباشرًا في الجدالات الداخلية للبلد المضيف. وإذا ما حدث ذلك يتعين بالفعل إبعاد هذا السفير والإعلان أنه شخص غير مرغوب فيه. لنتخيل مثلًا الحال في إسرائيل: فإذا ما تجرأ مثلًا السفير الألماني هناك وأملى على الإسرائيليين التصرف بهذا الشكل أو ذاك، فحينذاك ستعلن إسرائيل بسرعة إلى حدٍّ ما أن السفير الألماني شخص غير مرغوب فيه (Persona non grata). أما السفير هداس-هاندلسمان فيعتقد أن تصرُّفه مبرر، وذلك لاعتقاده أنه يمثّل كذلك أولئك الذين ماتوا في معسكر أوشفيتز وألمانيا هي ما يتحمل المسؤولية عن ذلك.

أعتبر أن هذا الأمر فيه تطاوُل وعجرفة. لا شك في أنه لا يمكن لوم الألمان اليوم على ماضٍ لا ذنب لهم فيه. فمعظم ألمان اليوم كانوا أطفالًا خلال الحقبة النازية، أو ولدوا خلالها أو بعد ذلك. ومع ذلك، يتحمل جميع الألمان مسؤولية ماضي شعبهم. فلا يمكنهم فحسب أن يركِّزوا على أفضل ما عندهم ويقولوا إن الألمان يمثِّلون بلد الشعراء والمفكرين، فلا ننسى أنهم أيضًا في الوقت نفسه يمثِّلون شعب القضاة والجلادين. ولا يمكن اعتبار الكيان القانوني لـ "جمهورية ألمانيا الاتحادية" مسؤولًا من الناحية الأخلاقية عن فظائع النظام النازي، خاصة أن إسرائيل أصدرت صك براءة ذمة (Persilschein) للحكومة الألمانية.

إلا أن إسرائيل نفسها مزقت هذه الوثيقة. لقد كان بإمكان المؤتمر العالمي اليهودي أن يحظى بحق تمثيل اليهود في كل العالم، أكثر من أن تحتل إسرائيل هذا المنصب، وهي لا يمكنها إلا أن تمثِّل مواطنيها. عمومًا، فإن المؤتمر اليهودي العالمي ضعيف وخاضع للحكومة الإسرائيلية.

يشتكي هداس-هاندلسمان في تعليقه أن "إرهابيي حماس أطلقوا 4562 صاروخًا بين 8 تموز/يوليو و26 آب/أغسطس 2014 من قطاع غزة على إسرائيل". إنه يتظاهر بهذا وكأن المذنب الوحيد في هذه الاشتباكات هو حركة حماس التي تدير قطاع غزة. لكننا نعلم أن قطاع غزة يخضع لسيطرة إسرائيل منذ خمسين عامًا تقريبًا كما أنه محاصر منها. ثم لنعلم كذلك أنه، مقارنةً بخوف سكان غزة من الموت، والذين لم يستطيعوا الفرار إلى أيِّ مكان عندما قام الجيش الإسرائيلي للمرة الثانية في صيف 2014 بقصف وتدمير كامل أحياء المدينة وكامل البنية التحتية تقريبًا، نقول إنه مقارنةً بما أصاب الفلسطينيين هناك فإن ما لحق بالإسرائيليين من أضرار لهو أدنى بكثير. لقد انتهت حرب غزة في صيف 2014 مُخلِّفة أكثر من 2000 قتيل من الجانب الفلسطيني، من بينهم أكثر من 500 طفل وما يصل إلى 10.000 من الناجين الذين جُرحوا وأصيبوا بصدمات نفسية يعانونها إلى اليوم. إن هذه الأرقام تتحدث بالفعل عن نفسها. لهذا سيغدو الأمر سخيفًا أن يتشكى هداس-هاندلسمان من أن "مخطط حماس المجرم يتمثل بقتل أكبر عدد ممكن من المدنيين الإسرائيليين".

من الجدير ذكره أيضًا أن هداس-هاندلسمان لم يذكر الفلسطينيين ولا بكلمة واحدة في تعليقه، ولا حتى نضالهم من أجل الاستقلال والتحرر من الاحتلال الإسرائيلي؛ الاحتلال الذي لا نجد له كذلك ذكرًا عنده. فبدلًا من ذلك، نرى هذا السفير يشوه المتظاهرين الذين احتج معظمهم ليس ضد اليهود بل ضد دولة إسرائيل، طبعًا وهم محقون في هذا. لقد عايشت أنا بنفسي هذه التظاهرات في فرانكفورت ورأيت المسيرات في برلين على شاشات التلفزة، ولم ألاحظ أيَّ كراهية لليهود، أو في أحسن الأحوال كانت هامشية، ذلك أن الذي طغى على هذه التظاهرات هو نقد إسرائيل.

إلا أن هداس-هاندلسمان ينصرف بكل ما تحمله الكلمة إلى خلق مساحة جانبية والانزواء فيها لصرف النظر عن الموضوع الأصلي. إنه يأسف أن "صناع القرار" فحسب في السياسة الألمانية قد أدانوا الهجمات المتفرقة المعادية للسامية في التظاهرات وليس "المجتمع نفسه" الذي يجب، في رأيه، أن يدافع عن "القيم الديمقراطية". طبعًا استياء الرجل يعود إلى مسألة أنه لم يشارك، سوى عدد قليل، في المسيرات المنافقة والكاذبة للمجلس المركزي لليهود أمام بوابة براندنبرغ [في برلين]. لقد كان واضحًا وجليًّا، ببساطة، أن المجلس المركزي لليهود لم يتظاهر من أجل معاداة السامية بل لإظهار الولاء لإسرائيل والتضامن معها. ذلك أننا، من دون شك، لن نجد الرجالات الكبار في الدولة الألمانية يصرفون من جهدهم وهم يشاركون في هذا العرض الكبير بسبب حفنة من معادي السامية في هذا البلد. فالأمر أكبر من ذلك، كلنا يعلم أن هذه المسيرات تمثِّل تضامنًا مع إسرائيل، بل ولحمايتها من الانتقاد الذي يأتي من المجتمع؛ وأكثر من ذلك، إنها تهدف إلى صرف الانتباه عن جرائم الحرب والأعمال المخالفة للقوانين الدولية التي يقوم بها الجيش الإسرائيلي.

وعندما يتم التفكير، والأخذ في الحسبان ما يمكن أن تكون عليه العواقب الوخيمة لانتقاد إسرائيل الشديد في ألمانيا، فإن من الساذج، بل المعيب، أن يكتب السفير أن انتقاد إسرائيل أمرٌ مسموح وبداهي كـ "تناول المثلجات في الصيف". لكن بالمقابل، نظرًا إلى ما لدينا من التهجمات الهائلة ضد أشخاصٍ

مثل رولف فرليغر الذي طُرد من عمله في مجلس إدارة المجلس المركزي لليهود بسبب نقده إسرائيل، وأيضًا تلك التهجمات ضد روبرت نويدك وغيره من منتقدي السياسة الإسرائيلية، لا يمكن المرء بالفعل إلا أن يهز رأسه مستغربًا أمام هذا السفير الإسرائيلي عندما يكتب أن النقد الذي يطاولنا من الخارج لهو أمرٌ متاحٌ ومنفتحون عليه، لأن النقاشات والأسئلة التي تجري في إسرائيل "ليس لها نظير في أوروبا". خذوا مثلًا: لقد هوجم أوري أفنيري مرات عديدة وتعرّض للضرب، أما صحيفة هآرتس فقد اضطرت إلى أن توظّف حارسًا شخصيًا خاصًا لكاتب عمودها الصحافي جدعون ليفي بسبب التهديدات بقتله. فأشخاص مثل جدعون ليفي، وأوري أفنيري، وعميره هاس، وإيفا إيلوز، وديفيد غروسمان، وعاموس عوز وغيرهم من النقاد لا يتم التسامح معهم من جانب الحكومة الإسرائيلية سوى على نحوٍ وهمي وواهن، أو بأشكال أخرى يُتجاهَلون. من هنا لا نستغرب أن يكون الغرض من التسامح معهم خداعَ العالم بوجود "ديمقراطية نقية" في إسرائيل. لكن تاريخيًا سيبقى هؤلاء النقاد في الذاكرة باعتبارهم منارةً أخلاقيةً لإسرائيل في الأوقات المظلمة جدًا.

أما في ما يتعلق بالنقد القادم من الخارج، فإن إسرائيل أيضًا غير متسامحة معه كثيرًا. لا بل إن نقادًا يهودًا، مثلًا العالم اللغوي نوام تشومسكي أو العالم السياسي نورمان فينكلشتاين، لا يُسمح لهم بالسفر إلى إسرائيل. ولا ننسى المنع من دخول البلاد، الذي حدث في صيف 2012 للمئات من منتقدي السياسة الإسرائيلية، الذين رغبوا في زيارة المناطق الواقعة تحت حكم السلطة الفلسطينية. إضافةً إلى ذلك، لقد قررت الحكومة الإسرائيلية في بداية عام 2017 عدم السماح بدخول البلاد للأجانب الذين طالبوا بمقاطعة إسرائيل أو حتى بمقاطعة المستوطنات في الضفة الغربية.

ثم إن هداس-هاندلسمان نفسه يدعي أيضًا أن نقد إسرائيل سيكون "معاداة صافية للسامية" عندما يتم "إنكار حق الشعب اليهودي في دولة خاصة به". لا شك، يجب على الرجل، كسفير لإسرائيل، قول شيءٍ كهذا. إلا أن ما من علاقة بنيوية بين عداء السامية وإسرائيل. وعندما ينكر متظاهرون فلسطينيون

حقّ اليهود في إقامة دولة خاصة بهم، فهذا يعود إلى سبب وحيد هو أنهم هم أنفسهم حُرموا من هذا الحق، كما أن الأرض التي عاش فيها أهلهم وأجدادهم وأسلافهم لقرون غدت متنازعًا عليها وسُلبت منهم.

وفقًا لياكوف هداس-هاندلسمان، تتمثل إحدى العلامات المزعومة لمعاداة السامية "بمقارنة الإسرائيليين بالنازية". كان يجب عليه قول هذا في إسرائيل. ولا ننسى أنه انتشرت ذات مرة بعد اتفاقية أوسلو للسلام في التسعينيات من القرن الماضي رسوم كاريكاتورية وصور مركَّبة ليتسحاق رابين بالزي الرسمي للقوات النازية الخاصة، أما من كان مسؤولًا عن هذا فهم الأصدقاء الروحيون لأرييل شارون وبنيامين نتنياهو. وما زلت أتذكر صور التظاهرات الشبحية التي "نُبذ" فيها رابين، وكان كلٌّ من نتنياهو وشارون قد شاهد هذا المشهد باستحسان. وبعد ذلك بفترة وجيزة اغتيل رابين بيد متعصبٍ؛ ومن دون توضيحٍ رفضت أرملته ليا رابين مصافحة نتنياهو عندما أراد تعزيتها. هل يُعتبر إذًا بنيامين نتنياهو وفقًا لمعايير السفير الإسرائيلي أيضًا معاديًا للسامية؟

علاوة على ذلك، ووفقًا لهذا السفير "كل من يضع معايير لإسرائيل مختلفة عن الدول الأخرى" هو شخص معادٍ للسامية. لكن معظم نقاد إسرائيل ومنهم أنا لا ينتظرون من إسرائيل سوى ما ينتظرونه من كل دولة لائقة وديمقراطية وأخلاقية. إن إسرائيل تصدِّر نفسها بكل سرور على أنها "الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط". ولكن حينما يتعلق الأمر بتحصين نفسها ضد النقد، فإنها نفسها تتموقع على قدم المساواة مع الدول المارقة والدكتاتوريات الشريرة إلى جانب سورية، والصومال، والسعودية، وربما أيضًا الدولة الإسلامية [داعش] التي تقطع رؤوس الصحافيين. لربما تكون إسرائيل دولةً ديمقراطية إذا ما قارناها بسورية مثلًا، بيد أنني أسأل، كيف ستكون إسرائيل إذا ما قارناها بالديمقراطيات الأوروبية؟

لا بل من المثير أكثر عندما يصرِّح هداس-هاندلسمان بأن "ليس كل من ينتقد إسرائيل هو بريء تلقائيًا من معاداة السامية". والحال أن السفير كان سيكتب هذه الجملة على نحوٍ مختلف فيما لو كان من المدافعين عن رأي

قانوني روماني قديم كان يرى أن الشخص بالأصل بريء ما لم تثبت إدانته. فلو كان فعلًا من المدافعين عن هذا المبدأ القانوني كان عليه كتابة: ليس كل من ينتقد إسرائيل هو تلقائيًا معادٍ للسامية. أما بالنسبة إلى السفير فالأمر يسري فحسب في التموضع في حالة الشك ضد المدعى عليهم؛ وعلى المرء الإثبات من البداية نياته الطيبة. وطبعًا لن يرسم هذا التعاطف والرثاء الذاتي - كلهم ضدنا - ابتسامة على وجوه البشر.

إن وجود إسرائيل غير مهدد بالخطر، ولا حتى حقها في الوجود. وعمومًا، بحسب ما أعلم، ليست هناك دولة تنكر رسميًا حق إسرائيل في الوجود. وإذا قال لنا أحدهم إن حماس، مثلًا، تنكر وجود إسرائيل فيمكن الرد بأن إسرائيل نفسها تنكر أيضًا حق حماس في الوجود. وإذا اعترفت إسرائيل بحركة حماس كحزب، فسوف تتحرك حماس من جهتها تجاه إسرائيل أيضًا. ولا ننسى أن قائد حركة حماس خالد مشعل صرَّح في مراتٍ عديدة لقناة الجزيرة بأنه يعترف بدولة فلسطين بحدود عام 1967.

إسرائيل موجودة ويجب أن تستمر في وجودها - لكن أرجوكم ضمن الحدود المتفق عليها قانونيًا ومع المساواة الكاملة لسكانها من غير اليهود. وإن توصلت إسرائيل إلى هذا الوجود القانوني يومًا ما مع المساواة الكاملة فإنها لن تعود "منبوذة من المجتمع الدولي" أكثر مما تراه نفسها؛ ذلك أن إسرائيل نفسها هي التي تسير بمسار تثبت فيه عدم استعدادها لوضع حدود نهائية لها.

ويوضح هداس-هاندلسمان ذاته أن التجربة تُظهر لنا "أن تصعيد الأمور في الشرق الأوسط قد ساهم في زيادة عدد الحوادث المعادية للسامية في أوروبا والعالم". لكن لنسأل، إذا كان هذا الرابط واضحًا جدًّا بين تصعيد الأزمات الشرق الأوسطية ومعاداة السامية، فلماذا لا نستخلص العواقب الصحيحة منه ونغيِّر في السياسة؟ فما نشهده بدلًا من ذلك هو قبول العالم ببساطة انتهاكات إسرائيل للقانون الدولي وسيرها في جرائم الحرب.

لنقرأ ما يقوله ممثلو اليهود في ألمانيا أمثال ديتر غراومان: "إننا نحن اليهود نقف إلى جانب إسرائيل. ويتوجب علينا، بما يقتضيه هذا الموقف من

قلوبنا، عدم الاعتذار عن ذلك". لقد احتلت إسرائيل الهويةَ اليهودية بنجاح، ومن هنا نجد اعتقاد كثير من الناس فعليًّا بذاك الارتباط الذي لا يمكن خرقه بين الصهيونية وإسرائيل واليهودية. هكذا يدّعي مثلًا نتنياهو أن له الحق في التحدث باسم جميع اليهود في جميع أنحاء العالم، حتى لو كانوا يعيشون في نيوزيلندا أو أيسلندا. ومن هنا فإنه، ومعه المؤسسة اليهودية، لا يولي اهتمامًا لأولئك الشجعان [من اليهود] الذين ينادون "ليس باسمنا!"، كما ينادي أعضاء "الصوت اليهودي من أجل السلام العادل في الشرق الأوسط" وغيرهم من الجماعات اليهودية الأخرى في العالم.

ما لا أستطيع فهمه هو وقوف يهودٍ على نحو أعمى خلف إسرائيل وعدم امتلاكهم القدرة على التميز بين الصواب والخطأ. وبالفعل يمكن تفهُّم موقف كثير من المواطنين الألمان، ولا سيَّما المسلمين والفلسطينيين، بعدم حبهم لهذه المواقف وانتقادهم لها، حتى وإن عبّروا عن هذا النقد أحيانًا على نحوٍ عالٍ وعاطفي. يمكن الرد على احتجاجاتهم بأساليب مختلفة بلا شك، لكن لا أن يُشهَّر بها على أنها بمجملها معادية للسامية. ولا نتصور أنه يمكن إقناع الفلسطينيين من غزة بذلك، من الذين فقدوا أقاربهم بقنابل إسرائيلية. فإذا كانوا يكرهون إسرائيل فعلًا، فلهم أسبابهم. ولا نستغربن كذلك أنهم لا يبغون الاستماع إلى ديتر غراومان بأن عليهم النأي بأنفسهم عن حماس، طالما أن المجلس المركزي لليهود في ألمانيا لا ينأى بنفسه عن جرائم الحرب التي يرتكبها الإسرائيليون والموثّقة في تقرير الأمم المتحدة للمحامي ريتشارد غولدستون، من جنوب أفريقيا والمدعي العام للأمم المتحدة. حتى هذا الشخص نفسه، رغم أنه يهودي، قد تعرَّض لضغوط هائلة من الجانب الإسرائيلي، وبُذلت محاولاتٌ للنيل من سمعته.

يشتكي هداس-هاندلسمان "يمكن كل شخص اليوم أن يكون معاديًا للسامية!" إلا أنه يخلط نقد إسرائيل والصهيونية بمعاداة السامية. وبالفعل، يسير الرجل على خطى أرئيل شارون الذي رحَّب هو ذاته بمعاداة السامية في أوروبا، وذلك لدفع اليهود هناك إلى الهجرة نحو إسرائيل، خاصة حينما كتب:

"يعرف كل يهودي في العالم اليوم أنه يستطيع المجيء إلى إسرائيل في أيّ وقت في حالة وجود خطر"؛ طبعًا كما لو أن المخاطر غير موجودة في إسرائيل أكثر من أيّ بقعة أخرى في العالم، يكفي أن نشير كمثال فحسب إلى مخاطر الانجرار إلى الحروب غير الضرورية هناك.

ثم إن هناك تساؤلًا يرتبط بما إذا هاجر اليهود إلى إسرائيل، هل سيكون لديهم الوعي أنهم قد يقومون بترحيل الفلسطينيين عن أرضهم أو أنهم يعرِّضون حياتهم للخطر.

أختم هذا الفصل بهذه الإشارة الأخيرة، لقد زار مرة الرئيس الإسرائيلي السابق حاييم هرتسوغ ألمانيا، وفي أثناء ذلك طلب من كل اليهود في ألمانيا هجرَها والتوجه إلى إسرائيل. ماذا كان رد المجلس المركزي لليهود في ألمانيا والحكومة الألمانية؟ ردهم كان الصمت. والحال أنه يُسمح للضيف من إسرائيل بفعل وقول ما لا يقوم به شخصٌ آخر. ولا يخفى أن الرؤساء والسفراء الإسرائيليين يتمتعون عندنا بحرية الحماقة.

17

حركة معادي الألمان
والموقف التقاربي من اليمين الجديد

تمثّل حركة ما يسمى "معادي الألمان" (Antideutschen) ظاهرة خاصة جدًا بالألمان ولهذا توجد في ألمانيا فحسب. وهي عبارة عن حركة سياسية انبثقت من بعض فروع ما يسمى اليسار الراديكالي، وتعارض على نحوٍ خاص القومية الألمانية التي تعتقد أنها قد تعززت، خاصة في أعقاب إعادة توحيد ألمانيا. أما ما هو معروف عن مواقف هذه الحركة، فهو التضامن غير المشروط مع إسرائيل، ومعارضة من يعارض الصهيونية، ومعارضة من يعارض الإمبريالية، ومعارضة أشكال معيَّنة تعادي الرأسمالية، وهي الأشكال التي تساويها على نحوٍ شامل بمعاداة الأميركانية (Antiamerikanismus) والعداء للسامية.

ليس بمستغرب، أن ظهور معادي الألمان قد أدى إلى جدالاتٍ حادة في داخل المشهد اليساري. والسبب هو أن المعادين للألمان يذهبون في تضامنهم مع إسرائيل، ذلك التضامن النابع أساسًا من المسؤولية التاريخية الألمانية [تجاه ما قاموا به ضد اليهود في الهولوكوست]، إلى درجة تمجيدهم إسرائيل والولايات المتحدة كحاملتين للحضارة الغربية. من هنا، فإن تضامنهم هذا مع إسرائيل ليس نتيجة النقاشات في ما يتعلق بالصراع الحقيقي في الشرق الأوسط، بل نتيجة الإفراط الشديد بالتماهي الشديد "مع اليهود" والمواقف والأمزجة الحساسة المزعومة لليسار الألماني تجاه إسرائيل. أما ما يسمّى اليسارَ المستقل فإنه يتهم هؤلاء المعادين للألمانية بأنهم يمثّلون أيديولوجيا "شعبوية" لأن هؤلاء بمناصرتهم للسامية، أي الفيلوسامية، المحرجة طبعًا، والتصاقهم الشديد بها، يرفعون الشعب اليهودي على نحوٍ مثالوي ويتعاملون معه كما لو أنه كتلة متجانسة في ما بينها. لكن لنعلم أن الفيلوسامية تستند تمامًا إلى الصور النمطية نفسها لمعاداة السامية، ولا يكمن الاختلاف بينهما سوى في نقطة وهي أن الفيلوسامية تقدِّم لنا صورًا إيجابية عن السامية. وعندما نجد معادي السامية

يكرهون اليهود بسبب الزعم أنهم أذكياء جدًّا وكونيون أو عالميون سياسيًا وأنهم يدمرون الدولة القومية، فلن نستغرب أن يبدي معادو الألمان المناصرون للسامية الإعجاب بذلك. ثم ألم يقل لنا هنريك برودر مرة، إن مناصري السامية [الفيلوساميون] أنفسهم معادون للسامية، ولكن يحبون اليهود؟ واليوم طبعًا يُعدّ برودر واحدًا من الأبطال الصحافيين المعادين للألمان.

في الحقيقة يكشف كثير من مؤيدي معادي الألمانية نقاط التقاء مع مجموعات اليمينيين الجدد، خاصة الذين يقفون على ضفة رهاب الإسلام. ومن بين الأصوات والوسائل المركزية لحركة معادي الألمانية لدينا مثلًا الصحيفة الأسبوعية جانغل وورلد (*Jungle World*) ومجلة باهاماس (*Bahamas*) والمجلة الشهرية كونكريت (*Konkret*). هكذا لا نستغربن حرص بعض المؤلفين في حركة المعادين للألمانية أن يكونوا قريبين من الناشرين في الموقع الإلكتروني للشبكة الشعوبية اليمينية "محور الخير" التي يديرها هنريك برودر، كما أنهم يكتبون للمدونات الإلكترونية على الإنترنت المؤيدة لإسرائيل أو لصحيفة يوديشه روندشاو [اليهودية] اليمينية المتطرفة التي تنشر الأيديولوجيات العنصرية والقومية.

هنا نشير كذلك إلى النقد الذي تتلقاه هذه الحركة المعادية للألمان، فمثلًا يشير بعض النقاد اليساريين إلى أن هذه الحركة ما هي إلا "جماعة تتسم بالحمق الشاذ وتحمل عقدة الذنب الألمانية"[1] ويتهمونهم بأنهم يمارسون بروباغندا ويحتفون بـ "شكل من أشكال الحماسة الإسرائيلية يتطابق مع المواقف المتطرفة لليمين الإسرائيلي". ويمكن أن نقرأ في المجلة التابعة لمؤسسة روزا لوكسمبورغ أن المشكلة عند مناصري السامية من تيار معادي الألمان هي أنهم يعتبرون اليهود كتلة متجانسة وذلك على نحو مشابه في ظنهم لما يسود عند معادي السامية، فهم يتقاطعون بعضهم مع بعض، وفقط نجد أن الدلائل بين الطرفين يعكس بعضها بعضًا.

---

(1) https://bit.ly/3KLQLyU

يقول المؤرخ اليساري الإسرائيلي موشيه تسوكرمان، إن "عقيدة التضامن مع إسرائيل" تتجاهل التناقضات وعدم التجانس في المجتمع الإسرائيلي. وهكذا يشيد أنصار التضامن اليساري مع إسرائيل بالصهيونية التي "تتأسطر" أو قل "تُنزع عنها صفة التاريخية". ففي الماضي مثَّلت الصهيونية ما يشبه إجراءً دفاعيًّا ضد معاداة السامية. وبناءً على هذا، فإن الانحياز إلى إسرائيل في الفهم الذاتي للأيديولوجيا المعادية للألمانية ما هو إلا نتيجة إجبارية لرفضها الصارم لمعاداة السامية، طبعًا باعتبار هذه الأخيرة تجسِّد أعظم شرور العالم. هكذا أصبح من الملائم في بعض مسارات مشاهد الحراك المستقل لـ "أنتيفا"[2] التغزل بالتضامن مع إسرائيل، والذي بالكاد يمكن تبريره نظريًّا.

من المفارقات أن نقد "معادي الألمان" قد أثير أساسًا على الخلفية الروحية المبتذلة المخادعة للمؤاخاة الألمانية - اليهودية مع "مناصرتها القوية للسامية" الحقيقية. وهنا لا ننسى نقد المؤلف آيكه غايسل (Eike Geisel) (1945-1997) الذي انتقد في وقتٍ مبكرٍ بشدة ذاك "الخليط الذي لا يطاق من مسيحيين معنيين، وسائحين متحمسين يمضون سياحتهم في إسرائيل، وأيضًا أولئك اليهود المحترفين الأشداء، فضلًا عن ألمان ملتزمين [بهذه الأيديولوجيات] وهاوين غيورين منكبين على الدراسات اليهودية". هنا بالضبط نجد اليوم تموقع معادي الألمانية أنفسهم في هذه الروحية الصهيونية المبتذلة.

لكن كيف حدث هذا؟ لنتذكر أن وصف "المعادي للألمان" كان لا يزال قبل عام 1989 عبارة عن وصف غامض لم يكن معادو الألمانية أنفسهم قد استخدموه في الإشارة إلى أنفسهم، حيث استُخدم للإشارة إلى مواقف معادية للقومية في أجزاء كثيرة من اليسار الألماني. أما متى نُحت هذا المصطلح وأخذ شكله الحالي الذي نعلمه اليوم، فلم يأت سوى في وقت متأخر، طبعًا حينما بدأ

---

(2) يشير حراك أنتيفا (Antifa) منذ عام 1980 إلى جماعات وتنظيمات يسارية مستقلة كانت تحارب النازية الجديدة ومعاداة السامية والعنصرية والقومية، وسواها. وهم يقفون بذلك في فضاء الحراك المعادي للفاشية نفسه، الذي قام في عشرينيات القرن العشرين. من هنا اسم هذا الحراك أنتيفا الذي هو اختصار لمناهضة الفاشية (Antifaschistische Aktion). (المترجمة)

تيار نظري محدد مرة أخرى، من داخل اليسار، يطلقه هو على نفسه وتحديدًا بعد سقوط جدار برلين، في عام 1989.

والحال أن الجمهور الألماني الواسع قد لاحظ بالكاد، وإلى اليوم، ذلك الانقسام لتيار "معاداة الألمانية" عن بقية اليسار في ما يسمى، في ألمانيا، فترةَ التحول [فترة التوحد وسقوط الجدار]. ومما حدث أنه في وقت تظاهر عشرات الآلاف من الناس في مدينة لايبزغ الألمانية من أجل نهاية قريبة لجمهورية ألمانيا الديمقراطية [الشرقية، DDR] وإعادة توحيد ألمانيا، نجد على الطرف المقابل ذلك اللقاء في فرانكفورت بين 20.000 شخص من أنصار الجماعات الشيوعية المختلفة مع حزب الخضر، وذلك للفت الانتباه إلى مخاطر إعادة توحيد ألمانيا. وبالفعل، فقد رأى كثير من الألمان أن معاداة السامية منغرسة في ثقافة الألمان ولا يمكن استئصالها، ولهذا السبب فإن كل دولة ألمانية [ستقوم أو تتوحد] ستقود لا محالة إلى حدوث هولوكوست جديدة. لا نستغربن، والحال هذه، ما كُتب بكل وضوح على إحدى اللافتات في إحدى التظاهرات التابعة لتيار معاداة الألمانية في هامبورغ في كانون الثاني/ يناير 2004: "التفكير في ألمانيا يعني التفكير في معسكر أوشفيتز [النازي]!" أما مواقف من يعارض تيار عداء الألمانية، فيُشهَّر بها بأنها "معادية للسامية"، وهذا بالفعل ما وصفه الكاتب الساخر فيغلاف دروسته في إحدى نكاته "الشخص الأول الذي يقول أوشفيتز، يربح".

نشير أيضًا إلى أن الموقف "اليساري المعادي للألمانية" يتوافق مع موقف بقية اليسار الذي أوضحه مرة الرئيس السابق للمجلس المركزي لليهود في ألمانيا ديتر غراومان في جريدة زودويتشه. حيث كتب: "لا يزال الروح القديم المعادي للصهيونية في جمهورية ألمانيا الديمقراطية يهيم من اليساريين"، رغم أن ذلك في الوقت نفسه، وقبل كل شيء، يمثّل اليسار الغربي الذي "يعيش حياته بكل شغف على كره إسرائيل المرضي الأعمى والشديد".

طبعًا إن هذه الظاهرة الفريدة من نوعها لـ "عداء الألمانية" هي ظاهرة، كما قلنا، موجودة في ألمانيا فحسب. لكن لا ننسى بالطبع وجود أحزاب يسارية

متعاطفة مع إسرائيل في فرنسا وإيطاليا. أما لماذا بالتحديد يطلق أعضاء تيار "عداء الألمانية" على أنفسهم هكذا، فهو بالضبط بسبب تاريخهم الألماني الماضي النازي [لهذا هم "أعداء الألمان"]، وحبهم بالطبع لأميركا وخصوصًا لإسرائيل. إنهم يعتبرون أنفسهم حماةً لليهود ولا يرون في الإسرائيليين أنهم إسرائيليون، بل إنهم يمثّلون غيتو يهوديًا يجب حمايته. طبعًا لا يمكنني هنا القول سوى "ليحمني الرب من هؤلاء الأصدقاء، وأنا أحمي نفسي من أعدائي".

إنهم يكرهون ألمانيا، ويقفون في صف إسرائيل بثبات ويرفضون أيَّ نقد موجَّه إلى أميركا. كما أنهم مجموعة صغيرة جدًّا ضمن حركة اليسار. لقد أرادوا في الأصل منع "الرايخ الرابع" - وقد ضاعوا في متاهات ذلك ضياعًا رهيبًا. وربما يؤمنون بهذا بكليتهم. وعلى الأرجح بإمكانهم القيام بعملٍ مهم على نحوٍ مذهل في هذا التخبط بين انقسامات الفصائل السياسية اليسارية في ما يخص هذه القضية. ولنلاحظ أن التيارات الشبابية، خاصة المعادية للألمانية، تجد في هذا التميز لها من بقية أطيافها [اليسارية] أمرًا عظيمًا. لكن في نهاية الأمر كل هذا مرتبط بالظروف الخاصة الحساسة التي يتموضعون فيها. ولا نتوقع هنا أن نجد أيَّ نوعٍ يمكن أن نطلق عليه نظرية سياسية أو تحليلًا سياسيًا. يا له من أمر رائع أن يكون لدينا في كل حركة متشددون ما، أو قل مثلًا أصحاب رؤى عميقة.

بعد بدء الانتفاضة الثانية في أيلول/ سبتمبر 2000 في إسرائيل وفلسطين والهجوم الإرهابي في 11 أيلول/ سبتمبر 2001 في الولايات المتحدة، بدأت تظهر استقطابات حادة بين اليسار التقليدي جدًّا من جهة وتيار معاداة الألمانية المستقل والجلي من جهة أخرى. لقد فسروا الهجوم على مركز التجارة العالمي في 11 أيلول/ سبتمبر 2001 والهجمات العديدة على المعابد اليهودية واليهود في العالم بأنها علامة ناقوس الخطر التي تعبِّر عن إرادة قوية لم تتغير، معادية للسامية في جميع أنحاء العالم. ومنذ ذلك الحين أصبح التضامن غير المشروط مع دولة إسرائيل والمعارضة الحادة للمواقف المعادية للصهيونية يحتلان مكانة محورية في وعي هذا التيار المعادي للألمانية. حيث يرى التيار،

والحال هذه، أن اليهود في كل العالم، خصوصًا في دولة إسرائيل، مهددين بالخطر من جوانب مختلفة؛ سواء من خلال استمرار أيديولوجيا المجتمع المدني في الدول الغربية ولا سيَّما في ألمانيا ("ما بعد الفاشية") أو من خلال جهل الحكومات الأوروبية معاداة السامية الموجودة في الاتحاد الأوروبي وفي مناطق دول الاتحاد السوفياتي سابقًا. وضف إلى ذلك طبعًا رؤية هذا التيار، المقتنع بها، لمعاداة السامية في كثير من الدول الإسلامية، حيث يجد أنه لا يمكن التقليل من خطرها على حق إسرائيل في الوجود، وأنها تمثِّل جزءًا أساسيًا من "معاداة السامية العالمية".

أما الساعة الحقيقية لولادة حركة معاداة الألمانية فيمكن اعتبارها في عام 1995. حين غادرت الكتلة، التي كانت تعتبر نفسها جزءًا من الحركة اليسارية، التحرير في مجلة **باهاماس**. ومن هنا أراد المحررون الباقون أن يحملوا المسؤولية "وحدهم" خارج نطاق حركة اليسار. كما نظَّم، في هذا السياق، المعادون للألمان أنفسهم كدائرة (شبه مثقفة)، وكانت **باهاماس** من الآن فصاعدًا وسيلتهم المركزية. اعتمدت أساسًا على النظرية النقدية والتحليل النفسي (هكذا!). لكن مع هذا فإن مستواهم الفكري بسيط جدًّا، وقد لجأوا باستمرار إلى القوة بغية إسكات المجموعات الأخرى. وبدلًا من ممارسة التحليل الموضوعي قاموا بالتنظير لموقعهم الخاص.

وفي مدينة لايبزغ حاولوا التشويش على محاضرة للفيلسوف الكندي البريطاني تيد هوندريش من خلال رفعهم علمًا ضخمًا لإسرائيل على المنصة وحجبوا هوندريش، فمنعوه من إلقاء محاضرته. وفي النهاية كان لا بد من الاتصال بالشرطة. طبعًا، بالأسلوب نفسه حاول التيار أيضًا منع إلقاء محاضرة لهايو ماير الذي نجا من أوشفيتز. وعندما نبههم ماير إلى أن هذا الفعل يذكِّر بالاستعراضات القديمة لكتيبة العاصفة [للقوات النازية] قبل استيلائهم على السلطة حينما كانوا يشوشون على كثير من الفعاليات التابعة للشيوعيين والديمقراطيين الاجتماعيين، وبالطبع اليهود أيضًا، أخذ مثيرو الشغب هؤلاء هذا الأمر بالضحك، ومعظمهم من الشباب. وعلى نحو مشابه للنازيين نجد

هؤلاء كذلك مقتنعين بإثمهم وخطئهم. ويمكن أن يضيف ماير فحسب أن الشرطة في ذلك الوقت، أيام النازية، كانت تقف في صف الظلم، على عكس اليوم.

إضافةً إلى ذلك، فإن لمعادي الألمانية شهرة وسمعة سيئة بسبب ترويجهم حربًا لا هوادة فيها ضد الإسلام السياسي، لا بل إنهم يشككون أيضًا في المسلمين العاديين. ويعتقدون بأن هذا الصراع ضدهم يجب أن يُقاد عسكريًا بشكل خاص، كما بأن ليس هناك أيُّ أمل على المدى المنظور في التطورات، مثل الثورات العربية [في الربيع العربي]، لتحسين مسارات الصراع في الشرق الأوسط وتغييرها، ويقدِّمون لهذا مبررات فلسفية معقدة ومجردة. لكن أن يعالج معادو الألمان الأوضاع المتردية للواقع الاجتماعي والحالة الخاصة لتاريخ الشرق الأوسط أو أن يتعاملوا معها، فهذا ما لا نجده إلا على مضض منهم، لا بل لا يُتعبون أنفسهم بذلك على الإطلاق. لماذا؟ لأنهم مشغولون بوجهة نظرهم الخاصة فحسب.

بناء على هذا التحليل يطالب تيار معاداة الألمان بالتضامن غير المشروط مع إسرائيل التي تمثِّل، باعتبارها دولةَ أولئك اليهود الذين نجوا من الهولوكوست، المعقلَ والملاذَ الضروري لليهود المضطهَدين في كل بلدان العالم. طبعًا يعني التضامن البنيوي مع إسرائيل بالنسبة إلى كثيرين من تيار معاداة الألمانية الدعم الكامل للتدابير السياسية والعسكرية الملموسة للحكومات الإسرائيلية المعنية. هكذا يمكن أن نقرأ بحسب ما جاء في أحد النصوص النموذجية لتيار معاداة الألمان أن إسرائيل "باعتبارها ضحية للعدوان المستمر من المنظمات الفلسطينية، لها الحق في اتخاذ تدابير التحكم والسيطرة وبناء الحواجز في الضفة الغربية وقطاع غزة، وأيضًا حينما يتم اللجوء إلى القتل المستهدف والمقصود". من هنا سيكون انتقاد إسرائيل بمنزلة الموافقة على تدميرها؟ لماذا؟ لأنها، والرأي لهذا التيار، دائمًا ما تجد نفسها في حالة تهديد، وتدافع بالتالي عن نفسها وتلجأ إلى هجوم وقائي في حال الضرورة. إن التضامن الذي يكون مجرد كلام، لا يمكن أن يكون إلا مطلقًا من دون قيد أو شرط.

لقد حاول بعض العقول الموجِّهة لتيار اليسار المعادي للألمانية تبرير هذا التضامن مع إسرائيل فلسفيًّا. هكذا نجد مثلًا الخبير السياسي شتيفان غريغات قد طوَّر "الحتمية الصهيونية القطعية" كمعيار لتضامن فاعل من شأنه المساعدة في دعم إسرائيل في "إمكانيات الدفاع عن النفس سواء وقائيًّا أو تلك التي ترد بها [على هجمات ضدها]".

لا شك نحن أمام فكرٍ يعتمد على محاججة عنصرية، طبعًا من دون أن يعلنها صراحة هذا التفكير المعادي لألمانيا: أن يكون الشخص ألمانيًّا يعني أن يكون دائمًا نازيًّا، أما من يعارض، أو يشك في، أن ألمانيا قد تقوم بتأسيس الرايخ مرة أخرى ولديها نية قتل اليهود، فهو شخص يمارس سياسة "الاسترضاء" بنظرهم. فما تفعله ألمانيا، بالنسبة إلى أغلبية اليساريين الذين يشعرون بارتباطهم بتيار معاداة الألمانية، يمثِّل مسارًا يسير بدافع واحد، أيًّا كانت الوسيلة التي تستخدمها. الأمر دائمًا يرتبط بالشيء نفسه بالنسبة إلى ألمانيا: أي إحياء الهتلرية وحروب الغزو الألمانية، طبعًا وقبل كل شيء، إبادة اليهود.

هكذا، فإن هذا الانحياز الأحادي إلى إسرائيل، الدولة التي تمثِّل الخير المطلق والمشروعة لليهود، يقف تمامًا في مقابل رفض الشر الألماني بسبب معسكر أوشفيتز. من هنا، لا يُنظر إلى دولة إسرائيل على ما هي عليه، بل كحقيقة لأيديولوجيتها التأسيسية التاريخية. وهذا بالضبط ما يخلص إليه المعادون للألمان ويتلاءمون معه بشأن ما تعنيه هذه المؤسسة المباركة والخيرة للدولة القومية الإسرائيلية. لقد كتب مرة رئيس تحرير مجلة كونكريت، التي أشرنا إليها، هرمان غريمليتسا (Hermann Gremliza): "إن إسرائيل هي دولة تهدف تمامًا إلى حماية الحياة اليهودية، وإذا ما فقد اليهود هذه الدولة، فسوف يكونون عرضة لأجواء معاداة السامية"(3). طبعًا واضح أن غريمليتسا لم يكتب هذا بتعقل بغية حماية "مواطنيه"، بل بناء على الفكرة الصهيونية الراديكالية أن إسرائيل تحمي جميع اليهود في العالم. لكن لنعلم أن إسرائيل لا تمثّل ليهود

(3) *konkret* 5/02

العالم "وطنًا آمنًا"، وأيضًا بالعكس فإن اليهود لا يتوقعون حدوث مجزرة بحقهم. والحال أن اليهود الذين يعيشون في إسرائيل معرّضون لأشد الأخطار. والذين يعيشون خارج إسرائيل، وهذا ما ينطبق على معظم اليهود، تستغلّهم الدولة ماديًّا، وقبل كل شيء أخلاقيًّا، طبعًا إلى مدى يجري فيه التشهير بالنقاد اليهود على أنهم "معادون للسامية" و"يهود كارهون لأنفسهم".

هنا نشير إلى أن هذه الأيديولوجيا السخيفة والغريبة التي يحملها ما يسمى تيار معاداة الألمان لا تبدو أنها واضحة تمامًا لمعظم التيار اليساري. والحال أن تيار معادي الألمان يصر على الواجب المزعوم لليسار السياسي بالانحياز إلى مصلحة إسرائيل. أما اليسار الإسرائيلي الذي لا علاقة له بالسياسة في بلده، ولهذا السبب يفر أفراده بالآلاف إلى برلين، فإنهم يتعرضون للإهانة والشتم من هؤلاء المعادين للألمان باعتبارهم خونة للوطن (هكذا!). وإذا ما كان ليساريٍّ ما فعلٌ أو رأيٌ، بشأن ألمانيا أو حتى إسرائيل، يختلف عما يحمله هؤلاء الذين في التيار، فإن بإمكانه التعبير عما يريده، [لكن]: يُنظر إليه على أنه دليلٌ على "العداء اليساري للسامية"؛ أما المحاربة الأخلاقية ضد هذا اليسار، فهذا بالضبط ما ينظر إليه المعادون للألمان على أنه مقصدهم الوجودي.

لقد أعجب هذا التيار اليساري المتطرف والمناهض لألمانيا بما أعلنته مرة المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل بأن أمن إسرائيل هو "مصلحة وطنية ألمانية"، لكن بمقدار ما كان هذا الإعجاب كبيرًا، بمقدار ما نجد هذا التيار يقف أيضًا ضد النظام الحاكم. إنهم مقتنعون بأن من يفرق ولو بشكل بسيط بين مشروع إسرائيل الكبير لحكومة حزب الليكود، وفعليًّا كل الحكومات السابقة أيضًا، وحق اليهود في العالم بحياةٍ ليس فيها عداء عنصري، فإنه شخص يحمل نيات إحياء معسكر أوشفيتز؛ والحال نفسه ينطبق على من يتظاهر في شوارع برلين احتجاجًا على الهجوم الإسرائيلي على غزة، فهذا أيضًا يريد إحياء الهولوكوست.

نوضح هنا نقطة أخرى يعتقد بها هذا التيار الذي يهتم حصرًا بالسياستين الإسرائيلية والأميركية. لدولة إسرائيل، من أجل ضحايا أوشفيتز اليهود، تضامنٌ

لا يحده حدّ، وهذا التضامن لا يحق لأيٍّ من الضحايا الآخرين. لكن دعوني هنا أسأل من يدّعي أن ضحايا أوشفيتز يريدون هذا أصلًا؟ وربما يمكن الإشارة هنا إلى ابنة الرئيس السابق للمجلس المركزي لليهود في ألمانيا، إيفلين هشت-غالينسكي (Evelyn Hecht-Galinski)، حيث لم تكل هذه السيدة وهي توضح أن والدها هاينتس غالينسكي لم ينجُ من معسكر أوشفيتز لكي يصمت عن الظلم الجديد. بيد أن الرجل هذا نفسه قد صمت إزاء الظلم في إسرائيل.

والحال هنا، أن حقيقة أنه يمنح الحق لإسرائيل، في ما يمكن إدانته بأنه ظلم شديد، يمشي به تمامًا "المعادي الحقيقي للألمان". وهذا بالضبط ما يسير به أيضًا مثقفون مشبوهون كموقف لهم يقدِّمون من خلاله تعصبًا ضيق الأفق بالتحيز إلى إسرائيل الوطن. وبالفعل، فإن التزامهم في الحكم والتفكير، أن يكون الشخص ألمانيًا جيدًا، كإسرائيلي مثالي نموذجي ضيق الأفق، سيؤدي بالتالي إلى تأكيد صريح شديد لعنف الدولة؛ ذلك العنف الذي يتطلب عادة في هذه الصلابة المتعنتة وجودَ فاشي إسرائيلي.

ما يجب التشديد عليه أن هؤلاء المعادين للألمان لديهم انطباع بأنهم مذنبون باستمرارِ الخيانةِ الأخلاقية، لأنهم يعتقدون أنهم لم يصلوا إلى الالتزام الكامل المطلق بإسرائيل أكثر من أيِّ وطني إسرائيلي رصين آخر. ويعتقدون أن "من غير الممكن في ألمانيا التظاهر ضد إسرائيل أو ضد سياسة محددة لأيِّ حكومة إسرائيلية". كما أن "الدولة، التي تم فيها إنقاذ اليهود الذين نجوا من القتلة الألمان، كانت في خطر قاتل، ولم يكن يوجد في هذا الموقف أيُّ مبدأ سمح لأعضاء البنية الجمعية لـ "الألمان" بفعل أمرٍ آخر سوى التمسك بحزب إسرائيل".

لكن أعضاء هذا التيار يتجاهلون حقيقة أن الدولة التي أنقذت اليهود الهاربين إليها من أوروبا لم يكن لها وجود سابقًا، بل كانت منطقة مأهولة بالسكان تنتمي إلى الفلسطينيين.

حتى تقرير هيئة حماية الدستور الألماني أشار أول مرة في عام 2006 إلى تيار "معادي الألمان". وبعد عامين أعلنت الهيئة: "لقد غدا تأثير تيار

معادي الألمان في اليسار التقليدي المتطرف حاليًا هائلًا جدًا. وبالكاد هناك اهتمام به". لكن في السنة التالية اختفى ذكر التيار من هذا التقرير لهيئة حماية الدستور.

أما عن عدد هذا التيار المعادي للألمان الذي نجده في أجواء منشورات باهاماس والمنشورات الصغيرة المماثلة مثل برودومو (*Prodomo*) وبونجور تريستيس (*Bonjour Tristesse*) فليس بالعدد الكبير، ولا يتجاوز المئات. لكن مع ذلك، لديهم قاعدة من المعجبين اليافعين والمتفانين، خصوصًا ضمن أجواء "أنتيفا"، ويصفهم بعض المراقبين بـ "متعة الشباب الموجَّهة إلى الحدث"، وفي مناطق الجامعات. وتنتشر أفكارهم كذلك، أو بالأحرى الرغبة في التميُّز، ضمن أوساط بعض التيارات اليسارية. وحاليًا يوجد فرع منهم على الأقل مؤيد لإسرائيل ضمن العشرات من الجماعات اليسارية؛ من مجموعة يوسوس[4] إلى مجموعة "النقابية اللاسلطوية" (Anarcho-syndikalismus). كما تواجه الأنشطة المعادية لإسرائيل، مثل "المقاطعة وسحب الاستثمارات والعقوبات" نقدًا شديدًا منهم. وقد يكون لدى تيار معادي الألمانية ميلٌ إلى الطائفية، كما يرى ذلك بعض أصحاب الرأي الرفيع. لكن لنعلم أنه لن يكون لهم وجود من غير تأثير سياسي؛ فمثلًا يتجلى تأثير "التيار المعادي لألمانيا" من بين أمور أخرى في حقيقة منع الكتلة البرلمانية لحزب اليسار، من سنوات، أعضاءها من دعم حل مبدأ الدولة الواحدة [في فلسطين] ومن المشاركة في أسطول آخر لمساعدة غزة ودعوات مقاطعة البضائع الإسرائيلية.

وفي هذا السياق، انتقدت منظمة "الصوت اليهودي من أجل السلام العادل في الشرق الأوسط" ومجموعة أخرى من أكثر من 100 ناشط يساري إسرائيلي حزب اليسار بسبب هذا القرار، فكانت الإشارة: بعضُ المواقف المحرجة مشروعةٌ.

---

(4) يوسوس (Jusos): مجموعة شبابية ممن تطوعوا في الحزب الاشتراكي الديمقراطي (SPD) في ألمانيا. (المترجمة)

هنا أشير كذلك إلى أنني لا يمكنني الحكم على إمكان وجود علاقةٍ سببية بين العدوانية المتطرفة للنظرية اليسارية وتعزيز الشعبوية اليمينية. لكن ما أستطيع تأكيده هو إن اليسار الذي لا يعتقد أن هناك آراءً وحقائق مختلفة، وأكاذيب وحقائق، وعنفًا لفظيًا وعنفًا على الأرض، ولا يستطيع الاعتقاد أن هناك، أو ربما يجب أن يكون هناك، خطأ وصواب، أقول إن مثل هذا اليسار ليس لديه سوى القليل في مواجهة الكاذبين اليمينيين والجاحدين والمجرمين. هنا يتجلى اليسار فحسب، ولكن عند الفحص الدقيق يتضح في الواقع وجود جبهة توافقية دومًا ما يجري اللجوء إليها، وما عادت هناك من فوارق ضمن المواقف اليمينية؛ أما اليسار هنا فليس له شيء.

لقد بدأت إسرائيل تفقد أصدقاءها تدريجًا في العالم. وبات الأمر لا يقتصر على الاشتراكيين الديمقراطيين واليساريين في اتخاذ مسافة من السياسة الإسرائيلية، بل تعداه حتى إلى حزب العمال البريطاني الذي ينأى بنفسه عن بنيامين نتنياهو، فضلًا عن الأحزاب اليسارية الأخرى في جميع أنحاء أوروبا، من إيطاليا إلى إسبانيا، ومن فرنسا إلى هولندا والسويد، التي تنتقد سياسات إسرائيل القومية.

أما أصدقاء إسرائيل التي تكسبهم في المقابل إلى جانبها، فبالطبع سينتمون إلى اليمين. فهي تتمتع بقيادة بنيامين نتنياهو بعلاقات جيدة مع هاينتس كريستيان شتراخه، رئيس حزب الحرية (FPÖ) الشعبوي اليميني في النمسا، الذي استقبله مرة أعضاء الحكومة الائتلافية بأذرع مفتوحة في إسرائيل. ونعلم أن حزب شتراخه قد تأسس في الأصل بفضل سواعد النازيين النمساويين، وقد عبّر حتى يورغ هايدر، رئيس الحزب السابق، عن تعاطفه مع سياسات أدولف هتلر. ولا نستغرب اليوم مواقف الحزب في سياساته التي تهدف في المقام الأول إلى معاداة المسلمين ومناهضة الهجرة، وهو ما يشكّل بالتالي جبهة التقاء وتقاطع مع المعادين للألمان.

أما الصديق الآخر لإسرائيل فهو الشعبوي اليميني غيرت فيلدرز من هولندا، الذي نجده، من ناحية، يكن عداء وكرهًا شديدين للأجانب، لكنه،

من ناحية أخرى، يكن غاية الود لإسرائيل. وقد غدا هذا الرجل في خريف 2016 مشهورًا بزياراته لإسرائيل ولقاءاته المتكررة مع المسؤولين الإسرائيليين هناك، حتى إن جهاز الاستخبارات الهولندي قد حقق في "صلاته بإسرائيل وتأثيرها المحتمل في ولائه لهولندا"[5]. أما لماذا يقف عدد ليس بالقليل من اليهود مثل هنريك برودر خلف فيلدرز، فهذا يعزى أيضًا إلى كرهه للمسلمين. والأمر نفسه يمكن قوله في ما يخص السياسية الفرنسية اليمينية الشعبوية مارين لوبان المصابة بالإسلاموفوبيا [رهاب الإسلام] وتسعى كذلك للقرب من إسرائيل وفقًا لشعار: عدو عدوي هو صديقي. ولا ننسى إضافةً إلى ذلك احتفاظ إسرائيل بعلاقات وثيقة بالمسيحيين الإنجيليين الأصوليين في الولايات المتحدة الأميركية، رغم علم الجميع أن هؤلاء معادون للسامية. والحال أنه مع انتخاب دونالد ترامب رئيسًا للولايات المتحدة، غدا هذا النوع من التعاون جزءًا مركزيًا من السياسة الأميركية. وهذا هو السبب في قيام ترامب كذلك بإرسال سفير صهيوني إلى إسرائيل وإرادته في نقل السفارة الأميركية إلى القدس وتقديم المزيد من الدعم لبناء المستوطنات على نحو مخالف للقانون. وهذا ما يتماشى مع السياسة الأميركية التي تسير بمسارها بنحوٍ صهيوني أكثر مما تقوم به الصهيونية نفسها.

لن ننسى أخيرًا قيام السياسية بياتريكس فون شتورش وغيرها من الأعضاء اليمينيين المتطرفين في البرلمان الأوروبي بالتضامن في هذا البرلمان مع اللوبي الذي أنشئ حديثًا لمصلحة المستوطنات غير القانونية في الأراضي الفلسطينية المحتلة. لقد غدونا بالفعل وبوضوح أمام هذه الصورة: صهاينة يمينيون من إسرائيل وقوميون يمينيون من أوروبا؛ وأضيف إليهم أيضًا، وتمامًا في جبهة التلاقي، المعادون للألمان.

---

(5) https://bit.ly/35hBoxX

18

هل تتم الرقابة لأجل إسرائيل؟

يقوم إعلان القاهرة حول حقوق الإنسان في الإسلام، الذي أقرَّته، في عام 1990، الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي، على مبادئ الشريعة الإسلامية أو الفقه الإسلامي، التي تُعتبر بمنزلة "المرجع الوحيد لتفسير أو توضيح أي مادة من مواد هذه الوثيقة"، كما أشار المؤلفون إلى ذلك. ويُنظر إلى هذا الإعلان الإسلامي على أنه المقابل الأرثوذكسي أو الإجابة الأرثوذكسية الإسلامية على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وهو يضيف إليه ويقيده. مثلًا لا يؤخذ بمبدأ حرية التعبير ولا يطبَّق إلا "على نحو لا يتعارض مع المبادئ الشرعية"، كما أن الكفر أو التجديف يُعدَّان إثمًا. ويُحرّم كذلك بحسب الإعلان "التعرض للمقدسات وكرامة الأنبياء فيه [في الإعلام]، وممارسة كل ما من شأنه الإخلال بالقيم الأخلاقية أو إصابة المجتمع بالتفكك أو الانحلال أو الضرر أو زعزعة الاعتقاد". وهذا هو السبب في وجود قوانين في كثير من الدول الإسلامية تحمي الإسلام من أن يكون موضع تشكيك.

يعتقد الصهاينة باعتقادٍ مشابهٍ لذلك في ما يتعلق بإسرائيل والصهيونية. وأيضًا هنا، لا يؤخذ بحق التعبير عن الرأي إلا بمقدار ما لا ينتهك مبادئ الصهيونية والبروباغندا الإسرائيلية. حيث يُعتبر من المحرمات كذلك انتهاك قدسية وكرامة إسرائيل والصهيونية، والتشكيك في آداب الصهيونية وقيمها الأخلاقية وإضعاف الإيمان بها. وهذا هو السبب أيضًا في أنهم يقفون ضد أيِّ شخص يُضعف الصهيونية ويشكك فيها.

يمكن أن نجد في كل مكان أصدقاء يشكِّلون مصدر قلق تجاه أيٍّ من اليهود الشرفاء: في الكنائس والنقابات والأحزاب. خذوا مثلًا البنوك الألمانية والسياسيين الألمان الذين يبغون حماية إسرائيل من اليهود الذين يرفضون

سياسة إسرائيل ويطالبون، ويدعمون، حملات المقاطعة لبضائعها ومؤسساتها، جنبًا إلى جنب مع الفلسطينيين والمجموعات المتضامنة معهم ويحملون الرأي نفسه. فكما كان الحال مرةً حينما طالبت جماعات السود والبيض من جنوب أفريقيا، ومعهم المجموعات المتضامنة معهم عالميًا، بمقاطعة دولة جنوب أفريقيا ورحَّبوا بمقاطعتها وذلك بغية مكافحة سياسة الفصل العنصري هناك، فكذلك الأمر ينطبق على كثير من المنظمات اليهودية، مثل "الصوت اليهودي من أجل السلام العادل في الشرق الأوسط" التي ترتبط عالميًا بمنظمة "الصوت اليهودي من أجل السلام"، فهذه المنظمات تدعو أيضًا، وتطالب حاليًا بمقاطعة إسرائيل أو على أقل تقدير بمقاطعة المنتجات المقبلة من الأراضي المحتلة.

في 9 تموز/يوليو 2005 نشرت 171 منظمة مدنية فلسطينية البيان التأسيسي لحملة مقاطعة إسرائيل. "المقاطعة وسحب الاستثمارات والعقوبات" [تُختصر BDS]. وينظر ممثلو هذه المقاطعة إلى أن هذا النداء يمثِّل تمامًا استمرارًا لتراث حملة المقاطعة التي حدثت في الماضي ضد "الاحتلال البريطاني" و"الاستعمار الصهيوني" منذ عام 1920، والتي تكررت مراتٍ عديدة منذ عام 1948. وقد دعم هذا النداء معظم الأحزاب والنقابات الفلسطينية وممثلو اللاجئين الفلسطينيين وسكان الأراضي المحتلة، فضلًا عن مواطنين يهود في إسرائيل. والحال أن حملة المقاطعة BDS هذه هي حركة عالمية سلمية تضغط على إسرائيل للامتثال لالتزاماتها بموجب القانون الإنساني الدولي وحقوق الإنسان، على النحو المنصوص عليه في كثير من قرارات الأمم المتحدة، وإنهاء احتلال المناطق الفلسطينية والسورية، وإنهاء حالة التميز الممنهج ضد الفلسطينيين في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وفي إسرائيل نفسها، والسماح بعودة اللاجئين الفلسطينيين من الخارج.

وعلى غرار حركة مناهضة الفصل العنصري، الأبارتهايد، التي حشدت المجتمع المدني العالمي ضد نظام الأبارتهايد في جنوب أفريقيا، أصبحت حركة المقاطعة BDS بمنزلة حركة عالمية قوية وفعالة تدعو إلى اتخاذ تدابير لإجبار إسرائيل على احترام القانون الدولي وإقناع الدول الأخرى والشركات

بالامتناع عن دعم إسرائيل بسبب انتهاكها القانون الدولي. والحال أن الحكومات الأجنبية لم تعرقل الحملات التي قامت ضد الأبارتهايد في جنوب أفريقيا أو من أجل حركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة الأميركية، بيد أن تأثير وفاعلية حركة المقاطعة BDS لم تدفع إسرائيل فحسب، بل حتى دولًا أخرى إلى اتخاذ تدابير مضادة لقمع هذه الحركة.

وقد سنت البرلمانات في فرنسا وبريطانيا وكندا وبعض الولايات الأميركية قوانين، أو اتخذت تدابير تنفيذية لقمع حركة المقاطعة أو تجريمها أو حتى حظرها. وهدفت هذه التدابير إلى معاقبة الأفراد والشركات والمؤسسات الخاصة والعامة الذين يتخذون على نحوٍ قانوني وأخلاقي قرارات مسؤولة متعلقة بالأعمال التجارية والاستثمارية.

هناك دولٌ أخرى، ولا سيَّما السويد وهولندا وإيرلندا، اعتبرت أن حركة المقاطعة BDS تندرج في إطار حرية التعبير، أي الحرية ذات القيمة العالية التي تنص عليها قوانين الدول، وكذلك الاتفاقيات الدولية لحقوق الإنسان. ورأت أيضًا منظمات حقوق الإنسان المعروفة كذلك، مثل منظمة العفو الدولية، أمنيستي، والاتحاد الدولي لحقوق الإنسان ومنظمة هيومن رايتس ووتش، أنه يحق للأفراد والجمعيات والمؤسسات الخاصة والعامة والحكومات المحلية والشركات أن تدعم حملة المقاطعة وتتسامح معها وذلك ضمن أطر حرية التعبير. طبعًا لا يتعلق الأمر هنا بما إذا كنا نتوافق مع أهداف حركة المقاطعة هذه وأساليبها. فكل ما في الأمر هو إذا كان من المسموح، في ما يتعلق بحرية التعبير، أن يكون هناك استثناء بغية حماية إسرائيل.

أما من يرغب في هذا الاستثناء لإسرائيل فممثلو الاتحاد المسيحي الديمقراطي في فرانكفورت. وفي ميونيخ أيضًا كتلة مجلس المدينة من الحزب الاشتراكي الديمقراطي والاتحاد المسيحي الاجتماعي. هكذا نجد مثلًا كتلة فرانكفورت للاتحاد المسيحي الديمقراطي قد قدَّمت في مؤتمر عقدته في مدينة إيسن في كانون الأول/ ديسمبر 2016 طلبًا اتخذت فيه موقفًا واضحًا ضد حركة المقاطعة، ووافق عليه أغلبية المندوبين. وكما عبَّر الاتحاد المسيحي

الديمقراطي: "كل من يدعو إلى مقاطعة البضائع والخدمات الإسرائيلية تحت لافتة حركة المقاطعة BDS، فإنه يتحدث باللغة نفسها [سابقًا] التي طالبت الناس بعدم الشراء من اليهود". لا بل يصرح أوفه بيكر (Uwe Becker) رئيس دائرة فرانكفورت للاتحاد المسيحي الديمقراطي: "إن معاداة السامية عند حركة المقاطعة BDS تتمثل بكونها معاداة الصهيونية. لذا، يجب توجيه كل الجهود الضرورية لمجابهة هذا الشكل من عداء السامية بحزم ومجابهة العداء العدواني تجاه إسرائيل". لكن دعوني أقل إن مقارنة حملة المقاطعة هذه بحملة المقاطعة التي قامت بها النازية ضد اليهود والشركات اليهودية لهي مقارنة سخيفة ومخادعة وغير تاريخية؛ ذلك أن النازية قاطعت بشرًا فحسب لأنهم يهود. ثم، بغضّ النظر عن ذلك، لم تكن الحملة النازية بالمعنى الحقيقي حملة مقاطعة بل استراتيجيا ترهيبية، حتى وصلت إلى حدٍّ أن يقف ما يسمى رجالَ العاصفة [النازيين] أمام المحال التجارية لمراقبة الشراء، فمن كان يشتري من عند اليهود، يغدو في عيون "المجتمع الوطني" مذنبًا ويوصم بالعار، والأمر نفسه انطبق على الألمان الذين تزوجوا لاحقًا يهودًا. أما حملة المقاطعة BDS فإنها لا تقاطع بشرًا، بل موجَّهة ضد سياسة الأذى المنحرفة المتمثلة بمصادرة الأراضي، وهي سياسة، بالمناسبة، لا تحظرها اتفاقيات جنيف والقانون الدولي فحسب، بل حتى أعلى المحاكم الإسرائيلية تعتبرها غير قانونية. لكن الحكومات الإسرائيلية لا تلتزم ذلك. لقد كان اليهود حقًا في عصر النازية في ألمانيا عاجزين تمامًا أمام تعسف النازية. أما الإسرائيليون اليوم فيمكن أن يكونوا أيَّ شيء إلا أن يكونوا عاجزين، والحال أن لديهم الخيار: حيث بإمكانهم بالفعل تقويض حركة المقاطعة مباشرة وإلى الأبد، وذلك بالانسحاب من الأراضي التي احتلوها في عام 1967 ثم منحها لمالكيها الأصليين.

بينما كان هدف النازية يتمثل في إبادة اليهودية الألمانية والأوروبية، فإن هدف حملة المقاطعة BDS هو تحرير فلسطين وليس تدمير إسرائيل. ويمكن إضافة هدف آخر إلى الحملة ألا وهو تطبيق القانون الدولي وأن يكون فاعلًا، وهذا الأمر يجب أن يكون بداهيًّا طبعًا. لهذا فإن الأمر مرتبط بالإسرائيليين أنفسهم كي يجعلوا حملة المقاطعة هذه من الماضي. ولم يكن لليهود الألمان في زمن الرايخ الثالث أيُّ مجال لمواجهة مقاطعة النازية. وهنا أشير إلى أنه

يحزنني، لا بل من السخف، الإشارة إلى هذه الفروقات الواضحة [بين ما فعله النازيون ضد اليهود وما تقوم به حملة المقاطعة اليوم].

لقد أوضح الحزب [الاتحاد] المسيحي الديمقراطي في ألمانيا في قراره أنه يرفض ويعارض أي نشاطاتٍ لحركة المقاطعة BDS، بل أدانها بوصفها "معادية للسامية". لكن لنُشِر إلى أن حملة BDS تأتي من الأسفل من داخل المجتمع، حيث يجري دعمها بأصوات حركة شعبية تُظهر لمن هم في الأعلى ما يحدث في الأسفل. والحقيقة التي يجب أن نعلمها هي أن حملة المقاطعة قد نشأت بالأصل في إسرائيل، وحققت نجاحًا باهرًا حتى إن إسرائيل أجبِرت على الدفاع عن نفسها ضدها من خلال وسائل غير عادلة، حتى لو كان من أعضاء الحملة يهود وإسرائيليون.

لقد جاء في البيان الصادر عن مؤتمر الحزب الذي انعقد في مدينة إيسن: "يعارض حزب الاتحاد المسيحي الديمقراطي الألماني بكل حزم أيَّ أعمال معادية لإسرائيل. إن الحزب في ألمانيا ملتزمٌ علاقاتٍ صداقة عميقة مع إسرائيل ويواصل العمل من أجل حلٍّ سلمي للصراع بين إسرائيل والفلسطينيين". سأقول في هذا السياق، أن تلك الأكاذيب والسخرية أمر لا يطاق بالفعل. أم إن هذا يمثِّل ببساطة الغباء بعينه؟ أحب أن أؤكد أيضًا، أننا نحن اليهود، يمكننا الاستغناء عن مثل هؤلاء الأصدقاء الذين يفعلون ما بوسعهم لإطالة أمد الصراع بين الفلسطينيين وإسرائيل.

الأرجح، أن حتى منسقة السياسة الخارجية للاتحاد الأوروبي فيديريكا موغيريني حُسبت مع "معادي السامية"، بسبب اعتبارها في تشرين الأول/ أكتوبر 2016 أن أنشطة وإجراءات حملة المقاطعة BDS تندرج ضمن حرية التعبير عن الرأي وحرية التجمع وفقًا لما تقول به الحقوق الأساسية للأمم المتحدة.

إنهاء بنك الاقتصاد الاجتماعي الحسابَ المصرفي لإحدى المنظمات

إنه لأمر شائن أن يتهم رئيس مجلس "بنك الاقتصاد الاجتماعي" الألماني، الأستاذ شميتس (Schmitz)، اليهود الألمان والإسرائيليين الذين ينتقدون السياسة

الإسرائيلية ويدعمون حملة المقاطعة بأنهم يتحدثون عن إبادة إسرائيل. هل يجسد هذا غباء؟ لقد أغلق مصرفُ هذا الرجل لتلك الأسباب نفسها، [أي] نقد إسرائيل ودعم المقاطعة، في تشرين الثاني/ نوفمبر 2016، ومن دون أيِّ تردد، الحساب المصرفي لمنظمة "الصوت اليهودي من أجل السلام العادل"؛ المنظمة التي تعمل لمستقبل الفلسطينيين والإسرائيليين معًا. يمكننا أن نضحك على هذه النقطة، إن لم تجسِّد السخافة بعينها وتمامها. يريد المصرف أن يوضح لنا بالفعل من خلال هذا التصرف كيف يجري توظيفه على نحوٍ صحيح سياسيًا، وكيف تُثمَّن تمامًا الأمور، بل الدفاع أيضًا بكل شجاعة عن مواقفه. لكن إذا ما نظرنا إلى هذه النقطة بتمعنٍ أكثر، فسيظهر لنا أن الموظفين المسؤولين في هذه المؤسسة هم أنفسهم المعادون الحقيقيون للسامية؛ لماذا؟ لأنهم دومًا ما ينظرون إلى اليهود نظرة مميزة وخاصة، وتحديدًا في ظل غياب المعرفة. وهذا بالضبط ما يمثِّل الخيانة. الجهل بالفعل يُطبِق عليهم ولا يعلمون أنهم بجهلهم هذا يكشفون لنا عن معاداتهم للسامية. ثم إن إلغاء حساب مصرفي لأسبابٍ سياسية يُعدُّ اعتداءً على حرية التعبير، فضلًا عن أنه يجسد تمييزًا يحظره الدستور في ألمانيا. من الصعب حقًّا تصوُّر أن يقوم مصرف، يفتخر بخطه الاجتماعي، حتى اسميًّا كما يفصح اسم المصرف نفسه، بتصنيف زبائنه على أسس سياسية ويلغي حسابًا مصرفيًّا لإحدى حركات السلام. وهذا ما سيعني في المقابل أن كثيرًا من الناس يختارون مصارفهم وفقًا لمواقفهم الأخلاقية والسياسية. والآن بعد أن كُشفت هذه الفضيحة للمصرف، فإننا نعرف تمامًا ما تسعى إليه حملة المقاطعة BDS.

لقد تأسست منظمة "الصوت اليهودي من أجل السلام العادل في الشرق الأوسط" قبل ثلاثة عشر عامًا كفرع ألماني لمنظمة "الصوت اليهودي من أجل السلام العادل" الأوروبية. ومنذ ذلك الحين تعمل الحركة هنا في ألمانيا والاتحاد الأوروبي من أجل تطبيق حقوق الإنسان العالمية في إسرائيل وفلسطين، وكذلك من أجل حل سلمي عادل بين الشعبين. وقد سُجلت الحركة منذ عام 2007 كجمعية غير ربحية. وهنا يختبر الجمهور الألماني بالفعل أن المجتمع اليهودي هنا متنوعٌ ويتميز بالنقد أكثر مما يصدره لنا الممثلون

الرسميون للجالية اليهودية. والجمعية كانت على وعي تام أن نشاطاتها لن تنال إعجاب بعض الداعمين للحكومة الإسرائيلية. إلا أن المرء لم يدرك أن الأمر سيصل إلى درجة أن ينتهك مصرف ألماني الحق في حرية التعبير عن الرأي.

يمكن تلخيص ما جرى، في أن الجمعية تلقّت في بداية تشرين الثاني/ نوفمبر 2016 رسالةً من بنك الاقتصاد الاجتماعي أخبرها فيها أنه سيتم حتى نهاية السنة إلغاء الحساب المصرفي، طبعًا هكذا من دون ذكر أيِّ سبب. لكن، في النهاية بعد محاولات مطولة لتوضيح سبب الإجراء هذا وبعد ممارسة ضغط كبير من جانب كثير من الداعمين، برر البنك قراره بأنه سياسي: ذلك أن دعم منظمة الصوت اليهودي لحملة "المقاطعة وسحب الاستثمارات والعقوبات" قد مثَّل بالنسبة إلى المصرف ما يشبه المخرز في العين. أما من أطلع البنك على هذا الدعم فهو شخص يعمل في صحيفة جيروزاليم بوست الإسرائيلية، تلك الصحيفة المصطفة في مسار الطيف السياسي اليميني. ربما بمجرد أن سمع مجلس بنك الاقتصاد الاجتماعي ألفاظًا مثل "القدس" و"اليهود" و"معاداة السامية"... وسواها، حتى بدأ الهلع ينتابه ويتصبب عرقًا. لكن حقيقةَ أن المصرف اشترك هنا مع اليمين المتطرف في إسرائيل، لهو أمر لا يشك فيه مجلسه اليوم. وإضافة إلى ذلك فقد سار وفق التفسيرات السائدة والمسيطرة [في ألمانيا]، بصرف النظر عما يحدده الدستور بشأن أيِّ الآراء يمكن تبنيها وأيّها لا. لكن لنقلها بكلمات أخرى: إن المصرف يمارس رقابةً سياسية. وفي الوقت نفسه كان أعضاء المصرف هذا قد أعلموا جريدة جيروزاليم بوست الإسرائيلية بأن الحساب المصرفي [للجمعية] قد ألغي، وبهذا يكونون قد انتهكوا أيضًا السرية المصرفية التي يكفلها الدستور.

الأمر نفسه حصل معي كذلك مع البنك التجاري (Commerzbank). وبالفعل فقد كان عليّ أن أعلم من مقالة في جريدة جيروزاليم بوست اليمينية نفسها أنني من داعمي حملة المقاطعة، ولهذا جرى إلغاء حسابي المصرفي. لكن على عكس بنك الاقتصاد الاجتماعي لم يوضح في النهاية البنك التجاري أسباب إلغائه حسابي المصرفي. طبعًا فتحتُ حسابي مع المصرف من أكثر من أربعين

سنة. ولي صديق اسمه أوري أفنيري كان يستعلمني عما يحدث في ألمانيا، ثم أخبرني أن المصارف الإسرائيلية نفسها لا تلغي البتة حسابات مصرفية لأسبابٍ سياسية، ولكن قد تقوم بإيقاف حركتها إذا ما كانت هناك أسباب سياسية. أما في ألمانيا فالأمر يحدث بالعكس. لكن إذا كان الحال هكذا، فلربما يجب علينا فتح حساباتنا المصرفية في إسرائيل. لأننا لن نتَّهم حينذاك بأن حساباتنا المصرفية "تسعى لزعزعة استقرار دولة إسرائيل".

كانت المنظمة نفسها "الصوت اليهودي من أجل السلام العادل" قد أعلنت في بيان صحافي سبب دعمها حملةَ المقاطعة غير العنيفة ضد الشركات الإسرائيلية والدولية. وجاء في بيانها: "إننا نرفض مزاعم إدارة البنك أن حملة المقاطعة BDS موجَّهة ضد وجود إسرائيل". ويكمل: "إذا ما تجاوزنا بنظرنا الحدود الألمانية، فسيظهر لنا أن هناك شخصيات معروفة وعالمية، بمن في ذلك كثير من العلماء ذوي المكانة المرموقة، قد انضموا إلى حركة المقاطعة وهم على وعي وقدر عالٍ من المعرفة والضمير الذي تحمله هذه الحركة. نذكر مثلًا من بين هؤلاء الشخصيات: جوديث بتلر، وأنجيلا ديفيس، والأسقف دزموند توتو، وناؤمي كلاين، وأليس ووكر".

هنا أود التأكيد أن قرارَي بنك الاقتصاد الاجتماعي والبنك التجاري لم يسببا لي ولا لمنظمة الصوت اليهودي أيَّ ضرر. والحال أن منظمة الصوت اليهودي قد نقلت حسابها إلى بنك ألماني آخر هو "صندوق التوفير" (Sparkasse)، حيث لا يمكن إلغاؤه أبدًا، كما قمت أنا أيضًا بفتح حسابٍ جديد لي قبل سنوات عدة في بنك آخر. لكن أيُّ فريق تضرر. لقد أضر هذا الإلغاءُ لحسابِ زبونِ المصارفَ نفسها التي فقدت ثقة السكان بها، وعليها الآن أن تقبل واقعَ أن يلغي زبائن آخرون حساباتهم عندها.

كانت المتحدثة الرسمية باسم بنك الاقتصاد الاجتماعي شتيفاني روت (Stephanie Rüth) قد أوضحت الأسباب التي دفعت البنك إلى هذا الإجراء. ووفقًا لها فإن الأمر الحاسم في إلغاء الحساب المصرفي هو دعم منظمة الصوت اليهودي لحملة المقاطعة BDS، وهو ما يهدف إلى "زعزعة استقرار

دولة إسرائيل، وهذا أمرٌ يخالف قوانين البنك". وقد كتبت هذه السيدة في إحدى الرسائل الإلكترونية لأحد داعمي "الصوت اليهودي من أجل السلام" والذي كان يستعلم عن أسباب هذا الإلغاء "بالطبع إنك تعلم أن الجمعية العليا للرعاية اليهودية في ألمانيا هي واحدة من الأعضاء المؤسسين لبنك الاقتصاد الاجتماعي الذي تأسس في عام 1923. نحن ملتزمون تحقيقَ المصالحة بين ألمانيا وإسرائيل منذ نهاية الحكم النازي وندعم حق الدولة اليهودية في الوجود".

استند المصرف أيضًا، لتبرير ذلك القرار، إلى تقييم مؤسسة فريدريش ناومان (Friedrich-Naumann) التي توصلت إلى نتيجة في أحد بياناتها (عنوانه "مقاطعة السلام: حركة BDS والغرب" 6 تشرين الأول/ أكتوبر 2015)، الذي يوضح لنا أن حركة المقاطعة BDS لا تسعى "سوى بشكل سطحي بهدف الإضرار بإسرائيل اقتصاديًا وذلك من خلال رفض التعاون معها. بيد أن دافعها في ذلك هو تشويه صورة إسرائيل الخارجية في المجتمع الدولي غير المعني بالأمر من خلال حملة تم التخطيط لها بدقة وعناية: إن حملة المقاطعة BDS تريد الوصول إلى العقول وليس إلى خزائن المال".

هنا، نذكر سريعًا أحد الشهود المهمين الآخرين الذين أفاد منهم المصرف، [أي] البروفسور الألماني المختص في علم الاجتماع الدكتور صامويل زالتسبورن (Samuel Salzborn)، من جامعة غوتنغن. هو الآخر يصف الحملة بأنها تجسِّد "تعبيرًا عن المصالح الفلسطينية والمحمَّلة بالأخلاقية الفلسطينية، إنها تعبير يهدف إلى زيادة الضغط السياسي على إسرائيل على الصعيد الدولي والإحاطة بالسياسة الفلسطينية". يقول زالتسبورن، إن الحملة ليس لها الحق في أن تشير إلى النضال ضد نظام الفصل العنصري، الأبارتهايد، في جنوب أفريقيا، لأنها حملة "لا تسعى إلى النقد [...]، بل نيتها معاداة السامية"[1].

أما الحكومة الألمانية فترى الأمر على نحو مختلف. لقد أجابت هذه

---

(1) "Israelkritik oder Antisemitismus? Kriterien für eine Unterscheidung," in: *Kirche und Israel. Neukirchener Theologische Zeitschrift*, Heft 1 (2013).

الحكومة مرة عن تساؤل من كتلة حزب الخضر في البرلمان، الممثلة بفولكر بيك، فيما إذا كانت تصنف حملة المقاطعة BDS، التي توجِّه نشاطاتها ضد إسرائيل، معاديةً للسامية أم لا (مادة مطبوعة برقم 18/ 3870)، أجابت بأنها لا تملك معلومات عنها. لكن السؤال: ما الذي أجبر بنك الاقتصاد الاجتماعي على أن يسير بهذا الإلغاء السخيف وغير المألوف لحساب مصرفي؟

لنشدد أن ما من نيةٍ لحملة BDS لسحب "البساط من تحت أقدام" الدولة الإسرائيلية كما يزعم اللوبي الصهيوني، بل إنها تكافح حصرًا ضد الاحتلال، وأيضًا، وهذا ما لا يمكن أن يقال معظم الأحيان، تكافح ضد انتهاك القانون الدولي. أجيبوني من فضلكم، من يريد هنا في ألمانيا أن يكون أكثر ذكاءً من القانون الدولي؟ من الواضح أن بنيامين نتنياهو وحكومته يريان في حملة المقاطعة هذه تهديدًا حقيقيًا لإسرائيل، لكنهما بهذا يرسمان عواقب عكسية وخاطئة. فبدلًا من أن يُنهوا الاحتلال، نجدهم يقاتلون خصومهم.

وأيًا يكن، فإن حملة المقاطعة تكسب المزيد والمزيد من الشعبية، ليس بين السكان فحسب، بل أيضًا بين المصارف والشركات والمجموعات الموسيقية والكتَّاب، هذا في حين تقوم الحكومات الإسرائيلية بتوسيع سياسات استعمارها وتكثيفها. إنها بالفعل تلك الهجمات الإسرائيلية المتكررة على قطاع غزة والمواجهات العنيفة المستمرة منذ عقود بين جيش الدفاع الإسرائيلي (بالعبرية: تساحال) والمدنيين الفلسطينيين... إلى آخر ما هنالك، نقول إنها تلك الإجراءات الإسرائيلية التي ألحقت الضرر بسمعة إسرائيل، وليس بالطبع من يقاوم ذلك أو يندد بانتهاكات القانون الدولي.

يمكن الإشارة إلى أن الدعوة التي التزمتها منظمة الصوت اليهودي تخضع لشروطٍ واضحة؛ فهي غير موجَّهة ضد دولة إسرائيل المعترف بها دوليًا، بل على نحو لا لبس فيه ضد سياسات الاحتلال والاستيطان والتهميش التي تمارسها حكوماتها. من هنا نجد أن المجتمعات المدنية في كل مكان تقاوم بوسائل غير عنيفة الانتهاك المستمر للقانون الدولي من طرف الحكومات الإسرائيلية. لقد دعا سياسيون في ألمانيا، بالفعل، مثل هلموت شميت وريتشارد فون فايتساكر

وشخصيات بارزة أخرى، إلى فرض عقوبات على إسرائيل. وفضلًا عن ذلك، سحبت شركات أخرى استثماراتها من الأراضي المحتلة، مثل دويتشه بان (DB) [شركة القطارات الألمانية]، وشركة إسمنت هايدلبرغ ومؤخرًا شركة G4S [شركة أمنية]؛ وألغى كثير من مصارف الكنائس الأميركية أيضًا استثماراته هناك وسُحبت؛ وامتد الأمر كذلك إلى الفنانين الذين حذوا حذو حملة المقاطعة للأبارتهايد في جنوب أفريقيا وألغوا عروضهم في إسرائيل. بالطبع إن هذه الإجراءات تضر بالإسرائيليين. لكن هذا هو المراد بالضبط، لأن ما تهدف إليه هذه الحملات، وغيرها من حملات المقاطعة للمجتمع المدني، هو إحداث تغييرات من المستحيل تحقيقها بوسائل أخرى.

لكن ينبغي هنا الإشارة إلى نقطة أخرى: لا يدعم كل أعضاء منظمة الصوت اليهودي بفعالية جميع مطالب حملة المقاطعة BDS، بيد أن الجميع يدافعون عن الحق الذي يكفله الدستور وذلك في دعم هذه الحملة أو المشاركة بفاعلية فيها. وهكذا، تمثل حملة BDS صوتًا ملائمًا تمامًا للدفع بالحكومة الإسرائيلية إلى التفكير مليًا في سياستها للاحتلال والاستيطان، وهو الأمر الذي يصب في مصلحة كلٍ من الشعبين اليهودي والفلسطيني. لهذا فإن تهمة بنك الاقتصاد الاجتماعي بأن منظمة الصوت اليهودي تنكر حق إسرائيل في الوجود لهي تهمة سخيفة، ليس أقله حتى بنظر كثير من الإسرائيليين؛ طبعًا إلا إذا كان المصرف يعني بأنه لا يمكن إسرائيل أن توجد من دون أن تكون قوة احتلال.

لقد تظاهر كثير من المنظمات وأعضاء مختلفون في البرلمان الألماني من اليسار والحزب الاشتراكي الديمقراطي وحزب الخضر وكذلك كثير من المواطنين ضد قرار المصرف إلغاء حساب زبونٍ له. وإضافة إلى ذلك، وصلت أصداء هذه الحالة غير المسبوقة إلى الرقابة السياسية لجمعية يهودية في "جمهورية ألمانيا الاتحادية" وأيضًا إلى الخارج. وقد أعلن بعض المنظمات أيضًا أنه يعتزم كذلك إنهاء حساباته لدى بنك الاقتصاد الاجتماعي احتجاجًا على ذلك. وأمام هذه الضغوطات، وجب على البنك في نهاية المطاف سحب إلغاء الحساب المصرفي للمنظمة.

نشير أخيرًا إلى مسألة هي أن هذا القرار لبنك الاقتصاد الاجتماعي في إلغاء الحساب المصرفي مع حلول نهاية عام 2016، لهو قرار يجسّد ما تبغيه إسرائيل. وهذا الكلام مني ليس نظرية مؤامرة، بل يمكن قراءته في مقالة لبنيامين واينثال في صحيفة جيروزاليم بوست في 28 تشرين الثاني/ نوفمبر 2016. لنقرأ مثلًا ما كتبه جلعاد أردان، وزير الأمن العام الإسرائيلي، الجناح اليميني: "أنني أرحب وأثني على قرار البنك التجاري والبنوك الأوروبية الأخرى بإغلاق حسابات منظمات المقاطعة". ويكمل: "إنه لأمر صحيح أن يُتخذ هذا الإجراء، سواء من منظور قانوني أو مالي أو أخلاقي". لا بل وصل أردان إلى درجة مطالبته بقية المصارف بأن تحذو حذو قرار البنك التجاري. وإلى اليوم، لم يعتذر البنك التجاري، بالمناسبة، عن إجرائه ذلك ولم يتراجع أيضًا عن قرار إلغاء الحساب المصرفي.

19

هل هناك ما يدعو اليهود إلى القلق؟

في عام 2015، وفي ظل المجلس المركزي لليهود في ألمانيا، تأسس ما دعي "مبادرة القيمة لتعزيز القيم الأساسية الديمقراطية الحرة" وقد قامت بها حلقة الأصدقاء اليهودية في برلين. وفي ربيع 2017 نشرت "مبادرة القيمة" (Werteinitiative) هذه مواقفها في انتخابات البرلمان الألماني، كما استفهمت في الوقت نفسه من الأحزاب الألمانية عن مواقفها تجاه الجالية اليهودية وتجاه إسرائيل.

لقد أمل المبادرون بفتح نقاش مكثف للمطالب التي صاغوها بغية تعزيز "ثقافة رائدة حرة وديمقراطية" ومحاربة فاعلة ضد "معاداة السامية الإسلامية"، وهي القيم التي يعتبرها مجتمعنا مهمة وجديرة بالدفاع عنها. ووفقًا لتصوُّر هذه المبادرة المستقلة فإنه يجب اعتبار ما ينظر إليه اليهود، بأنه "مشكلة"، كونهم معرضين على نحو متزايد للعداوات، كما يُفترض، يجب اعتباره يهدد وجود الديمقراطية للمجتمع بأكمله.

إضافةً إلى الموضوعات المذكورة أعلاه، كان من بين ما استفهمت عنه "مبادرة القيمة" من الأحزاب الألمانية قضايا تتعلق بالحرية الدينية وعلاقة الألمان بإسرائيل. ومن الجدير ذكره أن حزب البديل لأجل ألمانيا [الحزب اليميني] علّق فحسب على بند فرعي وحيد وكرر صوغه وفقًا لبرنامج سياسته: "يجب أن تقتصر الجنسية المزدوجة [من يحمل جنسيتين] على الحالات الخاصة المبررة". أما موقف الحزب هذا من القضايا الأخرى فكان الصمت.

والحال أن "مبادرة القيمة" قد أوضحت في بيانها: "حتى عندما يتحدث كثيرون عن أن الشخص يمكن أن يحصل على جنسية واحدة فحسب، إلا أن هناك أسبابًا تجبر المرء على اتخاذ جنسيتين اثنتين، مثلًا مع المواطنين

الألمان-الإسرائيليين". لكن السؤال البداهي الذي من الممكن أن يطرحه كل مواطن: لماذا يُفضَّل الإسرائيليون مرةً أخرى؟ هل لأنهم يهود؟ لا شك في أن ألمانيا تتحمل قدرًا من المسؤولية تجاه اليهود، وقد كان الأمر صحيحًا في ما جرى، مثلًا، مع والدي الذي أعيدت إليه جنسيته الألمانية من دون مطالبته بالتخلي عن الجنسية الإسرائيلية التي حصل عليها سابقًا. هل يتعلق الأمر هنا، لهذا السبب، بمبدأ شامل أبدي لا يطاوله التغيير، أم ينبغي بالفعل إصلاح هذا المنهج بعد 70 عامًا من انتهاء حقبة السيطرة النازية؟

لقد أكد تحالف من الأحزاب الألمانية - الحزب الاشتراكي الديمقراطي وحزب اليسار والحزب الديمقراطي الحر - على نحو مفصل، وإلى حدٍّ ما بصيغ متشابهة، التزامه تجاه الحياة اليهودية في ألمانيا ومكافحة كل شكل من أشكال معاداة السامية، طبعًا وهو أمر يبدو أجوف الآن. لكن سأطرح تساؤلًا، لماذا لا يسمع المرء عن اندماج المواطنين اليهود في ألمانيا، في وقت نسمع فيه كثيرًا جدًّا عن موضوع اندماج المواطنين المسلمين؟ إنني أطرح هذا السؤال كوننا نعلم أن اليهود لا يزالون غير مندمجين رسميًّا بل يُنظر إليهم فحسب على أنهم "يهود في ألمانيا". ولنعلم أن ما طرحته "مبادرة القيمة" في حديثها عن "اليهود الألمان" يُعتبر تمامًا أول مرة يُستخدم فيها هذا التعبير، أي عن الألمان ممن يؤمنون باليهودية، وهو وصف استخدمه اليهود أنفسهم قبل صعود النازية.

الآن يرى التحالف في ألمانيا أن هناك "ما يدعو إلى الفرح"، لأن "كثيرًا من اليهود في ألمانيا يمكنهم رؤية وطنهم مرة أخرى"؛ ونجد أيضًا حزب اليسار "سعيدًا لأن حياة يهودية كانت في ألمانيا، ولا تزال، رغم الهولوكوست الذي حدث بحقهم"؛ أما حزب الخضر فنراه "ممتنًا للحياة المتنوعة وإعادة تجذُّر الثقافة اليهودية من جديد"، ولا ينسى أيضًا الحزب الديمقراطي الحر أن يبدي "سعادته بوجود هذه الحياة اليهودية في ألمانيا". وبالفعل، تعبِّر الأحزاب الألمانية الخمسة عن التزامها المسؤوليةَ الألمانية الخاصة تجاه أمن إسرائيل؛ بل حتى اليسار نفسه أيضًا يعبِّر عن ذلك، رغم أننا غالبًا ما نسمع نقدًا من صفوفه لسياسات الدولة اليهودية.

ثمة غموض نوعًا ما يتخلل هذه المبادرة اليهودية، "مبادرة القيمة"، بل إنها أحادية الجانب وشوفينية؛ أما ما يلفت تحديدًا فهو معاداتها الصريحة للإسلام. لنقرأ مثلًا: "على ألمانيا أن تتوافق مع قيمها إذا ما أرادت أن "تكون" بلدًا حقيقيًا للهجرة. [لكن] ومع وصول ملايين المسلمين إلى أوروبا، تزايدت كراهية اليهود؛ كما أن موقف كثير من المسلمين من اليهودية لهو معروف على نحو كافٍ. والحال أن عملية مطاردة جديدة لليهود قد بدأت؛ أما الأغلبية فنجدها صامتة إزاء هذا. حتى اليسار نجده صامتًا أيضًا".

هنا كذلك نجد أن موقف البيان اليهودي ذلك يدافع عن ثقافة ديمقراطية حرة رائدة؛ لكن لمصلحة من. لمصلحة المواطنين فحسب من الذين يقفون في صف إسرائيل ويتجنبون انتقاد سياستها. وقد عبَّر المجلس المركزي لليهود أيضًا عن رغبته في أمور مشابهة، وتحديدًا التحقق من موقف كل لاجئ من إسرائيل، فإذا ما كان موقف اللاجئين مخالفًا لما يروم إليه المجلس المركزي، فحينذاك ينبغي "منعهم وإغلاق مساجدهم وملاحقتهم قضائيًّا"، أي باختصار: أن يجري طردهم.

تشدد "مبادرة القيمة" اليهودية بوضوح، على أنها تأخذ في الحسبان قيم الدستور الألماني باعتباره مسيحيًا-يهوديًّا، حتى وإن قيل إن "اليهود لم يصيغوا حقًّا الدستور، بل الذي صاغه المسيحيون من خلال مسيحيتهم، التي تستند [أصلًا] في الأساس إلى اليهودية". هل هم اليهود إذًا؟ لكن دعوني أشِر هنا إلى أن قادة الدين اليهودي أنفسهم أعلنوا منذ قرون أن قوانين الدولة هي فوق القوانين الدينية، وهذا يعني ببساطة أن زعماء الدين اليهودي الأذكياء قد طالبوا منذ زمنٍ بعيدٍ بالاندماج، لكن بأن "لا يعارض ذلك القضايا الأخلاقية"، وهذا ينطبق على جميع البشر، وليس اليهود فحسب. ولهذا فإن الجملة التالية لهي جملة سخيفة وغبية: "وهذه هي الحال عندما تطالب الدولة بجرائم مدنية، كأن تطلب قتل مواطن يهودي، وهذا طلب لا يجوز لليهود اتّباعه تحت أيِّ ظرفٍ من الظروف". لكن ماذا عن غير اليهود؟ سيسمح لهم بذلك، أليس كذلك؟ أسأل هنا: أيُّ دولة تطلب من "مواطنيها اليهود" ارتكابَ جرائم قتل؟ لكن

عمومًا، يمكن تصوُّر هذا الأمر بالنسبة إليَّ في إسرائيل أكثر منه في ألمانيا. ولنقرأ أيضًا في البيان نفسه هذه الجملة: "لا يمكن توقُّع هذه القضايا في ظل الديمقراطية. ومع ذلك لا ينبغي تجاهُل أن ثمة تناقضات لا يمكن التوفيق فيها بين الدستور الألماني والدستور الإسرائيلي في ما يتعلق بالحرية الدينية". لكن إسرائيل ليس لديها دستور. ويبدو بالفعل أن القوميين اليهود الذين صاغوا هذا البيان يعيشون تمامًا في عالم آخر حينما يرون أن "الإيمان ما عاد يُفهم في معظم بقع العالم على نحوٍ ديني، بل أساسًا على نحوٍ قومي [...]. وهذه الرؤية تنتشر ببطء في ألمانيا"، وربما يكون هذا بسبب حركة الهجرة الحالية. أما في ما يخص التعامل مع الإسلام السياسي، فإننا نجد المطالبة كذلك بمنع تأثيراته ودعمه؛ وهو الأمر الذي "لا نجده يؤخذ به في ألمانيا، وعلى نحوٍ أقل في إسرائيل" [في مسألة تقويض الإسلام السياسي]. من الصحيح أن إسرائيل لا تدعم الإسلام السياسي، وبالمناسبة ألمانيا أيضًا لا تدعمه، لكن إسرائيل تدعم خصوصًا اليهودية السياسية المتعصبة والاستعمارية القومية للمستوطنين ومنظمتهم غوش إيمونيم. هل يعتبر هذا الدعم أفضل[1]؟

يقف البيان الحالي على نحو صارخ ضد المسلمين؛ إننا نقرأ منه: "ثمة سؤال يمكن طرحه راهنًا ويتعلق بما إذا كان للتدفق القوي للمسلمين من الدول التي تخوض معها إسرائيل حربًا [المعني تمامًا: سورية] له تأثير سلبي في الوضع الأمني لليهود الذين يعيشون في ألمانيا. والحال أن أي شخص لديه علم عن الكراهية لليهود في معظم الدول العربية، تلك الكراهية التي ينشرونها حقًّا في رياض الأطفال، سيُقرّ بصدق أن الخطر على حياة اليهود ووجودهم في ألمانيا يتصاعد مع كل مهاجر مسلم من الشرق". وبالفعل يمكن أن تكون هذه السطور مأخوذة عن المجلات المحرضة للفترات الأشد ظلامية؛ إنها عنصرية

(1) يعني تعبير غوش إيمونيم "جماعة المؤمنين"، وهي منظمة دينية يهودية تعمل خارج البرلمان في إسرائيل. أسسها في عام 1974 خريجو مركز الحاخام كوك (Merkas HaRaw Kook). أما هدف هذه المنظمة فهو الاستيطان اليهودي لكل "أرض إسرائيل" التي وعد الرب اليهودَ بها وفقًا للتراث التوراتي. ويُعتبر أبراهام يتسحاق كوك (1865-1935) - وهو الحاخام الأشكنازي الأول لفلسطين خلال الانتداب البريطاني - وابنه زوي جود كوك (1891-1982)، من الآباء الروحيين لهذه المنظمة.

ومثيرة للاشمئزاز. لكن لا ننسى أننا إذا نظرنا إلى ما يُعلَّم في رياض الأطفال ومدارس المستوطنين القوميين المتدينين اليهود، سنجد على نحو مرعب العنصرية وكراهية العرب على أشدهما هناك.

لم ينتهِ هذا الهراء الذي يقدِّمه البيان. فلنقرأ أيضًا: "لسوء الحظ، لا يمكن أن يتكيّف المهاجرون المسلمون في وقت قصير مع المواطن الألماني العادي، الذي يعيش فترة ما بعد الهولوكوست، والذي تعلَّم كيف ينكر كراهيته لليهود ويتخلص منها". لكن أنا من جهتي آمل أن لا يتكيف المهاجرون، الذين لا علاقة لهم بالهولوكوست بتاتًا، مع المواطنين الألمان ولا آمل أن ينكروا كراهية اليهود التي لا يحملونها بالأصل ولا أن يتخلصوا منها.

طبعًا التحريض لم ينتهِ، إننا نقرأ كذلك: "ليس من المعروف إلى الآن ما إذا كان اندماج اللاجئين سينجح تمامًا، بيد أن نجاحه مشكوك فيه. وطبعًا سيعاني اليهود في ألمانيا وفي جميع أنحاء الاتحاد الأوروبي أكثر من غيرهم في [مثل] هذه التجارب الفاشلة. ووفقًا للأخلاقيات اليهودية، فليس من المفيد أن يتعرض غير اليهود للأذى بسبب سياسات الهجرة الخاطئة". هكذا يستمر الكذب والسخافة. لكن لنعلم أن الأخلاق اليهودية تقول إنه ينبغي إشراك الغرباء واحترامهم وحمايتهم، ولا ننسى أن الحاخام هيليل[2] قد لخص جوهر ما تطلبه اليهودية حينما قال: "تجنب أن تتصرف مع الآخر بفعل لا ترغب أنت في أن يفعله بك". والحال أن اتهام اللاجئين والمسلمين عمومًا بتهمة معاداة السامية لهو أمر شائن، بل يجسِّد سياسيًّا خطأ يمكن أن يأخذ بثأره يومًا ما.

لا يمكنني، والحال هذه، إلا أن أنصح سيدات وسادة "مبادرة القيمة" هذه، طبعًا المبادرة اللايهودية، أن يهتموا بشؤون المهاجرين اليهود، مثلًا اليهود الذين أتوا من روسيا وأخذتهم ألمانيا، ذلك لأن هؤلاء المهاجرين هم أنفسهم بعيدون جدًّا من الاندماج. أما المبادرون، رعاة هذه المبادرة، فيبدون بالنسبة

---

(2) كان هيليل أحد أهم الحاخامات الفريسيين في فترة تدمير الهيكل اليهودي الثاني (عاش قرابة 30 قبل الميلاد)، وهو رئيس السنهدرين ومؤسس مدرسة تفسير الكتاب المقدس، وإلى اليوم يرجع إليه اليهود.

إليَّ لا يسيرون وفقًا للدستور [الألماني]. إننا نقرأ من بيانهم: "يرى الألمان اليهود أنفسهم باعتبارهم مواطنين لهم ولاء لألمانيا، ولهم وطنهم هنا". ولكن بعد بضعة سطور يمكن أن يقرأ المرء من البيان نفسه: "يرى كثير من اليهود موطنهم الروحي في إسرائيل". هل هذا هو السبب إذًا في أنهم بحاجة أيضًا إلى جواز سفر إسرائيلي روحي؟ اليوم يطالب المرء الحكومة الألمانية بأن تكون حذرة في ما يخص "تحقيق الرغبة الفلسطينية في تقرير المصير"، أي بمعنى آخر أن تتجاهل هذا. لا بل نجد أيضًا كيف تحذِّر الحكومة الفدرالية الألمانية من أن الجمعيات الإسلامية "تتعارض مع الدستور" الألماني ويُذكِّر كذلك بأن "الختان اليهودي والذبائح اليهودية الحلال (koschere Schächten) هي من أعمدة الديانة اليهودية" وتمثِّل قوانين يهودية ينبغي السماح بها، أي في مقابل القوانين المحلية، طبعًا هذا على الرغم من الاعتراف منذ فترة غير طويلة أن قوانين البلاد هي فوق قوانين الدين.

وبالطبع لا ينبغي، مع هؤلاء، تفويت أي معركة ضد معاداة السامية، وهي دومًا تُقاد كما لو أنها تعويذة كلاسيكية: "هناك إجماعٌ سياسيٌّ حقيقي في ما يخص الحرب ضد معاداة السامية الكلاسيكية. إنه الكره نفسه، لكن بغير عباءة، والذي يتلبس معايير مزدوجة كـ "نقد إسرائيل" و"معاداة الصهيونية" و'حركة المقاطعة'". لكن لنعلم أن هناك الملايين من الإسرائيليين واليهود ممن يمارسون "نقد إسرائيل"، وثمة الملايين من اليهود من "المعادين للصهيونية" وهناك الملايين من اليهود ممن يسيرون في حركة المقاطعة BDS؛ فهل هؤلاء جميعًا معادون للسامية؟ طبعًا ليس من الصعب هنا رؤية أن الأمر يرتبط بشيء آخر، ألا وهو أن تسود هناك سلطة عليا في تفسير الأمور، أي سلطة المعنى التي يجب الدفاع عنها بكل الوسائل حتى وإن كانت جائرة. ثم كيف يمكن المشرفين الكبار قياس الأمور، هذا إذا كان الأمر يتعلق افتراضيًّا بمعاداة السامية، بمعايير مزدوجة، وتحديدًا هؤلاء، ذلك أنهم يرون في ذلك ميزة أساسية للنماذج النمطية المعادية للسامية؟ لقد انتشر في الحقبة النازية شعار ساخر يقول: "الأمر الذي لا ترغب في أن يفعله امرؤ بك، ألصقه بامرئ آخر!"، وهذا بالضبط ما يفكر فيه سيدات وسادة "مبادرة القيمة"، لكن للأسف ليس على نحوٍ ساخر.

بالتزامن مع نشر هذا البيان لليهود الليبراليين الديمقراطيين كانت صحيفة يوديشه ألغماينه قد نشرت استطلاعًا بين الحاخامات في ألمانيا بشأن أهمية الضفة الغربية في ما يخص عملية السلام. والحال أن الإجابات كانت مخيفة وغير "ديمقراطية ليبرالية". هكذا مثلًا يرى الحاخام الأرثوذكسي أفيخاي أبل من مدينة فرانكفورت: "حقنا في أرض إسرائيل هو حق تاريخي، ولكن قبل كل شيء إنها هدية [لنا] كما هي التوراة. أرض إسرائيل تعني أرض إسرائيل بأكملها". أما الحاخام الأرثوذكسي إليشا بورتنوي من مدينة ديساو [في إقليم سكسونيا] فيرى: "لا يجوز لأيِّ حكومة لأسباب أمنية التخلي عن سنتيمتر واحد من الأرض لأنها تراث الشعب"، بل يضيف أيضًا: "الرب يقرر لمن يمنح هذه الأرض". ربما اتصل بالفعل هذا الحاخام بورتنوي هاتفيًّا بالرب الذي ضمن له أنه منح الأرض بالتأكيد لليهود. لكن حتى لو اتصل بالرب، فإن الفلسطينيين هم "يهود" أكثر من اليهود الأشكناز أنفسهم، والذين ربما انحدروا جميعًا من شعوب الخزر.

لقد كتب الحاخام الأرثوذكسي رافائيل إفرز (Raphael Evers) من مدينة دوسلدورف: "أعتقد أن الرب وعد بإعطاء الأرض لشعب إسرائيل، حرفيًّا"؛ وأسأل هنا ما إذا كان يعتقد "حرفيًّا" بالوصايا والمحرمات التي فرضها الرب؟ مثلًا بشأن احترام "الأجنبي" كما جاء في التوراة: "وإذا نزل عندك غريب في أرضكم فلا تظلموه. كالوطني منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم وتحبه كنفسك لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر. أنا الرب إلهكم" (سفر اللاويين، الأصحاح 19: [33]-34).

يقول الحاخام أولريكه أوفنبرغ من الجالية الليبرالية من مدينة هاملن [في ولاية سكسونيا] إن "أرض إسرائيل أمر لا غنى عنه. لا يمكن التخلي عن الأرض". لكن ماذا بعد ذلك، لو أن الفلسطينيين اعتقدوا أنهم لا يستطيعون التخلي عن أراضيهم؟ ونجد كذلك حاخامًا ليبراليًّا آخر اسمه سالومون ألميكياس-زيغل (Salomon Almekias-Siegl)، ينشط كعالم جغرافيا، يصرِّح: "تمتد أرض (إسرائيل) من الصحراء إلى لبنان؛ ويمثِّل الفرات الحدود الشرقية لأرض الرب الموعودة. وتشمل هذه الحدود المثالية أيضًا الضفة الغربية

وسورية ولبنان". لكن بالنسبة إلى سورية ولبنان، والأردن الذي نسيه الحاخام بالمناسبة في قائمته الفسيحة هذه، لن يمثِّل ذلك "حدودًا مثالية"، حيث يعيش هناك المسلمون العرب فحسب، وهؤلاء لم يُحسبوا، لأن الرب وهب اليهود فحسب [الأرض].

مع ذلك، تجدر الإشارة إلى أنه رغم الاختلافات الجوهرية القائمة بين الحاخامات الأرثوذكس والليبراليين، فإن كل الاختلافات تزول حينما ترتبط بأرض إسرائيل والبقرة المقدسة لليهودية. فهم هنا في هذه القضايا متفقون. هناك فحسب اليهود الأرثوذكس المتطرفون وبعض الطوائف الحسيدية يفكرون على نحو مختلف ويحاربون الصهيونية التي يرونها تتناقض مع اليهودية.

إن الدعم غير المحدود الذي تتلقاه إسرائيل في جميع أنحاء العالم من خلال كثير من المنظمات اليهودية له دوره أيضًا في طمس التمييز بين الصهيونية واليهودية وبين الإسرائيليين واليهود. وهنا يكمن دور منتقدي الصهيونية بكل قوتهم لمنع هذا التمييز. إنهم ينتقدون تبعية المصالح اليهودية لمصالح إسرائيل. وليس من الغريب، والحال هذه، أن تُظهر أحيانًا جماعة السعانيم، الداعمين السريين لإسرائيل آراء أكثر راديكالية من المسؤولين الإسرائيليين الرسميين أنفسهم.

حاليًّا نجد كيف تتزعزع شرعية التمثيل اليهودي في جميع أنحاء العالم: فهل تمثِّل هذه أعضاءها اليهود أم دولة إسرائيل؟ كما أن الشعار السابق "نحن شعب" الذي أثبت فاعليةً كبرى في نشر الصهيونية يُظهر اليوم أنه ليس أقل فاعليةً في خلق معاداة السامية. وربما ما هو مهمٌّ التشديد عليه أن المعارضة لليهود اليوم لا تغذيها معاداة السامية "العادية" الأوروبية، بل تأتي من جراء الغضب إزاء ما يفعله الجيش الإسرائيلي بالفلسطينيين، كما كتبت صحيفة هآرتس عن هذه الظاهرة:

"وأيًّا يكن الأمر، سواء أكان الغباء أم انعدام التضامن أم السخرية التي لا ترى النجاح إلا في نمو الهجرة، فإن إسرائيل، التي تعتبر نفسها الداعم الوحيد لجميع اليهود في العالم، قادرة على اكتشاف أنها مصدر مشاكلهم".

وهناك نقاد آخرون يرون أن الوضع تحكمه حلقة مفرغة؛ حيث إن الدعم غير المحدود لإسرائيل من ناشطين يهود يعزز هو نفسه مسألة معاداة السامية، وهذه حقيقة تنطوي تمامًا على دعم الصهيونية وتجعل إسرائيل بمنزلة الحامي الضروري ضد معاداة السامية؛ لقد كتب أوري أفنيري في هذا السياق:

"فقد نشأت بالنسبة إلى اليهود هنا حلقة مفرغة خطيرة، تصرفات شارون تثير النفور والاشمئزاز في العالم؛ وهذا ما يعزز الصهيونية. ولمواجهة هذا الخطر نجد مؤسسات يهودية تذهب في مسار حماية إسرائيل والتماهي المطلق معها. وهذا التماهي هو الذي يسمح لمعادي السامية بمهاجمة حكومة إسرائيل، بل ومهاجمة اليهود عمومًا، وهكذا دواليك. فإسرائيل لا تحمي اليهود من معاداة السامية، بل على العكس إنها تنتج وتصدِّر معاداة السامية، وتهدد بهذا اليهود في جميع أنحاء العالم.

فإذا ما سئلتُ، ستكون نصيحتي للمجتمعات اليهودية في العالم: تخلصوا من هذه الحلقة المفرغة، وانزعوا سلاح معاداة السامية، تخلّوا عن الإجابات التلقائية في التماهي مع كل أفعال الحكومة الإسرائيلية وتصرفاتها السيئة؛ دعوا ضمائركم هي ما يتكلم؛ ارجعوا إلى القيم اليهودية التقليدية المتمثلة بما قالت به التوراة: "عليكم بالعدل فاتبعوه" (سفر التثنية، الأصحاح 16: 20) "والتمس السلام واسْعَ وراءه" (سفر المزامير، الأصحاح 34: 15)".

بالفعل، يرى معارضو الصهيونية أن ثمة ارتباطًا مباشرًا بين تصاعد الأحداث المعادية لليهود في كثير من البلدان في جميع أنحاء العالم وسياسة الحكومة الإسرائيلية. هكذا، فإن الادعاء الذي يقول بنمو معاداة السامية، ليس سوى بروباغندا كاذبة قوية.

وقد كتب الدكتور إسرايل مردخاي رابينوفيتش (Isreal M. Rabinowitch) في العدد الأول من الغارديان اليهودية (*The Jewish Guardian*) في نيسان/ أبريل 1974: "تُعلّم الصهيونية السياسية ولاء مزدوجًا، وعندما تكون هناك فرصة، فإنه يتم توجيه هذا الولاء إلى إسرائيل. ليست الصهيونية السياسية متسقة عندما يرتبط الأمر بالمواطنة الصالحة، بيد أنها تحمل بذاتها بذور نشر معاداة السامية.

إنها تجسِّد، ومنذ بدايتها، سياسة تهدف إلى التحريض على كراهية اليهود، ثم بعد ذلك يتحدث المرء وهو يُظهر الرعب، عن تبرير دولة يهودية. وهذا يتوافق تمامًا مع المكيافيلية".

نختم في النهاية بالتشديد على أن كثيرين من معارضي الصهيونية اتهموا، ومنذ البداية، الصهاينةَ بإحياء معاداة السامية. وإننا نرى هذه الاتهامات اليوم أشد إقناعًا، خاصة إذا ما وضعنا في الحسبان أن ساسة إسرائيليين، مثل شارون ونتنياهو وغيرهما، قد أقروا صراحة أنهم لا يخشون معاداة السامية، لا بل يرحبون بها، لأنها تدفع اليهود إلى أن يولوا وجوههم صوب إسرائيل.

خاتمة

ثمة كتلة مهمة من الصحافة الألمانية، خصوصًا تلك الصحف التي تعزى إلى مؤسسة النشر أكسل شبرنغر، تقف على نحوٍ غير نقدي وبولاء وقوة إلى جانب إسرائيل. والحال أن هذا الولاء الأعمى لإسرائيل الذي تتَّبعه مؤسسة أكسل شبرنغر يبدو كما لو أنه منقوش في حجر الغرانيت في مبادئها الأساسية، ويُعتبر أهم تركة لها، حتى إنه يتوجب على كل موظفٍ جديدٍ لديها إمضاء ذلك. والمحرر الذي يعمل في المؤسسة ولا يلتزم هذا الولاء يُقال من عمله مباشرة. أما بقية المؤسسات الصحافية فربما لا تكون على هذا النحو من الالتزام، بيد أنها لا تقلّ أحادية. والحال أنه لا يكاد يكون لدينا صحيفة أو مراسل عنده الشجاعة لفعل ما يجب على الصحافة القيام به: تحليل الحكومات وسياستها، ونقدها على نحو موضوعي، بل أيضًا نقدها على نحوٍ شديد ومن دون هوادة. لماذا إذًا يجب استثناء إسرائيل من هذا النقد [خاصة في ألمانيا]؟ ولنعلم أن في إسرائيل نفسها يحدث نقد مماثل من أقلام مرموقة مثل جدعون ليفي وأوري أفنيري وعميره هاس وآخرين.

ولا يختلف الأمر في سلك القضاء. ونضرب هنا مثالًا يتعلق بحرية التعبير: في وقت حكمت فيه المحاكم في كلٍّ من فرانكفورت وميونيخ لمصلحة الدستور، أعلنت محكمة برلين في 10 أيار/مايو 2017 وباسم الشعب حكمًا مناقضًا لذلك تمامًا بأن حرية التعبير في ألمانيا لها حدود في ما يرتبط بمصالح إسرائيل. حيث تقدمت غيزيلا زيبورغ (Gisela Siebourg) بشكوى ترتبط بحدوث فعالية أرادت تنظيمها في رحاب مؤسسة كاثوليكية في إطار فعاليات أيام

القاهرة في برلين وفي أثناء فعاليات كنسية بعنوان "خمسون عامًا على الاحتلال الإسرائيلي؛ ينبغي ألا نبقى صامتين". وبالفعل، فقد وقَّع الطرفان المعنيان العقد [من أجل حجز المكان] بغية تنظيم هذه الفعاليات في 13 حزيران/ يونيو 2016. لكن، قبل وقتٍ قصيرٍ جدًّا من موعد الفعالية، أعلنت الهيئة الكنسية في 30 آذار/ مارس 2017 عن انسحابها من العقد المبرم بينهما. فقد خشيت، كمؤسسة كنسية، من إلحاق الضرر بسمعتها وسمعة الكنيسة الكاثوليكية في برلين أمام الفضاء العام، فيما لو سمحت بإقامة هذا الحدث في إحدى قاعاتها، في أثناء فعالياتها الكنسية في برلين.

إن أمرًا كهذا ليس بالجديد؛ فغالبًا ما يحدث أن تنسحب مدن أو جمعيات أو جامعات وليس أخيرًا مؤسسات كنسية من عقود مبرمة. بيد أن المثير للاهتمام في هذا السياق هو التبرير الذي قدَّمه أحد القضاة الذي رفض الشكوى المقدمة [من زيبورغ]، بل أعاد تقريبًا ما قالته الكنيسة التي قُدمت ضدها الشكوى: "إن موضوع فلسطين بالنسبة إلى الكنيسة هو موضوع محايد وتسعى فيه الكنيسة أن تأخذ موقف التوسط. كما أن عنوان الفعاليات نفسه يشير تحديدًا إلى "الاحتلال الإسرائيلي" وينادي بمواجهته، وهو الأمر الذي يعني في هذا الصراع اتخاذ موقف لمصلحة أحد الأطراف المتنازعة. وهذا لا يمثِّل موقف الكنيسة من الصراع، بل يُصدر على مستوى التأثير الخارجي موقفًا للكنيسة معاديًا لإسرائيل - في الأقل على نحو مجرد - حتى وإن كان ذلك عن غير قصد".

في الحقيقة كان على المحكمة أن تقرر فحسب في ما إذا كان الطلب المستعجل للكنيسة مقبولًا ومبررًا. وعلى الرغم من وجود هامش إلى حدٍّ ما في التقييم هنا، وبالفعل، فقد نظرت القاضية في فرانكفورت على نحو مختلف في الأمر باستخدامها حججًا جيدة، لكنهم في برلين لم تكن لديهم الرغبة لاستخدام هذا الهامش.

لقد توجب قراءة النص مرتين أو حتى ثلاثًا للتأكد من فهمه على نحو صحيح. أما السبب لذلك فقد كان مخزيًا بشكل لا يصدق. والحال أنه كان

يجب أن تشعر الكنيسة الكاثوليكية بالخجل وأن تعترض بصوتٍ عالٍ بأنها تابعة لمرؤوسيها، وليست تعارض الظلم بل تخفيه وتتسامح معه. وأعلم أن هذا ليس رأي جميع الشخصيات البارزة في الكنيسة الكاثوليكية، بيد أنه من الواضح رأي إدارة الكنيسة في برلين. وهنا يجب على المرء أن يتساءل لماذا يجب ألّا تكون للكنيسة "وجهة نظر" في المواجهات والجدالات بشأن الاحتلال وإخضاع شعبٍ آخر. فما هي إذًا وجهة النظر التي تحملها الكنيسة الكاثوليكية؟ هل موقفها ووجهة نظرها دائمًا إلى الجانب القوي؟ وهل يوافق البابا على هذا أيضًا؟ للأسف، يجب دعوته ليكون شاهدًا على هذا النزاع.

ما يدعو حقًّا إلى الأسف أن كثيرًا من بقع العالم يجب على المرء اتخاذ موقف بشأنها، وفلسطين هي إحدى هذه البقع. لكن القول إنه ليس لديكم وجهة نظر، فهذا بعينه وجهة نظر، وتحديدًا وجهة النظر الخاطئة.

كتب الشاعر اليهودي هاينرش هاينه قبل 200 عام: "أن أفكر في ألمانيا في الليل، يعني أن أفقد النوم"؛ وقد كان هذا الشاعر مطاردًا من الرقابة، وفي النهاية هرب إلى باريس، وأمضى بقية حياته هناك بحرية. بيد أنه لا يتوجب عليّ من جهتي الفرار للتعبير عن رأيي بحرية، خاصة أنني أخشى أن الدعائيين مروجي السياسة الإسرائيلية سيسدون أيضًا أفواهنا هناك.

فهل نريد أن يُملي علينا هؤلاء الأيديولوجيون المتزمتون كيف نفكر وما يسمح لنا بقوله وأيّ فعاليات يُسمح لنا بإقامتها؟ حقيقة إنني لا أفهم كيف تكون معاديًا للسامية في حفل خيري لأطفال غزة، كمثل ذلك الحفل الذي ألغي مؤقتًا في مدينة ميونيخ في صيف 2016.

من المسموح لبرودر والمتطرفين الآخرين معه استخدام جميع المنصات. بينما نحن نُشتم وتشوَّه سمعتنا من طرف هؤلاء الأشخاص، هذا فضلًا عن أن المحاكم والرأي العام، اللذين يتوجب عليهما حمايتنا، يفشلان في ذلك. كيف يمكن أن يسمح قاضٍ في ألمانيا لمحرضٍ ومفترٍ، مثل برودر، بوضعي أنا وهايو ماير الذي نجا من الهولوكوست، بكل جدية إلى جانب أدولف هتلر؟ وكيف يُسمح لشارلوت كنوبلوخ أن تدّعي علانية أنني شخصٌ "معادٍ للسامية سيئ

السمعة" من دون احتجاج من الصحافة أو الرأي العام على ذلك؟ هناك بالفعل أقلية صغيرة عدائية وعديمة الضمير ومخزية تستخدم ما كفله لنا الدستور في حرية التعبير من أجل حرمان الآخرين من حرية التعبير فحسب؛ أما الأغلبية فإنها صامتة حيال ذلك. هذا الأمر غير مسموح به.

عندما يقوم شخصٌ بما كنتُ أقوم به لسنواتٍ طوال، وما زلت، وتحديدًا بانتقاد السياسة الإسرائيلية، ربما يحصل أحيانًا من الجهة الخطأ على الثناء، لكن أيضًا على الكراهية من الجانب اليهودي الموالي لإسرائيل أو الصهيونية المتطرفة. أحمدُ الرب حقًا أن جهاز حاسوبي يحوي مفتاحَ الحذف كي أحذف الرسائل الإلكترونية التي تصلني من مجهولين أحيانًا، كما هذه الرسالة التي تقول لي: "ملتسر، إلى أي مدى ترغب فعليًا في السقوط. وعلى عكس برودر، سيكون والدك، الذي لن تصل إلى مستواه أبدًا، غاضبًا إذا ما كان بعد في قيد الحياة. أنت شخص فاشل. ولكن ماذا يمكن إسرائيل أن تفعله حيال ذلك؟"؛ أو كهذه الرسالة: "ملتسر، فادر أبراهام، من بين جميع المهووسين كارهي اليهود في العالم الناطق بالألمانية يذرف دموع التماسيح الكبيرة على إرهابي عربي ميت؛ أما اليهود المقتولون فيجتازون إلى الأمام هذه المسألة المثيرة للاشمئزاز مطمئنين غير مبالين". هذا "الصديق لإسرائيل" وأمثاله يرون أنني منافق لعدم بكائي على المستوطنين والعنصريين المقتولين، لأنني في الحقيقة لا أرغب في ذرف دموع التماسيح. لكنني بالطبع أبكي على الإسرائيليين الأبرياء مثلما أبكي كذلك على الفلسطينيين الأبرياء المقتولين الذين يجري وصمهم كلهم بأنهم "إرهابيون عرب". لقد تعلمت أن أتجاهل هذه الإهانات عند أدنى مستوياتها؛ وهذا ما يُغضب أولئك الذين يتفوهون بهذه الحماقات بمعظمهم.

لكن ما عسى المرء القيام به حينما يرسل شخص يعرِّف نفسه بالحرفين ر. ل. (R. L) رسالة من هاتفه المحمول إلى صحافي مقيم في مدينة بريمن، اسمه آرن شتروماير (Arn Strohmeyer) وفيها: "أنت شخصٌ قذر معادٍ للسامية. احترس دائمًا عند السير في الشارع". طبعًا ليست هذه رسالة إهانة بل تهديدٌ واضح. والشخص نفسه كتب لي: "إنك تتصرف منذ سنوات مثل أدولف [هتلر]، إنك شخصٌ نازي". والملاحظ أن هذا الشخص يتلقّى دروسه من برودر.

لقد تكرر الأمر نفسه أيضًا مع آخرين مثل الصحافي ومشغِّل الموقع الإلكتروني "بوابة فلسطين" (Das Palästina-Portal) إرهارد أرندت (Erhard Arendt) الذي تلقّى مكالمة هاتفية وبلغوه: "أين أنت يا إرهارد، سنطلق النار عليك عند مدخل بيتك في شارع باولينن، أنت شخصٌ أحمق"؛ أو "هرمان وأرندت اطعنوهما، اطعنوهما، اطعنوهما"؛ أو "لقد انتهت المرحلة الأولى والثانية يا إرهارد؛ لقد وصلنا الآن إلى المرحلة الثالثة، أي إننا سننهي وجودك!".

في النهاية، ينساق مؤيدو السياسة الإسرائيلية دائمًا وعلى نحوٍ متزايد صوب اليمين ويفعلون ما يتهمون به ناقدي السياسة الإسرائيلية: أي استخدام المقارنات بالنازية والانغماس في التخيلات التهويمية الممتلئة بالعنف. وهذا بالضبط ما قام به برودر وما يقلده به آخرون. وهو أمر يجب اتخاذه على محمل الجد.

ملاحق



الملحق (1)

مجموعة فرانكفورت اليهودية

أعلن عدد من اليهود الألمان في خطبة تحية وجُهت إلى المشاركين في التظاهرة في بون، تضامنهم مع الفلسطينيين:

لقد اشتدت في الأسابيع الأخيرة الإجراءات القمعية المستمرة من السلطات الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني. والسبب المباشر لذلك هو محاولة استبدال ممثلي البلديات المنتخبين للفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة بنظام احتلال غاشم. وهذا ما تتم التغطية عليه بما يسمى "الإدارة المدنية" التي تتجسد مهمتها في تسريع عملية ضم الأراضي التي تتبعها سياسة الاستيطان. وهذا يجسِّد سياسة تؤدي إلى التمييز والمصادرة والقمع وفي النهاية طرد الفلسطينيين.

إننا، وبصفتنا يهودًا، نشعر بمسؤوليتنا للتحدث ضد هذه السياسة الإسرائيلية.

ونتضامن مع الشعب الفلسطيني في كفاحه ضد سياسة القمع الإسرائيلية وفي سبيل استعادة حقوقه.

إننا نعتقد أنه من دون الاعتراف بالحقوق الجماعية للشعبين العربي الفلسطيني واليهودي الإسرائيلي (بما في ذلك تقرير المصير)، لا يمكن ضمان

عودة السلام إلى هذه المنطقة ولا حتى نجاة من يعيش هناك، بصرف النظر عن أصله.

الموقعون:

Micha Brumlik, Susann Heenen, Moische Postone, John Bunzl, Armando Koziner, Chana Salomon, Daniel Cohn-Bendit, Cilly Kugelmann, Gabriel Schor, Dan Diner, Martin Löw-Beer, Mosche Speier, Amichai Dreyfus, Dalia Moneta, Sammy Speier, Martin Vingron.

الملحق (2)

"النكبة" في مدينة بريمن

بريمن: ضجة بشأن معرض "نكبة" طرد فلسطينيي 1948،

كتابة: سونكه هوندت (Sönke Hundt)، جريدة يونغي فلت، 13/ 2/ 2015

لقد أدى المعرض الذي يحمل عنوان "النكبة: اللجوء وطرد الفلسطينيين في عام 1948" الذي يعرض في المكتبة المركزية في بريمن من 18 شباط/ فبراير إلى 17 آذار/ مارس إلى جدالات حادة، خاصة تلك التي جرت وراء الكواليس. وكان رئيس البلدية ينس بورنزن (Jens Böhrnsen) قد صرح يوم الثلاثاء خلال الجلسة العامة لبرلمان بريمن في مقابل استفسار ممثل حزب الاتحاد المسيحي الديمقراطي (CDU) أنه لا يمكن منع المعرض من خلال الوسائل القانونية. وفي الواقع، فقد كان هناك كثير من المحاولات في هذا الاتجاه [أن يتم المنع بشكل قانوني]، ولا سيَّما من جانب المجتمع الألماني - الإسرائيلي (DIG) والجالية اليهودية. وهناك أيضًا مجموعة تنتمي إلى ما يسمى الفضاء المعادي لألمانيا (وهي، بالمناسبة، مجموعة تطلق على نفسها "C3" وأعضاؤها مجهولون) صرحوا في الإنترنت وطالبوا بـ "ألَّا تقدِّم أيُّ منصة عامة لمعادي السامية المتمردين لمدينة بريمن".

ويؤكد ديتلف غريشه (Detlef Griesche)، رئيس الجمعية الألمانية الفلسطينية، لجريدة يونغي فلت "بُذلت محاولات خفية لمنع المعرض". ونظرًا

إلى عدم نجاح ذلك، فقد كان الشعار الجديد هو "الصمت". فلم يُنشر إلى الآن سوى مساهمة واحدة في جريدة تاغستسابتونغ تحت عنوان "معاداة السامية". ووفقًا لغريشه كان هناك يوم الأربعاء مؤتمر صحافي لم يكن فيه أيُّ ممثل إعلامي. لقد أراد منظمو المعرض (بما في ذلك منتدى بريمن للشرق الأوسط، ومنتدى السلام، ومنظمة العمل للشرق الأوسط (AK Nahost)، والمجتمع الألماني-الفلسطيني، واللجنة الإسرائيلية لمناهضة هدم المنازل) أن يسحبوا مبكرًا البساط من تحت أرجل من ينتقد أن المعرض يمثِّل نظرة أحادية الجانب. هكذا، فقد دعيت الجمعية الألمانية الإسرائيلية لتقديم وجهة نظرها في لوحي عرض في قاعة المعرض بشأن أحداث "النكبة" ولتسمية ممثلين خاصين اثنين لمناقشة كبيرة - بإدارة إذاعة بريمن والمذيع ثيو شلوتر (Theo Schlüter) - في قاعة المكتبة المركزية في 4 آذار/ مارس.

افتتحت المعرض في 18 شباط/ فبراير السفيرة الفلسطينية خلود دعيبس (برلين) ورولف فرليغر (لوبك). وقد سئل رئيس البرلمان كريستيان فيبر (Christian Weber) إذا كان يود الترحيب بالسفيرة. ووفقًا لغريشه أيضًا كان رده "أنه لم يكن لديه وقت". ورغم ذلك، فقد كان هناك في كثير من الفعاليات المصاحبة كثيرون من المتحدثين المشهورين (بمن في ذلك المؤرخ إيلان بابيه وجف هالبر من اللجنة الإسرائيلية لمناهضة هدم المنازل)؛ وإضافة إلى هذا، فهناك أيضًا برنامج سينمائي متنوع في "كينو 46" (Kino 46) [مركز اجتماعي وترفيهي]، وحفل تضامني في قاعة استوديو مدينة بريمن بعنوان "موسيقى عالمية من أجل السلام" مصحوبة بـ "أوركسترا الشباب السمفونية بريمن - نورد" بقيادة مارتن لنتس (Martin Lenz)، هذا فضلًا عن حضور كثير من الضيوف الدوليين.

الملحق (3)

إعلان سلام برلين (شالوم 5767)

يعيش الشعبان الإسرائيلي والفلسطيني منذ عقود من الزمن جارين. وهناك كثير من الفرص للتعاون والتنمية بينهما. لكن بدل السير في هذا المسار نجد أن حياتهما يتم تسميمها بالحرب والعنف والتهديد والإرهاب والكره المتبادل والازدراء وعدم الاحترام.

الذنب الأساسي في هذا يعود إلى الاحتلال الإسرائيلي المستمر للأراضي الفلسطينية منذ عام 1967 والذي لم يعنِ سوى المهانة وحرمان الفلسطينيين من الحقوق. وفي الواقع، فقد شلّ الاحتلال حياتهم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وفضلًا عن ذلك، منع هذا الظلم الذي يعيشه الفلسطينيون يوميًّا من إحداث تعويض سلمي للظلم القديم الذي حلّ بالفلسطينيين منذ طردهم في عام 1948. وهذا بالضبط ما يساهم في استمرار دوامة العنف.

لقد حان الوقت لخرق هذا المسار المغلق وتمهيد الطريق لإيجاد حل سلمي دائم من شأنه:

- تمكين الشعب الفلسطيني من العيش حياة كريمة يقرر هو فيها مصيره؛

- وأن يضمن وجود كلتا الدولتين في حدود معترف بها دوليًّا؛

- خلق حل سلمي دائم يهدئ المنطقة بأسرها، وهو من شأنه جعل العالم كله يعيش بسلام وأمان أكبر.

إن كلًّا من المجتمعين، الإسرائيلي والفلسطيني، يحوي، ومنذ فترة طويلة، أصواتًا تدعم التفاهم. وما زالت "اتفاقية جنيف" تقف بمنزلة المثال الرائد على هذا (www.genfer-initiative.de). بيد أن هذه الأصوات تحتاج إلى الدعم.

مع ذلك، فليس هناك سوى القليل من الدعم الذي يأتي من ألمانيا. وهناك سبب لذلك: فقد انتهى مع هزيمة ألمانيا النازية قبل 61 عامًا القتلُ الجماعي ليهود أوروبا بقيادة الألمان. والحال أن العار والحزن بسبب هذه الجريمة قد أديا بكثير من الناس إلى أن يصمتوا تجاه سياسة دولة إسرائيل اليهودية. بيد أن هذا الصمت نفسه يسمح بنشوء ظلم جديد. هكذا، وبغية الخروج من هذا الوضع المتجمد، قمنا نحن اليهوديات واليهود من ألمانيا، بإصدار هذا البيان وتوقيعه (كموقعين أساسيين). حيث إننا نرى بكثير من الخوف كيف أن دولة إسرائيل، التي قامت مع آمال كبيرة، قد أدخلت نفسها في طريق مسدودة للعنف.

إننا نحث الحكومة الألمانية والاتحاد الأوروبي على:

- التوقف عن التسامح مع سياسة الاحتلال الإسرائيلي؛
- إنهاء مقاطعة السلطة الفلسطينية في غضون مهلة قصيرة؛
- وأخيرًا السعي الجاد لتحقيق دولة فلسطينية قابلة للحياة، في غزة وكامل الضفة الغربية المحتلة منذ عام 1967، بما في ذلك أيضًا القدس الشرقية، مع السيادة الكاملة وحرية الحركة.

وبهذا ستكون هناك ترتيبات لخلق وضع آمن لدول المنطقة، ولا سيَّما بالنسبة إلى إسرائيل، التي تشعر أنها مهددة، وكذلك لجيرانها. أما المسائل المتعلقة بحق العودة للفلسطينيين الذين طردتهم إسرائيل في عام 1948 فيمكن حلها باتفاقات متبادلة، إذا ما قامت إسرائيل كمؤشر على استعدادها للمصالحة بوصف طرد [الفلسطينيين] بالظلم. كما أن وضع القدس كعاصمة لكلا الدولتين يمكن كذلك أن يتوضح. وثمة اقتراح من الجامعة العربية للاتفاق مع إسرائيل، لذلك فإن الطريق إلى السلام ليست بالأمر البعيد.

وكان الحاخام هيليل قد لخص جوهر اليهودية منذ ألفي عام حينما قال: "تجنب أن تتصرف مع الآخر بفعل لا ترغب أنت في أن يفعله بك". وهذا يجب أن يكون المبدأ الموجّه أمامنا للعمل الإنساني اليوم، وحتى أيضًا للعمل السياسي.

الموقعون الأساسيون على إعلان سلام برلين (شالوم 5767)

Vera Ansbach (Berlin), Ursula Ansbach (Berlin), John Attfield (Geschäftsführer, Buchholz), Dr. Hanna Behrend (Historikerin, Berlin), Dr. Friedel Beier (Rechtsanwältin, Berlin), Edna Bejarano (Sängerin, Hamburg), Esther Bejarano (Sängerin, Hamburg), Joram Bejarano (Musiker, Hamburg), Susan Berger (Berlin), Jutta Bergt (Rentnerin, Weil am Rhein), Judith Bernstein (München), Stacey Blatt (Duisburg), Sharon Blumenthal (Juristin, Köln), Prof. Dr. Y. Michal Bodemann (Soziologe, Berlin/Toronto), Iris Borchardt-Hefets (Biologin, Berlin), Marion Brasch (Journalistin, Berlin), Prof. Dr. Almut Sh. Bruckstein (Philosophin, Berlin), Tsafrir Cohen (Journalist, Berlin) Gerty Colden (Rentnerin, Berlin), Martin Colden (Maler, Berlin), Hilary Coleman (Ärztin und Übersetzerin, Düsseldorf), Ruth Czichon (Berlin), Marianne Degginger (Berlin), Prof. Dr. Wolfgang Edelstein (Bildungsforscher, Berlin), Ursula Epstein (Musikpädagogin, Aachen), Erica Fischer (Schriftstellerin, Berlin), Alfred Fleischhacker (Journalist, Berlin), Dr. Michael Fleischhacker (Biologe, Berlin), Bettina Fraenkel (Behindertenpädagogin, Berlin), Ruth Fruchtman (Autorin, Berlin), Kurt Goldstein (Ehrenvorsitzender Internationales Auschwitz-Komitee, Berlin), Werner Goldstein (Journalist, Berlin), Harri Grünberg (Politologe, Berlin), Kurt Gutmann (Berlin), Hella Händler (Berlin), Werner Händler (Berlin), Doreet Harten (Kuratorin, Berlin), Michal Kaiser-Livneh (Psychotherapeutin, Berlin), Schira Kaiser (Studentin, Berlin), Dr. Inge Lammel (Autorin, Berlin), Dr. Kate Leiterer (Biologin, Berlin), Angelika Levi (Regisseurin, Berlin), Gabriel Lévy (Psychologe, München), Dr. Oswald LeWinter (Autor, Seligenstadt), Dr. Erika Lifsches (Ärztin, Mühlheim/Ruhr), Dr. Edith Lutz (Lehrerin, Köln), Petra Mendelsohn (Bibliothekarin, Berlin), Abraham Melzer (Neu-Isenburg: Melzer Verlag), Gerhard Moss (St. Peter-Ording), Deborah Philips (freie Künstlerin, Berlin), Margalith Pozniak (Zahntechnikerin, Hamburg), Sara Reifenberg (Rentnerin, Berlin), Prof. Dr. Fanny-Michaela

Reisin (Informatik, Berlin), Michael Riese (Lehrer, Alsfeld), Dr. Ruth Rosenberg (Tierärztin, München), Rafi Rothenberg (Kameramann, Köln), RuthRürup-Braun (Innenarchitektin, Karlsruhe), Dr. Sonja Sager (Juristin, Berlin), Shelly Steinberg (Studentin, München), Dr. Klaus Sternberg (Lehrender, Berlin), Dr. Maria Striewe (Ärztin, Neuss), Richard Szklorz (Journalist, Berlin), Prof. Dr. Jochanan Trilse-Finkelstein (Germanist, Berlin), Prof. Dr. Ernst Tugendhat (Philosoph, Tübingen), Nora van der Walde (Lehrerin, Buchholz), Prof. Dr. Rolf Verleger (Psychologe, Lübeck), Dr. Susan Winnett (Literaturwissenschaftlerin, Hamburg), Dr. Andrea Zielinski (Anthropologin, Hamburg).

المراجع

Arendt, Hanna. *Eichmann in Jerusalem. Ein Bericht von der Banalität des Bösen*. München: 1964.

Begin, Menachem. *The Revolt: Story of the Irgun*. Steimatzky, 1977.

Benbassa, Esther. *Jude sein nach Gaza*. Hamburg: 2010.

Breaking the Silence: Israelische Soldaten berichten von ihrem Einsatz in den besetzten Gebieten. Berlin: Econ Verlag, 2012.

Broder, Henryk M. "Ihr bleibt die Kinder Eurer Eltern "und" Warum ich gehe." *Die Zeit* (27 February 1981).

______. Hurra, wir kapitulieren, wjs, 2006.

______ & Michel R. Lang (eds.). *Fremd im eigenen Land, Juden in der Bundesrepublik*. Frankfurt: Fischer Taschenbuch, 1979.

Brumlik, Micha. *Kein Weg als Deutscher und Jude*. München: 1996.

______. *Kein Weg als deutscher und Jude. Eine bundesrepublikanische Erfahrung*. Berlin: Ullstein, 2000.

______. *Kritik des Zionismus*. Hamburg: 2007.

Buber, Martin. *Politische Schriften*. Frankfurt: 2010.

Die Bibel, Übersetzung von Dr. Martin Luther.

"Die Mär vom liberalen Islam." *Die Welt* (26 June 2017)

Die Zeit. no. 10 (5 March 2015).

Faber, Klaus, Julius H. Schoeps & Sacha Stawski (eds.). *Neu-alter Judenhass. Antisemitismus, arabisch-israelischer Konflikt und europäische Politik*. Berlin: Verlag für Berlin-Brandenburg, 2006.

Finkielkraut, Alain. *Der eingebildete Jude*. München: 1982.

Flappan, Simcha. *Die Geburt Israels*. Neu-Isenburg: Melzer Verlag, 2005.

Flavius, Josephus. *Geschichte des Jüdischen Kriegs*.

Fleischmann, Lea. *Dies ist nicht mein Land, Hoffmann und Campe*. 1990.

Freie Jüdische Stimme. no. 3 (September 1979).

Fried, Erich. *Höre Israel*. Melzer Verlag Neu-Isenburg, 2005.

Grosbard, Ofer. *Israel auf der Couch. Zur Psychologie des Nahost-konflikts*. Düsseldorf: 2001.

Halper, Jeff. *Ein Israeli in Palästina. Widerstand gegen Vertreibung und Enteignung. Israel vom Kolonialismus erlösen*. Berlin: 2010.

Hart, Alan. *Zionismus gegen Judentum*. Zambon Verlag, 2015.

Herzl, Theodor. *Altneuland*. Leipzig: Hermann Seemann Verlag, 1902.

Honderich, Ted. *Nach dem Terror*. Neu-Isenburg: 2005.

"Israelis in Berlin. Wie viele und was zieht sie nach Berlin?." *Süddeutsche Zeitung*.

"Israelkritik oder Antisemitismus? Kriterien für eine Unterscheidung." *Kirche und Israel. Neukirchener Theologische Zeitschrift*. Heft 1 (2013).

Jüdischer Kalender, 2014-2015.

Kohlstruck, Michael & Peter Ullrich. *Antisemitismus als Problem und Symbol. Phänomene und Interventionen in Berlin*. Berliner Forum Gewaltprävention 52 (unter Mitarbeit von Franziska Paul und Jakob Quentin). 2. Korr. Auflage. Berlin: Landeskommission Berlin gegen, 2015.

Levy, Gideon. *Schrei, geliebtes Land*. Neu-Isenburg: 2005.

Lohmann, Hans-Martin. *Psychoanalyse und Nationalsozialismus. Beiträge zur Bearbeitung eines unbewältigten Traumas*. Frankfurt; Main: 1984.

Mansel, Jürgen & Viktoria Spaiser. *Ausgrenzungsdynamiken in welchen Lebenslagen Jugendliche Fremdgruppen abwerten*. Weinheim & Basel: Beltz Juventa, 2013.

Meyere, Hajo. *Das Ende des Judentums. Der Verfall der israelischen*. Melzer Verlag, 2005.

Mitscherlich, Alexander & Margarete Mitscherlich. *Die Unfähigkeit zu trauern*. München; Zürich: 1985.

"Nahost-Konflikte erreichen deutsche Schulhöfe." *Die Welt* (24 July 2017).

Neudeck, Rupert. *Ich will nicht mehr schweigen - über Recht und Gerechtigkeit in Palästina*. Neu-Isenburg: Melzer Verlag, 2005.

Ostrovsky, Victor. *Geheimakte Mossad. Die schmutzigen Geschäfte des israelischen Geheimdiensts*. München: Goldmann Verlag, 1996.

______. Der Mossad.

Pappe, Ilan. *Die ethnische Säuberung Palästinas*. Frankfurt; Main: 2007 (Neuauflage, 2014).

Ranan, David. *Die Schatten der Vergangenheit*. Nicolai, 2013.

Roth, Joseph. *Romane und Erzählungen*.

Sand, Shlomo. *Die Erfindung des jüdischen Volkes*. Berlin: 2008.

______. *Die Erfindung des jüdischen Volkes. Israels Gründungsmythos auf dem Prüfstand*. Berlin: Propyläen Verlag, 2010.

______. *Warum ich aufhöre, Jude zu sein. Ein israelischer Standpunkt*. Berlin: 2013.

Schreiber, Rainer. *Religion, Volk, Identität. Das Judentum in der Sackgasse des modernen Nationalismus*. Aschaffenburg: 2014.

Segev, Tom. *Die siebte Million. Der Holocaust und Israels Politik der Erinnerung*. Reinbek bei Hamburg: Rowohlt, 1995.

Semit. no. 4. Jahrgang 1989.

Strohmeyer, Arn. *Warum für Israel Frieden unmöglich ist*. 2014.

Uri, Avnery. *Israel ohne Zionisten*. München: 1972.

Weiss, Yfaat. "Ha'avara-Abkommen," in: Dan Diner (ed.), *Enzyklopädie jüdischer Geschichte und Kultur* (EJGK), Band 2 (Stuttgart/Weimar: Metzler, 2012).

Wild, Petra. *Apartheid und ethnische Säuberung in Palästina. Der zionistische Siedlerkolonialismus in Wort und Tat*. Wien: 2013.

de Winter, Leon. *Das Recht auf Rückkehr*. Diogenes, 2009.

Zuckermann, Moshe. *Israels Schicksal. Wie der Zionismus seinen Untergang betreibt*. Wien: 2014.

فهرس عام

ش

ص

ق

ك

ـــــــ ل ـــــــ

ـــــــ م ـــــــ

هـ

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies